يوسف بن يعقوب عليهما السلام

منهج جديد

لدراسة قصص الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم

على ضوء

التحدى القرآنى والتأويل المبين لوجوه الإعجاز

تأليف

احمد عز الدين عبد الله خلف الله

الطبعة الأولى

١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م

صور من تحدى القصص القرانى



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدلله الذى اصطفى من عباده رسلا مبشرين ومنذرين ، داعين إليه تعالى بإذنه ، ليخرج الناس بدعوتهم من الظلمات إلى النور .

وتبارك الذى أنزل على مصطفاه من عباده ، وخيرته من خلقه ، القرآن الكريم ، فيه تبيان كل شىء (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ، ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين - ٨٩) ١٦ : سورة النحل .

فيه آيات بينات تقص أحسن القصص : هدى وموعظة وذكرى للعالمين . (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) — من الآية (٣) سورة يوسف عليه السلام .

والقصص القرآنى منزه عما يبتغيه طلاب التسلية ، وهواة إشباع الخيال ، أو الراغبين فى الاستزادة من المعرفة الدنيوية : فهؤلاء ومن سلك مسلكهم ليس لهم من إدراك حقائق القصص القرآنى أى نصيب .

إن القصص القرآنى جزء لا يتجزأ من الرسالة وهو :

فى عرضه للحياة البشرية وبيان حقيقتها يحول دون تجزئتها تجزئة تؤدى إلى تشتيت الحقيقة وضياعها ، بوضع مقاييس ومعايير مزورة يقاس بها رقيها وانحطاطها ، وتقدم أهلها وتأخرهم . . .

وفى ربطه لحاضر البشرية بماضيها ومستقبلها ، وربطه الخالف بالسلف ، والأجيال الحاضرة ، بالأجيال الغابرة ، والحضارات القائمة بالبائدة : وتفصيله

لأسباب التقدم والتخلف ، الكمال والانحطاط ، النعيم والشقاء ، العمران والخراب ، الاستقامة والإنحراف . . .

وفى بيانه للمنهج الضرورى لاصلاح الحياة واستقامتها ، واللازم لتوفير أسباب السعادة للأمم والأفراد والمجتمعات ...

وفى تشريحه للصروح الدنيوية القاطعة عن الله تعالى ، المانعة دون سلوك سبيل الكمال ، مما يجعل المنتمين إلى هذه الصروح لايسلكون سوى السبل المرتبطة بالتعاسة والشقاء . .

وفى تفصيله لمقومات الحياة النقية الطاهرة المفضية إلى سعادة الدارين ، والتى توفر للإنسان أسباب الفوز والنجاة من مهاوى السقوط ، والتى توجه دائما نحو الكمال الأعلى بربط الإنسان فى جميع شئونه بخالقه عز وجل عن طريق اهتدائه بهدى النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم ، ذلكم الهدى المبين للصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله تعالى عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا . . .

وفى إعلانه للمسئولية الكاملة التى تتحملها البشرية من حيث تبليغ الأمانة للأجيال الحاضرة والمستقبلة كاملة غير منقوصة . . .

وفى ذكره لأحوال المؤمنين المخلصين لله تعالى ، المتبعين لهدى المرسلين ومقابلة ذلك بأحوال الذين ضيعوا الأمانة والذين لم يرعوها حق رعايتها .

إنه فى ذلك كله وفى غير ذلك مما لم يحط به علم العلماء :

إنما تتدفق منه وجوه الإعجاز تدفقا يبهر الأبصار ، إذ هو يكشف عن حقيقة الحياة وحقيقة المصير ، وحقيقة علاقة الإنسان بالله تعالى ، ويضع المشروعية العليا المنظمة للحياة المتكاملة السليمة ، ويبين حقيقة الدين القيم الذى دعا إليه الرسل والأنبياء ذلكم الدين الذى من دخله كان الله تعالى هو مشهوده ولم يكن له مطلب سوى مرضاته عز وجل : لذته فى المجاهدة فى سبيله تعالى بكل

ما يملك ، ونجاته في تعلقه بجنابه الأقدس تعلقا يحول دون تحكم زخرف الدنيا ومتاعها فيه وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .

فإذا كان هذا هو شأن قوم عرفوا قدر ما أنزل الله تعالى إليهم فجعلوه المشروعية العليا الحاكمة لجميع تصرفاتهم ، لا يقدمون على ذلك شيئا ، ولا ينحرفون عن ذلك أبدا ولو مزقوا إربا إربا ، وكان ذلك ديدنهم في جميع مظاهر الحياة سياسية كانت أم اقتصادية ، اجتماعية كانت أم ثقافية ، عسكرية أم مدنيه ... مثل هؤلاء لا يصدر عنهم إلا ما تقتضيه شعب الإيمان التي تحول بينهم وبين الفواحش ما ظهر منها وما بطن حياءا منه تعالى وخشية ، وشكرا له عز وجل وثناء عليه ... يكرهون أن يتعرضوا لسخطه تعالى وغضبه ، كما يكره الإنسان أن يلقى في النار .

ولا سبيل إلى ذلك كله إلا بمعرفته تعالى المعرفة التي تجعل المرء يؤثر خالقه عز وجل على كل شيء سواه ، ولا سبيل إلى هذه المعرفة النقية الصافية إلا بتلقيها عن الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين : تعالى الله سبحانه أن يعرف إلا عن طريق ما أنزله على رسله ... ومن هنا يظهر اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة من أرسلهم الله تعالى مبلغين لرسالاته ، والإيمان بهم واتباعهم وطاعتهم .

وطبقا لبيان المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم تقاس الأعمال وتقوم ، وتقدر الشخصيات وتوزن ، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلالة والعمى ، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة الضوء للعيون والأرواح للأبدان ...

ولما كانت مرتبة النبوة والرسالة هي أعلى مراتب الكمالات الإنسانية ، فإن الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم كانوا هم قمة الكمال الانساني وذروته ، والمثل العليا الهادية للبشرية إلى النجاة من ظلمات الانقطاع عن الله

تعالى ، قد صفت أرواحهم بإشراق أنوار الوحى الالهى عليهم، وبما أشهدهم الله تعالى من بديع آياته الكبرى ، ووهبهم من خزائن العلوم الاصطفائية ما جعلهم أهلا للسفارة بينه تعالى وبين خلقه ، لتبليغ الهدى الالهى لمن أمروا بتبليغهم، فضلا من الله ورحمة ، وكفاهم شرفا ما وصفهم به الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم من أنهم مصطفون وأنهم أخيار وأنهم محسنون ، وأنهم مخلصون وأنهم صالحون وأنهم صديقون وأنهم هداة (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين- ٧٣) ٢١ : سورة الأنبياء .

ومن كانت هذه علاماتهم وتلك صفاتهم ومميزاتهم وخصائصهم: فقد صانهم المولى القدير من كل ما يتنافى مع مرتبة الرسالة التى اختارهم سبحانه لها ، فلا يجوز لأحد أن يلحق بقصصهم ما لا يليق بمرتبتهم أو أن ينحرف به عن موضعه إبتغاء عرض الدنيا وهم الذين جاؤوا لإنقاذ البشرية من فتنتها ، وطغيان حبها والتدله فى عشقها ولا يفعل ذلك إلا ذو عقل قاصر أو جهل مركب ، أو نفس مريضة .

ولولا ما جاء فى الذكر الحكيم عن الأنبياء والمرسلين ، ولولا ما جاء فيه عن حقيقة النبوات والرسالات ما عرفنا عن هداة الإنسانية شيئا مذكورا .

(ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما — ١٦٤ — رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما — ١٦٥) ٤ : سورة النساء .

(كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا-٩٩- من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا — ١٠٠ — خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا — ١٠١) ٢٠ : سورة طه .

(ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص

عليك . وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله . فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون - ٧٨) ٤٠ : سورة فصلت .

والناس بعيدا عن الهدى القرآنى لم يتورعوا عن قياس النبوة والرسالة بمقاييس الحياة المدنسة الملوثة التى اعتادها الناس ... فلم يترددوا فى أن يسندوا إليهم كل ما ينكره العقل السليم ، وتعافه النفوس الطاهرة : وليت شعرى كيف يسندون النبوة والرسالة إلى من يرتكب من الجرائم ما تترفع عنه نفوس المجرمين ! !

ودراسة ما جاء فى القرآن الكريم من قصص الأنبياء والمرسلين فيه من وجوه الاعجاز ما لا يقع تحت حصر ، كيف لا وهم هداة البشرية الذين بدونهم لا تصح هداية ، ولا يصح كمال انسانى ولاتصح عبودية لله تعالى.

وقد دعونا إلى دراسة القصص القرآنى طبقا لهذا المنهج فى كتابنا (القرآن يتحدى)[١] ، ونذكر من هذه الوجوه :

ما يتعلق بتفصيل الدين القيم وحقيقة دعوة النبوات والرسالات ، وهى دعوة واحدة كما أن الدين واحد ألا وهو الاسلام (إن الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم . ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب — ١٩) ٣ : سورة آل عمران .

(أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ٨٣ — قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون — ٨٤ — ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين — ٨٥) ٣ : سورة آل عمران .

---

(١) القرآن يتحدى - للمؤلف — الباب الخامس، الفصل الرابع (التنبيه إلى وجوه جديدة للاعجاز ص ٢٤٣ ومابعدها .

(إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء . فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون — ٤٤) ٥ : سورة المائدة .

ومنها الوجوه المتعلقة بالكشف عن محترفى التزييف والتحريف فى دين الله تعالى لنيل لعاعة من الدنيا ، وبيان عظيم جرم هؤلاء ومواطن تحريفهم ، تحذيرا للناس من اتباعهم أو الانقياد إليهم ، فما يصح لأحد أن يضيف إلى الإسلام شيئا أو أن ينسب إلى النبوة ما لم يذكره الحق سبحانه ، وإن أى تحريف فى الدعوة أو تغيير فيها إنما هو افتراء على الله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون — ٢١) ٦ : سورة الأنعام .

(فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به . ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح . إن الله يحب المحسنين — ١٣) ٥ : سورة المائدة .

• ومن وجوه الإعجاز ما هو متعلق بتفصيل العقيدة الصحيحة السليمة المنجية وتشمل :

الوجوه المتعلقة بصحة تفسير الوجود .

والوجوه المبينة للكمالات الإلهية والأسماء الحسنى والصفات القدسية وهذا هو أساس العقيدة الخالية من التحريف والتبديل المفضى إلى عبادة غيره تعالى أو إلى الإشراك بالله سبحانه .

ومنها الوجوه المبينة للخصائص الذاتية للمخلوقات ليعلمها البشر فلا يعبدون من اتصف بها .

ومنها الوجوه المتعلقة بقذف الحق على العقائد الباطلة فإذا هى زاهقة ،

ولا يمكن لذى عقل سليم أن يمارى أو يكابر فى الاستسلام لهذه الآيات أو يتردد فى الانقياد إليها .

• ومن هذه الوجوه ما هو متعلق بتصحيح مسار المعرفة البشرية ويشمل:

— وجوه الاعجاز فى توجيه المعرفة إلى الله تعالى .

— « « فى ربط العلوم كلها بالله تعالى .

— « « المتعلقة ببناء العقل الصحيح السليم ليتحقق وجود عقول قرآنية موجهة للبشرية إلى الكمال الأعلى وتحول دون التردى فى مهاوى الهلاك .

• ومن هذه الوجوه ما هو متعلق بتحرير الإنسان من أغلال الصروح الدنيوية القاطعة عن الله تعالى وتشمل :

— الوجوه الواقية — من تكوين ارتباطات دنيوية مزيفة مفضية إلى تأسيس نظم دنيوية متكاملة داخل صرح دنيوى يسيطر على مصير الأفراد والمجتمع المنتمى إلى هذا الصرح، ويوجههم إلى ربط وجودهم به لا بالله تعالى، فيكون فى ذلك هلاكهم ودمارهم وتعاستهم وشقاؤهم .

— والوجوه المحررة للبشر من ظلمات الشرك التى تعتبر الركن الركين المفضى إلى الانحراف عند تأسيس أى نظام اجتماعى .

— والوجوه المتعلقة بحقائق النفوس وطبائعها والموجهة للبشر إلى خير الطرق وأنجعها لعلاج ما اعوج منهم كيلا يسقطوا فريسة لأهوائهم وأطماعهم ورغباتهم وشهواتهم دون وعى منهم ولا مبالاة، مما يؤدى إلى أنتشار العاهات النفسية كالبارانويا والنرجسية، والسلبية والأمراض الاجتماعية التى لا تقل عن ذلك فى خطورتها : كاللصوصية والنفاق والغش والرياء، والخداع وكلها تؤدى إلى مسخ النفس البشرية وضياعها .

• ومن هذه الوجوه ما هو متعلق بتوجيه البشر نحو الكمال الأعلى وتشمل:

— الوجوه المتعلقة بتفصيل شعب الإيمان اللازمة لربط المؤمن فى جميع شئونه بالله تعالى .

— والوجوه المفصلة للطرق الموصلة إلى التحقق بمراتب المخلصين والصالحين؛ للفوز بالمحبة والمعية والعندية الآلهية والخطاب الالهى .

— والوجوه المبينة لمراتب السعداء وصفاتهم وعلاماتهم وخصائصهم ولكل ماهو متوقف على كمال الاقتداء بالنبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ومن لم يعلم حقيقة المتابعة نقص إيمانه بقدر جهله بهذه الحقيقة الكاملة .

— والوجوه المبينة لدرجات الاشقياء وعلاماتهم ، وكيفية معاملتهم ، وطرق دعوتهم وأساليب هدايتهم .

• ومن هذه الوجوه ما هو متعلق بربط قصص النبيين والمرسلين بمن أنزل عليه القرآن الكريم صلوات الله وسلامه عليه وتشمل :

— الوجوه المتعلقة بتبشير الأنبياء به صلوات الله وسلامه عليه (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه . قال ، أقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا . قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين — ٨١ — فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون — ٨٢) ٣ : سورة آل عمران .

(وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) — ٦) ٦١ : سورة الصف .

— والوجوه المتعلقة بتثبيته صلوات الله وسلامه عليه والذين آمنوا معه :

(وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك . وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين — ١٢٠) ١١ : سورة هود .

— والوجوه المتعلقة بوعده صلوات الله وسلامه عليه بالنصر وإظهار الإسلام على الدين كله لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى .

هذه هى بعض وجوه الإعجاز التى تضمنها القصص القرآنى عن النبيين والمرسلين وأقوامهم ، مفصلا ذلك فى آيات هى (وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك فى وجوه الغيوب ، وأن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمى القلوب ، ومعان بينا هى عذوبة ترويك من ماء البيان ، ورقة تستروح منها نسم الجنان ، ونور تبصر به فى مرآة الإيمان وجه الأمان ، وبينما هى ترف بندى الحياة على زهرة الضمير ، وتخلق فى أوراقها من معانى العبرة معنى العبير ، وتهب عليها بأنفاس الرحمة فتنم بسر هذا العالم الصغير ، إذا هى بعد ذلك إطباق السحاب وقد أنهارت قواعده والتمعت ناره ، وقصفت فى الجو رواعده ، وإذا هى السماء وقد أخذت على الأرض ذنبها ، واستأذنت فى صدمة الفزع ربها ، فكادت ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ، وإنما هى عند ذلك زجرة واحدة : فإذا الخلق طعام الفناء وإذا الأرض مائدة)[1] .

وقد خصص هذا الكتاب لبيان قصة يوسف عليه السلام :

وقصته عليه السلام قد أفردت بسورة كاملة من سور القرآن العظيم هى سورة يوسف عليه السلام وهى السورة الثالثة والخمسون حسب ترتيب نزول السور المكية ، وهى الثالثة فى النزول بعد سورة الأسراء (ترتيب سورة الإسراء هو الخمسون) .

وهى من السور التى نزلت أيام[2] الشدة التى لاقاها رسول الله صلى الله

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب جـ٢ ، اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص٩ : ١٠

(٢) هذه السور من الاسراء (رقم ٥٠) إلى المطففين رقم ٨٦ فهى ٣٧ سورة وتواتر الوحى خلال الفترة السابقة للهجرة بثلاث سنوات يدل على مالاقاه صلوات الله وسلامه عليه من قومه خلالها ، كما يدل على العناية الإلهية العظمى به صلى الله عليه وسلم .

عليه وسلم بعد وفاة أبي طالب ووفاة أم المؤمنين السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها .

وعدد آياتها [مائة واحدى عشرة بلا خلاف وكلماتها ألف وسبعمائة وست وسبعون ، وحروفها سبعة آلاف ومائة وست وستون . وما فيها آية يختلف فيها .

[مجموع فواصل آياتها يجمعها قولك (لم نر) . منها آية واحدة على اللام : (قال الله على مانقول وكيل)[1] ومالها اسم[2] سوى سورة يوسف

(١) الآية ٦٦ من السورة

(٢) بعض سور القرآن الكريم لها أكثر من اسم ، عدا افتتاحها :

ففاتحة الكتاب لها ثلاثون إسما ، وسورة البقرة لها أربعة أسماء هى سورة البقرة ، وسورة الكرسى ، وسنام القرآن ، والزهراء .

* وسورة الأعراف : تسمى سورة الميقات ، وسورة الميثاق .
* وسورة الأنفال : تسمى سورة بدر ، لأن معظمها فى ذكر غزوة بدر وما جرى فيها .
* وسورة التوبة : لها ثمانية أسماء : منها : براءة ، وفاضحة المنافقين ، والبحوث ، (بفتح الباء) .
* وسورة الاسراء : تسمى أيضا سورة بنى إسرائيل .
* وسورة طه : تسمى أيضا سورة موسى .
* وسورة فاطر : تسمى أيضا سورة الملائكة .
* وسورة ص تسمى أيضا سورة داود عليه السلام .
* وسورة حم المؤمن وتسمى حم الأولى ، وسورة الطول .
* وسورة حم السجدة وتسمى أيضا سورة المصابيح .
* وسورة الجاثية وتسمى سورة الشريعة .
* وسورة محمد صلى الله عليه وسلم تسمى أيضا سورة القتال .
* وسورة الصف : تسمى أيضا سورة الحواريين .
* وسورة الملك لها سبعة أسماء منها المنجية ، والمخلصة ، والدافعة .
* وسورة (ن) تسمى أيضا سورة القلم .
* وسورة (الاخلاص) لها عشرون اسما : منها سورة الصمد ، وسورة التفريد ، وسورة المعرفة ، وسورة التوحيد ، وسورة الولاية .

لاشتمالها على قصته](١) .

و: بعد

فإن جميع مشاكل البشرية الكبرى وقضاياها نجدها مفصلة فى القصص القرآنى تفصيلا يبين للناس طريق الهدى من طرق الضلال .

فالقصص القرآنى :

هو السبيل الوحيد لمعرفة دعوة الأنبياء على حقيقتها .

وهو السبيل الوحيد لمعرفة الأنبياء والمرسلين — هداة الإنسانية إلى الكمال الأعلى — على حقيقتهم .

وبدون هذه المعرفة لا يصح إيمان ، ولا تصح هداية ، ولا يصح كمال ، ولا يستقيم نظام .

كيف لا : ولا سبيل إلى الكمال سوى طاعتهم واتباعهم صلوات الله وسلامه عليهم : (من يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا — ٦٩ — ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما — ٧٠) ٤ / سورة النساء .

كيف لا : ولا سبيل إلى الخالق سبحانه إلا بالاستقامة على دعوتهم :

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون - ٣٠ - نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون - ٣١ - نزلا من غفور رحيم - ٣٢ - ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين - ٣٣ ﴾ ٤١ : سورة فصلت .

﴿ إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم - ٦٢) ٣ / سورة آل عمران .

---

(١) الفيروز أبادى : بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ج ١ ص ٢٥٥ .

ولولا دعوة خاتم النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه ماعرفت البشرية عن حقيقة دعوة الأنبياء شيئاً . ولا عرفت عن حقيقة قصصهم شيئاً .

(تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون — ٦) ٤٥ : سورة الجاثية .

اللهم أرزقنا كمال أتباعه صلوات الله وسلامه عليه ، واجزه عنا خير ماجازيت به نبيا عن أمته يارب العالمين آمين ؟

أحمد عز الدين عبد الله خلف الله

(نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك
هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين — ٣)
١٢ : سورة يوسف عليه السلام

الباب الأول

من بيت يعقوب عليه السلام إلى بيت العزيز

(إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا
النبي والذين آمنوا والله ولى المؤمنين-٦٨)
٣ : آل عمران

الفصل الأول

المسلمون هم أولى الناس بإبراهيم وآل ابراهيم
عليهم الصلاة والسلام

ليس من قبيل المصادفة أن يحتشد الانبياء والمرسلون فى بقعة من الأرض تضم الهلال الخصيب وشبه الجزيرة العربية : وكيف يكون ذلك مصادفة وهذه البقعة تتوسط أكبر تجمع سكانى على الأرض ـ ممثلة قارات أوربا وآسيا وإفريقيا ـ كان العمود الفقرى للتاريخ البشرى .

كذلك ليس من قبيل المصادفة ظهور النبوات والرسالات فى الشعوب السامية ... ، وهذه الحقيقة لم تغب مطلقا عن الباحثين وعلماء الأديان والاجناس والاجتماع وجهابذة رجال الفكر ، وقد حاول غير الساميين منهم تجاهل هذه الخاصية أو دفنها ولكنهم فشلوا فيما حاولوه .

ولو تركوا العصبية جانبا ، وبحثوا الأمر بحثا علميا : لو جدوا أن للشعوب السامية مميزات وللشعوب الآرية مميزات وللشعوب الصفراء مميزات ، وأقرب هذه المميزات صلاحية لقبول الرسالات الآلهية هى خصائص الشعوب السامية .

ولنتأمل ناحية من النواحى لنرى مقدار التفاوت بين هذه الاجناس فيها: ألا وهى ناحية التسلط ودوافعه وما يتبع ذلك من آثار .

ان التاريخ يروى لنا أن موجات الدمار العاصفة كانت تخرج من آسيا

تحركها شعوب معينة ، وإن موجات الاستعمار المخربة كانت تخرج من أوربا لتطغى على شعوب العالم .

هذه الموجات لم يكن مصدرها الشعوب السامية ولكنها جاءت من أجناس آرية ومغولية .

نعم كانت هناك حروب سامية إلا أنها كانت فى الأعم الأغلب مطبوعة بطابع دينى أو بسبب متصل به .

وحتى تعلق غير الساميين بالله تعالى نجده فى معظم الأحوال تعلقا دنيويا يستغل فى الفتح والاستعمار والتخريب ! ! ولو تأمل الإنسان لوجد أن الإنطلاقة المسعورة فى تكالبها على الدنيا والتضحية بكل شىء فى سبيلها لم تنطلق إلا من الأجناس الأخرى .

ولا نريد أن نتوقف لشرح هذه النقطة وتفصيلها فهذا مما يحتاج إلى افراده بمؤلفات خاصة ، ولكن يكفى التنبيه لمن أراد البحث .

وليس من قبيل المصادفة أن الانبياء أبناء علات ، وأنهم أسرة واحدة لم تخرج النبوة منها حتى انتهت إلى خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

وقد اطلق على إبراهيم الخليل عليه السلام أنه أبو الأنبياء : إذ ما من نبى أو رسول بعده إلا وكان نسبه منتهيا .

(وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه . نرفع درجات من نشاء . إن ربك حكيم عليم — ٨٣ — ووهبنا له اسحق ويعقوب . كلا هدينا . ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون . وكذلك نجزى المحسنين — ٨٤ — وزكريا ويحيى وعيسى والياس . كل من الصالحين — ٨٥ — واسماعيل واليسع ويونس ولوطا . وكلا فضلنا على العالمين — ٨٦ — ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم — ٨٧ — ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده .

ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون - ٨٨ - أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ، فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين - ٨٩ - أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين - ٩٠) ٦ : سورة الأنعام .

(ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين - ٢٧) ٢٩ : سورة العنكبوت .

ففى ذريته عليه السلام كانت النبوة وكان الكتاب .

وليس من قبيل المصادفة أن يجمع الاخباريون على أن نور الرسالة كان ينتقل فى الأصلاب والأرحام الطاهرة وكان أهل العلم من أهل الكتاب لا يفوتهم إدراك ذلك ، والنبوة غنية عن أن تعتمد على إدراك هذا أوذاك لها. إذ أن نورها تلوح بشائره وتظهر دلائله لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، كيف لا وإن الأبرار الأطهار الأتقياء الأصفياء أهل المروءة لهم سيما تميزهم للعالمين عن الفجار العتاة القساة الذين لا رحمة عندهم ولا ضمير (والورد يمتاز بالسيما عن السلم) بشكله ولونه وطيب رائحته ... هذا فى الناس العاديين: فما بالك بالأنبياء والمرسلين وهم قمة الكمال الإنسانى ؟.

فما عمى عن رؤية أنوارهم إلا من كان فى قلبه مرض (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور[1]) .

وها هو العزيز حين اشترى يوسف عليه السلام قد لاحت له بشائر لم

---

(١) من الآية ـ ٤٦ ـ سورة الحج : ٢٢ : والآية بتمامها (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ـ ٤٦) .

يدرك سرها و بدت له فيه علامات لم يدر أنها هى نفس العلامات التى تلوح على من اختصهم الله النبوة والرسالة ، وهى التى أدهشت العزيز دون أن يعلم سر دهشته .

لقد شرفت هذه المنطقة من العالم بأنوار الرسالات : إذ كانت كل رسالة تدعم سابقتها ، كما أن نور الرسالة أعز من أن يناله من هب ودب ، وأسمى من أن يتفرق هنا وهناك ، فالصلاحية للرسالة تجعل الرسالة محصورة فى سلسلة معينة قابلة لتحمل هذه الأمانة التى يعجز عن حملها الخلق إلا من اصطفاهم الله تعالى واختارهم لتبليغها ، وإن هذا الحشد من المرسلين والنبيين كان يمهد لنور الرسالة الخاتمة للرسالات ويعد العالمين لاستقبالها : وها هو الخليل إبراهيم عليه السلام ـ أبو الأنبياء ـ يبشر الناس الرسالة الخاتمة إذ يهاجر إلى الجزيرة العربية ليضع فى أم القرى قواعد البيت العتيق ويترك هناك ابنه إسماعيل عليه السلام تمهيداً لظهور خاتم الأنبياء وقد خلد القرآن العظيم ما قام به الخليل عليه السلام ، كما خلد دعاءه الذى لا زال يسرى فى الأسماع إلى الأبد .

كل ذلك وغيره مما لا يحصى من الأمور المتعلقة بالنبوات والرسالات لا دخل فيه للمصادفة أبداً ، إلا عند من يصح عنده القول بأن الشمس تشرق مصادفة وتغرب مصادفة ، أو أن الأرض تنبت مصادفة وتجدب مصادفة .

وإن من يقول إن جهازا من الأجهزة قد تجمعت أجزاؤه مصادفة مثل الساعة أو التليفزيون أو الطائرة أهون بكثير ممن يدخل المصادفة فى شئون النبوة . ذلك لأن النبوة والرسالة شأنهما خطير ومرتبتهما أجل من أن يسند فيها شىء إلى عمل من أعمال الصدفة .

وننبه فيما يتصل بالنبوات والرسالات إلى الحذر من أن يقال هذا الشىء صغير وذاك الشىء كبير فكل ما يتصل بهذه المرتبة جليل كائنا ما كان .

وطوبى لعبد أدرك الأمور بالله تعالى فكان الله سمعه الذى يسمع به»

وبصره الذى به يبصر ونعوذ بالله تعالى من طمس البصائر وعمى القلوب فان ذلك يفضى إلى إنكار البديهيات وينتهى بالإنسان إلى التردى فى أحط دركات التعاسة والشقاء .

اللهم أرنا الحق حقا فنتبعه وأرنا الباطل باطلا فنجتنبه حتى لا نكون من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

المحاولات الاسرائيلية لاحتكار النعمة الالهية :

تركزت المحاولات الإسرائيلية فى الاستئثار بالنعمة الإلهية ، دون مبالاة بالوعد الإلهى ، ولا اتباع للهداية الإلهية ، يريدون أن يحجروا رحمة الله تعالى ، فلا تنزل إلا عليهم ، ولا تشمل أحدا سواهم . ويقسمون الوعد الإلهى بحيث لا ينال أحدا غيرهم (أهم يقسمون رحمة ربك . نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا . ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون - ٣٢) ٤٣ : سورة الزخرف .

ولا أدل على كذبهم وافترائهم من أن محاولاتهم هذه قد ظهرت فى عصر متأخر : إذ تدل القرائن على أنهم اتجهوا بصفة منهجية دينية وسياسية إلى استبعاد أبناء إسماعيل عليه السلام من وراثة الكتاب والنبوة منذ القرن السابع قبل الميلاد . وهذه الدعوى اقترنت فى نفس الوقت بأن هناك ذرية ممتازة لابراهيم عليه السلام تستأثر بنعمة الله تعالى (بالنبوة) دون سواهم . ومعنى ذلك أن الاسرائيليين قد اختلقوا دعوى لم يسمع بها أحد وما جاؤا بهذا الإفك إلا بعد موسى عليه السلام بمئات السنين ، إذ أن تدوين حوادث العهد القديم كان بعد موسى عليه السلام بعدة قرون .

(يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده . أفلا تعقلون - ٦٥ - ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون - ٦٦ - ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين - ٦٧) ٣ : آل عمران .

وما كانت هذه الدعوى لتوجد قبل ظهور دوافعها ومبرراتها التى دفعت إلى بث هذا الكيد ، ولذا نجد أن ظهورها قد اقترن بخشية الاسرائيليين من منافسة أبناء إسماعيل لهم وأن هذه المنافسة لم تكن فى تقدير الغيب أو التكهن بما قد يكون ، بل أنها حقيقة واقعة سواء فى الدين أو الدنيا : فمن ناحية الدين يزكيها انتساب العرب إلى إسماعيل عليه السلام ، ومن ناحية الدنيا يقويها كثرة الاسماعيليين وقوتهم وشدة بأسهم .

وللتهوين من شأن ذرية إسماعيل اتخذ الاسرائيليون الخطوات التالية :

(أولا) : شرعوا فى تحريف الوعد الذى تلقاه إبراهيم عليه السلام بحيث يتم استبعاد إسماعيل عليه السلام فلا يكون لذريته أى نصيب منه ! !

(ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون[1] على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به . فلعنة الله على الكافرين -٨٩- بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب . وللكافرين عذاب مهين - ٩٠ - وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما

---

(١) كان اليهود قبل البعثة المحمدية يستنصرون على أعدائهم بما عرفوا من صفات النبي الخاتم للانبياء ويتوعدونهم بأن دينه سيظهر على جميع الأديان. فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به بغيا أن ينزل الله تعالى الوحى على من يصطفى من عباده واستكبارا لخروج النبوة منهم وظهورها فيمن أختصه الله تعالى بها من ولد إسماعيل عليه السلام فاستحقوا غضبا على غضب ولهم عذاب مهين .

وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين - ٩١) : السورة التي ذكرت فيها البقرة .

(ثانيا) : أخفوا المصادر التي تكشف عن شمول الوعد الآلهي لذرية إبراهيم عليه السلام ومن بينهم إسماعيل عليه السلام . يدل على ذلك وجود مصادر يجري ذكرها في العهد القديم لم يبق لها أثر بين المراجع الاسرائيلية .

إذ من المعتاد في أسفار العهد القديم الاستشهاد بكتب[١] معزوة إلى الأنبياء من بني إسرائيل : وكلها غير موجودة : فمثلا نجد في إخبار الأيام الأول[٢] أن أخبار داود الملك مكتوبة في سفر أخبار صمويل الرائي ، وأخبار ناثان ، وأخبار جاد الراقي : وكلها لا وجود لها .

وأحال كتاب (أخبار الأيام الثاني) لمعرفة بقية أمور سليمان على وثائق أخرى[٣] وفي كتاب (الملوك الأول) أحال معرفة بقية أخبار ، عمري ، على سفر آخر[٤] .

والمراجع الاسرائيلية سكتت عن أمور ولم تستوعب أخرى في سجلاتها ومحفوظاتها ، مما لا يجيز اعتبارها حكما تاريخيا .

---

(١) يبلغ عددها نحوا من ثلاثين كتاباً .

(٢) الاصحاح ٢٩ : (٢٩ — وأمور داود الملك الأولى والأخيرة هي مكتوبة في أخبار صموئيل الرائي وأخبار ناثان النبي وأخبار جاد الرائي — ٣٠— مع كل ملكه وجبروته والاوقات التي عبرت عليه على إسرائيل وعلى كل ممالك الأرض) .

(٣) العهد القديم (أخبار الأيام الثاني) الاصحاح التاسع (٢٩ — وبقية أمور سليمان الأولى والاخيرة إما هي مكتوبة في أخبار ناثان النبي ، وفي نبوة أخيا الشيلوني ، وفي رؤى يعدو الرائي على يربعام بن ناباط) .

(٤) كتاب (الملوك الأول) الاصحاح السادس عشر (٢٧ - ونقية أمور «عمري» التي عمل وجبروته الذي أبدى أما هي مكتوبة في سفر اخبار الايام لملوك إسرائيل) .

(ثالثا) : عزوا إلى الآباء الأولين والأنبياء القدامى وإلى الله عز وجل تعالى عما يقولون علوا كبيرا ـ ما يرسخ عقيدة اختصاصهم بالحماية الربانية واستئثارهم بالعناية الآلهية مهما صدر عنهم .

(وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه . قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق . يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء . ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ـ ١٨ ـ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير ـ ١٩) ٥ : المائدة .

وما زالوا يضيفون إلى نغمة الطنبور حتى تصوروا إلها خاصا يملكونه يفعل لهم ما شاؤوه مهما كان ما يريدونه ، فكان ذلك سببا فى انعزالهم عن البشر وكراهيتهم لجميع الناس ؛ ورتب التلمود على هذه العقيدة ما شاء كهنتهم مما يتنافى مع مرتبة الألوهية وجلالها وقدسيتها .

وقد بين القرآن الكريم افتراءهم وظلمهم وبطلان دعواهم :

(قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ـ ٩٤ ـ ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ـ ٩٥ ـ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ـ ٩٦) ٢ : السورة التى ذكرت فيها البقرة .

رابعا : حاولت المصادر اليهودية قطع صلات إبراهيم عليه السلام بالحجاز :

هذا مع أن أخبار العهدين القديم والجديد تدل على أن أرض العرب فيما يلى فلسطين جنوباً ناحية سيناء والحجاز كانت وجهة كثير من الأنبياء فإبراهيم الخليل توجه إلى جيرار ، ويعقوب وآله إلى مصر وموسى توجه إلى مديان ولم يفتأ بنو إسرائيل حتى ظهور المسيح عليه السلام ينعون على أهل الشمال أنهم غير جديرين بالنعمة وينتظرون ظهورها دائما من برية الجنوب .

وبينما لا تغفل المصادر الإسرائيلية عن ذكر غربة إبراهيم عليه السلام فى حبرون ، وأنه اشترى مدفنه من الحيثيين ، فإنها تتعمد فى نفس الوقت الصمت عن رحلته عليه السلام إلى البيت العتيق ليرفع قواعده ، وهذا التجاهل إنما يقصد منه استبعاد العرب وحرمانهم من النعمة التى حباهم الله تعالى إياها، وقصر النبوة على بنى إسرائيل .

ولو كان فى وسع اليهود إنكار نسبة العرب إلى الخليل عليه السلام لفعلوا ، ولكنهم أدركوا أنهم لا حيلة لهم أمام علوم الأنساب والتاريخ والأخبار المتواترة المستفيضه التى حفظها تمسك العرب بأنسابهم: هذا التمسك الذى أصبح محور الحياة السياسية والاجتماعية عندهم ، مما جعل نسبة العرب إلى إبراهيم عليه السلام من الحقائق الثابتة التى يفرضها العلم والواقع على التاريخ .

ولو كانت هذه النسبة من مخترعات العرب لما اخترعوا نسبتهم إلى جارية وهم الذين يأنفون كل الانفة من هـذه النسبة ، ولكنها أصبحت شرفا لهم لاتصالها بالخليل عليه السلام ومبعث رضاهم .

ولما وجد اليهود أنهم أمام نسبة يستحيل إنكارها بل إن أية محاولة من هذا القبيل جديرة بإثارة الشك والاحتقار ، لذا سعوا فى اتجاه آخر لا يعتمد على الطعن فى هذه النسبة ولكن يجردها من قيمتها فطبخوا من الروايات ما شاؤا بقصد حصر النعمة فيهم ، بحيث لا يشاركهم فيها مشارك ، وما كانوا ليلجأوا إلى هـذا الأسلوب إلا لعلم أحبارهم بأن النعمة ستنتقل فى النهاية إلى العرب لتختتم بها النبوات والرسالات ـ فكانت هذه المحاولة منهم تزويراً أشد إفكا إذ يهدف إلى طمس حقيقة تعلو على كل محاولة بذلت وتبذل لتزييف التاريخ وتحريفه : —

وها هى دعوة الخليل عليه الصلاة والسلام تجلجل فى الكون أبد الدهر معلنة صدور دعوة الإسلام من أم القرى ومحل البيت العتيق لتقام الصلاة فى العالم إلى الأبد :

(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم - ١٢٧ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ١٢٨ . — ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم - ١٢٩) سورة البقرة .

﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ٣٧ - ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الارض ولا فى السماء - ٣٨ - الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحق . إن ربى لسميع الدعاء - ٣٩ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى . ربنا وتقبل دعاء - ٤٠) ١٤ : سورة إبراهيم عليه السلام .

وقد مرت خطة حصر النعمة فى بنى إسرائيل فى مراحل بدأت أولا: بحصرها فى أبناء اسحق عليه السلام، لإخراج اسماعيل عليه السلام منها ثم أخذوا فى تضييق دائرتها كلما شعروا بشىء من الخطر يهدد باستلاب النعمة منهم، فحصروها فى أبناء يعقوب عليه السلام؛ ولما انقسمت دولتهم إلى مملكة إسرائيل فى الشمال ويهوذا فى الجنوب قرر كهان الهيكل أن النعمة محصورة فى أبناء داود عليه السلام .

ولم تكن لهذه المحاولات الفاشلة من نتيجة سوى افتضاح شأنهم وظهور كيدهم ومكرهم للعالمين ، بل إن مسلكهم إزاء شعوب الارض جميعا أدى إلى انطوائهم على أنفسهم وشعورهم بغربتهم عن الناس فكان ذلك مدخلا إلى نبذهم أينما كانوا ، وها هى جميع الشعوب المسيحية فى كل مكان تطاردهم فى كل عصر وتطردهم من كل أرض؛ وماذاك إلا لافترائهم على الله تعالى وجرأتهم على رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم .

ابراهيم عليه السلام كان عربيا :

[ربما كان من المفاجآت عند بعض الناس أن يقال لهم إن إبراهيم عليه السلام كان عربياً وأنه كان يتكلم اللغة العربية ، ولكنها الحقيقه التاريخيه التى لا تحتاج إلى فرض غريب أو تفسير نادر غير ترجمة الواقع بما يعنيه . وإنما الفرض الغريب أن يحيد المؤرخ عن هذه الحقيقة لينسب إبراهيم إلى قوم غير قومه الذى هو منهم فى الصميم .

[وليس معنى هذا بالبداهة أنه كان يتكلم العربية التى نكتبها اليوم أو نقرؤها فى كلام الشعراء الجاهليين ومن عاصرهم من العرب الأقدمين ، فلم يكن فى العالم أحد يتكلم هذه اللغة فى عصر إبراهيم ، ولا فى العصور اللاحقة به إلى القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد .

[وإنما اللغة العربيه المقصودة هى لغة الأقوام التى كانت تعيش فى شبه الجزيرة العربية وتهاجر منها وإليها فى تلك الحقبة وقد كانت لغة واحدة من اليمن إلى مشارف العراق والشام وتخوم فلسطين وسيناء .

[ولقد عرفت تلك اللغة حيناً باسم اللغة السريانية غلطا من اليونان فى التسمية لأنهم أطلقوا اسم (اشورية) أو (اسورية)(١) على الشام الشمالية فشاعت تسمية (العربية) باسم (السوريانية) أو (السريانية)من المكان الذى أقامت فيه بعض قبائل العرب الوافدة من شبه الجزيرة منذ أقدم العصور قبل عصر إبراهيم بزمن طويل .

[واشتملت هذه اللغة السريانية فى بعض الأزمنة على عدة لغات لا تختلف بينها الا كما اختلفت لهجات القبائل العربية قبل الدعوه الاسلامية : ومن هذه اللغات : لغة آرام ، وكنعان ، وادوم ، وموآب ، ومديان ، وما جاورها فى

---

(١) اطلق الإغريق اسم (اسورية) على الأراضى الممتدة من الفرات إلى فلسطين.

الأقاليم الممتدة بين العراق وسيناء] [1]

وكل من له حظ من علم اللغات يدرك التقارب بين لغات ولهجات سكان شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين وبادية الشام .

ويذكر (Albright) أن اللغات السامية المشهورة حتى نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد هى : الأكادية (الاشورية البابلية) والسامية الشرقية والسامية الغربية وتنقسم الأخيرة إلى العربية الشمالية والعربية الجنوبية (المعينية والسبئية والأثيوبية)

وعند مطلع الألف الثانى قبل الميلاد لم يكن الفرق بين هذه اللغات يزيد على الفرق بين اللهجات العربية الأصلية .

وتثبت الدراسات اللغوية اشتراك اللغتين العربية والآشورية فى أداة التعريف وضمير المتكلم والغائب وكلمات النفى والنهى وتصريف الأفعال .

والتقارب بين اللهجات العربية القديمة لا يقاس بالمكان فقد يكون الشبه شديداً بالرغم من البعد المكانى ، وبالعكس قد يكون الاختلاف قوياً بالرغم من القرب المكانى ـ فاللهجة الحميرية تشبه اللهجة الآشورية مع أن الأولى ناحية اليمن والثانية فى شمال العراق ، بينما نجد أن اللهجة الحجازية قد تطورت من العربية القديمة إلى الآشوريه إلى الآرامية إلى النبطية إلى القرشية ، وهذا الارتباط بين أهل الحجاز وأبناء اسماعيل (النبطيين) أو (النباتيين) هو ارتباط حفظته لنا الأسانيد اللغوية والثقافية والأحافير والكشوف الحديثة .

والتوافق بين رواية النسابين وتحقيقات الأحافير يظهر جليا فيما يروى عن ابن عباس إذ يقول (نحن معاشر قريش من النبط)

---

(١) العقاد : أبو الأنبياء ص ١٦١ .

العبرية ليست مرادفة اليهودية :

من الأخطاء الشائعة ربط العبرية باليهودية حتى أصبحت مرادفة لها ، مع أنه ترادف لم يصح فى يوم من الأيام .

وقد أطلق اسم (العبرى) و (الابرى) و (الهبيرى) فى الألف الثالثة قبل الميلاد على قبائل رحل كانت تحترف الجندية ، وعمل بعضهم جنوداً فى الجيش السورى فى جنوب الجزيرة .[1]

وبهذا المعنى وردت كلمة (عبرى) فى حفريات تل العمارنة وفلسطين والعراق [ولما وجد اليهود وانتسبوا إلى إسرائيل كانوا هم أنفسهم يقولون عن العبرية أنها لغة كنعان ، ثم انطوت العبرية فى الآرامية التى غلبت على القبائل جميعا بين فلسطين والعراق مع اختلاف يسير بين الآرامية الشرقية والآرامية الغربية وأصبحت العبرية لهجة من لهجاتها تختلف بنطق بعض الحروف)[2].
والذى جعل العبرية مرادفة لليهودية مع أنها سابقة لها بزمن بعيد ، إنما هو اختيار اليهود لها لغة لهم ، ومحافظتهم على ذلك حتى الآن ، حتى أصبح استعمالها لغة للتخاطب من العلامات المميزة لهم عن سائر الطوائف أينا حلوا ، وأداة للتفاهم فيما بينهم لايفهمها غيرهم لاندثارها خارج محيطهم ، وهى فى اعتبارهم رمز لاختصاصهم بالنعمة دون غيرهم من العالمين .

النعمة الآلهية لاينالها الظالمون :

إن التفريط فى آيات الله تعالى وكتبه ورسله لقاء منفعة دنيوية بحتة ، وإن الاعتداء على الأنبياء وقتلهم ، كل ذلك لا يكون بحال مدعاة للتبجح باحتكار نعمة النبوة .

---

(1) Sir Leonard Woolley : Abraqam .

(٢) العقاد : أبو الأنبياء : ص ١٦٢ .

وإن نقص عهد الله تعالى وميثاقه لا يكون سبيلا للتعالى على الناس بشرف الوحى والرسالات : وإطلاق (شعب الله المختار) على المتصفين بهذا الظلم.

وأشد من هذا كله فساداً أن يرتكب فريق من الناس جميع هذه الموبقات ليخرجوا على العالمين بدعوى أنهم أصحاب الأثرة لدى الخالق سبحانه والمفضلون عنده على العالمين جميعاً ، الذين اختصهم الله تعالى بنعمته وعهده ، وقد علموا أن عهد الله سبحانه لا يناله الظالمون .

﴿ وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين - ١٢٤) ٢ سورة البقرة .

وقد بين القرآن العظيم مواقف اليهود إزاء الأنبياء والمؤمنين فى كثير من المواقف محذراً من إفكهم وتضليلهم وافترائهم على الله تعالى :

ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون - ٨٧ وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون - ٨٨) ٢ السورة التى ذكرت فيها البقرة .

ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم أتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون - ٩٢ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم . قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين - ٩٣) السورة التى ذكرت فيها البقرة .

(لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق -١٨١): ٣ :آل عمران

وقالت اليهود يد الله مغلولة . غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء . وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك

طغياناً وكفراً . وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة. كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله . ويسعون في الأرض فساداً. والله لا يحب المفسدين ـ ٦٤) ٥ سورة المائده .

﴿ لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون ـ ٧٠ وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم . والله بصير بما يعملون ـ ٧١) ٥ : سورة المائده .

﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ـ ٧٨ ـ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون ـ ٧٩ ـ ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا. لبئس ماقدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خـالدون ـ ٨٠ ـ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولـكن كثيراً منهم فاسقون ـ ٨١ ـ لتجدن أشد الناس عداوة للذين أمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ـ ٨٢) ٥ سورة المـائدة .

﴿ فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ـ ١٥٥ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما — ١٥٦ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولـكن شبه لهم . وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا أتباع الظن . وما قتلوه يقيناً — ١٥٧ بل رفعه الله إليه . وكان الله عزيزاً حكيما — ١٥٨ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ـ ١٥٩ ـ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً — ١٦٠ —

وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل . واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما - ١٦١) ٤ : سورة النساء .

إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيداً — ١٦٧ - إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا - ١٦٨ إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً . وكان ذلك على الله يسيرا - ١٦٩) سورة النساء .

إن ولاية الله تعالى إنما تكون لمن اهتدى بهدى المرسلين واقتدى بهم ، أما من انحرف عن سبيلهم واتخذ منهاجا غير شريعتهم فهو ليس من أتباعهم (ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون - ٢٣) ٩ سورة التوبة .

من آثار احتكار اليهود للنعمة دعوى الصهيونية العالمية فى فلسطين:

كان من نتائج هذه العقيدة الباطلة التى ورثها اليهود ، ما يقاسيه العالم اليوم من ادعاءاتهم المخزية فى فلسطين .. فما بال قتلة الأنبياء بالأمس يدعون ميراثهم اليوم؟! وما لهم يبكون على بيت سليمان ، وسليمان عليه السلام مما ارتكبوه براء !؟ وكيف يطلب المعبد من سعى فى خراب معابد الله تعالى(ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ، أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون — ١٧ - إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين — ١٨) ٩ : سورة التوبة .

وظن الجهلة أن القضية التى أثاروها بالنسبة لفلسطين هى قضية معضلة ، وما كانت يوماً معضلة تستحق التفكير لأن وجه الحق فيها أوضح من الشمس وليس فى حاجة إلى البحث والتنقيب للاهتداء إليه .

كل ماهنا الك أن هناك من يريد أن يطمس هذا الوجه بمسألة أخرى لادخل لفلسطين فيها : مسألة أخرى قد أتخذت من القضية الفلسطينية حصان طرواده لفرض الشيوعية بالقوة على العالم العربى تحت شعار تحرير الأرض التى بارك الله تعالى حولها .

فمن المحال أن يكون وجه الحق فى القضية الفلسطينية موضع جدل أو نقاش إذ لايجوز لقوم أن يخرجوا قوما من ديارهم بأية حجة أو دعـــوى كائنة ما كانت .

أما الوجه القبيح لهذه القضية فهو اتخاذ الامبريالية العالمية — وخاصة الشيوعية — هذا الموضوع ذريعة للسيطرة على الوطن العربى كله ، ومن هنا تعقدت القضية إذ اغترب أهلها عنها حتى أصبحت أعقد من ذنب الضب ، لأن الذين يلعبون بورقة فلسطين يظهرون شيئا وهم فى الحقيقة يسيرون نحو هدف لا علاقة له بالقضية مطلقا .

فالشيوعيون بحجة مساعدة العرب ضد إسرائيل ومن يساندها — مع أن الشيوعيين كان لهم القدح المعلى فى تأسيسها — قد وضعوا مخططا دقيقا لنشر الشيوعية فى العالم العربى تمهيدا للسيطرة عليه باسم تخليص العرب من الخطر الإسرائيلى . وتحت شعار المساعدات الوهمية أبرمت العهود وعقدت المعاهدات مع الشيوعيين ، وهى تسمح لهم بالتدخل فى صميم الشئون العربية سياسيا واقتصاديا وعسكريا وايديولوجيا وثقافيا ألخ ... وجاء الخبراء لا للتخلص من الخطر الإسرائيلى بل لاحكام قبضة الاستعمار الشيوعى على الوطن العربى ، واكتظت بلدان الوطن العربى التى وافقت على ذلك بالشيوعيين خبراء ومدنيين وعسكريين وفنيين وعملاء ومنظمى كوادر سرية وخلايا ... وأظهروا كل ما استطاعوا من الحماسة لتحرير المسجد الأقصى وهم لا يؤمنون بدين ، وفى غمرة حماسهم اتهموا من خالفهم من العرب بالخيانة ، وكأنهم أشد تحمسا لمصالح العرب من العرب أنفسهم ! !

وكلما تعقدت الأمور وضاق الخناق ضجت هذه البلدان العربية مطالبة بوضع النقط على الحروف: وتجاوباً مع مطالب هذه البلدان تجتمع الأحزاب الشيوعية لوضع هذه النقط بإصدار مزيد من البيانات والقرارات والتصريحات التى تعلن حقوق الفلسطينيين المشروعة فى بلادهم ! ويقترن ذلك بمطالبة روتينية لاسرائيل برد الحقوق لأصحابها. وكأن الأمر لازال يحتاج إلى مثل هذه الأمور !... وكانت اسرائيل تقابل ذلك باللامبالاة التى تستحقها لأنها كانت تنتظر هذه النغمة من ذلك الطنبور.

وبعد إعطاء هذه الحقنة المخدرة تستأنف عمليات استثمار القضية الفلسطينية لصالح الشيوعية بقصد السيطرة عن طريقها على العالم العربى : فأنشئت خلف هذا الستار الكوادر الشيوعية لا لضرب اسرائيل بل لترسيخ قواعدها . حتى أصبح الوجود الاسرائيلى يرتبط بالوجود الشيوعى فى العالم العربى وكأنهما توأمان ، وأصبح الشيوعيون يلبسون قميص فلسطين كلما هموا بتدمير ركن من أركان العالم العربى ، وكانت النتيجة هى تضخم البلاء الاسرائيلى ، وانكماش المجهودات العربية المناسبة للتخلص من هذا البلاء وإزالته ، ونجحت الشيوعية فى قطع صلات العالم العربى بالعالم كله ما عدا الكتلة الشرقية لتصبح لها حرية التصرف فى العرب بلا منازع ، كما نجحت فى تقسيمه بحسب النظم إلى قسمين : أحدهما موال للتقدمية — الشيوعية — والآخر معادلها ! ونادى العملاء بجرأة بأن طريق تحرير فلسطين يجب أن يمر بالكرملين ويصدر عنه ، واتهم كل من لا يتجه هذا الاتجاه بالخيانة العظمى ! ودبرت له الاجراءات اللازمة لإلصاق هذه الجريمة به رسميا — واتجهت السياسة الحمراء إلى المحافظة على بقاء القضية الفلسطينية بدون حـــل لأن حلها يعنى إنهاء الوجود الشيوعى ، وتقويض الحكومات الموالية له ، وأصبح منطق الشيوعية صريحا بأن حل القضية الفلسطينية يبدأ أولا بالقضاء على الامبرياليه أينما كانت ! ويعنون بذلك الكتلة الغربية ، والاطاحة بجميع الحكومات العربية التى لا تعتنق التقدمية — الشيوعية !

وكرسوا جهودهم وعبأوا صحفهم، ومؤلفاتهم، وتنظيماتهم وكوادرهم للضرب على هذه النغمة، ليعتقد كل مغفل أن حل القضية الفلسطينية من المحال ما لم يتجه العرب إلى الشيوعية! ووجدوا من الجهلة من صدقهم وانضم إلى معسكرهم فأساء هؤلاء إلى قضيتهم وإلى عروبتهم. وتمكنت الشيوعية عن طريق هذه السياسة المزدوجة من تفجير ما لا يقل عن ثلاثين ثورة فى آسيا وافريقيا عن طريق البلدان العربية الموالية لها كما تمكن الساسة الحمر من جذب هذه البلدان إلى الانفاق على هذه الثورات بحجة تطويق الامبريالية! وانهمت كل حكومه تتخلف عن تأييد الشيوعية بخيانة القضايا العربية و يتردد الجهلة فى التصفيق والهتاف لكل ماهو شيوعى، وحمل السفراء الشيوعيون على الاعناق وعوملوا معاملة الاباطرة، يحدث ذلك فى نفس الوقت الذى أصبحت فيه اقتصاديات البلدان العربية الموالية للشيوعية ووجودها السياسى والعسكرى فى حالة تبعية تامة لأوامر الكرملين. وقدس العملاء هذا الضياع ومجدوه واعتبروه جهاداً مقدساً، وهددوا كل من يخرج عن هذا الخط بالدمار عن طريق الارهاب. يحدث كل هذا تأييدا لوضع يقضى على العرب ويهدد سلامتهم ويجردهم من كل ما هو مقدس، ولقد كان الخبراء الشيوعيون ينقلون إلى اسرائيل كل مخطط عربى لمقاومتها أو لضربها، لتأخذ أهبتها باعداد الضربة المضادة، فكان مآل هذه المخططات كلها الفشل.

أما الكتلة الحرة وهى ما يسمونها بالأمبريالية فانها بحجة مقاومة الشيوعية المتجهة إلى التهام الشرق الأوسط بما فيه العالم العربى فقد اعتقدت أن مصالحها تقتضى منها اتخاذ اسرائيل عميل لها تتمكن بواسطته من احباط هذه المحاولات وتهديد العالم العربى. وعملت على تزويد هذا العميل بجميع الامكانيات اللازمة لتفوقه العسكرى كما وضعت تحت تصرفه كل الامكانيات اللازمة لذلك.

ونجحت لعبة الشرق والغرب فى تحويل العالم العربى إلى منطقة صراع ساخنة بين الكتلتين مما أصاب العالم العربى بنزيف شديد لا يستفيد منه إلا أعداء العرب.

أما مصالح العرب فهى من ذلك براء، وتحرير أراضيهم من ذلك براء. ولن تتحرر أرض بهذه الوسائل غير المشروعة بل على العكس ازدادت الخسائر من جانب العرب وازدادت مساحة الرقعة المحتلة واتسعت حتى بلغت مساحتها عشرة أمثال مساحة فلسطين وبدأ سكان مناطق دول المواجهة الملاصقة لاسرائيل يتحولون إلى لاجئين فعلا وأصبح استقلال كثير من الدول العربية — لافلسطين — فى الميزان أو صار هشيما تذروه الرياح .

وفى السبعينات تبين للعرب حقيقة الموقف ولقد بدأ هذا التحول حين قررت مصر أن تخوض حرب العاشر من رمضان ، بعد أن قامت بأهم خطوة من الخطوات الجريئة ألا وهى طرد الخبراء السوفييت لضمان نجاح الحرب ، كما بدأ التحول حين واجه العرب سياسة الوفاق السوفيتية الأمريكية .

وبدأ العرب فى وضع استراتيجية جديدة منبثقة من مصالحهم ، وقد واجهت هذه الايديولوجية رفضا باتاً من الكوادر الشيوعية التى أصرت على تبعيتها للشيوعية العالمية . ولكن إصرار العرب وعزمهم هذه المرة جعلهم ينجحون بالرغم مما واجهوه من عقبات لا بد من مواجهتها لتحقيق هذا التحول وهو تحول أول ما يثبت إنما يثبت استقلال الإرادة العربية عن كل ضغط استعمارى أمبريالى شيوعى أوحر — وأخذت فلول السياسة الطروادية تتراجع أمام هذا الاصرار على التمسك بالقواعد الأساسية التالية :

— إن العرب جميعاً ضد من يخونهم لدى أى من الكتلتين .

— إن أموال العرب تنفق للتنمية العربية ولا يذهب منها مليما واحداً فى سبيل نشر الشيوعية — إن ثروة العرب ملك للعرب يساهمون بها فى رفاهيتهم ورفاهية الشعوب الاسلامية ورفاهية العالم .

المسلمون أولى الناس بابراهيم وال ابراهيم صلوات الله وسلامه عليهم

أن أولى الناس بابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف والأسباط وموسى وعيسى هذا النبى الأمى والذين آمنوا معه :

(ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا

وإنه فى الآخرة لمن الصالحين - ١٣٠ - إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين - ١٣١ - ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون -١٣٢- أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون - ١٣٣ - تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولاتسألون عما كانوا يعملون -١٣٤- وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين - ١٣٥- قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون - ١٣٦ - فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم - ١٣٧ - صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون - ١٣٨ - قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون - ١٣٩ - أم تقولون إن ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى . قل ءأنتم أعلم أم الله . ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله . وما الله بغافل عما تعملون ١٤٠) : السورة التى ذكرت فيها البقره .

دعوا الضلال واتركوا الحقوق لأصحابها . فنحن أولى بابراهيم وآل ابراهيم من كل مدع قد انحرف عن ملة ابراهيم .

وكانت مكافأة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لجده ، كانت مكافآته للخليل وقد دعا للأمة المحمدية دعوات طيبات مباركات هى وضع اسمه فى التشهد (اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد) .

(إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى
رأيت أحد عشر كوكبا والشمس
والقمر رأيتهم لى ساجدين — ٤)
سورة يوسف

الفصل الثانى

الرؤيـــا

سكن آل يعقوب أرض كنعان(١). وكان ليعقوب عليه السلام اثنى عشر(٢) ولدا من أمهات أربع وكان أصغرهم يوسف عليه السلام يليه بنيامين وأمهما راحيل أو راشيل.

وكان يعقوب عليه السلام يختص يوسف وبنيامين بمزيد من الحب الأبوى لهما، وهو حب لا يملك له دفعا، وخاصة يوسف عليه السلام الذى كان يتلألأ فى وجهه نور النبوة والرسالة، وكان سلوكه منذ نعومة أظفاره إنما هو سلوك المؤهل لهذه المرتبة الرفيعة: مرتبة الاختصاص الإلهى بالنعمة التى أتمها على أبويه من قبل، ولم يكن عليه السلام فى كماله وخلقه وكريم شيمه وطهارته وصفاء روحه والأنوار الآلهية التى تحيط به ايخفى حاله على من كانت له بصيرة سليمة، فكيف يخفى ذلك على أبيه وهو نبى مرسل؟

---

(١) غرب الإردن وهى القسم الأوسط من فلسطين الحالية.

(٢) أسماؤهم كما وردت فى العهد القديم فى الاصحاح الثانى من أخبار الأيام الأول: (١ — هؤلاء بنو إسرائيل: رأوبين، شمعون، لاوى، يهوذا، يساكر وزبولون — ٢ — دان، يوسف وبنيامين، نفتالى، جاد وأشير).

ثم جاء الوقت الذى علم فيه يوسف عليه السلام ما ادخره الله تعالى له من نعم لم تخطر لاخوته على بال ، فبادر إلى أبيه يقص عليه القصص :

(إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين — ٤) .

تحذير يعقوب عليه السلام لابنه :

(قال يا بنى لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للانسان عدو مبين — ٥) .

علم عليه السلام أن هذا اختصاص من الله تعالى ليوسف عليه السلام واجتباء له . وأن هذا الخبر لو انتشر لجاب على يوسف كيد إخوته حسدا له وحقدا عليه .

ولذا نراه عليه السلام يعدل عن تأويل الرؤيا بادىء ذى بدء إلى تحذير ابنه من التحدث بشأنها ، وفى هذا ما فيه من توجيه العناية إلى أهمية التحذير .

ولم يكتف بذلك بل بين السبب الذى يقتضى كتمان رؤياه عن إخوته ، لأن علمهم بها يبعثهم على الكيد له كيدا : وجاء بالمصدر المؤكد للفعل ، ليعلم أن هذا الكيد ليس من قبيل التقدير للأمور ، بل هو مواجهة لما سيقع فعلا .

وفى الآية من وجوه الأعجاز :

— أن أدب النبوة يقتضى أن يعين يوسف عليه السلام إخوته وأن ينصرهم على أنفسهم بغلق باب الشر أمامهم :

كى يتغلبوا فى النهاية على ما فى نفوسهم من الغيرة من أخيهم .

وليعودوا فى النهاية إلى بر أبيهم وبر أخيهم بعدم التمادى فى مشاعر الغيرة المولدة للكراهية والحقد .

* ومن اعانتهم على أنفسهم إتاحة الفرصة لهم كى يثوبوا إلى رشدهم وينهوا عن غيهم فيتوبوا إلى الله متابا .

* الإشارة إلى أنه من مقتضيات المرتبة العالية التى اختصه الله تعالى إبها الأخذ بالرفق فإن هذا أجلب للمحبة وأنجى للناس من السقوط فى الهلاك .

— وتبين الآية الكريمة أن يعقوب عليه السلام حريص على جمع قلوب بنيه على المحبة والمودة ، إذ بين ليوسف عليه السلام أن هذا الكيد من الأمور الطبيعيةالتى يمر بها البشر لأنه من عمل الشيطان إن الشيطان للانسان عدو مبين :

* ومن عداوته للانسان إيقاعه العداوةو البغضاء بين أفراد الأسرة ليشتت شملهم ، وينفرط عقدهم ، ويضيع العمر فى الشحناء والبغضاء .

* ومن عداوته للانسان أنه يضع العراقيل أمام الدعوة والرسالة حتى لاتستفيد الأمة من هداية المرسلين ، فما من نبى تمنى إلا وقد ألقى الشيطان فى امنيته وهى أمته .

* ومن كيد الشيطان للانسان أنه يحسن له القبيح ويزينه له ليصده عن الحق واتباعه .

* برأ عليه السلام بنيه من الكيد وأسنده إلى الشيطان كى ينزع من قلب يوسف أى أثر قد يتركه سلوكهم المنحرف معه ، وهذا هو اللائق بمن كان فى مرتبته التى اختصه تعالى بها والتى لاتعرف سوى سلامة الصدر وصفاء القلب ونقاء الباطن ، وحب الخير للناس جميعا — ومن لم يكن كذلك لم يصلح لهداية البشر .

وبعد هذه الوصية النبوية العالية ، بدأ عليه السلام فى بيان البشائر التى تضمنتها الرؤيا الشريفة :

(وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق . إن ربك عليم حكيم - ٦) .

(يجتبيك) :

بدأ بهذه المكانة العزيزة مكانة الاجتباء وللمفسرين فيها قولان :

أحدهما : أنه النبوة :

والثانى : إعلاء الدرجة وتعظيم المرتبة .

والأول يندرج فيه الثانى ، فالأول أخص من الثانى .

(ويعلمك من تأويل الأحاديث)

بين لابنه عليه السلام أهم خاصية من الخصائص التى أنعم الله تعالى بها عليه وهى آية التحدى المبينة لاجتبائه على أهل عصره بالرسالة والنبوة ، ألا وهى تأويل الأحاديث .

ونراه عليه السلام فى أواخر السورة يقول عند تعداده لنعم الله تعالى عليه (رب قد اتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث - ١٠١) .

قال الراغب الاصفهانى : إن التأويل هو رد الشىء إلى الغاية المرادة منه علما كان أو فعلا وقال آخرون : تأويل الأحاديث : هو تعبير الرؤيا . وهو قول مجاهد والسدى . وعن الحسن أن المراد به علم عواقب الأمور . وعن الزجاج أن المراد هو بيان معانى الأحاديث والأمم السالفة والكتب المنزلة .

وقال الزمخشرى : إنه تأويل معانى كتب الله وسنن الأنبياء وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها ، يفسرها ويشرحها ويدلهم على مودعات حكمها[1] .

وقيل هو الاستدلال بالأمور المحدثة على قدرة الله تعالى ، وحكمته وجلاله وذلك عن طريق تأويلها .

---

(١) الكشاف للزمخشرى = ج ٢ ص ١٢٣

وساق الآلوسى عدة أقوال للعلماء فى معنى التأويل منها :

إن المراد بتأويل الأحاديث : إما تعبير الرؤيا وهو الظاهر ، وإما تفهم غوامض أسرار الكتب الآلهية ودقائق سنن الأنبياء[1] .

ويقول العارف عبد الرزاق الكاشانى أنه عليه السلام :

(أعطى النور التام العلمى الذى كان يكشف به عن حقية الصور المتخيلة فى المنام أى ما تحقق فى عالم المثال ويصير مشاهدا فى عالم الحس)[2] فيعلم المراد من كل صورة وما يتحقق منها فى الخارج وما تشير إليه فى عالم الشهادة والحس .

ومعلوم أن الصورة الواحدة تظهر لعدة معان ولا يراد منها فى حق صاحب الصورة إلا معنى واحدا وصاحب هذا العلم بعين هذا المعنى .

فمثلا « الأذان » :

قد يرى أحدهم أنه يؤذن فيكون المراد منه أنه سيحج، ويرى آخر أنه يؤذن فيكون المعنى أنه سيسرق ، وآخر يرى أنه يؤذن فيكون المعنى فى حقه أنه سيدعو إلى الله على بصيرة ، وآخر يكون المعنى فى حقه أنه سيدعو إلى ضلالة .

وصاحب هذا العلم يطلع على المعنى الذى تكون هذه الصورة مثاله ، ويكون هذا المعنى هو المراد من صورة الرؤيا .

وكما يصل العالم بالتعبير من الصورة المرئية فى النوم إلى المراد منها فى الحقيقة كذلك يعلم من أعطى تأويل الأحاديث المراد من كل صورة فى كل مرتبة من مراتب الوجود إذ أن صور كل مرتبة إنما هى مثال للمرتبة التى تليها — ومن أوتى

---

(١) بعد أن ساق الألوسى هذه الاقوال عقب عليها بقوله (والكل خلاف الظاهر فيما ارى) .

(٢) شرح فصوص الحكم للكاشانى : ص ١٠٩ .

هذا العلم فى كل مايرى ويسمع ويعقل فقد أوتى خيراً كثيراً ، فكل مايجرى إما أن يكون صورة لمعنى ، أو مثال لحقيقة من الحقائق . وكل أمر له صورة معينة فى نفسه ولكنه قد ظهر فى صورة أخرى غيرها: احتاج إلى تعبير فيجوز العابر من هذه الصورة التى ابصرها النائم إلى صورة ماهو الأمر عليه إن أصاب:

مثال ذلك ظهور العلم فى صورة اللبن . فيعبر المؤول من اللبن إلى العلم ، فتأول أو قرر مآل هذه الصوره اللبنية إلى صوره العلم .

ورأى يوسف عليه السلام احد عشر كوكبا والشمس والقمر ساجدين له، فرأى إخوته فى صوره الكواكب ، رأى أباه وخالته فى صورة الشمس والقمر .

فإذا عممنا التأويل[1] على مذهب الراغب من أنه رد الشيء إلى الغاية المرادة منه فإن (كل أمر ظهر من عالم الغيب إلى الشهادة سواء كان ظهوره فى الحس أو فى الخيال أو فى المثال فهو وحى وتعريف واعلام له من الله بما أراد أن يكونه ، وأنه مثال وصوره لمعني وحقيقة تعلق الاراده الآلهية)[2] .

فكما أن الصورة المرئية فى النوم محتاجة إلى العبور منها إلى حقائقها الباطنة، كذلك الصور المحسوسة أيضاً ، فإنها معبر إلى حقائق ترتبطبها ارتباطا وجوديا ، ولا يدريها إلا من أوتى هذا العلم ، فيعلم الحقائق المرادة من الصور الظاهرة فى كل مرتبة من مراتب الوجود وهذا هو العبور من الوجود الحسى الإضافى إلى المعانى الحقة المرادة من هذا الوجود .

والآيات التى أظهرها الله تعالى على يديه عليه السلام كانت من هذا الوجه ومنها: رؤيته عليه السلام لبرهان ربه وتأويله رؤيا صاحبى السجن وتأويله لرؤيا الملك وكانت هذه الآيات سبباً فى تمكينه فى الأرض .

(قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى) من الآية ٢٧ من السورة .

---

(١) أفاض العلماء فى بيان معنى التأويل حتى أفرده بعضهم بالتأليف مبينا الفرق بين التأويل والتفسير .

(٢) الكاشانى : مرجع سابق ص ١١٠ .

كل ذلك من أسرار هذا العلم الذى أوتيه عليه السلام وهو العبور من الصور الخيالية أو الحسية إلى الحقيقة التى تؤول إليها .

والرؤيا الصادقة أول مبادىء الوحى إلى الأنبياء ، فلا يرى أحدهم رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

(ويتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل) :

من فسر الاجتباء بالنبوة لا يمكنه أن يفسر إتمام النعمة بالنبوة أيضاً ، وإلا لزم التكرار ، بل يفسر إتمام النعمة بسعادة الدارين .

والذين فسروا الاجتباء بإعلاء الدرجة وتعظيم المرتبة ،فسرو اتمام النعمة بالنبوة لأن كل ما أوتيه الخلق من النعم فإنه لا يقاس بجانب نعمة الرسالة والنبوة.

ومما يؤكد أن المراد من اتمام النعمة هو النبوة والرسالة قوله تعالى (كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم) جدك الأعلى (واسحق) جدك المباشر -ومعلوم أن امتياز إبراهيم واسحق عن سائر البشر إنما كان من أجل النبوة والرسالة- فوجب من هذا الوجه أن يكون المراد من إتمام النعمة هو الرسالة لأن كل ما سواها فهو ناقص بالنسبة إليها .

(إن ربك عليم حكيم) .

(عليم) بمن يصلح لتبليغ رسالاته (الله أعلم حيث يجعل رسالته)[1]

(حكيم) لا يضع النبوة إلا فى نفوس قدسية وجواهر مشرقة علوية ، ويفعل كل شىء حسبما تقتضيه الحكمة جريا على سنن علمه تعالى .

قال الفيروزابادى ، [2] عند قوله تعالى (إن ربك عليم حكيم) .

ليس فى القرآن غيره أى (عليم) علمك تأويل الأحاديث(حكيم)اجتباك للرسالة ، أو (عليم) بمن يصلح لرسالاته (حكيم) فى اجتبائه واختصاصه لك دون اخوتك .

---

(١) من الآية ١٢٤ - سورة الأنعام .

(٢) بصائر ذوى التمييز ج ١، ص: ٢٥٧ .

فاجتمع له عليه السلام شرف الرسالة والنبوة مع عراقة هذا الشرف فى فى الأصل والمحتد .

روى الإمام البخارى بإسناده إلى عبدالله بن عمر رضى الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم) صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

الرحمة فى الرؤيا :

كانت الرؤيا أول آية له عليه السلام فقد تضمنت من البشائر :

— ما هو خاص بيوسف عليه السلام من الاجتباء والاختصاص بالرسالة والنبوة .

— ماهو خاص بيعقوب عليه السلام وأبنائه وأنهم سيجتمعون أمام يوسف عليه السلام وهو فى مكانته الرفيعة التى اختصه الله تعالى بها .

— الرؤيا تثبيت ليعقوب عليه السلام ، وأعلام له بأنه مهما حدث فإن الله تعالى جامع شمل الأسرة فى كنفه عليه السلام .

(اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً
يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من
بعده قوماً صالحين — ٩) .

الفصل الثالث

المؤامرة

الحسد يقلب محاسن المحسود مساوىء فى نظر الحاسد ويظهر له الأشياء فى غير طبيعتها ، فيؤول كل ما يصدر عن المحسود إلى ما يسىء إليه ، وقد جربنا أن الحاسد ينكر على المحسود كل ما يقدمه إليه من خدمات بدون مقابل ، ولو ذكرناه بها ، لأسندها إلى أسباب تبعد المحسود عن أدائها نهائيا .

وتحت تأثير الحسد يجرى الحاسد المقارنات تلو المقارنات بينه وبين المحسود ، وكلها مقارنات متحيزة تعطى للحاسد بلا حق ، وتسلب من المحسود دون وجه حق ، فهى عمليات تسكين وتهدئة نفسية يقوم بها الحاسد ليشفى بها غله ، وينفس بها عن براكين الحقد المستعرة فى جوفه ، كما أنها عمليات انتقام يجريها خيالياً ثم ينفذها عمليا — ولا يزول ما عنده إلا إذا سلب من الفريسة جميع ما فيها من مميزات يتمنى فى الواقع زوالها .

هذه التصورات العمياء . الموغلة فى الانحراف تحجب الرؤية الحقيقية مهما كانت درجتها من الوضوح ، وتزيد من وقدة الكراهية والحقد حتى تصل المشاعر إلى درجة لا بد من التعبير عنها عمليا ، ويزداد عنف هذا التعبير السلوكى كلما كانت الطاقة الفاسدة المولدة له أقوى .

وتبلغ العواطف السيئة المتولدة عن الحسد ذروتها عندما يتشبع الحاسد بكراهية المحسود إلى درجة وضع وجوده مع وجود الضحية فى الميزان ، فلا يمكن أن يجتمع الوجودان معا : وجود الحاسد مع المحسود .

هنالك اجتمع الإخوة وتشاوروا فيما بينهم فى شأن يوسف وأخيه ، وبينوا أن أساس كراهيتهم لهما إنما هو حب أبيهم لهما أكثر من حبه لهم جميعا.

(إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين — ٨) .

ومن وجوه الإعجاز فى الآية الكريمة : —

٥ توزيع الضمائر توزيعاً يفضح شعورهم تجاه أخويهما ، فالضمير العائد على شقيق يوسف أضافوه إلى يوسف وكأنه ليس بأخيهم .

٥ وضمير الجماعة العائد عليهم مضاف إلى يعقوب عليه السلام من دون يوسف وأخيه فى قولهم (أبينا) و (أبانا) وكأنه عليه السلام أبوهم وحدهم ولا نصيب ليوسف وأخيه فى هذه الأبوه .

* إن الانتقال من ضمير المفرد الغائب إلى ضمير جماعة المتكلمين يشد الانتباه إلى أن حب يعقوب ليوسف وأخيه يتنافى مع العدالة فى نظرهم .

* يحمل قولهم (ونحن عصبة) أنه لا يصح فى التصرفات الحكيمة العادلة السليمة أن يرجح حب صغيرين فى الأسرة على عصبة قوامها عشرة أفرادهم عصب الأسرة وعمادها المتحملين لأعبائها وأثقالها ، أما هذان الصغيران فإنهما لا يقومان بشىء من هذا بل هما كل على الأسرة وهما فى حاجة إلى من يرعى شئونهما ويعنى بهما ويحميهما : فكيف يكونان بعد ذلك أحب إلى أبيهم منهم ؟ يريدون أن يدخلوا من وجهة نظرهم الخاصة إلى الحكم على أبيهم فى هذه الواقعة بأنه فى ضلال مبين .

وهكذا أثار إخوة يوسف عليه السلام بذكاء قضية تفضيل أحد الأبناء على أخوته فى الحب الأبوى .

مناقشة ما قيل عن إيثار يعقوب عليه السلام لابنه يوسف بمحبته :

لقد طرح إخوة يوسف عليه السلام هذه القضيه من وجهة نظرهم ، وكان الواجب يقتضى عدم اغفالهم لوجهة نظر أبيهم وهى أصدق لسببين :

الأول : أنه نبى مرسل ومرتبة النبوة والرسالة لا يصدر عنها شىء إلا لله عز وجل .

الثانى : أن الإيمان يقتضى الاهتداء به عليه السلام وأتباعه ، لا الأعتراض عليه ، ولم تظهر لهم حقيقة الأمر إلا فى نهايه القصة ، حين علموا حكمة والدهم ومدى تجنيهم وتعديهم على يوسف عليه السلام .

وقد علل بعض المفسرين حب يعقوب لابنيه يوسف وبنيامين بصغر سنهما ، وأن النفس إلى حب الصغير أميل لحاجته إلى العطف وإلى الرعاية والرحمة ، واعتماده على والده فى كافة شئونه .

هل كان هناك تمييز للابن الأصغر فى الشرائع الأولى :

أجرى بعض فقهاء أهل الكتاب المعاصرين مقارنات بين معاملة الإبن الأصغر فى شريعة حمورابى وفى العهد القديم ، وقرر جوزيف جاكوب بان الشريعة فى العهد القديم قد سارت على تمييز الابن الأصغر بالحصة الوافية من الميراث **Ultiomo Geniture** ،وأن العهد كان للأصغر من الأبناء ، وقال إن مؤرخى العهد القديم لم يدركوا معنى هذه السنة القديمة فحاولوا أن يبرزوها بما خطر لهم من مبررات كفيلة بتصحيحها . ولكن القاعدة تطرد اطراداً لايمكن أن يعلل بالمصادفة وجاء بالأمثلة التالية :

تفضيل يعقوب على عيسو (وهما توأمان إلا أن عيسو سبق يعقوب فى الولادة) ويوسف على أخوته ، ويروى أن يوسف عليه السلام لما قدم ولديه منسى وافرايم إلى جدهما يعقوب عليه السلام ليباركهما حول الجد يمينه إلى افرايم ويساره إلى منسى، كذلك تولى داود الملك وهو أصغر أخوته وتطرد هذه القاعدة مع سليمان عليه السلام وهو أصغر من أخيه أدوناى .

ويخطر لبعضهم أن هذه السنة قديمة فى عشيرة الخليل عليه السلام وأنه هو صلوات الله وسلامه عليه كان أصغر من أخيه .

وعلى فرض صحة هذه النظرية فإنه لايجوز لأخوة يوسف عليه السلام معارضة ماهو مقرر فى الشريعة نفسها من أن العهد للأصغر من الأبناء . بل إن معارضتهم تدل على عدم اطراد هذه القاعدة .

ولتصحيح ذلك نقول :

إن النبى المرسل إذا رزق بمن يرثه فى النبوة والرسالة كف عن الزواج . فتكون أم هذا النبى المرسل هى آخر زوجاته ، وبالتالى يكون أبناؤه منها هم أصغر من غيرهم من الزوجات .

ولا يوجد أى دليل على أن هـذا الوارث هو أكبر أبناء هـذه الزوجة أو أوسطهم أو أصغرهم ، فلا يصح إطلاق القول بأن العهد فى الشرائع السابقة للشريعة المحمديه كان للابن الأصغر .

الانبياء والمرسلون لا يحبون إلا بحب الله تعالى :

من الخطأ الجسيم قياس مرتبة النبوة بمقياس أحوال النـاس الدنيويين العاديين فالنبوة والرسالة لا تقدم إلا ماقدمه الله تبارك وتعالى — بينما هؤلاء يقدمون ما تقدمه أغراضهم الدنيوية فهى مدار التقييم عندهم .

لـكن النبيين والمرسلين إنما يحبون بحب الله تعـالى لايتعدون ذلك أبداً ، هذا شأنهم مع زوجاتهم وأبنائهم ومن اتبعهم .

وكان يعقوب عليه السـلام يعلم أن وارث النبوة والرسالة فى بيته هو يوسف عليـه السلام ، ولعلل محبته لبنيامين إما لنبوته وإما لصـلاحه وتقواه أكثر من إخوته عدا يوسف عليه السلام .

وهذه المحبة ليس لأحد حق فى أن يحاسب صاحبها عليها ، فكل متعلق بالله تعالى إنما يقدم ما قدمه الله تعالى ويؤخر ما أخره عز وجل : اللهم هذه قسمتى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما لا أملك .

ولا تجوز المؤاخذة على هذه المحبة لأنها نابعة من حبه تعالى بل المؤاخذة كل المؤاخذة فى عدم التخلق بهذا الخلق الكريم .

فشعب الإيمان تقتضى الاقتداء بأبيهم فى مسلكه ، وعدم انتقادة فيه ، فيؤثرون من آثره ، ويتعلقون بمن تعلق به ، لأنه ما فعل ذلك إلا عن بصيرة من أمره ، فكان ذلك وحده ملزما لهم بحب يوسف عليه السلام اقتداء بأبيهم وهو النبى المرسل بل ويلزمهم ذلك إيثار يوسف عليه السلام وأخيه على أنفسهم حباً فى الله تعالى .

فالقسمة فى الأشياء أمرها سهل ولا يجوز الجور فيها ـ أما القسمة فى الميل القلبى فهذا ما لا سبيل لأحد عليه إلا الحق تبارك وتعالى .

وتأخير ما قدمه الله تعالى هو عين الجور والظلم وبالعكس .

صريح الايمان :

عن عمرو بن الجموح رضى الله تعالى عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يبغض لله ويحب لله فإذا أحب لله وابغض لله استحق الولاية لله) رواه الإمام أحمد والطبرانى . وعن أبى ذر رضى الله تعالى عنه قال :

خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أتدرون أى الأعمال أحب إلى الله تعالى ؟ قال قائل : الصلاة والزكاة . وقال قائل الجهاد .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن أحب الأعمال إلى الله عز وجل الحب فى الله والبغض فى الله) رواه الإمام أحمد وأبو داود . وروى بلفظ (أفضل الأعمال الحب فى الله والبغض فى الله) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والطبرانى .

وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ما تحاب اثنان فى الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبا لصاحبه) رواه ابن حبان والحاكم . قال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء وهو صحيح الإسناد .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى ذر (يا أبا ذر : أى عرى الإيمان أوثق ؟ قال (الله ورسوله أعلم)

قال (الموالاة فى الله والحب فى الله) رواه البيهقى فى شعب الإيمان .

ولو نظر الإخوة إلى المسألة من هـذا الوجه لما صدر منهم ما صدر فى حق أبيهم وأخويهما ولكنهم قاسوا ما عندهم من علم على ما عند أبيهم واعتبروا أنهم على حق ، فأعماهم ذلك عن رؤية حقيقة الأمر مما جعلهم يطرحون القضية طرحا غير صحيح .

فظنوا أنه حب إيثار وظلم وهو منهى عنه ، ولذا لاموا أباهم ولم يترددوا فى هذا اللوم معتبرين صدق وجهة نظرهم .

أما العدل فى القسمة بين الإخوة فإن الأنبياء والرسل هم قمة العدالة الانسانية إذ فطرهم الله تعالى عليها وعلى الانقباض الكلى من الظلم الذى عصمهم الله تعالى منه .

جاء رجل ليشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه نحل ابنه شيئا .

فقال صلوات الله وسلامه عليه ـ معلما الناس العدالة فى التوزيع بين الأبناء ـ : « أكل ولدك نحلته هذا ؟

قال الرجل : لا .

فقال صلى الله عليه وسلم : اذهب فإنى لا أشهد على ظلم .

التشاور فى كيفية التخلص من يوسف عليه السلام :

(اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين ـ ٩) حاولوا الوصول إلى هدفين عظيمين عن طريق ارتكاب أبشع الجرائم الإنسانية ، وهذان الهدفان هما :

(الأول) زوال الحجاب الحائل دون تمتعهم بالحب الكامل الأبوى ، وهو الحب الذى يتصورون أن يوسف عليه السلام هو المانع دون تحقيقه ،

فأبوهم - فى تصورهم - بعد تخلصهم من يوسف سيخصهم بجميع الحب الذى كان يفيضه على يوسف عليه السلام ! !

(الثانى) تحقق صلاحهم المتوقف على التخلص من يوسف وكأن وجوده عليه السلام يطارد وجودهم ، ويقض مضاجعهم ، ويحول بينهم وبين الصلاح حيث أن تفكيرهم فى علاقتهم به وعلاقته بأبيهم وعلاقة أبيهم به قد استغرق جل وقتهم فظنوا أنهم لو فرغوا منه لم يعد هناك ما يشغلهم عن الصلاح .

ويجوز أنهم قد أحسوا - وقد نبههم إلى هذا الإحساس شدة حب أبيهم ليوسف - بأن يوسف سيكون وارث النبوة والرسالة ، فازدادت غيرتهم منه وكيدهم له : وكأن النبوة بارادة أحد غير الله تعالى ! وفقه هذه المسألة من البديهيات عندهم، ولكن شعورهم نحو أخيهم قد زين لهم الباطل فجعله حقا ، وإلا فما هو مفهوم الصلاح لو توقف على ارتكاب أبشع الجرائم وأشنعها ! وأى جريمة تفوق قتل شقيق كامل الخصال ، وهو ابن نبى مرسل ، بل إن إحساسهم يرشحه للنبوة والرسالة ؟

وكيف يطلبون أن يقبل عليهم أبوهم ويغمرهم بحبه وهو نبى مرسل بعد أن يرتكبوا مثل هذه الفعلة النكراء مع المبشر بالنبوة والرسالة من بينهم جميعا؟

وما يدريهم أنهم سيكونون صالحين بعد هذه الفعلة البشعة ، وما يدريهم أنهم سيتمادون فى سفك الدماء ومحاربة الله تعالى ورسله ؟

وكيف يطلب الإنسان الصلاح بالاجرام ، وكيف يرتب الإنسان ظفره بحب الله تعالى على سفك دم أحباب الله عز وجل ؟

حقا لقد أعمتهم الغيرة من أخيهم عن إدراك هذه البديهيات .

اقتراح أنقذ يوسف عليه السلام

(قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف والقوه فى غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين - ١٠) .

كان على الإخوة أن يتدبروا الأمر بينهم ليتفقوا على خطة ناجحة تخلصهم من أخيهم ، وتبرئهم فى نفس الوقت من دمه ، كما كان عليهم بعد أن يتخلصوا من أخيهم على أى وجه من الوجوه التى يرضونها ، كان عليهم بعد ذلك أن يسووا موقفهم مع أبيهم ، بحيث يبدو فى الظاهر سليما ، ولا عليهم إن شك أبوهم فيهم ، وإذن اعزوا هذا الشك إلى شعوره الطبيعى نحوهم . ولم يقدروا هول الصدمة التى تنزل بأبيهم من جراء فعلتهم .

أفادت المناقشات التى دارت بين الإخوة حول الإجراءات التى يتخذونها فى سبيل التخلص من أخيهم .. أفادت فى هز ضمائرهم شيئا ، حين ظهر لهم من ثنايا الحوار ، هول الجريمة البشعة التى يخططون لتنفيذها ، وكلما أوغلوا فى بحث تدابيرها كلما ازداد أمرها بشاعة مما زعزعهم أو زعزع بعضهم عن ارتكاب جريمة القتل وأعدهم للموافقة على أى اتجاه مخفف ، وهذا مادعا البعض إلى التفكير فى تعديل خطتهم تعديلا يستبعد منها القتل .. وإذا كان المقصود هو التخلص من وجود أخيهم ، فما بالهم يحصرون تفكيرهم فى سفك دمه ألا توجد هناك حيلة أخرى للخلاص منه مثل تعريضه للاسترقاق فلا يراه أحد بعد ذلك مرة أخرى ، وسيان عندهم بعد خلاصهم منه أقتل أو عاش حياته رقيقاً ؟

وما انقدحت الفكرة عند أحدهم —ويقال إنه أكبرهم سنا— حتى بادر بإعلانها كحل موفق للموقف ، ولم يكن باقى الإخوة بأقل قابلية منه لهذا الحل الذى تلقفوه بالقبول ، وكأنهم كانوا فى ورطة لا يجدون لها سوى أبشع وأخس المخارج فعثروا على ماينجيهم منها . فأصبح فى استطاعتهم إزاحة أخيهم من طريقهم فلا يراهم ولا يرونه ولا يراه أبوهم دون حاجة منهم إلى ارتكاب جريمة القتل مهما تنوعت صورها .

فاتفقوا مبدئيا على إلقائه فى غيابة[1] الجب[2].

وتعريف الجب بأل العهدية يشير إلى جب معهود لديهم، قريب من طرق القوافل المتجهة إلى مصر والمقبلة منها، وارتياد هذا الجب مألوف لدى المسافرين طلبا الماء كلما احتاجوه.

---

(١) قال الزمخشرى غيابة الجب : غوره ، وهو ماغاب فيه عن عين الناظر وأظلم من أسفله وقال الهروى الغيابة فى الجب شبه «لحف» بكسر اللام أو طاق فى البئر فويق الماء يغيب ما فيه عن العيون .

(٢) الجب : من أسماء البئر .وهو البئر التى لم تطو ،وقيل هى الكثيرة الماء البعيدة القعر (ابن سيده : المخصص ج ١٠ . ص ٣٥) ولم تطو يعنى لم يبن جرا بها : وهو جدارها الاسطوانى . والبئر إذا لم تحتج أن تطو يقال لها بئر شديدة الجراب . وقد يطلق على هذه البئر اسم (الجفر) كما ذكره أبو عبيد وعارضه ابو زيد فقال : ان (الجفر) هو البئر الذى طوى بعضه وترك بعضه، وإذا طوى أسفلها بالحجارة واعلاها بالخشب قيل لها بئر معروشة . قال الفيروز ابادى وتسميته بذلك اما لكونه محفورا فى جبوب أى فى أرض غليظة واما أنه من الجب وهو قطع الشىء من اصله كجب النخل، وبعير اجب مقطوع السنام (بصائر ذوى التمييز ج ٢ ص : ٣٥٨) .

قال ابن دريد لا يكون جبا حتى يكون مما وجد محفورا لا مما حفره الناس .

قال الاصمعى وجمعه اجباب ، وجباب ، وجببه .

والغريب ان ابن الاعرابى (١٥٠ — ٢٣١ هـ) عند ذكره لأسماء البئر لم يذكر الجب من بينها (كتاب البئر لابن الأعرابى تحقيق د . رمضان عبد التواب ص ٥٨) وهو من السهو الفاحش الذى ننتظر من الاستاذ المحقق ان يستدركه عليه فى الطبعة القادمة ان شاء الله تعالى .

ولو كان السهو فى نعوت البئر لكان الأمر هينا، اما ان يكون السهو فى الأسماء التى تطلق على البئر ، وفى كتاب مخصص للكلام على البئر فهو مما يزيد الطين بلة .. وللابار عند العرب نعوت كثيرة تختلف بحسب الأرض المحفورة فيها ، ومياهها ، وجرابها ، وأبعادها الخ . . .

وقد كان اختيارهم للجب دون غيره اختياراً ذكياً تتوافر فيه الشروط المتمشية مع مقصودهم ومنها :

* مواراة أخيهم فيه عن الأنظار فلا يراه أحد من المارة من أهل الناحية لو فرض وأن أحدهم مر قريباً من المكان ، وهذه الميزة لا تتوافر إلا فى الجب إذ يتعرض أى مكان آخر لانكشاف أمرهم بما يوجه إليهم الاتهام باختطافه.

* إن الجب مطروق من رجال القوافل ، وهى ميزة توفر عليهم الكثير من المشاق التى تؤدى إلى افتضاحهم وخاصة لو طال عليه الأمد فى الجب .

* إن الجب المطروق يكون عادة خاليا من الآفات بعكس ما إذا كان مهجوراً فالقصد إذن هو التخلص منه حياً كما يدل عليه قوله (يلتقطه بعض السيارة) .

* إن جميع الظروف تضمن عدم انكشاف أمرهم فى تخلصهم من أخيهم إذ لا يخلو الأمر من وارد يطلب الماء من البئر ومن ثم يتم العثور عليه فتصحبه السيارة إلى وجهتها حيث يبادر رجالها إلى التخلص منه ببيعه وتقاسم ثمنه — ولا يبعد أنهم قد وضعوا الجب تحت مراقبتهم حتى عثر عليه رجال إحدى القوافل.

محاولتهم الحصول على موافقة أبيهم لاصطحاب أخيهم معهم :

أثلج صدورهم هذا الحل السليم فى نظرهم ، فتوجهوا ذات يوم إلى أبيهم وقد عزموا على تنفيذ ما دبروه .

(قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون — ١١) .

يدل ذلك على أن يعقوب عليه السلام لم تكن من عادته الإذن لهم باصطحابه معهم : إذ كان لا يأتمنهم عليه وعلى أخيه ، ويعلم ما تكن صدورهم نحوهما .

ومن مكرهم أنهم فى خطابهم لأبيهم صدروا طلبهم بالتعجب أولا من شعور أبيهم نحوهم فيما يختص بيوسف وصرحوا له بأنهم يعلمون أنه لا يأمنهم

عليه ويشك فى نواياهم تجاهه ، وأبدوا تعجب من خلا ذهنه من كل شر مبيت والذى لا يحمل فى قرارة نفسه سوى الخير حيث يظن فيه الشر .

وما دام الأمر كذلك فلا داعى إذن لوضعهم موضع الاتهام بدون مبرر بل إن هـــذا الموقف قد يسرى من أبيهم إلى أخيهم فتختزن نفسه نحوهم انطباعات خاطئة هم بريئون منها !

وقد دخلوا على أبيهم من المدخل الذى يؤثر فيه ، فأظهروا شفقتهم على يوسف ، وجاؤوا بما يجعله يوافقهم على مطلبهم ، وهو إبداء الوجه المتصل بمصلحة أخيهم : فإن حبسه عن الرياضة غير طبيعى ، وهو أمر يؤثر على صحته وأن فى صحبته لهم وخروجه معهم راحة نفسية له ، ورياضة مفيدة لجسمه ، تحفظ صحته .

(أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون — ١٢) .

لم يفتهم أهم شىء يساور أبيهم وهو خوفه منهم على يوسف فأكدوا له عليه السلام أنهم — على عكس ما يظن فيهم — جد حريصين أشد الحرص على المحافظة على أخيهم .

وهذا التأكيد من الحيل النفسية البارعة التى يلجأ إليها من يريد ارتكاب شىء ليحصل على غفلة صاحبه ، فيعطيه مزيداً من الأمان والاطمئنان ، كمن يريد قتل صاحبه فيستدرجه إلى نزهة خلوية وهو يقصد فى الواقع مكاناً معينا صالحاً لارتكاب الجريمة من نهر أو هوة أو جب الخ .

(أرسله معنا غداً يرتع ويلعب) يشيرون بذلك من طرف خفى إلى أمرين فى صالحهما :

(الأول) أنهم عصبة يرعون يوسف وهو غير قادر على رعاية أحد .

(الثانى) أنه لا يصلح إلا للعب أما شئون الأسرة فلا يقدر عليها سواهم فكيف بعد ذلك يفضله عليهم ؟

وكانت صياغة الاستئذان فى صورة تضع أباهم بحيث لا يختار إلا ما هو فى مصلحتهم: فإما أن يرفض طلبهم وفى هذه الحالة يكون الرفض ذريعة لإعلان الحرب على أخيهم علنا ، لما يوحى به الرفض إلى أخيهم من أنهم غير مؤتمنين عليه ، وهو موقف يشعر بالعداء السافر بينهم وبينه بلا مبرر ويكون هذا الرفض بمثابة حرمانهم من أية فرصة لإزالة ما يظنه فيهم ، ويكون هو الملام فيما يقع بينهم وبينه .

وإما أن يعطيهم الفرصة لإثبات براءتهم من كل ريبة وفى هذه الحالة يتمكنون من تنفيذ ما اتفقوا عليه .

فأجابهم عليه السلام جواباً يفيد ما يدور فى نفوسهم :

(قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون - ١٣)

وهو جواب لا يصدر إلا عن أدب النبوة فإنه لم ينوه بشكه فيهم وهو أدرى بما يبيتون ، بل إنه يسند قلقه إلى خوفه من أن (يأكله) الذئب ، وينزههم عن تركه عمداً للذئب كى يفترسه ، ويحترز عن هذا المفهوم بقوله (وأنتم عنه غافلون) .

وفى جوابه عليه السلام إتهام غير مباشر لهم إذ كيف يأكله الذئب وهم عصبة من الرجال وعدوا بالمحافظة عليه ، ومن المعروف أن الذئب يخشى مهاجمة اثنين فما بالك بعصبة ، فهو لا يخاف على يوسف فى الواقع إلا منهم ، وكل المحاورة تدور حول ذلك تلميحاً . . . والمعنى الذى تضمنه جوابه عليه السلام كيف بكم إذا تخلصتم منه ثم رجعتم بدونه وقلتم : يا أبانا إن يوسف قد أكله الذئب ؟ إنى أحملكم مسئولية أى مكروه يقع ليوسف فإذا وقع فهو باتفاق منكم .

وقد مكر بهم عليه السلام مكر النبوة إذ أن الرد عليه يستلزم منهم إصدار ميثاق بأنهم لن يغفلوا عنه ولن يحتجوا بافتراس الذئب له ، وهذا هو ما يريد أن يستدرجهم للتصريح به أمامه .

ولكنهم لم يدركوا ما فى جوابه من معان ، بل تلقفوه ليفندوا مخاوفه حاصرين همهم فى استدراج ابيهم بدورهم إلى الموافقة على خروج يوسف معهم. (قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون - ١٤) .

وكيف يخشى عليه من الذئب وهم كثير أشداء لا تعجزهم المحافظة على غلام، ولا يمكنهم أن يغفلوا عنه لكثرتهم فلا يضيرهم تخصيص بعضهم لحراسته بالتناوب أثناء قيام الآخرين بالرمى والسبق ، فلا يوجد إذن أى مبرر للقلق .

ويلاحظ أنهم يرددون قولهم (ونحن عصبه) وهو ما سبق أن قالوه عندما اجتمعوا للتآمر على أخيهم . ويفيد ذلك شدة اعتزازهم بأنفسهم .

ثم أكدوا قولهم لأبيهم بإصدار حكم أدبى على أنفسهم ولم يصدروا حكما قضائياً ، مما يدل على ما يبيتونه ، ولكنهم كذلك حكموا على أنفسهم بالحكم الذى يريد أن يحكم عليهم أبوهم به دون شعور منهم وهو الخسران المبين .

هذا ومن سنن المرسلين الأخذ بالظواهر ، والله تعالى يتولى السرائر ، ومن سننهم أنهم لا يخشون أحدا غير الله تعالى الذى يفوضون إليه جميع شئونهم .

فأذن لهم عليه السلام باصطحاب أخيهم ليعطيهم الفرصة التى تسمح لهم بإظهار حسن نواياهم وسلامة مشاعرهم نحوه،وهو يود أن يكون مافى نفوسهم خير ما يكنه الأخ لأخيه .

ولقد علم عليه السلام أن الواقعة توشك أن تقع عندما واجه إجماع بنيه على أمر يسأل الله تعالى السلامة من عاقبته والنجاة من شره ، وهذا هو السبب فى تقديمه للحزن فى جوابه ﴿ قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به ﴾ ، ولم يصرح لهم عليه السلام بذلك إلا اشعوره بأنه سيفارق ابنه فراقا سيطول ويطول جدا .

في الطريق إلى الجب :

كان الاتفاق قد تم فيما بينهم على (القائه) فى غيابة الجب ،ولما رأوا أن جعله فيه يحقق مقصودهم عدلوا عن الالقاء إلى الجعل وكأنهم عدلوا من العنف والقسوة إلى تنفيذ تدبيرهم مع ضمان سلامة أخيهم ، تاركين أمره لمن يلتقطه من السيارة .

ويمكن تصوير الحادث : بأنهم طلبوا من أخيهم أن ينزل بعد نزع قميصه بحجة المحافظة على نظافته أو كيلا يبتل بالماء فيتعذر ارتداؤه ، إلا بعد جفافه ، وبعد أن أدلوه فى البئر واطمأنوا إلى وصوله إلى غيابته طووا الحبل وتركوه فى جوف الجب ، ولا يبعدانهم وضعوا المكان تحت رقابتهم ، حتى شهدوا فيما بعد حادث التقاط أخيهم وذهاب القافلة به - وهكذا قدر لهم أن يكونوا أول من تسبب فى التمكين ليوسف فى الأرض ليكون حاكما على مصر .

وبعد أن تخلصوا من أخيهم استعدوا لمواجهة أبيهم وهو أشد ما فى الأمر عليهم فلطخوا قميص أخيهم بدم كذب وتوجهوا ليقصوا عليه ما سولته لهم أنفسهم.

(وجاؤوا أباهم عشاء يبكون - ١٦)

دخلوا على أبيهم بمظاهرة مسرحية حاولوا أتقانها أشد الاتقان ، فما البكاء بالنسبة لهؤلاء الشجعان بالأمر الهين، وإنما كانت هذه المظاهرة المفتعلة لتغطية ماقد يبدو على وجوههم من امارات الكذب التى لاتفوت على بصيرة أبيهم النافذة.

﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين - ١٧ ﴾

الايمان المقصود هنا هو مطلق التصديق : أى انك لا تصدقنا فيما حدثناك به . ومنه فلان يؤمن بكذا أى يصدقه ويعترف به .

ولم يجدوا عذرا يقدمونه لأبيهم خيرا من العذر الذى نبههم عليه السلام إلى الحذر من الإلتجاء إليه ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾

ولكنهم نكثوا فى ميثاقهم بالمحافظة عليه من الذئب ، واحتجوا بأن الذئب إنما افترسه أثناء انشغالهم عنه برياضتهم وسبقهم، ليتبادر إلى الذهن أن يوسف من طول حبسه عن الخروج معهم قد عزفت نفسه عن الرياضة مما كان سببا فى انفراد الذئب به !! مع أن تحذير والدهم من التقصير فى المحافظة عليه خشية أن يقال أنه قد أكله الذئب ، لم يجعل لهم أى عذر. ولذا ختموا قصتهم بالتصريح بأنك لن تؤمن لنا ولو كنا صادقين فى كل ما حكيناه وكاد المريب أن يقول خذونى.

وجاؤوا بالدليل القاطع - فى نظرهم - على صدقهم وهو قميصه عليه السلام :

﴿ وجاؤوا على قميصه بدم كذب . قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون - ١٨ ﴾

ويؤخذ من الآية الكريمة أنه عليه السلام كان واثقا الثقة الكاملة من كذبهم، وأن يوسف عليه السلام حى يرزق، وإلا لقام مع قومه وعاين المكان وفتش وبحث موضع الحادث إلخ ، ومما جعله عليه السلام لا يفعل شيئا من هذا :ـ

* أن الدم الذى على القميص ليس بدم يوسف ، ولم يغب هذا الأمر على يعقوب عليه السلام الذى عرف ريح يوسف وهو فى كنعان حين اقبلت العير من مصر تحمل قميص يوسف وذلك قرب نهاية القصة .

* إن اصطناع العواطف والتزوير فيها أمر لا يفوت الرجل النافذ البصيرة، فهو من باب أولى لا يفوت على نبى مرسل ، فمن البديهى أن يعقوب عليه السلام كان يعلم ما وراء المظاهرة التى يقوم أبناؤه بتمثيلها أمامه .

* لئن اخترع الانسان فى القرن العشرين أجهزة للكشف عن الكذب ، فإن هذا الاختراع إنما هو دليل على أن الانسان نفسه مزود بأجهزة عضوية ، وقدرة نفسية تجعله يميز الكذب من الصدق فى القول أو الفعل ، وكلما لرتقى الإنسان فى درجة الصدق كلما ازدادت قوة تمييزه للكذب ، وهذه القدرات الخاصة للإنسان قد استفاد منها العلم فى جميع شئون الحياة ، فما بالك بالانسان

الذى يصل إلى مرتبة يكون الحق سمعه الذى يسمع به و بصره الذى به يبصر .. وما بالك فوق ذلك بمن أعطى النبوة والرسالة ... ولئن كانت الخبائث لها رائحة كريهة تزكم الأنوف ، وتشمئز منها النفوس الطاهرة ، فمن المؤكد أن المعاصى والكبائر لها رائحتها المميزة لها والتى لايدريها سوى هؤلاء فلايخطئون فى تشخيصهم للمعصية مهما كانت درجة سبك صاحبها .

* إن رؤياه عليه السلام تدل على أنه وارث النبوة والرسالة فى البيت وأنه سيمتد به العمر حتى يراهم له ساجدين .

* ان يعقوب عليه السلام لم يفاجأ بما حدث ، بل إن كيدهم لأخيهم هو ما كان ينتظر منهم .

وبعد أن انتهى الإخوة من سرد ما لفقوه ، جاءهم الجواب من أبيهم وهو الرد اللائق بمقام النبوة ، فلم يتهمهم بارتكاب جريمة ، بل أخبرهم أن أنفسهم قد سولت لهم أمراً يخلصهم من أخيهم: ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا﴾.

وحتى لايدخل فى ظنهم أنه سيعاقبهم لأجل ما ارتكبوه أفادهم أنه لن ينتقم منهم أو يعاقبهم بل يستعين بالله تعالى مسلما له جميع شئونه مع الصبر الجميل على هذا البلاء الشديد :

﴿ فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون ﴾ من الآية ١٨ .

مداركة الوحى ليوسف عليه السلام وهو فى الجب :

من تأمل فى حياة الأنبياء والمرسلين وما واجهوه من الابتلاء عجب لقوة صبرهم وتحملهم ، وعلم أن أعظم آياتهم هى ما أوتوه من صبر ليس له حدود فى سبيل الدعوة إلى الله تعالى ، وهو صبر صادر عن ايمان بالله تعالى لا يدرك مداه أبدا .

وها هو يوسف عليه السلام منذ البداية يواجه صدمة تدكدك الجبال إذ يفاجأ بأعز الناس لديه بعد والديه - بإخوته - وهم بهذه الكثرة، وفى ريعان شبابهم وقوتهم يستأذنون أباهم ليسمح لهم باصطحابه معهم ، ليشاركهم فى

نزهتهم ، ويعدونه بالمحافظة عليه: وإذا بهم يخلفون وعدهم ويصبحون ولاهم لهم سوى التخلص منه ، وها هم يطرحونه فى الجب لا يدرى ما هو مصيره !

وأخرى لا تقل عنها هولا وعنفا وقسوة يشعر بها الابن الحبيب ولا يشعر بها إخوته : ألا وهى تذكره لحال والديه وهو شعور لا يدريه إلا من امتلات نفسه الكبيرة حبا وحنانا لهما وبرا بوالديه وخاصة والده عليه السلام فإن عذاب هذه الذكرى على يوسف أشد عليه من المحنة التى هو فيها .

وفى هذه اللحظة تغمر الرحمة الالهية أحباب الله وخاصته فيوحى إليه عليه السلام بما يثلج صدره :

﴿ وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ من الآية ١٥.

هل هو وحى النبوة :

قرر بعض المفسرين أنه وحى النبوة أخذا بظاهر الآية ، وذهب فريق إلى أنه وحى إيناس كالوحى إلى أم موسى ، لأنه لم يقم دليل قاطع على أن النبوة كانت قبل بلوغ الأربعين عاما .

ورد الفريق الأول على هذا الاعتراض بأن يحيى وعيسى عليهما السلام قد نبئا قبل هذا السن فلا يصح إطلاق القول بأنه لا نبوة قبل سن الأربعين .

وسيأتى مزيد بيان عن هذه المسألة عند الكلام على تأويل الآية « ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين — ٢٢ » .

والمفسرون يربطون ما بين بدء نبوته عليه السلام وبين تأويل الآيات التى تقص تصرفات امرأة العزيز معه عليه السلام .

فمن قال بنبوته عليه السلام قبل هذه الأحداث استنكر ماقاله الذين ذهبوا إلى أن نبوته عليه السلام كانت بعدها .

ولما كان التأويل الصحيح لواقعة امرأة العزيز لادخل له بتحديد تاريخ بدء نبوته عليه السلام فإن الفريقين لم يسلكا فى التأويل المنهج القويم كما سنوضحه .

ومن وجوه الإعجاز فى هذا الجزء من الآية الكريمة :

* أنه عليه السلام لا يخاف ولا يحزن فسيجعل الله تعالى له من ضيقه مخرجا ومن همه فرجا .

* فيه تذكير له عليه السلام بالرؤيا التى رآها وأنه عليه السلام سيبلغ مكانة عالية تمكنه من إخوته المتآمرين من حيث لا يشعرون إنه أخوهم وسيعرفهم بما فعلوه معه .

* إن مدة الانقطاع عن أهله ستطول إلى درجة أنه سيخاطب إخوته وهم لا يعرفونه لطول عهدهم به .

* أن شملهم سيلتئم مرة أخرى قبل أن يفرق الموت بينهم .

* فى الآية إعلان بتأييد الحق تبارك وتعالى له عليه السلام مهما واجه من الحوادث .

* فى الآية لطف بحال إخوته عليه السلام ، فما ينبئهم بأمرهم وهم ولا يشعرون إلا وهو عليه السلام قد عفا عنهم ، وتجاوز عن صنيعهم معه ، وإنباؤهم بأمرهم يتم وهم لا يشعرون بحقيقة أمره عليه السلام حتى يعطيهم الإشارة الدالة على أنه أخوهم .

وهذا مايعطيه لفظ (لا يشعرون) ولا يعطيه لفظ (لا يعلمون) لأنهم على علم بأمرهم وليسو على علم بأمره عليه السلام ، بل كان الذهن خاليا من وجوده عليه السلام على قيد الحياة .

﴿وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا . وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث . والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون — ٢١﴾

الباب الثانى

يوسف عليه السلام فى بيت العزيز

﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه
وغلقت الأبواب وقالت هيت لك .
قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى
إنه لا يفلح الظالمون - ٢٣ ﴾

الفصل الأول

إمراة العزيز تراود فتاها

يا بشرى هذا غلام :

أقبلت سيارة [١] متجهة إلى مصر وكانت فى حاجة إلى الماء، فتوقفت لترسل واردها ، فلما بلغ قاصدهم الجب وأدلى دلوه فى البئر تعلق يوسف عليه السلام بالحبل وشعر به الوارد فأخذه الفرح بما وجد ، وقد اقترنت فرحته بالدهشة لأن هذا ليس بالمكان الذى يتوقع فيه الإنسان وجود غلام .

﴿ قال يا بشرى هذا غلام . وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون ﴾ من الآية ١٩ : واتفق الذين عثروا على يوسف على بيعه والاستفادة بثمنه وحتى لا يشاركهم رجال القافلة فى اقتسام الغنيمة ، اتفقوا على إخفاء الأمر عن القوم باخبارهم أنه غلام من أهل الناحية طلب مرافقتهم ليلحق بأهله وقد سبقوه إلى مصر - وأخفوا قصدهم عن يوسف وعن باقى القافلة .

هذا هو المعنى المطابق للفظ ، أما من ذهب إلى أنهم أخبروا القوم به فأسروه بضاعة فلا يتمشى مع السياق . إذ كيف يكون الأمر سرا وقد عرفه رجال القافلة ؟

(١) السيارة : هى القافلة تضم التجار والمسافرين .

والله تعالى عليم بما أسروه وبيتوه من بيعه - عليه السلام الذى لم يجنوا من وراثه كبير فائدة :

إذ كانوا يخشون افتضاح أمرهم ، كما أنهم لا يستطيعون بيعه فى المزاد كما هو مألوف فقد يعلن الغلام أنه حر وليس برقيق، فيبعث ذلك القوم على التحقق من أمره والتحرى عنه. والاستفسار عن أصله وفصله وحسبه ونسبه، وسؤال بعضهم بعضا عنه ولا يخلو الأمر حينئذ ممن يتعرف على أسرته فيفتضح حالهم ويتهمون باختطافه .

وحيث أنهم لم يدفعوا فيه شيئا بل إنهم قد وجدوه مصادفة ، فقد كان همهم محصوراً فى التخلص منه بأى ثمن قبل أن يحدث لهم من جرائه مالا تحمد عقباه.

﴿ وشروه[1] بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين - ٢٠ ﴾
ولو كان ثمنه مرتفعا لو زنت الدراهم ولم تعد كما هو مألوف عندهم .

ونحن أمام سكوته عليه السلام وعدم تعريفه بنفسه أمام الوجوه الآتيه :
(الوجه الأول) أنه يريد أن يحسم الموقف الذى أثاره إخوته حتى

---

(١) هناك من يقول أن إخوة يوسف رأوا ماحدث فقصدوا القافلة وأخبروهم أنه عبد آبق منهم وباعوه لهم بدراهم معدودة . وهذا مردود من وجوه :

(الأول) إن الإخوة بهذا التصرف إنما يعرضون أنفسهم للافتضاح ، وقد يكون فى القوم من يعرفهم فيعلن أمام رؤوس الأشهاد أنهم كاذبون وأنهم إنما يبيعون أخاهم وهذا من أشد العار الذى يلحقهم .

(الثانى) إنهم يحرصون كل الحرص على إخفاء ما فعلوه مع يوسف عن أبيهم وبنوا تدبيرهم كله على هذا الأساس ، فكيف يعلنون أمام رجال القافلة أنه عبد ثم يبيعونه للقافلة . ولا يخلو الأمر من بلوغ الخبر لأبيهم ولو بعد عودة القافلة ؟

(الثالث) إن الاخوة إنما يريدون التخلص منه وقد حصل المطلوب ، ولم يقصدوا بيعه للحصول على دراهم معدودة لاقيمة لها بإزاء مايترتب عليها من الفضائح التى يريدون التستر عليها . والمناسب للسياق هو ماذكرناه .

لا يصطدموا بأبيه من أجله فيكون ذلك سببا فى هلاكهم، ولا حل لذلك سوى ابتعاده عنهم إلى حين .

(الوجه الثانى) علم فيما علمه من الوحى الذى أوحى إليه وهو فى الجب أن سيكون له شأن فى مصر ، وهذا من الأسباب الموصلة إليه .

(الوجه الثالث) أنه عليه السلام وجد أن الظروف لا تسمح بالتعريف بنفسه بل لو عرفهم بنفسه لما استبعد أن يتهموه بالجنون أو بالتمرد على مالكى رقبته ليصرفوا الناس عنه فيجلب على نفسه المتاعب . فيكون السكوت هو الأولى .

﴿ وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ﴾ من الآية ٢١ : الذى اشتراه هو عزيز[١] مصر ، وكان ذلك أدعى للتخلص من يوسف خشية أن تجرهم المساومة إلى معرفة حقيقة الأمر .

وكانت فراسة العزيز فى يوسف عليه السلام أصدق فراسة ، وهى فراسة دالة على ما أوتيه العزيز من خبرة فى معرفة الرجال الأكفاء الأخيار ، ولم يعلم أنه ما تفرس إلا مظاهر الكمالات الخلقية والخلقية لأنوار النبوة المتدفقة من شخصية يوسف عليه السلام ، وهى التى أسرت لب العزيز وبهرت عقله ، واستحوذت على مشاعره، وشرحت صدره للتعلق به ومحبته : إنه نور النبوة، وبهاؤها المستمد من بوارق الأنوار الآلهية .

وعاد العزيز بصحبته إلى قصره وهو يشعر أنه قد أمسك الدنيا من قرنيها وأنه قد عثر على ضالته التى عز عليه العثور عليها حتى وجدها متمثلة فى أنبل إنسان رآه .

---

(١) العزيز هو لقب أقرب رجال الدولة إلى فرعون مصر كما يدل عليه معناه فهو بمثابة رئيس الوزراء الآن . وهو المتصرف فى الدولة بعد الملك .

وفى سفر التكوين أنه رئيس الشرطة وحرس الملك وناظر السجن وأن اسمه (فوطيفار) ووصف بأنه خصى ، إلا أن الخصيان لا يتزوجون ، ولا يتولون المناصب الكبرى فى الدولة ، وقيل أنه يلقب بالخصى ولو كان غير كذلك ، وهذا بعيد .

ومما يدل على أنه اشتراه لمعان تفرسها فيه :

* أنه مع ما هو فيه من الثراء وكثرة الحشم والخدم والعبيد والإماء والجاه والسلطان لم يأمن أحداً على يوسف غير امرأته[1] نفسها : فهو يضن برعايته عليه السلام على جميع من عنده ويدفعه إليها لا إلى أى شخص عداها، يدفع إليها هذا الغلام الذى اشتراه ، وحرصا عليه يأمرها أن تكرم مثواه : فلا تكلفه من الأعمال ما لا يطيق ، ولا الأعمال التى لا تليق إلا بالخدم ، ولا تعرضه للإهانة، بل تكرمه فى ملبسه ومأكله ومجلسه وتعامله معاملة توفر له كرامته وأن تجتهد الغاية فى رعايته ، كما لو كان ابنهما حقا .

* نبه العزيز امرأته إلى وجوب تنفيذ أوامره ، وبين لها السبب فى ذلك : وهو أنه يرجو منه النفع فى شئونه الخاصة وفى شئون الدولة ليخفف عنه أعباءها ، أو أن يتخذه ولداً تقر به الأعين ويكون وارثا لهما فيعوضهما ما حرماه من إنجاب الأولاد .

وتقديم فعل الرجاء (عسى) دليل على أنه كان يعتقد أنه قد نال الامنيتين اللتين كان ينتظرهما بوجود يوسف عليه السلام .

وفى مآل يوسف عليه السلام إلى العزيز من الآيات التى كرم الله تعالى بها يوسف عليه السلام :

* أنه تعالى سخر ليوسف عليه السلام أكبر شخصية فى البلاد بعد الملك ، وهذا منتهى التكريم له عليه السلام . إذ سخر الله تعالى له العزيز ليبذل مافى وسعه لغاية كبيرة وهى رجاء نفعه عليه السلام أو اتخاذه ولدا .

* وقاه الله تعالى من معاملة العبيد والمماليك إذ جعل قلب العزيز متعلقا به عليه السلام تعلق الآباء بالأبناء .

---

(١) المشهور أن اسمها (زليخا) بفتح الزاى وكسر اللام وقيل بضم أوله على هيئة التصغير . قال السدى هى (زليخا بنت تمليخا) وقال مجاهد أنها (راعيل) وقيل (راحيل) وهذا خلط بين اسم أم يوسف عليه السلام واسم امرأة العزيز ولا مانع من أن يكون لها اسم ولقب ، وجميع هذه الروايات مصدرها العهد القديم .

* إن تيسير إقامته فى بيت العزيز فى أعز منزلة وأغلاها ، قد أعد يوسف عليه السلام الإعداد الكافى لحكم البلاد والتصرف فى شئونها بما يحقق لها الخير، فكان حينما تولى حكمها معقد البلاد ورجاءها فى محنتها .

* كان سببا فى مخالطته لكبار رجال الدولة بحكم وجوده فى بيت العزيز مما مكنه من الاطلاع على عيوب الحكم وطرق علاجها، وعرفه رجال الدولة على حقيقتهم .

* إن إعلام العزيز لامرأته (زليخا) بأنه قد جاءها بغلام كريم قد يتخذانه ولداً كان ذلك من أهم الأسباب التى مكنت له عليه السلام فى الأرض ، إذ فاض أمره حتى أن الملك طلبه ليصطفيه لنفسه، وولاه حكم مصر ليواجه أحلك الاوقات وأشدها حاجة إلى علمه وحكمته ومقدرته عليه السلام على تدبير الأمور وتصريفها .

واختلفوا فى تقدير عمره عليه السلام حين اشتراه العزيز ، فمنهم من قدره بثلاث عشرة سنة ، وآخرون قدروه بسبع عشرة سنة وذهب البعض إلى أن عمره كان ثلاث سنوات ! وهذا خطأ .

ويمكن تقدير عمره عليه السلام بعدة طرق منها :

* سرده عليه السلام لرؤياه على أبيه سرد العارف المتمكن ، وتنبيه والده عليه إلى عدم حكايتها لاخوته .

* كيد إخوته له وغيرتهم منه ، فلو كان طفلا لما أثار فيهم هذه الغيرة الشديدة التى دفعتهم إلى التآمر عليه ، والكبير البالغ لا يغار مطلقا من حب والديه للأطفال الصغار بل إنه يشاركهم فى هذه المحبة الطبيعية فضلا عن محاولة لوم الوالدين عليها . وهذا يؤكد أنه كان فى سن دون البلوغ، وهذا هو ما أثار حفيظتهم عليه ، ولا يعقل أن يثور عصبة من الرجال أولى القوة والبأس لأن والدهم يحب طفلا أكثر من حبه لهم .

* إن إخوته طلبوا من أبيهم أن يرسله معهم يرتع ويلعب ويشاركهم رياضتهم وسبقهم ورميهم وهذا يدل على أنه لم يكن طفلا أو صبيا بل غلاما دون البلوغ أو فى مرحلة البلوغ .

* إن رائد الماء للقافلة حدد لنا مرحلة السن بأنها هى المقدرة «للغلام» وهو لا يطلق بحال على من تعدى مرحلة البلوغ كما لا يطلق على مرحلة الطفولة الأولى .

* إن إخوته حينما اجتمعوا به فى مصر وكان عليه السلام عزيزها ، لم يعرفوه ، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت .فارقتهم له قد تمت فى سن سابقة لمرحلة التغيير فى الصورة - مرحلة البلوغ - إذ أن التعرف على الشخص البالغ سهل مهما غاب الإنسان عنه ، وخاصة إذا كانت مـــدة الغيبة لم تتجاوز مرحلة الشباب .

كل ذلك يجعلنا نرجح تقدير عمره بحوالى ثلاث عشرة سنة حينما اشتراه العزيز.

(**ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين - ٢٢**) .

للمفسرين أقوال فى سن بلوغ الأشد ، فهو عند بعضهم سن الأربعين وهو سن النبوة عند الجمهور .

وعند البعض دون ذلك : فهو عند الامام مالك وزيد بن اسلم بلوغ الحلم . وليس هو سن النبوة . وعند البعض ليس للأشد سن معينة ، بل هو يختلف باختلاف الأشخاص والبيئات ، ويرى آخرون أنه الفترة ما بين العشرين والثلاثين [1] .

وقال تعالى فى شأن [2] موسى عليه السلام :

(**ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين-١٤**)

(١) الشهيد سيد قطب : فى ظلال القرآن ج ٩٩/١٢ .

(٢) كان موسى فى ذلك الوقت فى مصر والنبوة لم تكن إلا بعد ذلك بسنوات وهو عليه السلام عائد من مدين .

(٢٨:القصص) ونهى الحق تبارك وتعالى عن قرب مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده﴾ من الآية ١٥٢ سورة الأنعام ومن الآية ٣٤ سورة الاسراء.

قلت قد جاء الاختلاف من تعدد وجهات النظر:

فمنهم من قصد من الحكم والعلم: النبوة،

ومنهم من قصد من ذلك النبوة والرسالة(١).

ومنهم من لم يقصد من الحكم والعلم لا النبوة ولا الرسالة مالم يكن هناك نص:

قال نظام الدين النيسابورى (قيل فى الأشد ثمانى عشرة سنة وثلاث وثلاثون وأربعون إلى ثنتين وستين)(٢).

ومن وجوه الاعجاز فى الآية الكريمة:

---

(١) تكلم الامام ابن تيمية عن الفرق بين النبى وبين الرسول فى كتابه النبوات فقال: (فالنبى هو الذى ينبئه الله وهو ينبئ بما أنبأ الله به. فان أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبى وليس برسول قال تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى امنيته) من الآية (٥٢) سورة الحج ... فذكر إرسالا يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول فإن هذا هو الرسول المطلق الذى أمر بتبليغ رسالته إلى من خالف الله ... فالانبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله به من الخبر والأمر والنهى) إلى أن قال [فقوله (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) دليل على أن النبى مرسل ولا يسمى رسولا عند الاطلاق لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفون أنه حق كالعالم ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء. وليس من شرط الرسول أن يأتى بشريعة جديدة فإن يوسف كان رسولا وكان على ملة ابراهيم] الخ .. ص ١٧٢ : ١٧٣ من كتاب النبوات.

(٢) نظام الدين الحسن بن محمد القمى: غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج ١٢ ص ١١٢ هامش تفسير ابن جرير.

* بيان ارتباط الحكم والعلم بمرحلة معينة من العمر يكون الإنسان قد بلغ فيها أشده واكتمل نضوجه وتمت صلاحيته للحكم والعلم إلا ماشاء ربك .

* إن الحكم والعلم نعمة آلهية يؤتيها الله تعالى من يشاء من خواص عباده، فيضع من أوتى ذلك كل شيء فى محله المناسب لتحصل الحكمة المقصودة منه ، ويفعل الأولى فى كل شأن من شئونه لعلمه بالأصلح ، ومن لم يؤت الحكمة فليس بعالم ، ومن لم يؤت العلم فليس بحكيم .

* إن الإحسان الشرعى هو السبيل إلى الحكم والعلم بخلاف ما يظنه الناس ، وكل من اهتدى بهدى الأنبياء والمرسلين فإن له من هذا الإحسان نصيب وغير هؤلاء لا يشم منه رائحه .

* من رحمته التامة سبحانه وتعالى بعباده أنه يؤتى الحكمة والعلم لخاصته الذين اصطفاهم ، ليتعلق بهم ويهتدى بهديهم من طلب النجاة ، والتمس الفوز والسعادة فى الدارين ولا نعمة أجل من هذه النعمة .

* إن الآية قد تقدمت آية المراودة مباشرة ، لإبعاد كل شبهة عنه عليه السلام ، وتنزيهه عن كل ريبة لا تليق بمقام النبوة والرسالة : لأن الآيات التالية تقص علينا ما حدث من إمرأة العزيز لئلا يخطر فى النفس شيء بالنسبة له عليه السلام .

حل عليه السلام فى بيت العزيز وبحلوله ترادفت النعم وتضاعفت البركات ،وتواترت الخيرات ، وتذللت الصعاب ، وتيسرت الأمور ، والعزيز يشعر بهذا التحول الذى لم يشعر به من قبل ، فالقصر قد تحول إلى جنة تغذيها أنوار يوسف عليه السلام ، والأمور تسير على أحسن الأحوال ، فسمت مكانته عند العزيز ، وازداد تعلقا به عليه السلام ، وعظمت ثقته فيه ،ووجده فوق ما كان ينتظره منه ويرجوه فيه ، فما دخل فى عقده الثالث حتى اسند إليه التصرف فى شئونه الهامة ، ، لما لمسه فيه من علم وحكمة ، ونظر ثاقب ، مع سداد الرأى ، وأقامه قيما على كل ما يملكه ، مسنداً إليه ما يسنده الوالد الرحيم إلى والده الحبيب ، ولن يجد خيراً منه عليه السلام .

امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه :

ولكن الأمور كانت تجرى بالنسبة لا مرأته فى اتجاه آخر . لقد عرفته عليه السلام غلاما كان موضع عنايتها ومحل عطفها وبرها ، وموضع نظرها طبقاً لأوامر زوجها، وها هو الغلام قد أصبح شابا مكتمل الرجولة والفتوة، يزينه جمال يخطف الأبصار ويحير الألباب ، مع حسن فى السمت ، وحلاوة فى النطق ، وذكاء فى التصرف ، يعز على كبار الشيوخ ... واخذت نظرتها إليه تتحول ، وتختلف عما كانت تعهده فى نفسها ، وشعرت بالعاطفة الجديدة تنمو بين جوانحها بقوة الإعصار وهى لا تستطيع لها دفعا ولا منها خلاصاً . لقد أصبحت تتمناه كما تتمنى المرأة حبيبها ، وساعد على تغذية هذا الحب ونموه قرب السواد ، والقدرة على تهيئة الخلوة ، والتمكن من الانفراد مع المحبوب بلا رقيب يحول بينها وبينه ، وقد قاومت نفسها ما استطاعت أن تقاوم يدفعها إلى المقاومة : مراعاة مكانة زوجها ، وفضله عليها ، وطهارتها وعفتها وسمعتها ، ومكانتها الاجتماعية العالية ، ومكانتها كسيدة يجب أن تترفع عن مغازلة فتاها والتدله فى حبه وعشقه . هذا إلى أنه عليه السلام لم يترك لها أى منفذ تنفذ منه إليه ، وها هى ذى تتيح له الفرصة بعد الفرصة كى تجذب أنظاره إليها منتظرة أن يبدر منه ما يشجعها على نيل وطرها ، فتبثه ما عندها، ولكنه لا يلقى إلى جمالها بالا ، ولا إلى فتنتها اهتماما ، ولا يسعفها بشىء يساعدها على الظفر بمرادها ، ولا تشيم عنده بغريزة الأنثى سوى الطهارة والصفاء ومعاملتها كزوجة للرجل الذى اكرم مثواه ، فهو لا يرى فيها سوى زوجها العزيز ولا يتصرف إلا التصرف المناسب لكمال الخلق واستواء الرجولة التى ليست فى حاجة إلى المزيد من الاستواء ، فلم يزد ذلك نيران الحب المستعرة إلا وقدة ، وقد أذابت هذه الحرارة أسوار التستر التى أقامتها كبرياء المرأة التى تأبى أن تتبذل أو تعرض نفسها عرضا يهينها فى أعز ماتملك .

وكان لا بد من تداعى جميع التحصينات التى تختفى وراءها رغبتها الجامحة أمام ذلكم الجمال اليوسفى الخارق الذى ملأ عليها وجودها واستولى على قلبها

استيلاء قد تجاوز جميع حدود قدرتها على المقاومة ، مما جعلها تشرع فى اتخاذ جميع الترتيبات التى تمكنها من الخلوة بفتاها ، ولم تعلم المسكينة أنها إنما تقف وجها لوجه أمام كمالات النبوة وجمالها وجلالها وروعتها .

امرأة العزيز تدبر الخلوة مع فتاها :

لعل امرأة العزيز قد ظنت أن عدم التفات يوسف عليه السلام إليها إنما يرجع إلى أمور تحول دون ظهور مافى نفسه : مثل حيائه منها ، لمكانةزوجها عنده أو لفضلها عليه أو لمكانتها الاجتماعية ، أو محافظته على سمعتها أن تلوكها ألسنة الخدم والحشم بسوء . لذا عزمت على إزالة هذه الحواجز بتوفير الخلوة التى لا تنالها العيون ، كما قررت أن تكون هى الداعية له . المصرحة بالرغبة فيه ، وذلك على عكس طبيعة الأنثى - مهما كانت بيئتها أو منبتها - التى تفرض على المرأة أن تكون فى مثل هذه المواقف مطلوبة لا طالبة ، مرغوب فيها لاراغبة متهافتة على رغبتها ، ولكنها ضربت بهذه الطبيعة عرض الحائط واستقر عزمها على أن تهبه نفسها وأن تترامى عليه عساها أن تتمكن من ارواء ظمئها القاتل ، وإن قطفى لهيب الحب الذى لم تستطع الصبر على اصطلاء نيرانه . وأن تنفس عن سرها ما لم تقدر على كبحه ولا كتمانه ، وكيف يطلب منها أن تصبر وكل ذرة فى وجودها تسعى إلى فتاها ! !

﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ﴾

وتعدية فعل المراودة (بعن) كناية عما تطلبه المرأة من الرجل إذا ما اشتهته. وعدم التصريح باسمها ، لأنها فى موقف تقبح رؤيتها فيه ، والعرب تضيف البيت إلى المرأة فيقولون : ربة البيت ، وصاحبة البيت .

والمراودة[1] هى الطلب برفق ولين مع مخادعة ، ومحايلة ، للوصول إلى

---

(١) ننبه هنا إلى ما يساعد على فهم ماحدث فهما صحيحا طبقا للنص :
وهو ان المراودة إنما هى شروع فى الفعل ومعنى ذلك ان الهم بالمعصية يكون قطعا من المراحل السابقة للمراودة .

=

المطلوب ، فهى قد استنفدت انتحال جميع الأسباب التى تمكنها من إبراز مفاتنها وعرض محاسنها ، ومواضع الفتنة من أنوثتها ليقع محبوبها فى شراكها ويستجيب لها ، وهى تفعل ذلك آمنة مطمئنة لأنها فى بيتها .

ولما لم يجدها جميع ذلك نفعاً شرعت فى تدبير الخلوة التى تمكنها من نيل مرادها ، فتخيرت يوما غاب فيه زوجها . واحتجت بما يتطلب صرف خدمها لتأمن الرقيب ، وأخذت زخرفها وازينت (وغلقت الأبواب)[1] يعنى جميع الأبواب المفضية إلى مخدعها ، متخذة الحيطة والحذر من الأهل والحاشية والخدم، والذين استبقتهم من خدمها شغلتهم بأية مهمة، وغلقت الأبواب من دونهم بأية حجة، حتى تأمن من عيونهم، ولما استوثقت من قيامها بالترتيبات التى تحول دون تعكير صفو خلوتها، أو مفاجأتها ، احتجت ببعض الشئون لتدعوه عليه السلام إلى مخدعها ، وشرعت فى اجتذاب نظره إليها ، وإثارة اهتمامه بها ، والمرأة من شأنها أن تكون مطلوبة للرجل لا طالبة له ، فهى تستدرجه بغريزة الأنوثة المسلحة بها ، ليفعل ماتشتهيه هى ، دون أن تصرح له بما تريد ، بل مع إبداء نما نعتها الصورية لذلك ، وتتوقف مهمتها عند بذل كل ماتستطيعه من فنون الإغراء وضروبه لمن وقع اختيارها عليه. ولما رأت أنه عليه السلام لا يأبه بقصدها، ظنت أنه يخجل منها ، فأرادت أن تزيل كل أثر للحياء ، وأن ترفع أية كلفة قد تحول بينه وبينها ، ولم تتردد حينئذ فى التصريح له بما لا تصرح به الأنثى فى

= ولا يجوز بعد أن بادرت إلى تنفيذ خطتها لبلوغ مرادها وبعد ان دبرت مادبرته وبعد أن حدث من المراودة من جانبها ماحدث ان يقال انها لم تهم بشىء وإنما جاء الهم بعد ذلك كله ! ! وكيف يصح ذلك مع ان الهم هو مقاربة الفعل من غير دخول فيه لمانع حال دون ذلك ؟ وقد رأيناها اخذت بجميع الأسباب الموصلة إلى الفاحشة فلا يصح ان يقال أن هذا كله لم يتقدمه هم من جانبها ! !

(١) هذه الجملة وقعت حالا من فاعل راودته : اى راودته حالة كون الأبواب مغلقة . وجمهور المفسرين انها سبعة ابواب .

هذه الأحوال ﴿ وقالت هيت[1] لك ﴾ أى هلم إلى وأقبل على فقد وهبت نفسى لك ، وتهيأت لهذه الساعة .

ولم يبق بعد هذه الدعوة السافرة أى لبس فى مقصدها ، ولم يبق أى شك فيما ترمى إليه وتبتغيه ، وانتظرت منه أن يطرح كل حياء منها ، وأن يستجيب لدعوتها له ، وأن يبادر فى السعى إلى ما طلبته منه ، بعد هذا التصريح الذى لا يحتاج إلى توضيح ، وهى التى اعتادت أن تأمر فتطاع وأن تومىء فتجاب ، فما بالك وقد صرحت الآن بأنها تهب نفسها لفتاها ، وهذا التصريح منها بمثابة إطلاق آخر مافى جعبتها النسائية من الحيل كما أنه بمثابة التفريط فى آخر قطرة من كرامتها .

وبدأت تحس بشدة الصدمة وذل القهر ، بل لو انقضت عليها الصواعق أو ألقيت من شاهق لكان أهون عندهامن سماعها ليوسف عليه‌السلام وهو يجيب على عرضها السافر :

﴿ قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ﴾ من الآية ٢٣ .

ذهب مجاهد والسدى وابن اسحق أن الضمير فى (إنه) يعود إلى العزيز ، وجرى على ذلك بعض أهل التفسير ، فيكون المعنى : كيف أجازى بأسوأ خيانة فى الأهـــل ، من أحسن تعهدى ، وأمرك بإكرامى ، وائتمننى على نفسه وأهله وماله ! !

واستبعد أبو حيان أن يطلق نبى كريم على مخلوق أنه ربه ، كما استبعد أن يطلق على العزيز أنه سيده ، لأنه لم يكن فى الحقيقة مملوكا له .

وذهب آخرون ـ وهو الأصح ـ إلى أن الضمير إنما يعود على لفظ الجلالة . قال أبو حيان (والضمير فى « إنه » الأصح أن يعود على الله تعالى أى أن الله ربى أحسن مثواى إذ نجانى من الجب وأقامنى فى أحسن مقام)[2] .

(١) فيها تسع قراءات : أبو حيان : البحر المحيط جـ ٥ ص ٢٩٤ .
(٢) نفس المرجع السابق : جـ ٥ : ص ٢٩٤ .

فيكون موقع (ربى) من الإعراب خبر إن ، أو بدلا من الضمير : وعلى الوجه الأول يكون المعنى إنه الله تبارك وتعالى و (أحسن مثواى) خبر ثان - وعلى الوجه الثانى يكون المعنى : إنه خالقى الذى أكرمنى وسخر لى قلب زوجك الذى أوصاك بإكرامى فكيف أعصيه تعالى ؟ !

قلت : إن الآية الكريمة لم يجر فيها ذكر للعزيز حتى يعود الضمير فى (إنه) إليه ، وأقرب الألفاظ التى يمكن أن يعود الضمير إليها هو لفظ الجلالة ، إذ أن موقع الضمير فى الآية جاء فى اللفظ التالى للفظ الجلالة ، والضمير إنما يعود إلى أقرب الألفاظ إليه مالم تكن هناك قرينة مانعة من ذلك ، ولا قرينة هنا تمنع من تعلق الضمير بلفظ الجلالة ، فالمعنى على هذا يكون : إنه خالقى الذى أحسن إلى فلا أعصيه .

ونعتقد أن الذين أعادوا الضمير على العزيز إنما نظروا إلى امرأة العزيز التى لا تفهم من قوله (إنه ربى) سوى العزيز ، كما نظروا إلى لفظ - المثوى - الذى جرى على لسان العزيز فى بداية القصة - ولكننا نقول إن جريان المعنى على مراد يوسف عليه السلام وعلى مراد امرأة العزيز من وجوه الإعجاز فى الآية الكريمة .

بيان وجوه الاعجاز فى قوله تعالى :

﴿ قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ﴾ من الآية - ٢٣

— استعاذ عليه السلام بالاسم الأعظم الذى تتعلق به جميع الأسماء الحسنى والصفات القدسية ، وهذه الاستعاذة التامة تنبئ عن هول المنكر المستعاذ منه .

— فى هذا إشعار بأن الجريمة المستعاذ منها هى إحدى الكبائر التى تمس الأصول الخمسة التى جاءت الشرائع جميعاً بحفظها .

— إعلان بانصرافه التام عليه السلام عن هذا المنكر معتصما بالله تعالى ومستجيرا به عز وجل فيجب عليها أن تيأس من نيل مقصدها ، وهى على علم تام بطباعه عليه السلام لطول إقامته فى بيت العزيز .

— دعوة إلى الفرار إلى الله تعالى للوقاية من الموبقات والمهلكات والاستعانة به عز وجل لوقاية الإنسان من شرها، وشر التردى فيها .

— تصريح منه عليه السلام بأن الله تعالى قد أحسن إيواءه ، إذ جاء غريبا ودخل مصر ضعيفاً لا حول له ولا قوة ولا معين ولا أهل ، فآواه الحق تبارك وتعالى إليه ، وأحاطه بعنايته الشاملة وكلأه برعايته التامة : فكيف بعد ذلك كله يواجه خالقه عز وجل بكبيرة من أعظم الكبائر ؟

وننبه هنا إلى الفرق الكبير بين ما جاء فى هذه الآية الكريمة على لسان يوسف (أحسن مثواى) وما جاء على لسان العزيز فى الآية الكريمة (٢١) (اكرمى مثواه) . فالضمير فى الأولى متعلق بالله تعالى ، وفى نفس السورة فى أواخرها يجىء فعل (أحسن) والذى أحسن هو الحق تبارك وتعالى :

﴿ وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو ﴾ من الآية - ١٠٠ .

بل ما جاء الفعل (أحسن) فى القرآن الكريم غير متصل بضمير إلا كان فاعله لفظ الجلالة :

وفى سورة القصص جاء فى الآية (٧٧) منها :

﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ﴾

وفى سورة الطلاق جاء فى الآية (١١) منها ﴿ قد أحسن الله له رزقا ﴾

— فى الآية توجيه لطيف لامرأة العزيز إلى مراعاة حقوق الزوجية ، كما يذكرها ذلك بأمر زوجها لها فى بداية القصة (اكرمى مثواه) .

فينبغى عليها أن تقتدى به عليه السلام فى هذا الموقف فتصون عرض زوجها الذى أحسن إليها وكان سبباً فى تكريمها ورفع مكانتها الاجتماعية ، كما أنه السبب فى النعم المحيطة بها ، ويقتضى كل ذلك عدم الالتفات منها إلى ما يسىء إليه ففضله عليها أعظم وأكبر فهى أولى من يحافظ على كرامة زوجها وسمعته دون حاجة إلى نصح أو إلى وعظ .

ـ بعد الاستعاذة بالله جاء بإحسانه تعالى إليه (إنه ربى أحسن مثواى) فالله تبارك وتعالى وقد أحسن مثواه أن يجعل لأحد سبيلا كى يدنس هذا المثوى . فلا سبيل إلى الفاحشة مطلقاً ـ فإن المثوى الذى تدنسه الفاحشة يكون مهيناً .

ـ إن معنى الكلام يكون تاما على مراده عليه السلام وعلى مراد امرأة العزيز فى قوله « إنه ربى أحسن مثواى » وفى ذلك من الاعجاز ما فيه فى ذلك الموقف الدقيق ، فأغنى عن الشرح والتفصيل الذى لا يحتمله الموقف لخطورته .

ـ فى قوله ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ تعليل إثر تعليل، لصرفها عن قصدها وتنبيه لها عسى أن تثوب إلى رشدها . وقد نفى الفلاح نفياً قاطعاً عن الظالمين، ومهما اعتقد الظالم أنه سيكتسب من وراء الظلم من منفعة عاجلة أو لذة فانية تافهة ، فإن مآله هو الخسران المبين ، وما أفلح ظالم أبداً فى تاريخ البشرية ، ويدخل فى سلك الظلمة كل من سلك سبيلهم وسار على منهجهم، وأقبح الظلم هو ظلم الإنسان لمن أحسن إليه، فما بالك لو جازى من أحسن إليه بأسوأ الإساءة .

استعاذ عليه السلام بالله الذى بيده ملكوت كل شىء وهو جل جلاله الملجأ الذى يلجأ إليه كل مكروب ، ثم نبه عليه السلام إلى إحسان الحق تبارك وتعالى إليه ، ولا يناسب أن يجازى الإحسان بالإساءة ، وختم بنفى الفلاح نهائيا عن الظالمين ، ولولا الانقطاع الكلى عن الله تعالى ما رأى الظالم فى ظلمه أى خير ، ولما أقدم عليه غير هياب ولا وجل .

(ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ـ ٢٤) :

وجدت امرأة العزيز منه عليه السلام الإعراض الكامل عن شأنها ، والانصراف التام عن رغبتها ، كما لمست فيه عدم الاكتراث بها ، بل إنها بعد أن عرضت نفسها صاغرة ذليلة عليه ، إذا هو يقف منها موقف المؤدب الذى يذكرها بواجباتها ، ويوجهها إلى الاعتصام بالعفة والطهارة ، وينهاها ضمناً

عن هذه المحاولات الآثمة ، وهالها أن يتجاسر وهو فتاها أن يقف منها هذا الموقف الذى لم يخطر لها على بال ، وهى التى اعتادت أن تتلق نظرات الإعجاب بها ، وحركات الخضوع لها ، والاجلال لشخصها والطاعة لأوامرها .

فاعتبرت ذلك منه صفعة أليمة موجهة إليها، وضربة قد أصابتها فى صميمها ، بل قل إهانة لها لاتضاهيها إهانة ، وتحقيراً لها لا يماثله أى تحقير ، هنا لك أعماها الغضب فسلبها كل تدبير ولم يترك أمامها سوى الانتقام ... فاندفعت بكل قوتها تبتغى البطش بمن أذلها ، لعلها تسترد بعض كرامتها ، ولما رآها عليه السلام مندفعة نحوه وآثار الغدر تسبقها : ثار غضبا لله تعالى وهم بدوره أن يبطش بها . .

وفى هذه اللحظة الرهيبة رأى برهان ربه فأضاء له كل شىء ، إذ علم أن ضربها سيثبت عليه الفاحشة بحيث لا يمكن نفى ذلك عنه أبدا : فسيجلب صراخها الشهود من كل مكان . وسيكون التفسير الطبيعى لاعتداء رجل بالضرب على امرأة فى مخدعها أنه أرادها فامتنعت عليه ، فأراد أن ينال بالعنف مالم ينله باللين ... ومهما كانت قوة البراهين المؤيدة لبراءته فإنها جميعا ستتلاشى أمام ما يوحى به هذا التصرف وسيتعذر بل يستحيل نفى الجريمة .

وقد اختلف المفسرون فى ماهية البرهان ، فبعضهم يقول إنه رأى أباه عاضا على أصبعه ، وبعضهم يقول إنه رأى جبريل عليه السلام ... ولكنهم يقولون إن البرهان الذى رآه كان ينهاه عن ارتكاب الفاحشة ! !

ونحن نقول إن هؤلاء قد أخطأوا الحقيقة ، بل واجترؤا على مرتبة النبوة والرسالة ، إذ الحقيقة أن البرهان الذى رآه عليه السلام إنما ينهاه عن ضربها ويبين له أن النجاة من هذا الموقف الرهيب إنما هى فى مبارحة المكان بأقصى سرعة ممكنة لأن الاشتباك معها سيتخذ برهانا على محاولة ارتكاب الفاحشة وهذا ما لا يليق بمرتبة النبوة والرسالة التى يجب أن تصان عن الصاق مثل هذه التهمة البشعة بها ، ولا يصح لهذه المرتبة أن تكون موضع اتهام بفاحشة أبدا،

فكيف يكون سبباً فى التورط فيما يلوث سمعة النبوه والرسالة ، من حيث يريد دفع الفاحشة عن نفسه ؟ لقد وضح كل شىء بعد أن رأى عليه السلام برهان ربه فعلم أن ماهمت به سيكون فى صالحها ، إذ سيثبت عليه ماتريده هى ، ولا سبيل إلى النجاة إلا فى سرعة مغادرة المكان ، ولم تستغرق رؤية البرهان وقتاً بدليل استباقهما الباب معا ، إذ أدركت أنه قد سار فى الطريق الصحيح ، فعدل عن ضربها وهاهو يشتد يسعى ليتخلص من هذا المأزق ، فبادرت لتحول دون خروجه لتنتقم منه لكرامتها .

ويرى البعض أنهما قد وصلا فى المطاردة إلى الباب الخارجى للقصر ويرى آخرون أنهما قد بلغا باب المخدع ، والرأيان من التخمين الذى لا يعتمد على أساس .

هذا ولو تأملنا فى طبيعة تنظيم هذه القصور لوجدنا أن للقصر حديقة توصل إلى الباب الخارجى ، وقطع المسافة إلى هذا الباب يستغرق وقتاً فضلا عن التعرض للانظار .

وباب المخدع فى متناول اليد فلا يحتاج إلى كبير مجهود للوصول إليه . هذا إلى أن لقاءهما مع العزيز وضيفه يدل عن أن المطاردة قد تجاوزت هذا الباب ؛ إذ ليس من المعتاد أن يصطحب الإنسان ضيفه ـ أيا كانت قرابته ـ إلى المخدع خصوصاً من كان فى منزلة العزيز .

والأبواب التى غلقت كانت متعددة ، فمنها ما يفضى إلى أجنحة الخدم ، ومنها ما يفضى إلى اجنحة أخرى فى القصر ، ومنها ما يفضى إلى الباب الخارجى وهذا الطريق هو المقصود .

فالاتجاه إذن كان إلى فتح الأبواب المفضية إلى الباب الخارجى وعند إحداها اقتربت منه بحيث أدركت يدها قميصه من الخلف فجذبته بكل قوتها ، فانشطر القميص بطوله ، مما يدل على قوة العزم من الجانبين : عزمها على منعه من الخروج وعزمه على الإفلات منها . فكان الاستباق على المعنى الذى قصده كل منهما .

وفى هذه اللحظة الحاسمة تتدارك الرحمة الالآهية يوسف على السلام إذ يواجه الطرفان فجأة العزيز وضيفه لدى الباب .

(والفيا) قال الامام البخارى : وجدا ، وهى قراءة عبد الله (سيدها) زوجها (لدى الباب) عند الباب .

وشهد شاهد من أهلها :

فى هذا الموقف المروع تظهر قوة مكر الأنوثة وصمودها الهائل للدفاع عن كيانها ، فها هى تواجه فجأة الرجل الذى كانت تبذل فى كل ما فى وسعها لخيانته ، وتوغل فيما يشوه سمعته غير عابئة بمركزه ولا بفضله ولا بحقه عليها وكانت صدمة المواجهة تقتضى أن تتداعى أمامه ، أو أن يظهر عليها الحرج ، أو تنطق أحوالها بما كان يدور فى نفسها . ولكنها تمالكت أعصابها ، ولم تعوزها الحجة فى موقف تذهب فيه كل فطانة ، ويتزعزع كل ثبات ، ويطير فيه قلب الجرىء ، فلا يتضمن كلامها إلا ما يدل على البراءة من كل إثم والطهارة من كل سوء ، وبدأت تحاول فى ذكاء خارق وسرعة مذهلة : علاج الموقف بطريقة تتفق وصالحها .

بيان وجوه الاعجاز فى قوله تعالى :

« قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوء إلا أن يسجن أو عذاب أليم »

١ — جعلت صدور إرادة السوء عن يوسف عليه السلام أمرا ثابتا غير مطروح للمناقشة ، وغير قابل للبحث — ولذا لم تطلب التحقيق فيما ارتكبه ، بل طلبت توقيع الجزاء عليه لما ثبت وقوعه منه .

والذى وقع منه فى نظرها هو همه بضربها ، وهذا أمر لم يكن متوقعاً من مثله لمثلها ، وكيف يجوز له أن يرتكب هذه الكبيرة وهو الذى يجب أن يطيعها فى كل ما تأمر ؟ فجرى عمله هذا بالنسبة إليها مجرى السوء ، وهى اشدة ذكائها جاءت بعبارة تؤدى معنيين لصالحها ، فإرادة السوء منه تحتمل أنه حاول ضربها ، كما تحتمل أنه قصد أن ينال منها مالا ينبغى .

٢ — لم تخصص نفسها بإرادته للسوء ، بل عممت ليشمل أهل العزيز ، ومن المعتاد أن يقصد بالأهل الزوجة ولكن فى الظروف غير العادية لابد من التخصيص لتحديد المسئولية حيث لا ينفع التعميم ، وكأنها جاءت بلفظ الأهل ليدخل فى هذا الحكم كل ما يشمله هذا اللفظ فى القصر بما فى ذلك امرأة العزيز ، ولا يخفى ما فى ذلك من تمييع للقضية .

٣ — لو كان فى نيتها التخلص منه عليه السلام والنجاة بنفسها لقالت بادىء ذى بدء ما جزاء من أراد بامرأتك الفاحشة ، ولكنها جاءت مرة أخرى بلفظ عام وهو « السوء » الذى يتسع معناه لتجاوز الحد فيما بين الفتى وسيدته بالإهانة أو العصيان أو عدم تنفيذ أمر ما .

كما قد يفهم منه المغازلة ، أو الضرب الخ . . . فهى بالتعريض باتهامه تحاول صرف الانتباه عن حقيقة ما حدث .

٤ — مما يدل على شدة تمكنها من الموقف أن كلامها فيه إغراء ليوسف عليه السلام بالسكوت ودعوة إلى التعاون معها للخروج من المأزق ، يعنى أنها ما زالت تطمع فى قضاء وطرها ، ونيل بغيتها وكأنها تقول : فى إمكانى أن أتهمك اتهاما مباشراً بالفاحشة ، ولكنى أعطيتك فرصة للنجاة ، لعل ذلك يرضيك ويبعثك على مراجعة نفسك والسكوت عما حدث من جهة ، والرضوخ لى من جهة أخرى ، وفى ذلك ما يدل على أنها لا زالت مصرة على استئناف محاولاتها من جديد .

٥ — فى دعواها أمام زوجها اعتبرت أن المسألة غير خاصة بالعرض ، بل بتأديب يوسف عليه السلام . وبلباقة حاولت توجيه الانتباه إلى بحث نوع العقوبة التى يستحقها ، وخشية تغليظها ، اقترحت بنفسها العقوبة المألوفة فى مثل هذه الأحوال : وهى ليست بعقوبة التعدى على الأعراض ولكنها عقوبة من تجاوز حد الأدب إما بالسجن وإما بالتعذيب المؤلم .

فهى بمكرها قد جعلت براءتها فوق الشبهات ، وغير قابلة للمناقشة .

٦ — يتضمن كلامها تهديداً مستترا ليوسف عليه السلام بأنها هى صاحبة السلطان التى بيدها الأمر والنهى ، وهاهى تقترح العقوبة التى توقع عليه ، ومن اقترح العقوبة فى إمكانه أن يقترح العفو أيضا .

ومن قدم السجن فى هذه المرة يستطيع أن يقدم التعذيب أو القتل مرة أخرى . ومن عمم إرادة الأهل بالسوء فى هذه المرة ، يمكنه أن يخصص الأهل بالزوجة والسوء بالفاحشة فى المرة القادمة .

فهى تريه أنها سيدة الموقف ، لدرجة أنها تستغل الواقعة لتهديده عليه السلام من طريق الإشارة تحت سمع زوجها وبصره ، وليفهم أنه واقع فى قبضتها لا محالة ، ولا سبيل للنجاة سوى الرضوخ لرغبتها ما دام فى استطاعتها أن تفعل به ما شاءت وإن يتمكن من النجاة من مكرها وكيدها .

٧ – فى إضرابها عن عقوبة الإعدام ، وذكرها للعقوبة التى تبقى على حياته عليه السلام وتقديمها للسجن على العذاب تريد أن توحى أن الذى حدث ليس بالأمر الجلل الموجب للقتل أو التعذيب ، وفى هذا ما فيه من تسكين لثائرة زوجها وتهدئته وصرفه عن الظنون .

٨ — بالرغم من إعراض يوسف عليه السلام عنها ، فإنها كانت تكن له أشد الحب : فهى تكتفى فى اتهامه بالتعريض والظن لتميع القضية الأساسية كما أنها لم تتجاسر على تلفيق جريمة محاولة ارتكاب الفاحشة لأن هذا ليس من مصلحتها : تعظيما منها لطهارته عليه السلام ، وخوفا عليه من أن يعامل بقسوة من أجل تزويرها وتضليلها القوم عن حقيقة ما حدث .

وهذا هو ما حملها على تقديم السجن وتأخير العذاب ، فهى لا تريد أن يمسه أحد بعذاب ، ولما أنها قد اعتادت أن تنفذ رغباتها الأولى فقد كانت واثقة من أن يكون مآله السجن ما لم يرضخ لرغباتها . كذلك أطلقت المراد من السجن ليحصل بأقل مدة ، ولو أرادت الحبس الطويل لقالت أن يجعل من المسجونين كما هدد فرعون موسى عليه السلام .

وهى فى جميع ما تقول تعلم أنها آثمة ، وأنه لم يعصمها من السقوط سوى عصمة يوسف عليه السلام ، ولكنها فى نفس الوقت تخادع خداعاً يوصلها إلى مقصودها .

لم تكن امرأة العزيز تعلم أنها أمام شخص غير عادى : قد آتاه الله الحكمة وعلمه تأويل الأحاديث فلا يخفى عليه ما تبطنه فى حديثها أو ما تضمره فى قرارة نفسها ، ولم تكن تعلم أن براءة النبوة من كل ريبة يجب أن توضع فوق كل شبهة ، ولما أن وجهة نظرها هذه تجعل الموقف متنافيا مع جلال النبوة ومرتبتها السامية ، لذا لم يتردد عليه السلام فى التصريح بحقيقة ما حدث دون محاباة أو حياء فى الحق ، فكانت المفاجأة التالية أشد عليها مما حدث :

(قال هى راودتنى عن نفسى) من الآية ٢٦ .

وما صرح عليه السلام بذلك إلا بعد أن بدأت هى أولا باتهامه ـ أيا كان قصدها من هذا الاتهام ـ فوضعته فى موقف لا يصح السكوت عليه إذ سينتهى حتما إلى خدش مرتبة النبوة .

فلابد من طرح القضية أمام العزيز على حقيقتها لا بصفته الشخصية فقط بل وبصفته الحاكم المنفذ للقانون ؛

أولا : لأن مكانة العزيز عند يوسف عليه السلام مكانة عزيزة ، ولابد أن يعلم الحقيقة .

ثانياً : لقد أصبح الأمر متعلقا بإثبات براءته من كل ما يتنافى مع مقام النبوة الذى لا يحتمل أن يوجه إليه ما يمس العصمة أبداً .

فصرح غير هياب ولا وجل بموضوع القضية ، مقرراً أنها راودته عن نفسه ، مما يبطل أى ادعاء منها عليه . وعبارته عليه السلام — بخلاف عبارتها — يفهم منها كل شىء دون حاجة إلى تفصيل أو إضافات ، وما رآه العزيز أصدق شاهد على ذلك .

وقالوا : إن التعبير عنها بضمير الغيبة[1] الذى جرى مجرى اسم الإشارة إليها مراعاة لحسن الأدب مع الايماء إلى الإعراض عنها .

قلت :

إن الخطاب موجه إلى العزيز فلا يصح أن يكون فيه ضمير خطاب لها ، وفى هذا من الأدب ما فيه لأن العزيز هو صاحب الشأن ، ومن جهة أخرى لا يعطيها ذلك فرصة للدخول مع المتكلم فى جدل لا ينبغى بخلاف ما لو وجّه إليها الخطاب فى هذا الموضوع الدقيق . كذلك لم يصرح بلقبها حياء من العزيز.

وبتصريحه عليه السلام تطورت القضية من اتهام عام له عليه السلام بإرادة السوء بأهل العزيز إلى قضية أخرى واضحة المعالم ألا وهى اتهامها بالمراودة ، ولا ينقصها سوى الشهود .

نعم إن العزيز يعلم أن هذا الفتى الذى يتهمها لم يعهد عنه الكذب ، ولم يعهد فيه سوى الصدق والأمانة ، ومن هنا استمد الاتهام قوته ووضوحه ، فهو ليس باتهام شخص عادى ، بل هو صادر عن ربيب العزيز الذى لم يعلم عنه إلا أنه مثال الفضل والصدق والأمانة والوفاء والاخلاص والاحسان بدرجة لا يمكن أن تشوبها شائبة .

وها هو العزيز قد شهد خاتمة الواقعة بنفسه ورآه وهو يشتد فى طلب الخروج وهى تطارده فى كامل زينتها لم يمسسها مخلوق بسوء . ولا يدل هذا إلا على أنه كان يتحاشى ما تريده منه ، ويريد هو النجاة مما تطلبه وتشتهيه . ولا يعقل أن يقوم رجل بمراودة انثى وهو فى نفس الوقت يفر إلى الباب طالبا التخلص منها .

﴿ وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من

---

(١) قال ابن هشام أن هى ضمير لمن بالحضرة وكما يحدث فى الضمير المنفصل يحدث فى المتصل « يا أبت استأجره » مع أنه كان حاضراً .

الـكاذبين - ٢٦ - وإن كان قميصه قد من دبر فـكـذبت وهو من الصادقين - ٢٧ - فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم-٢٨﴾ عن مجاهد قال : حكم حاكم من أهلها . وقد تأتى الشهادة بمعنى القول فيكون المعنى (وقال قائل من أهلها)(١)

وقد تـكلم المفسرون عن شاهد يوسف عليه السلام من وجوه :

(الأول) : أن هذا الشاهد هو القميص ، روى هذا القول عن مجاهد ، فأنزلوا البينة منزلة الشاهد وهذا غير مطابق للسياق ولا يقال عن القميص إنه من أهلها .

(الثانى) : أنه كان ابن عمها ، ولا ينافى ذلك ما روى عن ابن عباس وعن قتادة من أنه كان رجلا حكيما من أهلها يأخذ الملك برأيه ويستشيره، إذ لا مانع أن تـكون هذه صفات ابن عمها .

وكونه من أهلها أولى بقبول شهادته فى حق المرأة لها أو عليها ، لأن الظاهر من حال أقارب المرأة وأهلها عدم قصدها بشىء فى عرضها ، فإذا جاءت الشهادة مبرئة له عليه السلام كانت أقوى وأنفى للتهمة والزم للمرأة بها ، فشهادة القريب فى هذه الأمور أقوى من شهادة الغريب - وسمى شاهدا لأنه ثبت بكلامه صدق يوسف و بطلان دعواها عليه .

(والثالث) : إنه صبى(٢) فى المهد ، وقد روى ذلك (عن ابن عباس وأبى

---

(١) الفراء : معانى القرآن جـ ٢ ص ٤١ .

(٢) اختلف فى شاهد يوسف فقيل كان صغيرا وهذا أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس ،وسنده ضعيف ، وبه قال الحسن وسعيد بن جبير - وأخرج عن ابن عباس أيضا ومجاهد أنه كان ذا لحية . وعن قتادة والحسن أيضا أنه كان حكيما من أهلها . على أن الروايات لم تحدد أن شاهد المهد فى قصة يوسف عليه السلام كان خاصا بهذه الواقعة فلا خلاف إذن بين الروايات .

والأحاديث التى جاء فيها ذكر من يتكلم فى المهد هى :

. (لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة) الحديث وجاء فيه ذكر عيسى عليه السلام وصاحب =

. . . .

=جريج والمرأة الاسرائيلية التى كانت ترضع طفلها وهذا الحديث رواه الشيخان والامام أحمد عن أبى هريرة .

• (ولم يتكلم فى المهد إلا أربعة عيسى وشاهد يوسف وصاحب جريج وابن ماشطة فرعون) رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة .

• (لم يتكلم فى المهد إلا أربعة) الحديث . رواه الامام أحمد والبزار وابن حبان والحاكم عن ابن عباس . وجاء فيه ذكر عيسى وصاحب جريج وشاهد يوسف وابن ماشطة فرعون لما أراد فرعون القاءها فى النار فقال لها اصبرى يا أمه فإنا على الحق.

• وقد تعقب الطيبى ذلك بأن هذا يتعارض مع دلالة الحصر فى حديث الصحيحين عن أبى هريرة ، ورد الجلال السيوطى تعقيب الطيبى بأنه على جارى عادته من عدم الاطلاع على طرق الأحاديث ، والحديث المتقدم صحيح ورواه الحاكم فى مستدركه عن أبى هريرة وقال صحيح على شرط الشيخين .

قلت : إن الطيبى إنما قد أشار إلى التوفيق بين الاطلاق وبين الحصر ، والوجه أن يحمل للمهد قيدا وعلى المناسبة قيدا .

• ووقع ذكر شاهد يوسف ايضا فى حديث عمران بن حصين لكنه موقوف وروى ابن أبى شيبة من مرسل هلال بن يسار مثل حديث ابن عباس إلا انه لم يذكر ابن الماشطة .

• وفى صحيح مسلم من حديث صهيب فى قصة أصحاب الأخدود ان امرأة جيء بها لتلقى فى النار او لتكفر ومعها صبى يرضع فتقاعست فقال لها « ياأمه اصبرى فإنك على الحق » .

• وذكر الثعلبى ان الضحاك فى تفسيره ذكر ان يحيى تكلم فى المهد .

• وذكر البغوى فى تفسيره ان ابراهيم الخليل قد تكلم فى المهد .

• وفى سير الواقدى ان النبى صلى الله عليه وسلم تكلم فى أوائل ماولد .

• وقد تكلم فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم مبارك اليمامة وقصته فى دلائل النبوة للبيهقى : —

وجمع الإمام السيوطى الذين تكلموا فى المهد فى هذه الأبيات :

هريرة وسعيد بن جبير وهلال بن يسار)[1]

ورد الجبائى كونه طفلا فى المهد . لأن شهادته حينئذ تكون برهانا قاطعا والعدول عن الحجة القاطعة حال حضورها وحصولها إلى الدلالة الظنية لا يجوز .

ورد الجبائى جائز ومقبول لو أن شهادة الطفل فى المهد كانت واقعة حال وقوف العزيز لدى الباب . وترتيب الحوادث لا ينافى وقوع شهادة الطفل فى أى وقت آخر . ولا يلزم أن يكون الناطق فى المهد من أهلها أو من غيرهم لأن شهادته قاطعة .

﴿ إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ٢٦ وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ٢٧ ﴾ .

إن قطع القميص إن كان من الأمام كان ذلك دليلا على صدقها ، لأن الرغبة لو كانت منه ، والامتناع منها ، لأدى ذلك إلى قطع قميصه[2] من الامام لا من الخلف .

= تكلم فى المهد النبى محمد ويحيى وعيسى والخليل ومريم
ومبرى جريج ثم شاهد يوسف وطفل لدى الاخدود يرويه مسلم
وطفل عليه مر بالأمة التى يقال لها تزنى ولا تتكلم
وماشطة فى عهد فرعون طفلها وفى زمن الهادى المبارك يختم

وقال القرطبى يحتمل أن يكون كلام الثلاثة المذكورين فى حديث الصحيحين مقيدا بالمهد وكلام غيرهم من الاطفال بغير مهد ، لكن يرد هذا : التصريح الذى جاء فى بعض الأحاديث بأنهم فى المهد ؛ ففى رواية أن الصبى الذى طرحت أمه فى الاخدود كان ابن سبعة أشهر وصرح بالمهد فى حديث أبى هريرة فيكون احتمال القرطبى ليس بشىء .

(١) الجصاص : أحكام القرآن حـ ٣ ص ١٧١ .

(٢) قال ابن المنير : ماقرر فى اتباعه لها يحتمل مثله فى اتباعها له ، فإنها إنما تقد قميصه من قبل بتقدير أن يكون عليه السلام أخذ بها حتى صارا متقابلين فدفعته عن نفسها . وهذا بعينه يحتمل إذا كانت هى التابعة بأن تكون اجتذبته حتى صار امتقابلين

ورد على ذلك العلامة صبغة الله الحيدرى بقوله (الظاهر ان دلالة كل من الشقين على ما يدل عليه من حيث موافقته لما ادعاه صاحبه ، فإنها كانت تقول هو طلبنى مقبلا =

وساق الشاهد (شهادته مساقا مأمونا من الجرح والطعن حيث صدرها بصورة الشرطية المترددة ظاهراً بين نفعها ونفعه ، وأما حقيقة فلا تردد فيها قطعا ، لأن الشرطية الأولى تعليق لصدقها بما يستحيل وجوده من قد القميص من قبل فيكون محالا لا محالة ، ومن ضرورته تقرير كذبها . والثانية تعليق لصدقه عليه السلام بأمر محقق الوجود ، وهو القد من دبر فيكون محققاً البينة)[1].

وقدم امارة صدقها فى الذكر لأن الشق من القبل محتمل وأما من دبر فهو يقينى .

هذا وإن قد القميص علامة من العلامات منضمة إلى غيرها ، بلغت مبلغ اليقين فى الدلالة على كذبها ، لا أنها علامة يعول لميها فى الحكم بل هى جارية مجرى المقويات والمرجحات .

اقتناع العزيز ببراءته عليه السلام :

﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم - ٢٨ ﴾ فى رواية ساقها الطبرى أن الذى رأى هو العزيز وهو القائل إنه من كيدكن .

وقال آخرون إن الرائى هو الشاهد المعهود .

والأول أنسب للسياق ، فمن حق العزيز أن يصف زوجته بالكيد وليس من حق الشاهد الذى يجب أن يراعى مكانة العزيز .

(إنه من كيدكن) أى الأمر الذى وقع ، وإسناد المرأة إرادة السوء إلى

على لخلصت نفسى منه بالدفع أو الفرار . وهو كان يقول هى الطالبة ففررت منها وتبعتنى واجتذبت ثوبى فقدته من دبر) ، وابن المنير افترض افتراضات خارجة عن تصريحات كل من الطرفين المعنيين ، ولم تكن هناك ضرورة لاقتراحها .

(١) تفسير أبى السعود : هامش مفاتيح الغيب : ﺣ ٥ ـ ص ١٨٤ .

يوسف عليه السلام ، وتدبيرها اعقوبته بقولها (إلا أن يسجن أو عذاب أليم) .

ولما دلت الوقائع على غير ما كادت : قال العزيز إنه من كيدكن واحتيالكن معشر النساء ، ولم يخصها بالكيد ، حتى يقال انها أتت أمرا شاذا ، بل لأن ذلك معهود منهن جميعاً .

كأنه قيل : انت التى راودتيه فلم يقبل ، ولما قصد الباب للتخلص منك ، اجتذبتيه إليك فشققت قميصه . فهو الصادق فى اسناده المراودة إليك ، وأنت الكاذبة فى نسبة إرادة السوء إليه .

ووصف كيدهن بأنه عظيم لأنه يورث من العار مالا يورثه كيدالرجال ، ولا قبل للرجال باحتماله ، وهم لا يفطنون إلى كيدهن ادقته . ولأنه الطف وأعاق بالقلب ، وأشد تأثيراً على النفوس . .

قال بعض العلماء :

(أنا أخاف من النساء مالا أخاف من الشيطان فإنه تعالى يقول إن كيد الشيطان كان ضعيفا وقال للنساء (إن كيدكن عظيم) ولأن الشيطان يوسوس مسارقة وهن يواجهن به .

قلت .

هذه المقارنة لا وجه لها لأن ضعف كيد الشيطان إنما هو فى مقابلة كيد الله تعالى :

فقاتلوا أولياء الشيطان . إن كيد الشيطان كان ضعيفا - ٧٦) ٤ : سورة النساء والمخبر عن ضعف كيد الشيطان هو الله تعالى .

والمخبر فى الآية الكريمة عن كيدهن هو العزيز فى مقابل كيد الرجال . ومكر الرجال أشد قال تعالى :

(وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن مكرهم لتزول منه الجبال - ٤٦)

١٤ : سورة ~~الحجر~~ : إبراهيم

(يوسف أعرض عن هذا) : وقرىء (أعرض) بفتح الراء .

حذف حرف النداء لقربه عليه السلام ، وفيه تلطف به ، وتقريب له بندائه باسمه . اعرض عن هذا الأمر واكتمه ولا تتحدث به ، فقد ظهر صدقك وثبتت نزاهتك .

(واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين) :

حمل الاستغفار على طلب المغفرة والصفح من الزوج ، ويحتمل أنه طلب المغفرة من الله تعالى ، لأنهم كانوا يعتقدون بوجود خالق كما كانوا يعتقدون فى الحساب وفى الجزاء ، ويثبت ذلك ما جاء على لسان يوسف عليه السلام فى الآية الكريمة .

(ءأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) من الآية ٣٩ .

ونسبها إلى الخاطئين ولم يقل الخاطئات لتغليب التذكير على التأنيث واستدل أبو بكر الاصم من هـذا على أنه كان قليل الغيرة ، وتوسع البعض فى هـذا المعنى حتى اتهموا العزيز بالعنة .

والذى نراه :

إن العزيز كان شديد الحب ليوسف عليه السلام ، يظهر ذلك منذ لقائه الأول معه ، كما يظهر من تصريحه باتخاذه ولدا ، ورسخ هذا الحب بمخالطته ليوسف عليه السلام وازدياد علمه بخلقه ونبله واتصافه بكل ما يعلمه عن الفضائل - وإذا به إزاء قضية جاءت بما لا يعهده فيه ، وتلصق به ما ليس من طباعه ، ولم تساوره أدنى ريبة فى براءته عليه السلام لطول عهده به وخبرته إياه ، وأمانته التى لا يرقى إليها شك فى جميع شئونه وصلته القوية بالله تعالى هذه الصلة التى لم يعهدها فى إنسان غير يوسف عليه السلام - وها هى الوقائع تبرئه وتوجه أدلة الاتهام إلى المرأة .

ولا يعقل أن يسعى العزيز بعد ذلك فى إيذاء يوسف عليه السلام لخطأ لفقته عليه امرأته - كل ما هنا لك أن امرأته قد وضعته فى حيرة من أمره بالنسبة إليه عليه السلام فإما أن يبعدها هى عن القصر وإما أن يبعده هو .

وأخيرا نجده يوافق فيما بعد على أبعاده عن طريق السجن حتى يسدل ستار النسيان على ما حدث ، وحتى لا تلوكه الألسنة .

نسوة المدينة يشهرن بسمعة امرأة العزيز:

(وقال نسوة فى المدينة إمرأت[١] العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين - ٣٠)

ان النساء يدركن فى مثل هذه الشئون ما لا يدركه الرجال ، ولا يفوتهن ما يفوت على الكثير منهم ، وقد ادركن بغريزتهن ما تكلفه امرأة العزيز لفتاها من عشق قد ملك عليها مشاعرها وحواسها ، ولا يبعد من ناحية أخرى أن امرأة العزيز قد نفست عن نفسها فباحت بسرها إلى المقربات من النسوة لديها .

ولم تعد قصتها سراً فقد لاكتها النسوة وتداولنها فى المدينة وأظهرنها مكرا منهن بامرأة العزيز ، ونذكر هنا كلام الامام ابن القيم على ما تضمنته الآية الكريمة من وجوه هذا المكر :

---

(١) إذا أضيف لفظ امرأة فى القرآن العظيم إلى علم رسمت تاؤه مفتوحة وقد جرى ذلك فى الايات التالية :

(ا) ٣ : سورة آل عمران :

« إذ قالت امرأت عمران إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم - ٣٥ » .

(ب) ١٢ : سورة يوسف فى موضعين فى الآية ٣٠ ، والآية ٥١ .

(ج) ٢٨ : سورة القصص :

« وقالت امرأت فرعون قرت عين لى ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لايشعرون - ٩ » .

وهذه نفس مقالة العزيز حين دفع يوسف عليه السلام إلى امرأته . ويدل الفشل فى الحالتين على إن الانبياء والرسل لايتخذهم أحد أولادا ، والذى يربيهم هو خالقهم، ليس لبشر فيهم شىء ، والتربية من البشر لم تكن لله تعالى بل لنفع دنيوى . والخيانة فى الأولى من امرأة العزيز وفى الثانية من فرعون =

يقول الإمام ابن القيم :(١)

هذا الكلام متضمن لوجوه من المكر :

(أحدها) : قولهن (امرأة العزيز تراود فتاها) ولم يسموها باسمها بل ذكروها بالوصف الذى ينادى به عليها ... بكونها ذات بعل، فصدور الفاحشة من ذات الزوج أقبح من صدروها ممن لا زوج لها .

(الثانى) : إن زوجها عزيز مصر ورئيسها وكبيرها وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها .

(الثالث) : إن الذى تراوده مملوك لاحر وذلك أبلغ فى القبح(٢)

(الرابع) : إنه فتاها الذى هو فى بيتها وتحت كنفها فحكمه حكم أهل البيت بخلاف من تطلب ذلك من الأجنبى البعيد .

(الخامس) : أنها هى المراودة الطالبة - (وهذا عكس للاوضاع الطبيعية التى تقتضى أن تكون هى المطلوبة) .

(السادس) أنها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ حتى وصل حبها له إلى شغاف قلبها(٣)

= (د) ٦٦ : سورة التحريم :

« ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل إدخلا النار مع الداخلين -١٠- وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرات فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين - ١١) .

(١) الأمام ابن القيم : إغاثة اللهفان ص ٣٨٣ .

(٢) يقصدن أنها مع علو مكانتها ومكانة زوجها تهين نفسها وتسخو لفتاها بمفتنها، مع أن اللائق بمقامها هو الانصراف عن هذه النزوة والترفع عنها . وفى قولهن (فتاها) دون التصريح باسمه أو أضافته إلى العزيز منتهى التشنيع عليها .

(٣) أصبح حالها بحيث لايمكن أن يخفى على أحد ، إذ أن حبها لفتاها قد ملكها بدرجة جعلتها تستهتر بعاقبة تهتكها ، ولاتبالى بما يترتب على ذلك بالنسبة لها أو لزوجها أو لأهلها أو من يعرفها .

(السابع) إن فى ضمن هذا أنه أعف منها وأبر وأوفى حيث كانت هى المراودة الطالبة وهو الممتنع عفافا وكرما وحياء وهذا غاية الذم لها .

(الثامن) أنهن أتين بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدالة على الاستمرار[١] والوقوع حالا واستقبالا ، وأن هذا شأنها . ولم يقلن « راودت فتاها » . وفرق بين قولك فلان أضاف ضيفاً . وفلان يقرى الضيف ويطعم الطعام ويحمل الكل — فإن هذا يدل على أن هذا شأنه وعادته .

(التاسع) : قولهن ﴿ إنا لنراها فى ضلال[٢] مبين ﴾ أى إنا لنستقبح منها ذلك غاية الاستقباح ، فنسبن الاستقباح إليهن ، ومن شأنهن مساعدة بعضهن بعضا على ذلك ، فحيث أستقبحن منها ذلك كان هذا دليلا على أنه من أقبح الأمور وأنه مما لاينبغى أن تساعد عليه ولاتحسن معاونتها عليه[٣] .

(العاشر) : أنهن جمعن لها فى هذا الكلام واللوم بين العشق المفرط والطلب المفرط فلم تقتصد فى حبها ولا فى طلبها . أما العشق فقولهن ﴿ قد شغفها حبا ﴾ أى وصل حبه إلى شغاف قلبها . وأما الطلب المفرط فقولهن (تراودفتاها) والمراودة الطلب مرة بعد مرة ، فنسبوها إلى شدة العشق وشدة الحرص على الفاحشة[٤] .

---

(١) فهى بالرغم من افتضاحها أمام زوجها الذى عفا عنها وغفر لها ، بشرط أن تندم على مافرط منها وتستغفر لذنبها ، هاهى لاتزال مصرة على جرمها مستمرة فى هواها

(٢) انهن لا يحكن عليها مجازفة بل إن علمهن بصنيعها قد بلغ مبلغ المشاهدة والعيان ، وهن يصرحن بذلك غير خائفات من مؤاخذتهن على ما لايمكن إنكاره ، غير متهيبات من مكانتها أو مكانة زوجها .

(٣) فكان ضلالها عن طريق الرشد وانحرافها عن الصواب وعن سنن العقل ضلالا مبينا واضحا لا يخفى على أحد .

وهذا فى منتهى التشنيع عليها : إذا أجمعن على الشهادة ضدها ، مع التلويح بأنهن يترفعن عن الاتيان بمثل ما أتت به .

(٤) كانت مقالتهن فى ظاهرها استقباح لسلوك امرأة العزيز ، وتحقير لدورها الذى تقوم به ، وفى نفس الوقت تحمل معايرتها بفشلها المبكى مع فتاها الذى أذلها

﴿ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ[١] وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ماهذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم - ٣١ ﴾ .

أرادت أن تقابل مكرهن القولى بمكر فعلى من قبلها يبطل مكرهن ويوضح عذرها فيما لمنها فيه ، فقررت استدراجهن إلى مجلس يتمكن فيه من مشاهدته عليه السلام عن كثب ليلمسن بأنفسهن مدى تأثير مشاهدتهن له فى نفوسهن لتتخذ من انفعالهن عذرا لها يبرر تهتكها فى حبه ، وحجة عليهن تسقط عذلهن لها ، وتظهر لهن أنها ليست كما تصورن ، وأنهن لو كن فى مكانها لفعلن مافعلته أو أشد . فهيأت لهن مجلسا فى قصرها ودعتهن للحضور ، ولما اكتمل مجلسهن وحضر الطعام بين أيديهن وكان تناوله يحتاج إلى سكين لتقطيعه ، وفيما هن مشغولات بمعالجة قطع ما قدم إليهن دعته إلى الخروج عليهن ﴿ فلما رأينه أكبرنه ﴾ إذ خطف نور النبوة وجلالها وجمال صاحبها أبصارهن وأدهش ألبابهن ولم يلحظن عليه أى التفات إليهن أو ميل نحوهن (فلا جرم أكبرنه وعظمنه ووقع الرعب والمهابة منه فى قلوبهن)[٢] .

والتضعيف فى فعل (وقطعن)[٣] إما بالنسبة لكثرة القاطعات وإما بالنسبة

= وأهانها حتى افتضح أمرها بين الناس ، وفى كلامهن تحدلها بأنهن يستطعن إغراءه وفتنته لو جمعتهن به فينجحن فيما فشلت فيه ، قال محمد بن اسحق : بلغهن حسن يوسف فأحببن أن يرينه فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته .

(١) قال العتبي الأصل فيه أن من دعوته ليطعم عندك أعددت له وسادة فسمى الطعام متكأ على الاستعارة . وعن مجاهد . متكأ، طعاما يحزحزا ، فيتكىء القاطع على المقطوع بالسكين .

(٢) الفخر الرازى . مفاتيح الغيب حـ ٥ ص ١٨٣ .

(٣) الأكثرون من المفسرين على أن هذا القطع قطع جرح اطلق فيه لفظ غاية الشىء على بدئه . قلت ورد فى اللغة قطع يده بمعنى جرحها . قال الفراء (وقطعن ايديهن) وخدشنها . معانى القرآن جـ ٢ ص ٤٢ .

لكثرة القطع فى يد كل واحدة منهن وهذا هو المتبادر إلى الذهن لا ما روى أن المراد هو قطع أكامهن . وقد جرحن أيديهن لفرط انجذابهن نحوه عليه السلام إلى درجة خروج حركات الجوارح عن منهاج الاختيار فلم يكن لهن علم بما يعملن . ولم يشعرن بالألم لشدة استغراقهن فى مشاهدته عليه السلام فكان شأنهن شأن قيس حين شاهد ليلى فالتقط الجمر ووضعه فى راحته ولم يشعر بالألم فتحرقت راحتاه وما شعر .

وقلن تنزيها لله تعالى وتعجبا من قدرته جل وعلا (حاش لله)(١) أى حاش أن يرمى مثل هذا بسوء أو أن يميل إليه ، لأن تلك من أفعال البشر وهو ليس منهم إنما هو ملك)(٢) .

ولما رأين أنه عليه السلام ما التفت إليهن البتة كما يفعل الشباب ولا شممن فيه أثراً من آثار الشهوة أو نوازع البشر فى مثل هذه المواقف بل شهدن عليه من الطهارة التى لا يتصف بها إلا الأنبياء ما جعلهن يصفنه بالملائكية ﴿ ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ قد تطهر من الصفات المعهودة فى البشر وتجرد من بواعث الشهوة ونوازع الوهم والخيال . وقد بدأن بتنزيه الخالق عن السوء ثم بتنزيهه عليه السلام من العيب على معنى أن الله تعالى منزه عن أن لا يطهره من المساوىء ـ فكان كيد امرأة العزيز أبلغ من كيدهن إذا انتهى كيدها إلى : وقوعهن فيما لمنها فيه من الافتتان بفتاها ، مما جعلهن يعذرنها فى محبته بل ودعونه إلى الانقياد لها وتلبية رغبتها وعدم التمرد عليها ، كما جعلتهن يقمن بدليل حسى لا يمكنهن نسيانه إذ قطعن أيديهن بدلا من تقطيع ما قدمته إليهن وذلك لفرط دهشتهن التى غيبتهن عن شعورهن .

---

(١) قرا أبو عمرو (حاشا) بإثبات الألف وهى رواية الاصمعى عن نافع ، من الحاشاة وهى التنحية والتبعيد ، وقرأ الباقون . بحذف الألف للتخفيف .

(٢) الجواهر الحسان للثعالبى حـ ٢ ص ٢٣٤ / ٢٣٥ .

ومن خفاء مكر امرأة العزيز الذى كان يدور حول قيامهن فى حضوره عليه السلام بتقطيع[1] أيديهن ، من خفائه أن النسوة لم تفطن إليه ولم تدركنه، مع أنهن من طبقة لا تعوزها الفطانة فى مثل هذه الأمور .

تصريحها أمام النسوة ببراءته عليه السلام :

لما ظهر لهن عذرها ، وتم لها إقامة الحجة عليهن ﴿ قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ﴾ .

---

(١) يخطىء فى التأويل من يركز اهتمامه عند بيان معنى قوله (وقطعن) على أثر الفعل من جرح أو خدش إلخ . مع أن فعل (قطع) – بتشديد الطاء – فى هذا الموقف يفيد علاوة على القطع ، معنى لا يفيده الجرح أو الخدش: ألا وهو وقوعهن تحت مؤثر قهرى استولى على احساسهن وملك مشاعرهن ، وجعلهن لا يدرين مايفعلن بأيديهن ، وغيبهن عن الإحساس بما يفعلن .

فالجرح عمل شعورى، له رد فعل يؤدى إلى إيقاف المؤثر ، ولكن التقطيع المفيد للتكرار اللاشعورى والذى لا تملك صاحبته السيطرة عليه لصدوره من مثل هذا المؤثر جعل المعنى يختلف إختلافا تاما عما يعطيه مجرد حدوث جرح بآلة قاطعة من سكين أو غيرها .

هذا ولا يستبعد أن تكون امرأة العزيز – زيادة منها فى المكر – قد اتفقت مع النسوة المدعوات على مساعدتها فى التخلص من فتاها بدلا من لومها فى مجالس المدينة، ومعايرتها بشدة تعلقها به ، وحبها إياه ، وكانت من جانبها واثقة تماما من نجاح خطتها فلم يصدر منهن فعلا إلا ماتوقعته.

ومما يؤيد هذا الوجه أنها أعطت كل واحدة منهن سكينا سريعة البتر والقطع ، وقد يقتضى الأمر أن تكون كل سكين داخل غمد كالخنجر، ويتطلب سلها بعض الحذر كيلا تجرح يد من يسلها . فلما رأينه وعالجن ذلك أعملن السكاكين فى أيديهن لا فى جسم يوسف عليه السلام .

وسواء كان الأمر كذلك أو كان أثناء تناولهن الطعام .... فإن مكرها قد بلغ الذروة بما فعلته مما أسقط لومهن بل جعلهن بتوجيه اللوم إليهن أولى.

والإشارة للبعيد مع قرب المشار إليه وحضوره ، فيها بيان لسمو منزلته ، وتنبيه إلى أنه مع قربه بعيد أن يوجد مثله :

فذلكن الذى صورتنه فى نفوسكن أنه لم يزد عن كونه فتى من الفتيان الذين تعج بها قصوركن ، ولا يصح أن يصدر من ناحيتى بشأنه ماصدر لأن مركزه دون مركزى بمراحل . . . .

وذلكن الذى قلتن فى وفيه ماقلتن ، وعيرتننى فيه بما عيرتننى : ذلكن له من رفعة المنزلة مارأيتنه ، وله من البهاء والجمال والجلال ماشاهدتن ، وهو مع قربه بعيد المنال لا يدرك منه شىء جال فى أذهانكن ، بل هو منقطع النظير لا يضاهيه قرين وها أنتن الآن أمامه ، وها هو الآن أمامكن ، وبين أيديكن ، ومع ذلك لم تصدر من إحداكن كلمة نابية فى حقه ، ولم تحاولن مهاجمته كما توقعتن ، ولا يعوزكن السلاح إن أردتن مهاجمته فقد يسرته لكن بل صدر منكن مايجعلنى معذورة كل العذر فى أفتتانى به وبدا منكن مايجعلكن باللوم أحق : إذ لحقكن من نظرة واحدة أعظم مما نالنى منه مع طول مكثه عندى .

وبعد أن اطمأنت إلى أنهن قد عذرنها فى تولهها به ، كشفت القناع عن حقيقة الحال ، وخلعت العذار وصرحت بما حدث منها ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ وأقرت بما سبق لها أن أنكرته أمام العزيز معلنة براءته عليه السلام من أية تهمة أو ريبة[1] .

وتصريحها هذا يدل على شدة حبها له عليه السلام لدرجة جعلتها تستهتر بنفسها فى سبيله ولا تبالى بأى شىء يقال عنها .

يقول الزمخشرى أن الاستعصام صيغة مبالغة ، يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد ، كأنه فى عصمة ، وهو يجتهد فى الاستزادة منها ، وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام لا مزيد عليه ، وبرهان لا شىء أقوى منه على أنه برىء لم يجر منه هم بفاحشة مطلقا .

(١) ولا يلتفت إلى قول من يقدر محذوفا بعد قوله (ولقد راودته عن نفسه) فهذا ما لا يحتمله السياق اولا لمعنى وتقدير مالا دليل على تقديره .

تهديدها له عليه السلام :

﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ من الآية ٣٢ .

تصريح تلو تصريح ، ودليل يتلوه دليل على براءته عليه السلام من إرادة شيء من السوء . وأن الإلحاح والطلب إنما كان من جانبها دون أية استجابة مشجعة لها .

وفى هذه المرة خلعت العذار ، وطرحت الكتمان والمراودة بعد أن أعلنت عن حقيقة حالها وبعد أن ضمنت تأييد النسوة لها . . . فصرحت بعزمها على نيل ماتشتهيه وأن يعتبر هذه الرغبة أمرا صادرا إليه يجب عليه أن يرضخ ويستجيب له ، وإلا تعرض فى هذه المرة إلى أسوأ معاملة من سجن وإهانة .

ومن تأمل هذا أدرك تماما أن الهم منها والهم منه عليه السلام فى آية الهم لم يكن إلا بقصد البطش والانتقام من جانبها والضرب والتأديب من جانبه عليه السلام ، كما يتبين من ذلك أن القرآن العظيم يفسر بعضه بعضا وهذا من أسرار الإعجاز ، فيسقط بذلك قول من قال بأن همها كان بقصد الطلب والرغبة بدليل أنها هنا قد صرحت بأنه إذا لم يرضخ لها ليسجنن وليهانن حتى يكون من الأذلين بعد أن كان عزيزا مكرما .

ولتمحو من نفسه أى أمل فى أنها قد ترجع عما سولته لها نفسها خشية الفضيحة ، ولتحكم حوله الحبل ، وانسد أمامه أبواب التخلص منها ، حتى ييأس فلا يجد أمامه مناصا من إجابتها صرحت بما صرحت به أمام النسوة علنا وهن شاهدات عليها ، ليعلم أنها لا تخشى فيه أحدا ، ولن تخفى أمرها خيفة من الاتهام .

وارادت النسوة تغطية مافرط منهن من العيب فى حقها ، لتصفح عنهن وترضى ، فساعفنها بنصحه على موافقتها والعمل على إرضائها خشية بطشها إذا ماخالفها .

قال الطبرى[١] :

(وهذا الخبر من الله يدل على أن امرأة العزيز قد عاودت يوسف فى المراودة عن نفسه ، وتوعدته بالسجن والحبس إن لم يفعل مادعته إليه ، فاختار السجن على مادعته إليه من ذلك ، لأنها لو لم تكن عاودته وتوعدته بذلك كان محالا أن يقول (رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وهو لا يدعى إلى شىء ولا يخوف بحبس) .

المراودات الجماعية :

بعد هذا المؤتمر الذى عقدته امرأة العزيز التشتفى من نسوة المدينة ، تمكنت بمكرها وكيدها ، أن توقعهن فيما شنعن عليها ، وحدثت مباراة بينهن أيهن تفوز بيوسف دون غيرها ، ومن هذه التى سيكون من نصيبها لتفخر على جميع نساء عصرها ، وكأنهن قد عقدن رهانا فى هذا الشأن .

وأصبح قصر العزيز مهبطا لنساء الطبقة العليا فى المجتمع ، ولا مطمح لهن سوى رؤيته عليه السلام ومراودته ، وكانت امرأة العزيز واثقة من فشلهن جميعا فهى أدرى بطباعه عليه السلام .

وقد كان ماحذرته إذ رجعن بخفى حنين أمام عصمة النبوة وجلالها ، وقد وصفنها دون دراية منهن بشأنها إذ قلن (إن هذا إلا ملك كريم) فصفاته عليه السلام مقترنة بصفاء النبوة وطهارتها .

وأقامت امرأة العزيز الحجة عليهن جميعا ، وأثبتت تدلههن فى حب يوسف عليه السلام بمجرد نظرة أولى : فما بالك بها وهى التى يعيش معها فى قصرها ، وإن شاءت رأته فى أية لحظة ، وقد أعلنت أمامهن جميعا أنها هى التى راودته فاستعصم ، فكيف يردن نجاحا فيما فشلت فيه ؟

---

(١) جامع البيان : ج ١٢ ص ١٢٤ : ١٢٥ .

الفصل الثانى

مناقشة أقوال المفسرين فى آية الهم والبرهان

من الغريب أن جمهور المفسرين وأهل السير قد اتجهوا فيما يتعلق بالهم والبرهان اتجاهات لاتتفق مع النص القرآنى ، فتورطوا فيما يرده صريح القرآن العظيم وصحيح السنة المشرفة ، وفيما يتنافى مع جلال النبوة والرسالة وفيما لا يليق بالأنبياء والمرسلين المبلغين لرسالات الله تعالى بل ويتناقض مع ماوصفهم الله تعالى به من كريم الأخلاق والشيم .

ولتيسير الإحاطة بتفصيلات هذا الموضوع الخطير ، قسمنا اتجاهات التأويل فى هذا الشأن إلى أربعة اتجاهات :

(الأول) :

اتجاه علق الهم بالفاحشة من الطرفين وقد ارتكز أصحابه على أمرين :

أولهما : تخفيف الهم بالفاحشة فى حق يوسف عليه السلام ، وتغليظه بالنسبة لامرأة العزيز : وهذا ماتأباه قواعد اللغة ، ويتعارض مع السياق .

ثانيهما : الاعتذار بأن ما وقع منه عليه السلام كان قبل نبوته ، وكأنهم يريدون تبرير كلامهم دون توجيه الاعتراض عليهم بعصمة الأنبياء ومعنى ذلك إخضاع النبوة للتقديم والتأخير حسب تقدير المؤولين لأفعال الأنبياء.

ومن الطبيعى أن يقرر أصحاب هذا الاتجاه أن البرهان الذى رآه عليه السلام إنما هو آية حالت بينه وبين ارتكاب الفاحشة وكأن الأنبياء كانوا فى حاجة إلى معرفة الأصول الخمسة التى يحافظ عليها الاسلام فى كل عصر فاحتاجوا إلى زاجر ينبههم إلى المحافظة عليها .

(الثانى)

اتجاه خلط بين الهم وبين باقى مراتب القصد ، وأصحاب هذا التأويل قد أخرجوا الهم عن معناه الحقيقى ، فتناقض تأويلهم مع النص - .

(الثالث)

اتجاه اعتمد على المغايرة بين متعلق الهم بالنسبة للطرفين ، وأصحاب هذا الاتجاه جعلوا هم امرأة العزيز متعلقا بالفاحشة ، وهم يوسف عليه السلام متعلقا بالضرب أو بالدفع ، وهى مغايرة غير مقبولة لا شكلا ولا موضوعا لعدم اعتمادها على أساس أو دليل .

وهذا الفريق قد تردد فى تعيين البرهان : ما بين آية تنهى عن الفاحشة أو آية تنهى عن الضرب .

(الرابع)

اتجاه نفى حصول الهم نهائيا فخرج خروجا تاما على النص القرآنى المصرح بالهم لفظاً ، وتأكيدا . وهؤلاء قد جعلوا البرهان آية تنهى عن فاحشة لم يهم بها عليه السلام أصلا !

والأقوال فى هذا الموضوع لو جمعت لجاءت فى مجلد ضخم ، لا صلة لمعظمه بالتأويل السليم ، ونكتفى بعرض نماذج تمثل كل اتجاه منها مع تعقيب يبين وجه الخطأ فيه .

(أولا) الاتجاه الذى علق الهم من الطرفين بالفاحشة

ذهب إلى هذا الاتجاه معظم المفسرين وأهل السير وامتازت كتب التفسير بالمأثور[١] بالقدح المعلى فى سردها للروايات التى تؤكد هذا التعلق دون تمحيص.

---

(١) اتفق المفسرون على أن التفسير بالمأثور يشترط فيه التقيد بأربعة مصادر : تفسير القرآن بالقرآن .

=

. . . .

= — ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديث فى تفسير الاية .

— ماروى عن أحد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم .

— ماروى عن التابعين رضى الله تعالى عنهم .

وننبه فى هذا المجال إلى الأمور الآتية : —

أولا : إن كل تفسير صحيح مصدره الكتاب والسنة تبطل معارضته بأى تفسير دونه فى الدرجة كما لايحل القول بالاجتهاد فيما لامسوغ للاجتهاد فيه .

ثانياً : إن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا. والسنة المشرفة مبينة أجلى بيان لكتاب الله تعالى :.

قال الامام ابن كثير : إن أصح الطرق فى التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل فى مكان فإنه قد بسط فى موضوع آخر ، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى رحمه الله تعالى [كل ماحكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن قال الله تعالى :

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله . ولا تكن للخائنين خصيما — ١٠٥ ﴾ . سورة النساء .

وقال تعالى ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون — ٦٤ ﴾ ١٦ : سورة النحل] .

قال الإمام ابن تيمية : يجب أن يعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه فقوله تعالى ﴿ لتبين للناس مانزل إليهم ﴾ — من الآية ٤٤ سورة النحل — يتناول هذا وهذا .

والبيان هو التبليغ والايضاح والشرح والاظهار : فالبيان هو السنة يقول البهارى إن السنة هى (ماصدر عن الرسول غير القرآن من قول وفعل وتقرير كذا فى شرح المختصر ، أقول القراءة الشاذة ليست بقرآن ولا خبر عند الشافعية ولذا لم تكن حجة) البهارى : مسلم الثبوت جـ ٢ ص ٦٦ .

=

. . . .

= ولا يمكن أن تصح الاعمال طبقا لاحكام الشريعة مالم تأت طبقا للهدى المحمدى .

يقول المحدث العارف الاستاذ محمد الحافظ التيجانى فى كتابه « سنة الرسول صلى الله عليه وسلم » ص : ١٢ .

(والمؤمن لايجوز له أن يفعل فعلا أو يقول قولا إلا إذا علم حكم الله فيه فإن كان واجباً أتى به على سبيل الوجوب، وإن كان مندوبا أتى منه ما أستطاع ، وإن كان حراما تركه، أو مكروها ابتعد عنه ما أستطاع، إلا إن كان هناك مصلحة تنتفى معها الكراهة، وإن كان مباحا ، فهو مخير فى الفعل والترك على الاصول والقواعد المبينة فى شرع الله) .

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده والإمام أبو داود فى سننه كلاهما مخرجه عن المقدام بن معديكرب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان متكىء على أريكته يقول : عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه) الحديث . . . فمن دعا إلى دعوة فيها إهمال للسنة أو تهاون فيها فقد دعا إلى تقويض الدين من أساسه ، ومن فعل ذلك عامدا متعمداً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه .

وروى الحاكم فى المستدرك عن عبيد الله بن أبى رافع عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الامر من أمرى ، مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : ما أدرى ، ماوجدنا فى كتاب الله اتبعناه » . قال الحاكم حديث صحيح » على شرط الشيخين وأقره الحافظ الذهبى .

ورواه الحاكم بإسناد آخر رجاله رجال الصحيحين غير موسى بن أبى موسى الأشعرى الذى ذكره ابن حبان فى الثقات .

وأخرج الترمذى نحوه بإسناد آخر وقال حديث حسن صحيح من هذا الوجه.

ثالثاً : إن عدم الاهتداء إلى تفسير كتاب الله تعالى بكتاب الله عز وجل، والسنة المشرفة ليس معناه طلب ماهو ليس بموجود ، فى الكتاب والسنة ، حاشا لله تعالى . بل معناه أن فهم الشخص قاصر عن إدراك المعنى من الكتاب والسنة، فيستعين حينئذ =

. . . .

ـــ مما كتبه الأئمة المحققون لمعرفة مالم يستطع هو الاهتداء إليه، فإنه واجدمايريدعند أحدهم ، فإذا لم يهتد إلى بغيته سأل من عنده علم من الكتاب حتى يجد مايريد وفوق كل ذى علم عليم .

رابعاً : إن الصحابة رضوان الله عليهم يمثلون أعلى مراتب الفهم في الامة المحمدية لكتاب الله تعالى ، لما شاهدوه من القرائن والاحوال التى اختصوا بها دون سواهم لاسيما من كان منهم أشد ملازمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذا قل الاستفسار بينهم عن معانى آى الذكر الحكيم ، ثم أخذت الحاجة إلى التفسير تشتد كلما بعدت الشقة الزمنية عنهم وانحرفت القرون عن منهاجهم .

كذلك كانوا رضوان الله تعالى عليهم يتحرجون من تفسير آى الذكر الحكيم إذا ما طلب ذلك منهم فلا يقولون إلا عن علم ، خشية مخالفة المعنى المراد . وتأمل فيما قاله الصديق الاكبر — أبو بكر رضى الله تعالى عنه (أى سماء ، تظلنى وأى أرض تقلنى وأين أذهب . . إذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد الله) .

وقد اشتهر نفر قليل منهم بالتفسير من بينهم عبدالله بن العباس رضى الله عنهما الذى دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء فى الحديث (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل) رواه الشيخان والإمام أحمد والطبرانى . وقد برع فى التأويل حتى قال عنه عبد الله بن مسعود « نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس » .

وهناك تفسير مطبوع ينسب إلى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، ويحتاج إلى تحقيق نسبة ماجاء فيه إليه ، إذ يروى عن الإمام الشافعى رحمه الله تعالى أنه قال لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث .

خامساً : اختلف العلماء فى حكم قول الصحب رضوان الله تعالى عليهم فى التفسير ، فقرر البعض أن له حكم المرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه من باب الرواية لا الرأى وقال آخرون بل له حكم الموقوف .

وقد حسم المسألة الحافظ ابن حجر بأن أقوال الصحابة فى هذا الشأن لها حكم المرفوع — كما قرره الحاكم النيسابورى — ولكن بشرطين : ـــ

= الاول : أن تكون مما لامجال فيه للرأى كأسباب النزول وأحوال القيامة وغير ذلك .

الثانى : ألا يكون الصحابى معروفا بالأخذ عن أهل الكتاب الذين أسلموا .

أما أقوال التابعين فى التفسير فقد عدها بعض العلماء من المأثور، وعدها آخرون من التأويل بالاجتهاد .

سادسا : ننبه إلى عدم الخلط بين باب التفسير فى كتب الحديث وبين كتب التفسير بالمأثور على وجه الاستقلال، وبشأن باب التفسير فى كتب الحديث يذكر الإمام السيوطى أن (الذى صح من ذلك قليل جداً بل أصل المرفوع فى غاية القلة) [الاتقان جـ٢ ص١٧٨] وأغلبه فى تفسير آيات الأحكام :

ويقول الحافظ ابن حجر (اشتمل كتاب التفسير في صحيح البخارى على خمسمائة حديث وثمانية وأربعين حديثاً من الأحاديث المرفوعة ومافى حكمها: الموصول من ذلك أربعمائة حديث وخمسة وستون حديثا والبقية معلق ومافى معناه ، المكرر من ذلك فيه وفيما مضى أربعمائة وثمانية وأربعون حديثا، والخالص منها مائة حديث وحديث ، وافقه مسلم على تخريج بعضها ولم يخرج أكثرها لكونها ليست ظاهرة الرفع) — فتح البارى للحافظ ابن حجر : جـ ٨ ص ٦٠٤ .

قلت :

الكلام هنا على الأحاديث المروية فى باب التفسير فى كتب الحديث ولا يقصد منه بيان دور السنة المشرفة فى تفسير القرآن العظيم ، إذ لا يختلف اثنان على أنها مبينة لكتاب الله تعالى كما قطعت به نصوص الكتاب والسنة .

سابعاً : تحامل جمهور المفسرين بالمأثور وأنصارهم على من اجتهد فى التفسير واعتبروا ذلك قولا بالرأى فى كتاب الله تعالى ، وتحاملهم مردود من وجوه منها : —

الأول : أن مايوجهه هؤلاء إلى غيرهم يصح أن يوجه مثله إليهم، إذ يقال لهم: إنكم

. . . .

= لم تبلغوا درجة تمكنكم من تمييز ماجاء في كتب التفسير بالمأثور وقد ظهر من تتبعها أنها تشتمل على روايات تحتاج إلى المراجعة والتمحيص ، إذ زخرت التفاسير بالمأثور بأقوال نسبت إلى الصحابة والتابعين بل ورفعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها الصحيح والحسن والضعيف والواهي والموضوع ، وبعضها عبارة عن خرافات نقلت عن أهل الكتاب وخرجت على أنها أحاديث وهي ليست من التفسير في شيء وغلب الضعف على التفسير بالمأثور لتهجينه بروايات بثها الزنادقة والملاحدة والفلاسفة وأهل الأهواء ومن تستر بالإسلام لينال من الإسلام ، هذا إلى تطعيمه بكلام القصاص ومن جرى على شاكلتهم ، وزاد الطين بلة أن معظم هؤلاء المفسرين قد عنوا بجمع هذه الروايات مكتفين للخروج من العهدة بذكر إسنادها مع عدم التعرض لنقدها ، تاركين ذلك لغيرهم من الأئمة فظن الجاهل ان سكوتهم عنها قبول لها .

ولا يجوز الاحتجاج بهذه المرويات إلا بعد تطبيق منهج علوم الحديث عليها ، هذا وقد انبرى بعض أئمة علم الحديث رواية ودراية لتخريج الأحاديث التي اشتملت عليها بعض أمهات كتب التفسير بالمأثور وقاموا بضبطها إسنادا ومتنا ، فسهلوا على الفقهاء وعلماء الأصول مهمة النظر فيها .

وإن مواصلة هذه المهمة الجليلة من أوجب الواجبات التي تجابه علماء التفسير اليوم ، بحيث لا تطبع هذه الكتب إلا وهي محققة مصححة مع التعقيب على كل رواية بما يثبتها أو ينفيها — وقد ترك لنا الأئمة الأعلام نماذج نسير على ضوئها ونهتدي بهديها .

الثاني : إن الاجتهاد في التفسير لا يعني عدم التقيد بقواعده ، بل هو يعتمد أساسا على نفس المصادر التي يعتمد عليها التفسير بالمأثور فيرتكز على ما صح في الأصول والفروع والعقيدة والشريعة مع زيادة أن المجتهد يكون في الواقع أشد تمسكا بالروايات الصحيحة من مفسر بالمأثور لاهم له سوى جمع الروايات دون تمحيصها .

وإن النتائج الخطيرة المترتبة على تخريج روايات يثبت بعد البحث أنها موضوعة أو أنها عبارة عن نقل جزافي عن أهل الكتاب يتعارض مع نصوص الكتاب والسنة ، هي نتائج أشد خطورة من الخطأ في الاجتهاد بمراحل .

. . . .

= ومنعاً من اللبس نذهب إلى التفرقة بين أمرين: أولهما التفسير بالاجتهاد وهو المبنى على ما ذكره العلماء من الشروط، وثانيهما القول بالرأى ولا نسميه تفسيرا إذ لا وزن لقول من يخوض فى القرآن برأيه دون تقيد بقواعد علم التفسير ومن يفعل ذلك فليس بمفسر بل هو مفتر كذاب قد وقع على أم رأسه فى الهاوية ، ويكفيه تهجمه على كلام الله تعالى بغير هدى ولا كتاب منير .

هذا ولا يصح تفسير باجتهاد مالم يكن مبنيا على الشروط المعتبرة عند أئمة هذا الشأن، ونرى أن المفسرين بالمأثور لم يقصدوا بهذا التضييق إلا غلق الأبواب أمام أهل الأهواء الذين يريدون أن يضلوا عباد الله تعالى ، فهو من باب سد الذرائع فى نظرهم .

(الثالث) لما كانت علوم القرآن العظيم لا يمكن حصر نهاياتها ، ولما كانت جميع العلوم اليقينية مفسرة للقرآن العظيم ، فقد تطلب ذلك بداهة عدم إخضاع التفسير لزاوية واحدة يمثلها العلم أو العلوم التى برع فيها المفسر أو تخصص فيها، فقد أدى ذلك إلى تأثر كل تفسير بتخصص المفسر ولونه العلمى، فإن كان محدثا غلب عليه الحديث وعلومه ، أو فقيها غلبت عليه علوم الفقه ، أو أصوليا غلبت عليه علوم الأصول ، أو إخباريا غلبت عليه علوم التاريخ والسير ، وأهل الكتاب ، وإن كان لغويا غلبت عليه علوم البلاغة والأدب والنحو ، وإن كان بارعا فى العقائد غلب عليه علم الكلام والفلسفة ، حتى أصبح كل تفسير مصطبغا بلون صاحبه ، الذى لا يجذب انتباهه غير تخصصه ، ولوفاته الكثير من المعانى التى يتطلبها النص ، ولو حاول الخروج من دائرة اختصاصه لا خطأ أحيانا فى البديهيات . وهذا هو ما دعا البعض إلى تكفير من خالفهم ولو كانوا فى تفسيرهم غير خارجين على الكتاب والسنة، مثل من كفر من قال بكروية الأرض أو دورانها، ومن يكفر من خالفه فى تفسير بعض آيات العقيدة إلخ.. كذلك أدى إخضاع التفسير للتخصص إلى تحريف الكلم عن مواضعه .

(الرابع) أن الفهم فى كتاب الله تعالى ليس مرده فقط إلى كثرة النقل أو إلى كثرة الاطلاع فى جميع العلوم ،فقد يصرف الإنسان عمره فى تحصيلها ثم إذا به لا يستطيع أن يأت بشىء فى فهم الكتاب العزيز الذى لا تتناهى معانيه، ومعظم هؤلاء لا تزيد =

. . . .

= درجة فهم الواحدمنهم فى كتاب الله تعالى على مستوى القدرة على النقل السقيم، ولذا ازدحمت المكتبة العربية بتفاسير غير مرتبطة . بمقاصد القرآن العظيم : ولكى نوضح الأمر نضرب مثلا برجل قد قضى عمره متخصصا فى فقه المذهب الحنفى والاطلاع على كل ما صدر عن المذهب ، ومع ذلك فان هذا الاطلاع قد لا يؤهله لأن يكون . من الطبقة الرابعة ولا العاشرة من فقهاء مذهبه .. بل يوجد من يطلع فى كتب المذهب طول عمره ، وإذا به تخفى عليه البديهيات ، وقد يتفوق عليه من وضع أول قدم فى دراسة المذهب وعنده القابلية لفهمه ، والصلاحية للاجتهاد فيه .

فالفهم فى كتاب الله تعالى بعد تحصيل جميع الشروط التى قررها الأئمة مرجعه الاساسى هو الاقتداء . برسول الله صلى الله عليه وسلم والعمل بسنته المشرفة ... ومامن آية من آى الذكر الحكيم يمكن التوصل إلى تجليتها تجلية صحيحة إلا عن هذا الطريق وهو بحر واسع لا يحسن الملاحة فيه إلا من تمسك بهدى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن هذا الوجه تفاوتت القدرات فى فهم معانى القرآن العظيم ، وهذا هو الفقه الذى يؤتاه الرجل فى كتاب الله تعالى ، وهذا هو التفسير الذى لا يخرج عن الكتاب والسنة أبدا ، وهذا من الإعجاز القرآنى الذى اقتضى ألا ينال كتاب الله تعالى إلا من عمل به (واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم) من الآية ٢٨٢ من فسطاط القرآن سورة البقرة .

ولقد رأينا من يصرف عمره فى الاطلاع لتأويل كتاب الله تعالى فإذا باجتهاده يؤديه إلى تحريف الكلام عن مواضعه وتطويع القرآن العظيم لخدمة هواه أو لخدمة الحكام أو لخدمة النظريات الدنيوية الباطلة إلى غير ذلك من وجوه الباطل (قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا — ٨٤) ١٧ : سورة الاسراء .

وهناك قاعدة عامة ننبه إليها حتى ييأس الذين اتخذوا التفسير حرفة من المفسرين الأدعياء : الا وهى أن كل إنسان متعلق بأى صرح دنيوى اشد من تعلقه بالله تعالى فلا عبرة بفهمه فى الدين مهما كان منصبه أو مركزه ، لان تعلقه بصرحه الدنيوى يجعل

. . . .

دينه خاضعا لدنياه وتابعا لها ، وكم رأينا من أشخاص يشار إليهم بالبنان ، يدعون الامانة فى دين الله تعالى وهم لا يفقهون فى الدين حديثا بل إنهم أضر على الامة من اعدائها ، يمرقون من الدين لاجل الدنيا مرقة السهم من الرمية .

بناء على ذلك لايصح مطلقا احتكار التفسير لفريق دون فريق أو لتخصص دون آخر مع توافر شروط القيام به ، ولما كان العلم يقتضى مراعاة جميع العلوم التى يتطلبها تفسير القرآن العظيم ، وكلما روعى ذلك كلما كان التفسير أقرب إلى تجلية القرآن العظيم من غيره ، لذلك نرى أن هذا المجهود أجل من أن يقوم به فرد أو أفراد ، بل هو مجهودات الأمة متضافرة بأسرها لإنجاز ماسميناه فى كتابنا (القرآن يتحدى) :-

(التأويل المبين لوجوه الإعجاز القرآنى) ويحتاج ذلك إلى تتبع ماجاء فى جميع التفاسير مبرزا صور التحدى والإعجاز وكنا ولا فخر أول من نبه إلى ضرورة إنجاز هذا التأويل ، كما قدمنا نماذج منه للسير على منوالها .

ونذكر فيما يلى بعض التفاسير التى يغلب عليها الإكثار من رواية الآثار بأسانيدها طبقاً للترتيب الزمنى لوفاة مؤلفيها :

فى القرن الثالث الهجرى الأئمة الحفاظ المفسرون :

عبد الرزاق بن همام الصنعانى ت ٢١١ هـ ، محمد بن يوسف الفريابى ت ٢١٢ هـ ، الإمام سنيد الحسين بن داود ت ٢٢٦ هـ ، ابن أبى شيبة أبو بكر عبد الله بن محمد ت ٢٣٥ هـ ، أخوه عثمان بن محمد بن أبى شيبه ت ٢٣٩ هـ ، أسحق بن راهويه الحنظلى النيسابورى ت ٢٣٨ هـ ، عبد بن حميد ت ٢٤٩ هـ ، ابن ماجه القزوينى ت ٢٧٥ هـ ، شيخ الإسلام بقى بن مخلد ت ٢٧٦ هـ .

وقال ابن حزم عن تفسيره (لم يؤلف فى الإسلام مثل تفسيره لا تفسير ابن جرير ولاغيره) : طبقات المفسرين للسيوطى ص ٤١ .

وفى القرن الرابع الهجرى : الأئمة الحفاظ المفسرون :

محمد بن جرير الطبرى ت ٣١٠ هـ قال الإمام النووى فى التهذيب (أجمعت الأمة

= على أنه لم يصنف مثل تفسيره) وقال الإمام السيوطى فى الإتقان (أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف فى التفسير مثله) : الإتقان جـ ٢ ص ٢٢٦ .

عبد الله بن محمد البغوى ت ٣١٧ هـ ، المجتهد أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابورى ٣١٩ هـ ، وله تصانيف لم يؤلف مثلها ، عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازى ت ٣٢٧ هـ ، وله مسند فى ألف جزء ويقع تفسيره المسند فى أثنى عشر مجلدا . أبو بكر محمد بن الحسن النقاش ت ٣٥١ هـ ، إلا أن تفسيره (شفاء الصدور) قد اشتمل على الكثير من الموضوعات حتى قال عنه الألكائى إنه (إشقاء الصدور)، أبو الشيخ عبدالله ابن محمد بن حيان الأصبهانى ت ٣٦٩ هـ ، عمر بن شاهين ت ٣٨٥ هـ ، وله ٣٣٠ مصنفا منها تفسيره الذى يقع فى الف جزء وقد وجد بواسطه منه نحو من ثلاثين مجلدا.

القرن الخامس الهجرى :

الحافظ المفسر المؤرخ أحمد بن موسى بن مردويه الاصبهانى ت٤١٦ هـ، ويعرف بابن مردويه الكبير تمييزا له عن حفيده الحافظ ابن مردويه الصغير — والمفسر أبو اسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى أو الثعالبى النيسابورى ت ٤٢٧ هـ، صاحب كتاب (العرائس فى قصص الأنبياء) وتلميذه أبو الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى ت ٤٦٨ هـ الذى صنف ثلاثة تفاسير: البسيط والوسيط والوجيز، وأسباب النزول ، ولم يكن له ولا لشيخه كبير بضاعة فى الحديث فجاء فى تفسيريهما وخصوصا الثعلبى أحاديث موضوعة وقصص باطلة. وشيخ المعتزلة أبو يوسف عبد السلام بن محمد القزوينى ت ٤٨٨ هـ ، قال الذهبى تفسيره فى أكثر من ثلاثمائة مجلد.

القرن السادس الهجرى :

محيي السنة الحسين بن مسعود الفراء البغوى ت ٥١٦ هـ ويعرف بابن الفراء .

ومن التفاسير التى لأهلها حفظ ومعرفة بالحديث والجرح والتعديل بعد القرن السادس تفسير ابن كثير، وتفسير السيوطى (الدر المنثور) الذى لخصه من تفسيره الكبير المسند ، وقال فى الاتقان (وقد صنفت كتابا مسندا فيه تفاسير النبى صلى الله

وقدجمع الإمام السيوطى الكثير من هذه الروايات فى تفسيره (الدر المنثور)[1] .

عليه وسلم والصحابة فيه بضعة عشر ألف حديث مابين مرفوع وموقوف ، وقد تم ولله الحمد فى أربعة مجلدات وسميته (ترجمان القرآن) الاتقان ج ٢ ص ٢١٧ . وقال فى موضع آخر من الاتقان (وقد شرعت فى تفسير جامع لجميع مايحتاج إليه من التفاسير المنقولة والأقوال المقولة والإستنباطات والاشارات والاعاريب واللغات ونكت البلاغة ومحاسن البدائع وغير ذلك بحيث لايحتاج معه إلى غيره أصلا وسميته (بمجمع البحرين ومطلع البدرين) وهو الذى جعلت هذا الكتاب مقدمة له [يعنى الاتقان) . راجع الاتقان ج٢ ص ٢٢٦/٢٢٧ . وحسن المحاضرة ج١ ص ١٥٥ طبع حجر .

(١) الإمام السيوطى : (الدر المنثور) ج ٤ ص١٣ وما بعدها عند تفسيره لآية الهم والبرهان .

ونذكر هنا بعض هذه الروايات ولاحياء فى العلم :

— أخرج عبد الرزاق ، والفريابى ، وسعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال (لما همت به تزينت ثم استلقت على فراشها وهم بها وجلس بين رجليها يحل ثيابه ، نودى من السماء : يابن يعقوب لاتكن كطائر ينتف ريشه فيبقى ولا ريش له .

فلم يتعظ على النداء شيئا ، حتى رأى برهان ربه : جبريل عليه السلام فى صورة يعقوب عاضا على إصبعه ، ففزع فخرجت شهوته من أنامله ، فوثب إلى الباب فوجده مغلقا فرفع يوسف رجله فضرب بها الباب الأدنى فانفرج له ، واتبعته فأدركته فوضعت يديها فى قميصه فشقته حتى بلغت عضلة ساقه . فالفيا سيدها لدى الباب) .

— وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وأبو نعيم فى الحلية عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل عن هم يوسف عليه السلام مابلغ ؟ قال (حل الهميان — يعنى السراويل — وجلس منها مجلس الخاتن ، فصيح به يا يوسف لاتكن كالطير له ريش فإذا زنى قعد ليس له ريش) .

— وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضى الله عنه فى قوله ﴿ وهم بها ﴾ : قال حل سراوله حتى بلغ ثنته وجلس =

وسبقه الإمام ابن جرير الطبرى فى جمع الروايات المؤيدة لهمه عليه السلام بالفاحشة ، ومن بينها آثار تحكى مادار بين يوسف عليه السلام وبين امرأة العزيز فى الخلوة التى أعدتها مسرحا للجريمة (١) .

كما ربط الإمام الطبرى بين أمرين لا دليل على وجود ارتباط بينهما وهما: انصراف يوسف عليه السلام عن الفاحشة ، ورؤية البرهان ! وما ساقه إلى هذا الربط سوى تأسيسه المعنى على أن همه عليه السلام كان متعلقاً بالفاحشة .

يقول رحمه الله تعالى :

(وأما البرهان الذى رآه يوسف فترك من أجله مواقعة الخطيئة ، فإن

= منها مجلس الرجل من امرأته ، فمثل له يعقوب عليه السلام فضرب بيده على صدره فخرجت شهوته من أنامله .

— وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة وسعيد بن جبير فى قوله ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ قال : حل السراويل وجلس منها مجلس الخاتن فرأى صورة فيها وجه يعقوب عاضا على أصابعه ، فدفع صدره ، فخرجت الشهوة من أنامله ، فكل ولد يعقوب قد ولد له أثنا عشر ولدا إلا يوسف عليه السلام فإنه نقص بتلك الشهوة ولم يولد له غير أحد عشر ولدا ! !

— وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن على بن أبى طالب رضى الله عنه فى قوله ﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾ قال : عمدت إلى صنم فسترته بثوب أبيض . فقال : أى شىء تصنعين ؟ فقالت : « استحى من إلهى أن يرانى على هذه الصورة » . فقال يوسف عليه السلام : « تستحين من صنم لا يأكل ولا يشرب ولا استحى أنا من إلهى الذى هو قائم على كل نفس بما كسبت ! » ثم قال « لا تنالينها منى أبدا » وهو البرهان الذى رأى .

(١) روى الإمام الطبرى باسناده إلى السدى أن امرأة العزيز قالت (يا يوسف ما أحسن شعرك !) قال : « هو أول ما ينتثر من جسدى » . الخ . . وهى رواية طويلة راجعها بتمامها فى تفسير الطبرى ج ١٢ ص ١٨٣ .

أهل العلم مختلفون فيه : فقال بعضهم نودى بالنهى عن مواقعة الخطيئة[١])
ثم ساق عدة صور للبرهان ، كل صورة منها مؤيدة بالروايات المسندة .وكلما
انتقل الإمام الطبرى من ذكره للروايات الخاصة بإحدى صور البرهان إلى
ذكر الروايات الخاصة بصورة أخرى لهذا البرهان جاء قبل ذكرها بعبارة
(وقيل إن البرهان الذى من أجله ترك مواقعة الخطيئة هو :) مؤكدا أن الهم
كان بالفاحشة قطعا :

ولم يكتف بذلك بل اتهم من خالف هذا الرأى بمخالفة أقوال السلف
وتأويل القرآن بالرأى[٢]

يقول رحمه الله تعالى :

(فإن قال قائل[٣] وكيف يجوز أن يوصف يوسف بمثل هذا وهو لله
نبى ؟ قيل إن أهل العلم اختلفوا فى ذلك ، فقال بعضهم : كان ممن ابتلى من
من الأنبياء بخطيئة ، فإنما ابتلاه الله بها ليكون من الله عز وجل على وجل
إذا ذكرها ، فيجد فى طاعته إشفاقا منها ، ولا يتكل على سعة عفو الله ورحمته.
وقال آخرون بل ابتلاهم الله بذلك ليعرفهم موضع نعمته عليهم بصفحه عنهم

---

(١) جامع البيان للامام الطبرى جـ ١٢ ص ١٨٥ .

(٢) لم يكن أبدا رفض الروايات التى تتعارض مع النص القرآنى أو صحيح السنة من قبيل التفسير بالرأى ولا يصح القول بأن فلانا قد خالف السلف لمجرد رفضه هذه الروايات ، وكأنى بالأمر قد انعكس : فأطلقت السلفية على كل من تمسك بالروايات المتناقضة ، أو المخالفة لأصول الدين ! ! واتهم من تمسك بالشريعة بتهمة القول بالرأى فى تأويل القرآن العظيم ! ! بل إن التهمة بالرأى ترد على هؤلاء المتمسكين بالروايات الساقطة، أما الأئمة الذين لم يخرجوا فى منهج التأويل عن تفسير القرآن بالقرآن أو بصحيح السنة فهؤلاء قد سلكوا المنهج القويم الذى يحمى التأويل من تسرب كل قول مخالف للنص أو مؤيد لمذهب فاسد ، أو مروج لنظرية هدامة .

(٣) الإمام ابن جرير الطبرى : جامع البيان جـ ١٢ ص ١٨٥ .

وتركه عقوبتهم عليه فى الآخرة . وقال آخرون بل ابتلاهم بذلك ليجعلهم أئمة لأهل الذنوب فى رجاء رحمة الله وترك الإياس من عفوه عنهم إذا تابوا .

(وأما آخرون ممن خالف أقوال السلف وتأولوا القرآن بآرائهم فإنهم قالوا فى ذلك أقوالا مختلفة :

(فقال بعضهم معناه ولقد همت المرأة بيوسف وهم بها يوسف أن يضربها أو ينالها بمكروه لهمها به مما أرادته من المكروه ، لولا أن يوسف رأى برهان ربه، وكفه ذلك عما هم به من أذاها ، لا أنها ارتدعت من قبل نفسها ، قالوا والشاهد على صحة ذلك قوله ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ قالوا : فالسوء هو ما كان هم به من أذاها وهو غير الفحشاء .

(قال آخرون ...) وساق قول من قال إن الهم لم يحدث من يوسف عليه السلام على تقديم جواب لولا عليها ، وقول من قال إنه حديث نفس ولا حرج فى حديث النفس ولا فى ذكر القلب إذا لم يكن معهما عزم ولا فعل - .

والروايات التى ساقها الإمام الطبرى فى هذا الموضوع نقلها عنه كل من اعتنى من المفسرين بسرد ما أثر فى هذا الشأن مثل[١] البغوى والإمام السيوطى .

وذكر الإمام البغوى بعد أن نقل عن مجاهد[٢] قوله (حل سراويله وجعل يعالج ثيابه) ... أن هذا هو قول أكثر المتقدمين :

(١) معالم التنزيل ج ٤ ص ٤٣٠ .

(٢) هو مجاهد بن جبر (٢١ — ١٠٢ هـ) من المدرسة المكية للتفسير ، قال عنه الإمام سفيان الثورى (إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك)، وكان أكثر تلامذة ابن عباس ملازمة له ويروى عنه أنه قال (عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات اقف عند كل آية فيه واسأل عنها فيم نزلت ؟ وكيف كانت ؟) .

يعنى عرض دراية .

لكن يجب التنبيه إلى انه قد نسب إلى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما (٣ ق هـ - ٦٨ هـ) روايات كثيرة لا يسلم المحدثون نسبتها كلها إليه .

مثل سعيد(١) بن جبير والحسن(٢)، وقال الضحاك(٣) (جرى الشيطان فيما بينهما فضرب بإحدى يديه إلى جيد يوسف وباليد الأخرى إلى جيد المرأة حتى جمع بينهما!) (قال أبو عبيد القاسم بن سلام: قد أنكر قوم هذا القول

= وقد تناول أئمة الحديث الطرق التى رويت بها هذه التفاسير عن ابن عباس وتكلم عنها الإمام السيوطى فى الإتقان والإمام ابن حجر فى اسباب النزول (العجب العجاب فى بيان الأسباب). ومن المتهمين فى الرواية عن ابن عباس: محمد بن السائب الكلبى عن أبى صالح مولى ام هانىء عن ابن عباس والكلبى متهم بالكذب، وجويبر ابن سعد: وهو واه، روى التفسير عن الضحاك بن مزاحم وهو صدوق عن ابن عباس والضحاك لم يسمع عن ابن عباس.

وجمع تفسير السدى الكبير (اسماعيل بن عبد الرحمن ت ١٢٧ هـ) روايات عن ابن عباس ولكن تفسيره رواه اسباط بن نصر وهو غير متفق عليه ـ ومن الثقات عن ابن عباس مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة.

(١) هو سعيد بن جبير من المدرسة المكية للتفسير قال عنه سفيان الثورى (خذوا التفسير عن اربعة سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر وعكرمة والضحاك) وقال قتادة (كان اعلم الناس اربعة: كان عطاء بن ابى رباح اعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام) استشهد عام ٩٥ هـ قتله سفاح هذه الأمة الحجاج بن يوسف الثقفى فدعا عليه قبل قتله بقوله (اللهم لا تسلطه على أحد بعدى) فلم تمض عدة أيام حتى توفى الحجاج.

(٢) هو الحسن بن يسار البصرى (٢١ ـ ١١٠ هـ) كانت أمه (خيرة) مولاة أم المؤمنين السيدة أم سلمة رضى الله تعالى عنها، وهو من المدرسة العراقية للتفسير، عده البعض أنه أفضل التابعين، رويت عنه روايات فى التفسير تعرض لها العلماء بالنقد وبينوا صحيحها وسقيمها.

(٣) هو الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٥ هـ) من المدرسة العراقية للتفسير وثقه الإمام أحمد وابن معين وأبو زرعة وغيرهم من الأئمة وروى عن الضحاك جماعة منهم على بن الحكم وهو ثقة وعلى بن سليمان وهو صدوق، وعطية بن الحارث لا بأس به.

وقالوا هذا لا يليق بحال الأنبياء والقول ما قال متقدمو هذه الأمة ، وهم كانوا أعلم بالله أن يقولوا فى الأنبياء عن غير علم)[١] .

وقد جرى هؤلاء فى تفسير باقى آيات القصة على هذا النمط . فقالوا عند قوله تعالى ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ﴾ لما قال يوسف عليه السلام ذلك بعد التحقيق الذى أجراه الملك، قال له جبريل عليه السلام (ولا حين هممت بها)[٢] يثبتون على يوسف عليه السلام الهم المتعلق بالمخالطة والفحشاء ! .

قال الواحدى فى البسيط :

(قال المفسرون الموثوق بعلمهم المرجوع إلى روايتهم ، الآخذون للتأويل من مشاهد التنزيل : هم يوسف عليه السلام أيضاً بهذه المرأة هما صحيحاً .. فلما رأى البرهان من ربه زالت كل شهوة عنه)

---

(١) الإمام البغوى : معالم التنزيل جـ ٤ ص ٤٣٠ .

(٢) أخرجه الحاكم فى تاريخه ، وابن مردويه بلفظ قريب من هذا عن أنس مرفوعا .

وروى مثله عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وعن حكيم بن جابر وعن الحسن وغيرهم .

قال المفسرون إن صح — يعنى الأثر — يحمل منه الهم على الميل الصادر عن طريق الشهوة البشرية ، لا عن طريق العزم والقصد .

وقيل لا مانع من أن يحمل على الثانى ، ويقال إنه صغيرة تجوز على الأنبياء عليهم السلام قبل النبوة ، وهذا القول يلزم منه أنه عليه السلام لم يكن إذ ذاك نبيا خلافا لمن قرر نبوته :

قلت إن جمهورا من المفسرين جعلوا الآية الكريمة تكملة لحكاية قول امرأة العزيز . وليست من قول يوسف عليه السلام . ومن ناحية أخرى نقول إننا لا نحمل الهم على المخالطة ولكن على الضرب ، فيكون المعنى ولا حين هممت بضربها فكاد أن يؤدى ذلك إلى أسوأ العواقب .

ثم ساق ما وصل إليه من الروايات فى هذا الشأن ، ولا داعى لسردها ، فكلها لا تخرج عن المعنى الذى قرره ، ومن أراد الاطلاع عليها فليراجعها فى موضعها فى كتب التفسير وبعضها مما لا يليق عرضه . فى غير معرض العلم .

وفى تفسير الجلالين ﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾ أى قصدت مخالطته وقصد هو مخالطتها ، والهم بالشىء قصده والعزم عليه ، والمراد بهم يوسف منازعة الشهوة إياه لا القصد الإختيارى . وهذا لا يدخل تحت التكليف قط . بل يثاب المرء على الامتناع عن مجاراته ، وهذا لا يقدح فى يوسف فإنه عام فى جميع الناس ، وإنما يتفاضلون فى ضبط نفوسهم وكف رعونتها .

وليتلافى هؤلاء نقطة الضعف فى تأويلهم عمدوا إلى أضعف ثغرة فيه ، فقالوا إن الذى حدث من يوسف عليه السلام كان قبل زمان نبوته ، وجوزوا حدوث مثل ذلك من الأنبياء قبل زمان النبوة .

قال ابن عطية فى كتابه (الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز) :

(الذى أقول به فى هذه الآية إن كون يوسف فى هذه النازلة لم يصح كونه نبياً ولا تظاهرت به رواية ، وإذا كان كذلك — يعنى أنه لم يكن نبياً فى ذلك الوقت — فهو مؤمن قد أوتى حكما وعلما ، ويجوز عليه الهم الذى هو إرادة الشىء دون مواقعته ، وأن يستصحب الخاطر الردىء على ما فى ذلك من الخطيئة . وإن فرضناه نبيا فى ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندى الا الهم الذى هو خاطر ، ولا يصح عليه شىء مما ذكر)

ولا يجوز بناء التأويل على قاعدة قابلة للنقض ، إذ يكون التأويل مثلها قابلا للبطلان . فمن بنى التأويل على القول الذى يجيز وقوع المعاصى من الأنبياء قبل زمان نبوتهم نقضه قول من لا يرى ذلك لأن الله تعالى يصطفى لرسالاته أهل الكمال الذين أهلهم لتلقى وحيه تعالى وتبليغه إلى الناس .

كذلك لا يجوز بناء التأويل على أساس افتراض عدم نبوته فى ذلك الوقت لأن هناك من يثبتها .

ولا يجوز أيضا ترك تأسيس التأويل على مالا يمكن نقضه تمسكا بما يمكن نقضه .

ويشعر الزمخشرى بهول الموقف إلا أنه لا يعرف كيف يخرج منه فتراه يقول :

(ولقد همت به) معناه ولقد همت بمخالطته (وهم بها) وهم بمخالطتها (لولا أن رأى برهان ربه) جوابه محذوف تقديره: لولا أن رأى برهان ربه لخالطها، فحذف لأن قوله (وهم بها) يدل عليه كقولك هممت بقتله لولا أنى خفت الله ، معناه لولا أنى خفت الله لقتلته .

(فإن قلت كيف جاز على نبي الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصد إليها ؟ (قلت المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ، ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلا يشبه الهم به والقصد إليه .)[1]

ثم يعود فيشنع بعد ذلك على الروايات التى تصور كيفية حدوث الهم فيقول :

(ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لنعيت عليه . وذكرت توبته واستغفاره كما نعيت على آدم زلته ، وعلى داود ، وعلى نوح ، وعلى أيوب وعلى ذى النون وذكرت توبتهم واستغفارهم . كيف وقد أثنى عليه وسمى مخلصاً ؟ فعلم بالقطع أنه ثبت فى ذلك المقام الرحض وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولى القوة والعزم ، ناظراً فى دليل التحريم ، ووجه القبيح ، حتى استحق من الله الثناء) .

إلى أن قال :

(فأخزى[2] الله أولئك فى إيرادهم مايؤدى إلى أن يكون إنزال الله السورة التى هى أحسن القصص فى القرآن العربى المبين ، ليقتدى بنبى من أنبياء الله

(٢،١) الزمخشرى : الكشاف عن حقائق التنزيل جـ ٢ ص ٣١١ ، ٣١٢ على التوالى .

فى القعود بين شعب الزانية ، وفى حل تكته للوقوع عليها ، وفى أن ينهاه ربه ثلاث كرات ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن، وبالتوبيخ العظيم، وبالوعيد الشديد، وبالتشبيه بالطائر الذى سقط ريشه حين سفد غير انثاه وهو جاثم فى مربضه لا يتحلحل ولا ينتهى ولا يتنبه حتى يتداركه الله بجبريل ، ولو أن أقذع الزناة وأشطرهم ، وأحدهم حدقة وأجلحهم وجها لقى بأدنى مالقى به نبى الله مما ذكروا . لما بقى له عرق ينبض ، ولا عضو يتحرك : فياله من مذهب ما أفحشه ومن ضلال ما أبعده)

قلت لقد وقع الزمخشرى فيما نعاه على غيره : فقد هاجم ماساقوه من روايات تسند إليه عليه السلام الهم بالفاحشة ، وأثبت الزمخشرى فى نفس الوقت تعلق همه عليه السلام بالمخالطة ونحن نرفض أن يكون عليه السلام قد هم بأية معصية لمخالفة ذلك للنص القرآنى كما سيأتى بيانه .

وجمهور المفسرين من المعاصرين يميلون إلى أن الهم كان من الطرفين بالفاحشة . يقول ، د . محمد البهى :

(ولقد همت به وهم بها) ومع هذا الحوار الذى يعبر عن الوضع الحرج بين زليخا ويوسف وهو وضع فيه الحاح الرغبة من جانب والحاح رفض الرغبة من جانب آخر ،فقد تراخى الشد والجذب، وكاد تحقيق الرغبة أن يتم ، فلم يكن جمال يوسف غير عادى فقط بل كان مع ذلك شبابه اليافع ، ولم تكن امرأة العزيز واقعة تحت تأثير هذا الجمال وحده . والشباب عند يوسف بل الحياة المترفة التى كانت تعيشها بالإضافة إلى أنها كانت زوجة للعزيز بالإسم فقط، كان لها تأثير كذلك، فقد كان العزيز زوجها من رجال الحاشية المقربين الذين لا يباشرون عملهم الخاص فى حاشية الملك إلا بعد أن تزال خصائص الذكورة فيهم وهى لذلك لم تزل بكراً .

(لولا أن رأى برهان ربه) ولم يحل بين يوسف ومباشرة الفحشاء مع

زليخا سوى أن شاهد بنور قلبه وجود الله معه : سوى أن تذكر الله جل جلاله ، فعاد إلى صلابته فى تجنبه المنكر .

﴿كذلك لنصرف عنه السوء ، والفحشاء إنه كان من عبادنا المخلصين﴾ وهكذا يتذكره المولى سبحانه وتعالى ، انصرف يوسف عن السوء والفحشاء فى علاقته مع امرأة العزيز ، وهو لم يذكر المولى جلت قدرته فى هذه اللحظة التى كانت الفاصلة فى مصيره إلا أنه كان من الأوفياء فى عبادته لله وحده)[1] .

وهو تأويل مردود من وجوه ذكرنا بعضها وباقيها نبينه فيما يلى :

ه لا نوافق على أن الحياة المترفة كانت من أسباب تعلقها بيوسف عليه السلام ، فكم من امرأة فقيرة قد تآمرت على التخلص من زوجها ، لتظفر بمن تعلقت به ، ولو كان فقيراً .

ه كذلك لا عبرة بالروايات التى تصف العزيز بالعنة أو أنه كان خصيا ، بل إن جمهور المؤرخين يضعون القصة فى عصر الهكسوس ، وهؤلاء لم تكن عندهم عادة استوزار الخصيان ، بل ويكذب ذلك أن يوسف عليه السلام أصبح عزيز مصر ، ولم تطبق عليه هذه القاعدة .

ه اعتمد التأويل على أن يوسف عليه السلام لم يحل بينه وبين مباشرة الفحشاء مع زليخا سوى أن شاهد بنور قلبه وجود الله معه :

وكيف تغيب المعية الإلهية عن يوسف عليه السلام والله تعالى يقول وهو معكم أينما كنتم) .

ومن يتلو الآية السابقة لآية المراودة يدرك مبلغ تهافت مثل هذا التأويل إذ يقول الله تعالى ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين﴾

---

(١) د . محمد البهى : التفسير الموضوعى للقرآن الكريم : تفسير سورة يوسف ص ٢٠/٢١ .

والإحسان كما جاء فى الحديث (ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك) وهذا هو الحال فى كل مؤمن محسن ، فما بالك بمن اختصه الله تعالى بالنبوة والرسالة ؟

فالنبي المرسل لا يغيب عن الله تعالى طرفة عين ، لا أنه ينسى الله تعالى عند الهم بالزنا ثم لا يرجع عن همه إلا حين يرى برهان ربه !!

والهم بهذا المعنى لا يصدر عن نبي مطلقا .

(ثانيا) فساد تأويل من خلط مابين الهم وبين باقى مراتب القصد

حاول أصحاب هذا الاتجاه رم ما تصدع من التأويل السابق ، فذهبوا إلى التفرقة فى الدرجة مابين همها وهمه عليه السلام بالرغم من أن كلا الهمين كان متعلقا بالفاحشة قال ابن منظور فى مادة (هم) فى لسان العرب :

وسئل ثعلب[١] عن قوله عز وجل ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أنه رأى برهان ربه ﴾ قال : همت زليخا بالمعصية مصرة على ذلك - وهم يوسف عليه السلام بالمعصية ولم يأتها ولم يصر عليها فبين الهمين فرق)[٢] .

فغلظ هؤلاء الهم فى حق امرأة العزيز وخففوه فى حقه عليه السلام ! وذلك ما أداهم إلى الوقوع فى المحظور . فإن تخفيف الهم كما زعموا ، يلغى الهم ويجعله (خطرة) وليس هما . وهذا باطل طبقا للنص - ذلك أن الآية تنص على وجود الهم ، وهم يقولون إنه ليس بهم ولكنه خطرة خطرت !! فى نفسه عليه السلام !

ونقل الإمام البغوى فى تفسيره[٣] قول بعض أهل الحقائق فى هذا الشأن أن

---

(١) هو الإمام اللغوى المشهور أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (٢٠٠-٢٩١هـ) وقد قام الأستاذ عبدالسلام محمدهارون بتحقيق كتابه (مجالس ثعلب) الذى نشرته دار المعارف .

(٢) ابن منظور : لسان العرب جـ ١٢ ص ٦٢٠ .

(٣) الإمام البغوى : معالم التنزيل جـ ٤ ص ٤٣١ . ونقله عنه الخازن فى لباب =

(الهم همان هم ثابت وهو إذا كان معه عزم وعقد ورضى : مثل هم امرأة العزيز ، والعبد مأخوذ به ، وهم عارض وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف عليه السلام ، والعبد غـــير مأخوذ به مالم يتكلم أو يعمل) .

قلت هذا كلام متناقض إذ الهم لا يؤاخذ به الإنسان مالم يصبح عزما ، فلا مؤاخذة إذن فى الهم من الجانبين .

فكيف تغلظون فى حقها ما كان من هذا القبيل مع أنه لا يؤاخذ الإنسان به شرعا ؟ ولا سر لهذا التخبط إلا أن التأويل نفسه يسلك اتجاها متعارضا مع النص .

ونقل الطيبي ماحكاه محيي السنة الإمام البغوى عن بعض أهل الحقائق من أن الهم همان وقال بعد ذكره (إن هذا التفسير هو الذى يجب أن نذهب إليه أو نتخذه مذهبا ، وإن نقل المفسرون مانقلوا ، لأن متابعة النص القاطع ، وبراءة المعصوم عن تلك الرذيلة ، وإحالة التقصير على الرواة أولى بالمصير اليه)

وقال أبو نصر القشيرى :

(قال قوم جرى من يوسف هم ، وكان ذلك حركة طبع من غير تصميم للعقد على الفعل ، وما كان من هـذا القبيل ، لا يؤاخذ به العبد ، فقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد ، وتناول الطعام اللذيذ ، فإذا لم يأكل ولم يشرب ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما هجس فى النفس) .

ويقول سماحة الشيخ حسنين محمد مخلوف :

(ولا خلاف فى أن همها كان بالمعصية ، وكان عزما وجزما ، ولا فى أن يوسف عليه السلام لم يأت بفاحشة ، وأن الله برأه منها وأنطق المرأة ببراءته ،

= التأويل ، ونقله عن الخازن الشيخ الجمل فى الفتوحات الآلهية ج ٢ ص ٤٤٥ ط . الحلبي .

وأن همه عليه السلام كان بمجرد خاطرة قلب بمقتضى الطبيعة البشرية من غير جزم وعزم ، وذلك لا يدخل تحت التكليف ولا يخل بمقام النبوة : كالصائم يرى الماء البارد فى اليوم الحار فتميل نفسه إليه ، ولكن يمنعه منه دينه فلا يؤاخذ بهذا الميل وقوله تعالى (لولا أن رأى برهان ربه) أى لولا مشاهدته البرهان الإلهى على شناعة المعصية لجرى على موجب ميله الجبلى، لكنه لمشاهدته البرهان استمر على ما هو عليه من الطهارة وإباء المعصيه)[1] .

وكأنى بهؤلاء يتجهون اتجاه مدارس التحليل النفسى المعاصر مع الفارق : إذ أن التحليل يحتاج إلى وجود الشخص القابل لعملية التحليل ، فى حين أن مرتبة النبوة يستحيل إخضاعها لمثل هذه المعايير الدنيوية التى يحاولون تطبيقها .

ويلاحظ إعجاب أصحاب هذا الاتجاه بتشبيه ما هم به يوسف عليه السلام بما يخطر على قلب الصائم من شرب الماء والأكل ، قلت إنه خطأ فى التشبيه إذ لا علاقة له بالموضوع : فإن التشبيه لكى يكون أقرب : يجب أن يكون بمن يهم وهو صائم فى رمضان بالإفطار عامدا متعمدا مع معدل الفارق بين الحالتين إذ الأصل فى الطعام الإباحة،وقد حرمه الصيام، أما الزنا فلا إباحة فى الاقتراب منه بأى شكل فهو محرم بالنص القطعى .

ولا شك فى أنهم إنما يحالون عن طريق التمثيل وغيره إعطاء جرعات فاشلة لتخفيف قبول الهم بالفاحشة وزاد آخرون على هذا القول أن التعبير بالهم بالنسبة ليوسف عليه السلام إنما جاء لوقوعه فى صحبة همها عن طريق المشاكلة لا المشابهة :

قال فى ارشاد العقل السليم :

(« وهم بها » : بمخالطتها أى مال إليها بمقتضى الطبيعة البشرية وشهوة الشباب وقرمه ميلا جبليا لا يكاد يدخل تحت التكليف لا أنه قصدها قصدا

---

(١) صفوة البيان لمعانى القرآن — ج ١ ص ٣٨٢ .

اختياريا .. وإنما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه فى صحبة همها فى الذكر بطريق المشاكلة لا لشبهه به كما قيل)[١]

وهذا قول باطل إذ يوهم أن الأفعال تصدر عن طريق المشاكلة لاعن طريق دلالتها على الحدث المقصود منها، وهو ترخيص لايجوز مطلقا فى تأويل القرآن الكريم .

ثم أن هذا التأويل يستند أساساً على الهم المتعلق بالمخالطة وهذا واضح البطلان .

خطأ من فسر الهم بالشهوة :

قال فى روح المعانى :

(وجوز الإمام أيضا تفسير الهم بالشهوة ، وذكر أنه مستعمل فى اللغة الشائعة فإنه يقول القائل فيما لا يشتهيه : لا يهمنى هذا وفيما يشتهيه : هذا أهم الأشياء إلى وهو ما أشرنا إليه أولا، إلا أنه عليه الرحمة حمل الهم فى الموضعين على ذلك : فقال بعد : فمعنى الآية ولقد اشتهته واشتهاها ، ولولا أن رأى برهان ربه لفعل ، وهو مما لاداعى إليه إذ لامحذور فى نسبة الهم المذموم اليها .

(والظاهر أن الهم بهذا المعنى مجاز كما نص عليه السيد المرتضى فى درره لا حقيقة كما يوهمه ظاهر كلام الإمام ، وقد ذهب إلى هذا التأويل أبو على الجبائى وغيره وروى ذلك عن الحسن)[٢] .

ولا فرق عندى بين من علق الهم بالمخالطة وبين من علقه بالشهوة أو جعله فعل الشهوة وما يرد على أصحاب التأويل الأول يرد على أصحاب التأويل الثانى . فهما سيان فى البطلان .

---

(١) إرشاد العقل السليم جـ ١ ص ٥١٣ ، ط بولاق ١٢٧٥ هـ .

(٢) الالوسى : روح المعانى جـ ٤ ص ٣٧ .

ويقال لأصحاب هذين الإتجاهين : إنكم قد بنيتم تأويلكم على افتراضين غير مسلمين :

(أولا) : إنه عليه السلام لم يكن نبيا فى ذلك الوقت ؛ مع أن هناك من يقول بنبوته عليه السلام ومن ثم فقد رفض تعليق الهم بالمعصية رفضا قاطعاً .

ثم إن افتراضكم هذا اقتضى منكم السير على قاعدة إخضاع تحديد زمان نبوة الأنبياء عليهم السلام ، لا للتقدير الصحيح بل لتبرير ما ذهبتم إليه بشأن ما صدر عنهم كلما عجزتم عن فهمه ، وما دام الهم فى نظركم ، كان متعلقا بالمعصية فقد طبقتم هذه القاعدة واستخلصتم من ذلك أنه ليس بنبي فى ذلك الوقت ؛ فكأنكم طوعتم المعنى ليصير إلى التأويل الذى ترغبونه ؛ ولا يصح التأويل بناءً على هذا الأساس .

(ثانيهما) اعتمدتم من ناحية أخرى على القول الذى يجيز وقوع المعاصى من الأنبياء والمرسلين قبل زمان النبوة والرسالة ، وجمهور العلماء لا يسلم لكم بهذا وخاصة إذا تعلق الأمر بارتكاب الخبائث المنفرة عن الرسالة .

وبناء التأويل على افتراضين غير مسلمين يجعله باطلا .

ويؤكد ذلك أن المعصية التى نسبوا إليه عليه السلام الهم بها : قد اجتمعت فيها أربع كبائر منكرة : الزنا ، والخيانة فى معرض الأمانة ، ومقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الوضيعة الموجبة للفضائح فى العرض ؛ والعار الذى لا يمحى ، ومحاولة توجيه أقبح الإساءات إلى من رباه فى كنفه ، وصرح برغبته فى تبنيه وإكرام مثواه ، ومكنه من كافة شئونه ، وفوضه فى التصرف فى أمواله وخدمه ، ومنحه ثقته المطلقة ، فلو لم يكن هناك دين يحجز عن الشر أو الهم بالفاحشة ؛ ويلزم بالأمانة لكانت جميع هذه الاعتبارات كافية للبعد عن التفكير فى تدنيس فراش العزيز .

ولو نسب ذلك إلى أبعد الناس عن الخير لاستنكفت محاولته ، فكيف يجوز إسناده إلى نبي مرسل مؤيد بالوحى والمعجزات القاهرة الباهرة ؟

هذا مع أن الأنبياء والمرسلين معصومون فى خواطرهم فلا حظ للشيطان

فيها ، إنما هى خواطر ربانية أو ملكية أو روحية :

﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين - ٨٢ - إلا عبادك منهم المخلصين - ٨٣﴾ ٣٨ / سورة ص . والمرسلون مؤاخذون أمام الله تعالى عن خاطراتهم شأنها شأن الأفعال التى تصدر عن الأفراد العاديين ، وانظر إلى يونس عليه السلام حينما ظن أنه لن يقدر عليه ماقدر على قومه ﴿فالتقمه الحوت وهو مليم - ١٤٢﴾ ٣٧ / سورة الصافات .

يتبين من ذلك أن العجز عن إدراك المعنى الحقيقى هو الذى ألجأ هؤلاء إلى مقالاتهم هذه على حساب عصمة الأنبياء ، ولو تبين لهم المعنى الذى يقتضيه اللفظ والسياق لما جازفوا بقولهم هذا .

أما الذين اتجهوا إلى حل الإشكال عن طريق تقسيم الهم إلى همين ... فقد تخبطوا تخبطا أفسد المعنى ... لأن الهم إنما هو مقاربة للفعل دون مفارقته وليس هو التلبس به والشروع فيه ، فكيف يجوزون قياس مقاربة بمقاربة ! ويجعلون ذلك مقياسا للتأويل ؟ مع أن اللفظ يؤكد المساواة بين فعلى الهم . ولم يغلظون الهم فى حق امرأة العزيز ويجتهدون فى تخفيفه بالنسبة إلى يوسف عليه السلام ؟ مع أن العكس هو الأولى لعظم مرتبة الرسالة .

ثم انهم فى غمرة التبرير ، جاؤوا بفعل غير فعل الهم ؛ بخلطهم ما بين الهم ، وما بين باقى مراتب القصد فتارة يجعلونه حديثا نفسيا ، وتارة ينزلون من الهم إلى درجة الخاطر النفسى وتارة يصعدونه ليصبح عزما . وبذا ينتفى كونه هما ، وهذا ما تأباه اللغة ويأباه النص - والباعث على هذا الخلط إنما هو محاولة التخلص من إسنادهم بالفاحشة إليه عليه السلام ، لعلمهم بأن مرتبته عليه السلام ترد كل إسناد من هذا القبيل ، لذا حاولوا جهدهم تخفيف إرادة الفاحشة من جانبه عليه السلام ، وفى محاولتهم هذه خرجوا نهائيا عن اللفظ وعن النص :

فالآية تقول (وهم بها) وهم يقولون إنه ليس بهم ولكنه خاطر نفسانى ! فنفوا الهم مع وقوعه فى النص القرآنى .

بطلان الاحتجاج ببشرية الأنبياء لتبرير الهم بالفاحشة :

خلط أصحاب هذين الاتجاهين ما بين البشرية ، وبين إرادة المعصية وشتان ما بين الأمرين ! فمن شدة خلطهم أنهم طرحوا مقدمة مسلمة وهى بشرية الأنبياء ليخرجو بقضية لا يسلمها لهم أحد وهى جواز جريان المعصية عليهم ، أو جواز الهم بارتكابها ! .

ونقول إن ما تبتغون التوصل إليه عن طريق هذه المقدمة لا علاقة له مطلقا بها ، فإن بشرية الأنبياء لم تطرح موضع نزاع أو جدال ، وإنما موضع المناقشة هو النتيجة التى رتبتموها على هذه المقدمة : لجريان المعاصى والكبائر أو إرادتها من جانب الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم - وحاشاهم - إنما يناقش فى باب (عصمة الأنبياء) وليس فى باب (بشرية الأنبياء) . وهذه زلة سقط فيها كثير من الجهابذة .

يقول صاحب[1] جواهر المعانى مسجلا ما أملاه عليه شيخه الإمام التيجانى[2] :

وأما قوله (وما أبرىء نفسى[3]) فإنه أخبر عن حال بشريته بتحركها لطلب الفعل لما أن دعته المرأة ، والقلب أدبر عن إجابة البشرية إلى ما طلبت توفية لأمر الله . فإن القلب هو المخاطب بالتكليف لا البشرية ، فإن القلب إذا توقف ، ووقف فى الحدود المأمور بها لم يضره تحرك البشرية لخلاف ذلك لأن القلب قد سلم : وهو المراد بالتكليف ، يشهد له قوله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) هو العلامة على حرازم بن العربى أجل أصحاب الإمام أبى العباس التيجانى ، وقد جمع فى هذا الكتاب ما أملاه عليه شيخه ، وبدأ تأليفه سنة ١٢١٣ هـ .

(٢) هو الإمام أبو العباس أحمد بن محمد المختار التيجانى الشريف الحسنى (١١٥٠ — ١٢٣٠ هـ) إمام الطريقة التيجانية المشهورة بين الطرق الصوفية .

(٣) ﴿ وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى . إن ربى غفور رحيم — ٥٣ ﴾ اتخذ الذين قالوا أنه عليه السلام قدهم بالمعصية من هذه الآية دليلا على صحة تأويلهم ، مع أن السياق يحكى قول امرأة العزيز ، وفى حالة إسناد هذا القول إلى يوسف عليه السلام . لا يصح أبداً اتخاذه دليلا على الهم بالفاحشة .

(إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب)[١] .

[وبعبارة : فالبشرية فى الأنبياء موجودة لطلب الانغماس فى الشهوات، هم فيها كسائر البشر ؛ سواء كانت الشهوة محرمة أو حلالا ، والقلب هو القائم على البشرية ، يفصل أحوال الشهوات : يصرف البشرية فى الشهوات الحلال ، ويقمعها عن الوقوع فى الشهوات المحرمة ، وهذا هو عين العصمة التى يتصف بها الأنبياء ، لا زوال البشرية كما يظن بعض الجهال ؛ فإن البشرية لو كانت مفقودة منهم لم تكن لهم عصمة لعدم وجود سببها : وهو ظهور البشرية لطلب الوصول إلى الشهوات المحرمة .

[فامتناع القلب من موافقة البشرية عن الوصول إلى الشهوات المحرمة مع وجود داعية البشرية إليها هو الامر المسمى فى عرف الشرع بالعصمة .

[فظهر من هذا الخبر أن الخواطر حتى فى الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولكن سلطان الروح قاهر لميل النفس وهواها ، فلا تقدر أن تتحرك لشىء إلا إذا حركها. وسلطان الروح لا يميل للقبيح، فلذا كانوا منزهين عن الافعال القبيحة لان الله أيدهم بروح منه ، ومن أيده الله لا تتأتى منه مخالفة للحق ولو فيه حتف أنفه . أنتهى ما أملاه رضى الله عنه][٢] .

وهو كلام ينقض آخره أوله ، والذى نقرره أن الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين حاشاهم أن تخطر لهم معصية على بال فما بالك بالكبائر ؟

---

(١) ورواه ابن السنى وأبو نعيم فى الطب والبيهقى فى الشعب عن النعمان بن بشير بلفظ (إن فى الرجل مضغة إذا صحت صح لها سائر جسده وإن سقمت سقم لها سائر جسده : قلبه) .

(٢) جواهر المعانى ج ١ ص ٢١٥ .

والواقع أن الخطأ فى تحديد متعلق الهم أدى إلى السير فى طريق تأويلات أشد إيغالا فى الخطأ من متعلق وهمى إذ أنها تنال من عصمة الأنبياء بعد النبوة أو تحط من صلاحيتهم لها فى حالة الاعتذار بأن محاولة ارتكاب هذه الكبائر قد حدثت قبل نبوتهم ، وهذا وذاك مالانسلم به أبدا .

الهم بالمعنى الذى أرادوه إنما يسبق المراودة وهذا مايتعارض مع النص: —

الهم هو مقاربة الفعل مع عدم الدخول فيه وعلى هذا لايمكن صرفه هنا إلى الهم بالفاحشة . ذلك لأن الهم بالفاحشة قد سبق آية المراودة ، والمراودة نفسها إن هى إلا المرحلة التنفيذية الأولى لأرتكاب الفاحشة ، ولايصح فى ترتيب الأفعال أن يكون الهم تاليا بعد المراودة ، بل يجب أن يسبقها قطعا إذ المراودة إن هى إلا شروع فى الفعل المقصود من الهم ودخول فيه .

والذين يريدون أن يجعلوا المراودة على الفاحشة هى التى حدثت أولا ثم تلاها الهم بالفاحشة إنما يجعلون الشروع فى تنفيذ الفعل سابقا على التفكير فيه ومن يقبل ذلك كان كمن يحكم بأن وجود الإبن سابق على وجود والديه وهذا محال من النواحى العقلية والنفسية والتكوينية للانسان وهذه المحالات هى التى أخرجته عن المعنى اللغوى للفظ الذى يجعل التفكير فى الفعل سابقا للدخول فيه .

فثبت أن الهم المذكور بعد المراودة إنما هو متعلق بفعل آخر غير الفاحشة قطعا : إذ لا يجوز فى العقل أن يحدث همان لفعل واحد قبل الفعل وبعده : فيقال أنها همت بالفاحشة، فشرعت فى المراودة . وبعد ذلك همت بالفاحشة مرة أخرى فان الشروع فى الفعل يلغى الهم الثانى .

ولعلى أكون قد وضحت هذه النقطة بما فيه الكفاية وسيأتى مزيد بيان لها فى موضعه .

(ثالثا) فساد التأويل المبنى على المغايرة بين متعلق الهم من الطرفين

حاول بعض المفسرين التخلص من الإشكال المترتب على تعلق الهم بالفاحشة من الطرفين، فغايروا بين متعلق الهم إذ جعلوه بالنسبة لامرأة العزيز هما بالفاحشة، وبالنسبة إليه عليه السلام علقوا همه (بدفعها عن نفسه ومنعها من ذلك القبيح، لأنه الذى يستدعيه حاله عليه السلام: وقد جاء هممت بفلان: قصدته ودفعته. ويضمر فى الأول[1] المخالطة والتمتع ونحو ذلك لأنه اللائق بحالها).

يقول الشريف المرتضى فى أماليه[2]:

[إن سأل سائل عن قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام ﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه. كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء. إنه من عبادنا المخلصين — ٢٤﴾:

[فقال: هل يسوغ ما تأول بعضهم هذه الآية عليه من أن يوسف عليه السلام عزم على المعصية وأرادها؟ وأنه جلس مجلس الرجل من المرأة ثم انصرف عن ذلك بأن رأى صورة أبيه يعقوب عاضاً على أصبعه، متوعداً له على موافقة المعصية، أو بأن نودى له بالنهى والزجر فى الحال على ماورد به الحديث؟

(الجواب):

[قلنا إذا ثبت بأدلة العقول التى لا يدفعها الإحتمال والمجاز، ووجوه التأويلات أن المعاصى لا تجوز على الانبياء عليهم السلام، صرفنا كل ماورد ظاهره بخلاف ذلك من كتاب أو سنة إلى ما يطابق الادلة ويوافقها، كما يفعل مثل ذلك فيما يرد ظاهره مخالفا لما تدل عليه العقول من صفاته تعالى، ومايجوز

(١) «الأول» هو هم المرأة.

(٢) امالى السيد المرتضى فى التفسير والدين والأدب ج ٢ ص ١٢٥/١٢٦.

عليه أولا يجوز . ولهذه الآية وجوه من التأويل كل واحد منها يقتضى براءة نبي الله من العزم على الفاحشة وإرادة المعصية .

[(أولها) : أن الهم فى ظاهر الآية متعلق بما لا يصح أن يعلق به العزم أو الإرادة على الحقيقة ، لأنه تعالى قال (ولقد همت به وهم بها) ...ولا يجوز تعلق الهم بذات كل منهما فلا بد من تقدير محذوف يتعلق العزم به ، وقد يكون ما تعلق به همه عليه السلام إنما هو ضربها أو دفعها عن نفسه : يقول القائل كنت هممت بفلان ، وقد هم فـــلان بفلان ، أى بأن يوقع به ضرباً أو مكروها .

[فإن قيل فأى معنى لقوله تعالى ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ والدفع لها عن نفسه طاعة لا يصرف البرهان عنها ؟

[قلنا يمكن أن يكون الوجه فى ذلك أنه لما هم بدفعها وضربها ، أراه الله برهانا على أنه إن أقدم على ما هم به ، أهلكه أهلها أى قتلوه . أو أنها تدعى عليه المراودة عن القبيح وتقدمه بأنه دعاها إليه ، وأن ضربه لها كان لامتناعها، فيظن به ذلك بعض من لا تأمل له ولا علم بأن مثله لا يجوز عليه ، فأخبر الله تعالى بأنه صرف بالبرهان عنه السوء والفحشاء يعنى بذلك القتل والمكروه اللذين كانا يوقعان به لانهما يستحقان الوصف بذلك من حيث القبح ، أو يعنى بالسوء والفحشاء ظنهم بذلك ....

[فإن قيل قوله هم بها كقوله همت به، فلم جعلتم همها متعلقاً بالقبيح وهمه بها متعلقا بما ذكرتم من الضرب وغيره ؟

[قلنا أما الظاهر فلا يدل على ما تعلق به الهم والعزم فيهما جميعا ، وإنما أثبتنا همها به بأن يكون متعلقا بالقبيح لشهادة الكتاب والآثار به ، وهى ممن يجوز عليها فعل القبيح ، ولم يؤثر دليل فى امتناعه عليها كما أثر ذلك فيه عليـــه السلام ... والآثار واردة بإطباق مفسرى القرآن ومتأوليه على أنها همت بالفاحشة والمعصية] .

[(والوجه الثانى) فى تأويل الآية أن يجعل الكلام على التقديم والتأخير ويكون تلخيصه، ولقد همت به، ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها) وهذا يستلزم تقديم جواب لولا[١]] .

وقال الفخر الرازى[٢] ما ملخصه :

أما همها فكان متعلقا بالفاحشة دون سائر الأمور وذلك للنص والإجماع، أما النص فقوله تعالى :

﴿ وقال نسوة فى المدينة امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين — ٣٠ ﴾ .

وقوله : ﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ﴾ من الآية ٢٣ .

وقوله تعالى حاكيا عنها :

﴿ الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين — ٥١ ﴾ .

وفى موضع آخر ﴿ ولقد راودتة عن نفسه فاستعصم ﴾ من الآية ٤٢ :

وأما الإجماع فهو أن المفسرين اتفقوا على أنها همت بالمعصية والفاحشة اه .

قلت إن الإجماع الذى يشير إليه الإمام الرازى إنما هو على المراودة أما الهم[٣] فهو موضوع آخر غير المراودة .

ويقول الفخر الرازى فى مكان آخر .

---

(١) سيأتى بطلانه عند الكلام على فساد كل تأويل مبنى على إنكار الهم .

(٢) مفاتيح الغيب ج ٥ ص ١٧٥ .

(٣) تأمل الخلط بين الهم والمراودة . فالمراودة لم تكن مطلقا موضع المناقشة . ولكن موضع المناقشة هو (الهم) وكل الآيات التى استشهد بها الفخر الرازى إنما هى عن المراودة فخرج بذلك عن الموضوع .

[المقام الثانى فى الكلام على هذه الآية أن نقول إن سلمنا أن الهم قد حصل إلا أنا نقول أن قوله ﴿ وهم بها ﴾ لا يمكن حمله على ظاهره ، لان تعليق الهم بذات المرأة محال ، لان الهم من جنس القصد والقصد لا يتعلق بالذوات الباقية، فثبت أنه لا بد من إضمار فعل مخصوص يجعل متعلق ذلك الهم ، وذلك الفعل غير مذكور ، فهم زعموا أن ذلك المضمر هو إيقاع الفاحشة بها ، ونحن نضمر شيئا آخر يغاير ما ذكروه ، وبيانه من وجوه .

(الوجه الاول) المراد أنه عليه السلام هم بدفعها عن نفسه ومنعها من ذلك القبيح[1] ، لان الهم هو القصد ، فوجب أن يحمل فى حق كل أحد على القصد الذى يليق به ، فالائق بالمرأة القصد إلى تحصيل اللذة والتنعم والتمتع ، واللائق بالرسول المبعوث إلى الخلق القصد إلى زجر العاصى عن معصيته ، وإلى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر : يقال هممت بفلان أى بضربه ودفعه . .

(فإن قالوا فعلى هذا التقدير لا يبق لقوله ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ فائدة ؟ .

قلنا بل منه أعظم الفوائد وبيانه من وجهين :

(الأول) : إنه تعالى أعلم يوسف عليه السلام أنه لوهم بدفعها لكانت تأمر الحاضرين[2] بقتله .

(والثانى) : إنه عليه السلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه فربما تعلقت به فكان تمزيق ثوبه من قدام ، وكان فى علم الله تعالى أن الشاهد يشهد بأن ثوبه

---

(١) هذا الوجه ذكره الفخر الرازى وهو متفق مع أومقتبس من الشريف المرتضى الذى عرضنا تأويله للهم والبرهان قبل كلام الفخر الرازى مباشرة .

(٢) الأولى أن يقول (لتسبب ذلك فى قتله) إذ يوهم قوله « الحاضرين » وجود أحد معهما ولم يكن هناك أحد .
هذا إلى أنها كانت حريصة على حياته عليه السلام لشدة تعلقها به .

لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن ، ولو كان ثوبه ممزقاً من خلف لكانت المرأة هى الخائنة .

(الوجه الثانى) : أن يفسر الهم بالشهوة[١] .... فيكون المعنى : ولقد اشتهته واشتهاها لولا أن رأى برهان ربه .

(الوجه الثالث) : أن يفسر الهم بحديث النفس[٢]] .

ومن العلماء الذين غايروا بين متعلق الهمين الإمام التيجانى إذ يقول :

﴿ وهم بها ﴾ يحتمل هم بالمعصية ، ويحتمل هم بالبطش بها أى المرأة غضباً لما طالبته بفعل الفاحشة ، فأما إن قلنا هم بالمعصية فإن العصمة مانعة منه ، فلم يبق إلا كونه هم بالبطش بها غضباً ، لولا أن رأى برهان ربه . فلما رأى البرهان تركها إذ علم من البرهان أنه معصوم[٣] .

ولكنه عند كلامه على البرهان ، جاء بما يتعارض مع ما ذكره فى الهم إذ قال :

[وأما قوله ﴿ برهان ربه ﴾ تفسير البرهان :

قيل إنه رأى صورة يعقوب عليه الصلاة والسلام عاضاً على إصبعه ويقول له : يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله فى الأنبياء ا فزاده الله قوة على التخلص منها . وقيل إنه رأى قائلا يقول له : مثلك إن لم تواقعها كمثل الطير فى الهواء لا يصل إليه شىء . ومثلك إن واقعتها كمثل الطير إذا سقط ميتا فى الأرض لا يدفع عن نفسه شيئا وقيل إن البرهان : رآها حين أرادت التحرك إليه ، بعد ما أظهرت صورة الفاحشة كان لها صنم تعبده فقامت وغطته

---

(١) هذا تعليق للهم بما لايصح أن يتعلق به وهو الفاحشة .

(٢) هذا نفى للهم واستبداله بحديث النفس وشتان مابين الأمرين .

(٣) جواهر المعانى وبلوغ الأمانى فى فيض أبى العباس التيجانى جـ١ ص ٢١٤، ٢١٥ ط السعادة ١٣١٣ هـ .

بغطاء كثيف ، فقال لها : ما شأنك فعلت به هذا ؟ فقالت أكره أن يرانى على المعصية .

فقال لها عليه السلام: أنا أحق أن يرانى الله تعالى على معصيته فنفر عنها[١]] .

وكأنه لم يتنبه إلى مراقبة الله تعالى إلا حين نبهه عمل امرأة العزيز إليها ؟ ومعنى ذلك أنها كانت أشد حضوراً مع آلهتها منه عليه السلام مع الخالق سبحانه نعوذ بالله تعالى من الإنزلاق فى مثل هذا الزلل الفاحش .

وأراد بعضهم التخلص من الإشكال ، فجاء بتأويل يوهم الإشتراك فى متعلق فعل الهم من الجانبين ولكنه فى الواقع يفرق بين همها وبين همه :

قال الإمام[٢] الشعرانى رحمه الله تعالى :

[سألت شيخنا رضى الله عنه عن قوله تعالى : ﴿ولقد همت به وهم بها﴾ ما هذا الهم ؟ فإن الله تعالى أبهم الهم فى الجهتين ، والناس تكلموا فى ذلك بما لا يليق برتب الأنبياء عليهم السلام ؟ .

[فقال رضى الله عنه لا أعلم .

[قلت قد ذكر الشيخ محى الدين[٣] رضى الله عنه أن مطلق اللسان يدل على أحدية المعنى ، ولكن ذلك أكثرى لا كلى ، فالحق أنها همت به عليه السلام لتقهره على ما أرادته منه ، وهم بها هو ليقهرها فى الدفع عما أرادته منه :

---

(١) جواهر المعانى وبلوغ الأمانى فى فيض أبى العباس التيجانى ج١ ص ٢١٤، ٢١٥ ط السعادة ١٣١٣ هـ .

(٢) الجواهر والدرر — على هامش الابريز — ص ٢٩٧ .

(٣) يقصد الشيخ الاكبر الإمام محى الدين بن العربى المتوفى ٦٣٨هـ بدمشق ونحن نثبت الألف واللام كما جاء فى توقيعه رضى الله تعالى عنه ، وبعض كتبه قل من يفهمها كما نسبت إليه عبارات هو برىء منها .

فالإشتراك فى طلب القهر منه ومنها والحكم مختلف ولهذا قالت ﴿ أنا راودته عن نفسه ﴾ وما جاء فى السورة قط أنه راودها عن نفسها[1]] .

والواقع أن هذه العبارة تؤدى نفس المعنى الذى سلكه أصحاب هذا الاتجاه ، ولكنه هنا بدلا من أن يقول همت بالفاحشة فيتورط فى عطف فعل الهم الثانى جعل الهم متعلقا بالقهر من الجانبين ليتخلص من الاشتراك الذى يلزمه العطف ثم دخل على قصده بطريقة أخرى إذ قرر أنها همت عليه السلام لتقهره على ما أرادته منه ، فما زاد المعنى إلا تعقيداً : ذلك لأن المرأة تعلم أنها لو تعدت على الرجل بالضرب — وخاصة إذا كان ممتلئا رجولة وقوة — فإنها تدفعه إلى الفتك بها ، وليست هذه بوسيلة لتقهر بها الأنثى الرجال إذا ما كانت راغبة فى أحدهم .

ويرفض الأستاذ عبد الكريم الخطيب التفرقة بين متعلق فعلى الهم . وفى ذلك يقول (وصريح اللفظ أنه عليه السلام هم بها كما همت به ... فلا وجه للتفرقة بين أمرين متساويين لفظا ومعنى ، وفاتهم أن النبى بشر قبل أن يكون نبيا ، وأنه حين يلبس ثوب النبوة لا يخلع ثوب البشرية أبدا ، وغاية ما هنالك أنها بشرية فى أعلى مستواها ، وفى أشرف منازلها)[2] .

ولكنه فى رفضه لهذه التفرقة جعل الهم متعلقا بالفاحشة من الطرفين ، وهذا ما لا نسلم به أبداً .

هذا التأويل المتجه إلى المغايرة بين فعلى الهم : تأباه قواعد اللغة ، كما يأباه سياق القصة ، ويعترض عليه من وجوه منها :

---

(١) ولما تعرض الإمام الشعرانى لهذه المسألة فى الأنوار القدسية ذكر نفس ماقاله هنا مع اختلاف يسير إذ يقول (ولقد همت به) لتقهره على ماتريده منه (وهم بها) ليقهرها بالدفع عنه فالاشتراك فى طلب القهر منها ومنه ودليل ذلك قولها (الآن حصحص الحق أنا روادته عن نفسه) وماجاء فى السورة قط أنه راودها عن نفسها .

(٢) التفسير القرآنى للقرآن — الكتاب السادس ص ١٢٥٤ / ١٢٥٥ .

(الأول) : إن العطف بين فعلى الهم يفيد أتحادهما فيما يتعلقان به ، ولا توجد أية قرينة صارفة عن هـذا الإتحاد ، فلا وجه إذن للتفرقة بين متساويين لفظا ومعنى لأن مطلق اللسان يدل على أحدية المعنى .

(الثانى) : إن إسناد الهم إليها بقصد المخالطة والفاحشة يتعارض مع سياق الآيات القرآنيـة التى حكت المراودة ثم جاءت بالهم استئنافا لمقصود آخر غير المراودة .

فتعلق الهم بالفاحشة منها قد سبق كل ما اتخذته من إجراءات لتدبير الخلوة المطلوبة ، ولا يعقل أنها بعد شروعها فى التنفيذ وصرفها لخـــدمها ، وتغليقها للابواب وانتهازها فرصة غياب زوجها إلخ .. لا يعقل ألا يسبق ذلك كله هم بالفاحشة منها !

(الثالث) : لا يعقل كذلك أن يتعلق الهم بمطاردته وقهره ليرتـكب ماتريده منه فهذا ما لم نسمع به ، كما يأباه العقل ، وطبيعة التـكوين البشرى وخصائص التركيب البيولوجى للانثى .

(الرابع) : أن الهم إذا أطلق دون ذكر للفعل المتعلق به فلا يراد به سوى البطش والفتك ، والقتل والضرب ، وهذا هو المفهوم فى لغة العرب .

فإذا قلت للرجل العربى لقد همت فلانة بفلان وهم بها فإنه لا يفهم سوى تعلق الهم بالضرب أو الفتك أو التأديب إلخ ...

(رابعا) خطأ كل تأويل مبنى على إنكار الهم منه عليه السلام

أن كل من ابتعد عن المتعلق الحقيقى للهم قد تخبط وحاول أن يؤيد تخبطه بأدلة تزيده بعدا عن المعنى الأصلى ، حتى ذهب فريق إلى إنـكار الهم منه عليه السلام نهائيا .

القرآن العظيم صريح فى حدوث الهم منه عليه السلام ، ولـكن حرص

هؤلاء على الوصول إلى تأويل لا يتنافى مع عصمة الأنبياء أوقعهم فى هذه الورطة فقالوا: إنه لم يقع منه هم بها البتة، بل الهم منتف لوجود رؤية البرهان!

قال الإمام الطبرى فى صدد عرضه للآراء المخالفة لأقوال السلف فى تفسير هذه الآية.

[وقال آخرون منهم معنى الكلام ﴿ ولقد همت به ﴾ فتناهى الخبر[١] عنها. ثم ابتدىء الخبر عن يوسف فقيل ﴿ وهم بها ﴾ يوسف ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ كأنهم وجهوا معنى الكلام إلى أن يوسف لم يهم بها، وأن الله إنما أخبر أن يوسف لولا رؤية برهان ربه لهم بها، ولكنه رأى برهان ربه فلم يهم بها: كما قيل ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا ﴾[٢].

(ويفسد هذين القولين أن العرب لا تقدم جواب «لولا» قبلها: لا تقول لقد قمت لولا زيد. وهى تريد لولا زيد لقد قمت، هذا مع خلافهما جميع أهل العلم بتأويل القرآن الذين عنهم يؤخذ تأويله][٣].

قال أبو حاتم (وقرأت غريب القرآن على أبى عبيده فلما أتيت على قوله (ولقد همت به وهم بها) الآية - قال أبو عبيدة «هذا على التقديم والتأخير كأنه أراد: ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها)[٤]

وقال الإمام البغوى (وزعم بعض المتأخرين أن هذا لا يليق بحال الأنبياء عليهم السلام وقالوا: تم الكلام عند قوله (ولقد همت به) ثم ابتدأ الخبر عن يوسف عليه السلام فقال (وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) على التقديم

---

(١) يعنى أن الكلام قد تم فى الاخبار عنها عند قوله (ولقد همت به).
(٢) من الآية (٨٣) سورة النساء.
(٣) الإمام الطبرى: جامع البيان: جـ ١٢: ص ١٨٥.
(٤) ابن منظور: لسان العرب جـ ١٢: ص ٦٢٠.

والتأخير أى « لولا أن رأى برهان ربه لهم بها ولكنه رأى برهان ربه فلم يهم بها » ـ وأنكره النحاة وقالوا : إن العرب لاتؤخر لولا عن الفعل فلا تقول « لقد قمت لولا زيد » وهم يريدون « لولا زيد لقمت »)[١]

وتعرض الفخر الرازى لهذا الرأى فقال :

الكلام على ظاهر هذه الآية يقع فى مقامين :

(المقام الأول) : أن تقول لانسلم أن يوسف عليه السلام هم بها، والدليل عليه أنه تعالى قال (وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) وجواب لولا هنا مقدم، وهو كما يقال « قد كنت من الهالكين لولا أن فلانا خلصك » .

وطعن الزجاج فى هذا الجواب من وجهين :

. الأول : أن تقديم جواب لولا شاذ وغير موجود فى الكلام الفصيح .

. الثانى : أن لولا يجاب جوابها باللام فلو كان الأمر على ما ذكرتم لقال « ولقد همت به ولهم بها لولا » .

[واعلم أن ماذكره الزجاج بعيد: لأنا نسلم أن تأخير جواب لولا حسن جائز إلا أن جوازه لا يمنع من جواز تقديم هذا الجواب . وكيف ونقل عن سيبويه أنه قال إنهم يقدمون الأهم فالأهم . . . فكان الأمر فى جواز التقديم والتأخير مربوطا بشدة الاهتمام واما تعيين بعض الألفاظ بالمنع فذلك مما لايليق بالحكمة . وأيضا ذكر جواب لولا باللام جائز . أما هذا فلا يدل على أن ذكره بغير اللام لا يجوز . ثم إنا نذكر آية أخرى تدل على فساد قول الزجاج فى هذين السؤالين وهى قوله تعالى (إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها)[٢] .

(المقام الثانى) : فى الكلام على هذه الآية : أن نقول سلمنا أن الهم قد حصل، إلا أنا نقول إن قوله (وهم بها) لا يمكن حمله على ظاهره لأنه تعليق

(١) الإمام البغوى : معالم التنزيل ج ٤ ص ٤٢٩ .

(٢) والآية بتمامها (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين — ١٠) ٢٨ : سورة القصص .

الهم بذات المرأة محال ، لأن الهم من جنس القصد ، والقصد لا يتعلق بالذوات الباقية ، فثبت أنه لا بد من إضمار فعل مخصوص يجعل متعلق ذلك الهم، وذلك الفعل غير مذكور فهم زعموا أن المضمر هو ايقاع الفاحشة بها ، ونحن نضمر شيئا آخر يغاير ما ذكروه وبيانه من وجوه][1]

ثم ساق الفخر الرازى هذه الوجوه فذكر أن (أولها) أن يكون المراد هو همه عليه السلام بدفعها عن نفسه ومنعها عن ذلك القبيح . و (ثانيها) أن يفسر الهم بالشهوة فسمى الله تعالى شهوة يوسف عليه السلام هما ، فمعنى الآية ولقد اشتهته واشتهاها ولولا أن رأى برهان ربه لدخل ذلك العمل فى الوجود. و (ثالثها) أن يفسر الهم بحديث النفس .

وقال الإمام العكبرى فى املائه[2] (لولا أن رأى) جواب لولا محذوف تقديره لهم بها والوقوف على هذا: (ولقد همت به). والمعنى أنه لم يهم بها وقيل التقدير لولا أن رأى البرهان لواقع المعصية .

قال أبو حيان :[3]

[طول المفسرون فى تفسير هذين الهمين ونسب بعضهم ليوسف مالا يجوز نسبته لآحاد الفساق والذى اختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم البتة بل هو منفى لوجود رؤية البرهان ، كما تقول لقد قارفت لولا أن عصمك الله، ولا نقول إن جواب لولا متقدم عليها وان كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف فى جواز تقديم أجوبتها عليها ، وقد

---

(١) الفخر الرازى : مفاتيح الغيب جـ ٥ ص ١١٧ ، ١١٨ .

(٢) الأمام أبو البقاء العكبرى : أملاء مامن به الرحمن جـ ٢ ص ٢٥ .

(٣) أبو حيان : البحر المحيط جـ ٥ ص ٢٩٥ . وقد نقل ذلك عنه الإمام الألوسى فى روح المعانى جـ ٤ ص ٣٦ .

ذهب إلى ذلك الكوفيون ، ومن أعـــلام البصريين أبو زيد الأنصارى وأبو العباس المبرد ، بل نقول إن جواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه ، كما يقول جمهور البصريين فى قول العرب : أنت ظالم إن فعلت ، فيقدرونه إن فعلت فأنت ظالم ، ولا يدل قوله « أنت ظالم » على ثبوت الظلم ، بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل ، وكذلك هنا التقدير «لولا أن رأى برهان ربه لهم بها» فكان يوجد الهم على تقدير انتفاء رؤية البرهان، لكنه وجدت رؤية البرهان فانتفى الهم. ولا التفات إلى قول الزجاج: ولو كان الكلام «ولهم بها» كان بعيدا فكيف مع سقوط اللام ، إنه يوهم أن قوله ﴿ وهم بها ﴾ هو جواب لولا ونحن لم نقل بذلك وإنما هو دليل الجواب ، وعلى تقدير أن يكون نفس الجواب ، فاللام ليست بلازمة ،لجواز أن ما يأتى جواب لولا ، إذا كان بصيغة الماضى ، باللام وبغير لام. تقول « لولا زيد لأكرمتك » ولولا زيد أكرمتك فمن ذهب إلى أن قوله (وهم بها) هو نفس الجواب لم يبعد .

ولا التفات لقول ابن عطيه أن الكلام قد تم فى قوله (ولقد همت به) وأن جواب لولا فى قوله (وهم بها) وأن المعنى لولا أن رأى البرهان لهم بها فلم يهم يوسف عليه السلام . قال وهذا قول يرده لسان العرب ، فليس كما ذكر ، وقد استدل من ذهب إلى جواز ذلك بوجوده فى لسان العرب : قال الله تعالى (إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين)]

على أن يكون جواب لولا هو (ان كادت لتبدى به) أو أن يكون هو دليل الجواب ولكن هذا خلاف المتبادر من العبارة أو ظاهرها .

ويقول الإمام البقاعى :

[(وهم بها) كما هو شأن الفحول عند توفر الأسباب (لولا أن رأى) أى بعين قلبه .

(برهان ربه) الذى آتاه إياه من الحكم والعلم أى لهم بها .

لكنه كان البرهان حاضراً إليه حضور من يراه بالعين فلم يعطه وفور شهوة ولا غلبة هوى فلم يهم أصلا مع كونه فى غاية الاستعداد لذلك لما آتاه الله القوة مع كونه فى سن الشباب . فلولا المراقبة لهم بها لتوفر الدواعى غير أن نور الشهود محاها أصلا وهذا القدر هو اللائق بمثل مقامه .

[أما ما ورد عن السلف مما يعارض ذلك فلم يصح منه شىء عن أحد منهم مع أن الأقوال التى رويت عنهم إذا جمعت تناقضت فتكاذبت ولا يساعد على شىء منها كلام العرب لأنهم قد رووا جواب لولا المحذوف بما لا دليل عليه من سابق الكلام ولا لاحقه ، نبه على ذلك الإمام أبو حيان وسبقه إلى ذلك الإمام الرازى وقال إن هذا قول المحققين من المفسرين][1] .

ومن المعاصرين الذين اختاروا هذا التأويل وهو امتناع الهم لرؤية البرهان: الأستاذ محمد محمد أبو شهبه[2] إذ يقول فى كتابه (الاسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير) تحت عنوان « التفسير الصحيح » لقوله تعالى (ولقد همت به وهم بها):

والصحيح فى تفسير قوله تعالى : (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) ، أن الكلام تم عند قوله تعالى (ولقد همت به) .

وليس من شك فى أن همها كان بقصد الفاحشة (وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) الكلام من قبيل التقديم والتأخير . والتقدير « ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها » .

فقوله تعالى (وهم بها) جواب لولا مقدم عليها ، ومعروف فى العربية : أن لولا حرف امتناع لوجود : أى امتناع الجواب لوجود الشرط فيكون الهم ممتنعا لوجود البرهان الذى ركزه الله فى فطرته ، والمقدم إما الجواب ،

---

(١) الإمام البقاعى : نظم الدرر ج ٣ وجه ق ١٥٤ وظهرها .

(٢) د . محمد محمد أبو شهبه « عميد كلية أصول الدين بأسيوط فى ذلك الوقت »: الاسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير ص ٣١٧ : ٣١٩ .

أو دليله على الخلاف فى هذا بين النحويين ، والمراد بالبرهان هو حجة الله الباهرة الدالة على قبح الزنا ، وهو شيء مركوز فى فطر الأنبياء ، ومعرفة ذلك عندهم ، وصل إلى عين اليقين ، وهو ما نعبر عنه بالعصمة ، وهى التى تحول بين الأنبياء والمرسلين وبين وقوعهم فى المعصية ، ويرحم الله الإمام جعفر ابن محمد الصادق — رضى الله عنهما — حيث قال : البرهان : النبوة التى أودعها الله فى صدره ، حالت بينه وبين ما يسخط الله عز وجل .

[وهذا هو القول الجزل الذى يوافق ما دل عليه العقل من عصمة الأنبياء ويدعو إليه السابق واللاحق .

وأما كون جواب لولا ، لا يجوز أن يتقدم عليها ، فهذا أمر ليس ذا خطر ، حتى نعدل عن هذا الرأى الصواب إلى التفسيرات الأخرى الباطلة لهم يوسف — عليه السلام — والقرآن هو أصل اللغة ، فورود أى أسلوب فى القرآن يكفى فى كونه أسلوبا عربيا فصيحاً ، وفى تأصيل أى قاعدة من القواعد النحوية ، فلا يجوز لأجل الأخذ بقاعدة نحوية أن نقع فى محظور لا يليق بالأنبياء كهذا .

إلى أن قال سيادته :

[وقيل إن ما حصل من هم يوسف كان خطرة ، وحديث نفس بمقتضى الفطرة البشرية ، ولم يستقر ، ولم يظهر له أثره . . .

والقول الجزل الفصل هو ما ذكرناه أولا ، والسر فى إظهاره فى هذا الأسلوب والله أعلم - تصوير المشهد المثير المغرى العرم ، الذى هيأته امرأة العزيز لنبى الله يوسف ، وأنه لولا عصمة الله له ، وفطرته النبوية الزكية ، لكانت الاستجابة لها ، والهم بها أمرا محققا . وفى هذا تكريم ليوسف ، وشهادة له بالعفة البالغة والطهارة الفائقة] .

ومن المعاصرين أيضا الذين ساروا على هذه الطريقة فى بيان «الهم» الأستاذ حسن محمد باجوده رئيس قسم اللغة العربية فى جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة إذ يقول :

(ونود[١] أولا تناول هذا القول من الآية «ولقد همت به،وهم بها لولا أن رأى برهان ربه» وإن هاتين الجزئيتين من هذه الآية، مما يتهيب فطاحل العلماء الخوض فيه خوف الزلل،وإنا لنسأله تعالى دائما العون والتوفيق) إلى أن قال:

[وواضح[٢] أن الجزئية الأولى القصيرة خاصة بامرأة العزيز (ولقد همت به) وأن الجزئية الثانية التى تميل إلى الطول خاصة بيوسف عليه السلام (وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) .

فما الذى يلمحه المتأمل لهاتين الجزئيتين ؟

إن أول مايلمح هو أن الجزئية الخاصة بامرأة العزيز تتضمن اللام التى تفيد التوكيد ، وقد التى تفيد التحقيق « لقد » ، بينما لايوجد شىء من ذلك فى الجزئية الخاصة بيوسف عليه السلام .

فلنتأمل معا الجزئية الثانية (وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) فعلام يدل هذا ؟

هذا يدل على أن هم يوسف عليه السلام لا يمكن بحال أن يكون من نوع هم امرأة العزيز . وحاش لله أن يكون ليوسف المحسن ، عبد الله المخلص المرشح للنبوة علاقة من هم هذه المرأة المنساقة وراء الهوى ، التى كان همها عمليا[٣]، بدليل أنها حاولت اللحاق به وهو مندفع حيث الباب للفرار بدينه ، وأمسكت بقميصه وقدته من دبر .

ومادام أنه اتضح أنه هناك نوعين مختلفين من الهم ومادمنا عرف أن حرف العطف (الواو) فى مثل هذه الحال يرفع بطبعه الهم الثانى قريبا من

(١و٢) الوحدة الموضوعية فى سورة يوسف عليه السلام : ٢٧٦ و ٢٧٧ : ٢٨٠ على التوالى .

(٣) الهم لايكون عمليا لأنه من مراتب القصد . فإذا نفذ سقط كونه هما ولما أنها قد قامت فعلا ببذل ما فى وسعها للتوصل إلى إشباع رغبتها فقد دل ذلك على أن الهم المقصود لم يكن بالفاحشة مطلقا وإلا لبطل كونه هما .

مستوى الهم الأول ، ولم يكن ذلك حقا بحال ، فإن أول ماتطالب به ونلح فى الطلب هو أننا أثناء التلاوة ينبغى أن نقف عند نهاية الجزئية الأولى الخاصة بامرأة العزيز ثم نستأنف التلاوة . وبالتالى تكون التلاوة فى هذه الصورة (ولقد همت به . وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) .

وإن هناك لجمالا موسيقيا داخليا نكسبه من هذه الصورة من التلاو ، وذلك من الباء والهاء الساكنة فى الموضعين ، إضافة إلى إحقاق الحق المعنوى .

ثم ماذا يلمح المتأمل للجزئيتين من فرق ؟

إنه يلمح أن الجزئية الأولى الخاصة بامرأة العزيز تقف عند الهم ولا تتخطاه بينما يتبين أن الجزئية الثانية الخاصة بيوسف تتضمن هذه الزيادة (لولا أن رأى برهان ربه) فما معنى هذا ؟

معنى هذا أن رحمة الله تعالى دائما مع العبد المبتلى يوسف ، وأنه فى اللحظة التى همت فيها امرأة العزيز عمليا ، كان برهان الله عز وجل ، الذى لا نعرفه على وجه التحديد ، والذى نستطيع أن نقول عنه : إنه أثر من آثار رحمة الله بيوسف ، يراه يوسف عليه السلام أمامه رأى العين . وكان هذا البرهان من الله تعالى فى اللحظة التى كان فيها الهم عمليا من امرأة العزيز ، وكاد يكون من يوسف المرشح للنبوة رد فعل عنده يمثل فى صورة هم نفسى . وإن الذى حال دون هذا الهم النفسى منه ، برهان الله تعالى الذى قضى على هذا الهم النفسى قبل أن يكون .

وإن الذى جعل السياق يجىء فى هذه الصورة بالذات (ولقد همت به . وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) هو أن هذا السياق أفهم أن ليوسف فضلا له دوره[1] فى الوصول إلى النهاية الحميدة لا يكاد يقل عن البرهان الذى رآه ، إضافة إلى ما يسمى بمراعاة النظير فى البلاغة .

---

(١) (لو كان السياق فى هذه الصورة مثلا « ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها » لما تبينا له دوراً ، وقد كان له عليه الصلاة والسلام فى الوصول إلى النهاية السعيدة دور كبير) اهـ هامش رقم (١) ص ٣٧٩ من كتاب الوحدة الموضوعية .

[فلنعد الآن إلى تأمل الجزئيتين معا (ولقد همت به ، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) .

وبما أن برهان الله قد قضى على الهم النفسى ليوسف عليه السلام ، وبما أن الجزئية الأولى الخاصة بامرأة العزيز تتلى منفردة ، فإن الجزئية الخاصة بيوسف عليه السلام ينبغى أن تتلى بشقيها معا وتكون تلاوة الجزئيتين بالتالى فى هذه الصورة (ولقد همت به.وهم بها لولا أن رأى برهان ربه)(١) والله أعلم .

فاذا انتقلنا إلى ما تبقى من الآية تبين أنه منقسم إلى قسمين (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) و (إنه من عبادنا المخلصين) .

وبتأمل القسم الأول يتبين أن رب العزة لم يتخل ولم يكن ليتخل عن عبده المبتلى يوسف : وأن برهان ربه الذى رآه كان السبب المباشر فى صرف السوء والفحشاء عنه ، والسوء هو الاستجابة النفسية للإغراء . والفحشاء هى الفعل الذى ينتهى إليه . وبما أن الفحشاء بمعنى جريمة الزنى قد صرفها الله تعالى عن يوسف فقياساً على ذلك تكون الاستجابة النفسية للإغراء لم تكن أساسا وهو ما سبق أن أوضحنا] .

تهافت هذا التأويل وبطلانه :

١ — هذا التأويل يستند إلى وجه من وجوه القواعد اللغوية مختلف عليه بين علماء اللغة .

٢ — إن الإلتجاء إلى هذا الوجه لم يكن عن ضرورة لغوية ولكن سببه العجز عن إدراك الوجه الصحيح للمعنى ، وليست هذه بطريقة للتأويل .

٣ — أن جواب لولا : لا يكون تقديره (لهم) لأن الهم قد حدث فعلا بصريح اللفظ القرآنى . ولكن تقديره يكون : لنفذ ما هم به ، إلا أن رؤيته عليه السلام للبرهان منعته من التنفيذ أما هى فما منعها سوى عدم لحاقها به .

---

(١) يقول المؤلف فى الهامش رقم (٢) نفس الصفحة السابقة « إن قلبى لا يرتاح لأى قراءة فى غير هذه الصورة ، والله أعلم » .

٤ — بمقتضى هذا التأويل يكون الوقف عند قوله تعالى (ولقد همت به) مع أن الوصل أولى .

٥ — إن الآية الكريمة بدأت بالتأكيد مع التحقيق (ولقد) ويسرى ذلك على فعلى الهم ، فوجود الهم متأكد ومتحقق عند الطرفين . ولو انتفى عند أحدهما لانتفى الآخر ، ولا يجوز بعد تأكيده: القول بانتفائه استنادا إلى قاعدة يؤول تطبيقها إلى مخالفة النص الصريح .

٦ — إن أصحاب هذا التأويل قد وقعوا فيما حاولوا اجتناب الوقوع فيه مع ظنهم أنهم قد أحسنوا الخروج من المأزق وأحسنوا التأويل . ذلك أنهم حصروا همهم فى الوصول إلى تأويل يتفق مع عصمة الأنبياء وفى نفس الوقت تمسكوا بما يؤول حتما إلى مخالفة هذه العصمة بجعلهم الهم متعلقا بالفاحشة ! والامتناع عن الهم لم يكن إلا لرؤية البرهان .

(ا) وأى فضل أثبتموه له عليه السلام على امرأة العزيز حينما جعلتم امتناعه عن الهم لرؤيته للبرهان؟ وكيف توصف المرأة بأنها من الخاطئين ومن الضالين مع أنها لو رأت مارآه عليه السلام — حسب تأويلهم — لما أقدمت على الهم !

(ب) ونتوسع فى تطبيق الاعتراض فنقول: كيف يكلف الناس بعدم الاقتراب من الزنا ، مادام ليس فى إمكان أحدهم رؤية برهان يعصمه من الهم كالبرهان الذى رآه عليه السلام ؟

الستم بهذا إنما تقدمون العذر للفرد العادى لو هم بفاحشة، لأنه لم يصل إلى المرتبة التى تؤهله لرؤية الآيات والبراهين ؟

٧ — إن هؤلاء لم يختلفوا عن الذين أثبتوا الهم بالفاحشة له عليه السلام وكل ما هنالك أنهم صاغوا عبارتهم بطريقة أخرى ليست بأفضل ممن أثبت الهم بالفاحشة ، إذ أنها تؤكد أنه عليه السلام قد وصل إلى درجة جعلته فى حاجة إلى رؤية برهان من ربه يمنعه من الهم بالفاحشة !!

٨ — هذا الهم قد كان بصريح القرآن الكريم ، ولا يمكن بوجه من الوجوه نفى حدوث الهم بعد ذلك أبدا .

٩ — هذا التأويل يرتكز على أن البرهان الذى رآه عليه السلام كان يدور حول قبح الزنا ! وكأنه عليه السلام وهو من كرام النبيين والمرسلين فى حاجة إلى التعريف بهذا الأصل من الأصول الخمسة التى حافظ عليها الإسلام والشرائع ، فاحتاج إلى رؤية برهان من ربه يعرفه عليه السلام بقبح الزنا .

ولم يدر هؤلاء أن السر فى الخطأ إنما هو فى التشبث بما لا يتمشى مع صريح القرآن الكريم ولا مع السياق ، ولا مع أصول الدين بجعلهم الفاحشة هى متعلق فعل الهم . هذا مع أن الهم بالفاحشة كان من جانبها وفى مرحلة سابقة على المراودة ، ثم جاءت آية المراودة فقصت علينا ماقامت به من إجراءات عملية لتحقيق هدفها . وهذا التشبث من جانبهم قد نكس المعنى إذ جعل الهم بعد الشروع فى الفعل مع أنه لا يكون إلا قبله ، مع مانع يحول دونه .

وبعد : فقد عرضنا موجزا للأقوال التى تمثل اتجاهات المفسرين فى تأويل قوله تعالى (ولقد همت به وهم بها) . مع التعقيب على كل قول .

ولننتقل بعد ذلك إلى مناقشة ماقيل عن البرهان :

مناقشة ما قاله المفسرون عن البرهان

تضاربت الأقوال فى تحديد البرهان[1] حتى اتخذه المفسرون الذين أثبتوا تعلق الهم بما لا يجوز فى حقه عليه السلام دليلا على ثبوت ماذهبوا إليه فقالوا (إن البرهان قد صرفه عن هذا الهم حتى لم يصر عزما مصمما) قال القرطبى[2] هذا قول حسن من قال به الحسن .

---

(١) البرهان معناه : الدليل المرشد إلى الصواب .

(٢) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن : ج ٩ ص ١٦٧ .

بل قالوا إنه عليه السلام لو لم يهم بالفاحشة لما كان للبرهان كبير فائدة ! والواقع أن كل مفسر قد ربط ما بين متعلق الهم وما بين تحديد صورة البرهان، وفيما يلي عرض سريع للأقوال في هذا الشأن :

(ا) البرهان عند من قال أن الهم كان متعلقا بالفاحشة :

هذا الفريق يستند إلى روايات يردها الأئمة المحققون في علوم الإسناد، ولا يسع العقلاء إلا إنكارها .

وجميع هذه الروايات تذكر صورا للبرهان تزجره عليه السلام عن ارتكاب هذه الجريمة المنكرة، ومن هذه الصور : —

١ — سماعه عليه السلام لصوت يتلو آية من الآيات : أو رؤيته لآية مكتوبة على الجدار أو السقف تزجره عن الزنا وتبين له عليه السلام شدة قبحه وسوء سبيله :

بعض الروايات التي تذكر ذلك : —

— أخرج ابن أبي شيبة[1] وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن محمد بن كعب قال : رأى في البيت في ناحية الحائط مكتوبا (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) . (الآية ٣٢ : سورة الإسراء) .

— وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال البرهان الذي رأى يوسف عليه السلام ثلاث آيات من كتاب الله : —

* (وإن عليكم لحافظين — ١٠ — كراما كاتبين — ١١ — يعلمون ما تفعلون — ١٢) (٨٢ : سورة الانفطار) .

* وقول الله (وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه) (من الآية(٦١) سورة يونس).

---

(١) الإمام السيوطي : الدر المنثور : ج ٤ ص ١٤ .

* وقول الله (أفمن هو قائم على كل نفس بمـــا كسبت) .
(من الآية (٣٣) سورة الرعد)

— وأخرج ابن أبى حاتم عن الأوزاعى قال كان ابن عباس رضى الله عنهما يقول فى قوله (لولا أن رأى برهان ربه) قال : رأى آية من كتاب الله فنهته ، مثلت له فى جدار الحائط .

— وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن وهب بن منبه قال (لما خلا يوسف وامرأة العزيز خرجت كف بلا جسد بينهما، مكتوب عليه بالعبرانية (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) ثم انصرفت الكف وقاما مقامهما .

(ثم رجعت الكف بينهما مكتوب عليها بالعبرانية (إن عليكم لحافظين — ١٠ — كراماً كاتبين — ١١ — يعلمون ماتفعلون — ١٢) ثم انصرفت الكف وقاما مقامهما .

(فعادت الكف الثالثة مكتوب عليها (ولاتقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) وانصرفت الكف وقاما مقامهما .

(فعادت الكف الرابعة مكتوب عليها بالعبرانية (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون) (الآية (٢٨١): سورة البقرة) . فولى يوسف عليه السلام هاربا .

— وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وأبو نعيم فى الحلية عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل عن هم سيدنا يوسف عليه السلام مابلغ ؟ فقال : (حل الهميان وجلس منها مجلس الخاتن فصيح به يايوسف لا تكن كالطير له ريش فإذا زنى قعد ليس له ريش)(١) .

---

(١) نفس المرجع السابق جـ ٤ : ص ١٣ .

— وفى رواية أنه سمع قائلا يقول (لاتكن يابن يعقوب كالطير يكون له ريش فاذا زنى ذهب ريشه)[١] .

٢ — رؤية جبريل عليه السلام يحول بينه وبين ارتكاب الفاحشة :

ذكرت بعض الروايات أن البرهان الذى رآه عليه السلام هو جبريل ، مع اختلاف بينها فى كيفية ذلك : فبعضها يقول إن جبريل عليه السلام ركضه فلم يبق منه شىء من الشهوة إلا خرج ، وقيل ان جبريل عليه السلام جاءه فى صورة أبيه يعقوب عليه السلام عاضا على إصبعه ففزع فخرجت شهوته من أنامله .

رواه عن الرزاق والفريابى ، وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما .

٣ — رؤيته لابيه يعقوب عليه السلام :

نقل ذلك عن ابن عباس وعن عكرمة ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك ومقاتل وابن سيرين .

واختلفت الروايات فى كيفية رؤيته لأبيه عليه السلام :

قال فى الدر المنثور[٢] :

— أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن عباس رضى الله عنه فى الآية قال (رأى صورة أبيه يعقوب فى وسط البيت عاضا على إبهامه فأدبر هاربا وقال وحقك يا أبت لا أعود أبـــدا) .

---

(١) ابن جرير : الآثار الباقية عن القرون الخالية ص ٢٣٤ .
(٢) الدر المنثور : جـ ٤ ص ١٣ : ١٤ .

- وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضى الله عنه قال (رأى صورة يعقوب عليه السلام فى الجدار) .

- وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبى صالح رضى الله عنه قال (رأى صورة يعقوب فى سقف البيت يقول : يوسف . يوسف) .

- وأخرج ابن جرير عن الضحاك رضى الله عنه قال (يزعمون أنه مثل له يعقوب عليه السلام فاستحيا منه) .

- وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال (رأى تمثال وجه أبيه قائلا بكفه هكذا وبسط كفه فخرجت شهوته من أنامله) .

وروى عنه من طريق آخر قال (مثل له يعقوب عاضا على أصابعه فضرب صدره فخرجت شهوته من أنامله) .

- وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (قال رأى صورة يعقوب واضعا أنملته على فيه يتوعده ففر) .

- وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال (حين رأى يعقوب فى سقف البيت قال فنزعت شهوته التى كان يجدها حتى خرج يسعى إلى باب البيت فتبعته المرأة) .

وساق ابن جرير [1] فى تفسيره الكثير من الروايات التى تذكر أن البرهان الذى رآه هو يعقوب عليه السلام .

٤ - أنه عليه السلام رأى آية تنبهه إلى جلال النبوة مما يقتضى منه صيانة نفسه عما لا يليق بمرتبتها لأنه من الأنبياء :

قال فى الدر المنثور :

- أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضى الله عنه فى الآية قال (رأى آية من آيات ربه حجزه الله بها عن معصيته : ذكر لنا أنه

---

(١) راجع تفسير الإمام الطبرى جـ ١٢ ص ١٨٨ : ١٩٠

مثل له يعقوب عاضا على إصبعه وهو يقول (يا يوسف أتهم بعمل السفهاء ، وأنت مكتوب فى الأنبياء) فذلك البرهان . فانتزع الله كل شهوة كانت فى مفاصلة) .

— وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن سيرين رضى الله عنه فى قوله (لولا أنه رأى برهان ربه) قال (مثل اه يعقوب عليه السلام عاضا على إصبعه يقول: يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم خليل الرحمن: إسمك فى الأنبياء وتعمل عمل السفهاء) .

— وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن الحسن رضى الله عنه فى قوله تعالى (لولا أن رأى برهان ربه) قال (إنه لماهم ، قيل له يا يوسف أرفع رأسك ، فرفع رأسه فإذا هو بصورة فى سقف البيت تقول يا يوسف أنت مكتوب فى الأنبياء فعصمه الله عز وجل) .

— وروى أنه عليه السلام سمع النداء عليه يقول (أنت مكتوب فى الأنبياء وتعمل عمل السفهاء !) .

٥ — أنه عليه السلام قد رجع عن الفاحشة حين رأى احترام امرأة العزيز لآلهتها :

— أخرج أبو نعيم فى الحلية عن على بن أبى طالب كرم الله وجه فى قوله تعالى (ولقد همت به ، وهم بها) طمعت فيه وطمع فيها، وكان من الطمع أن هم بحل التكة، فقامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت فى ناحية البيت فسترته بثوب أبيض بينها وبينه . فقال: أى شىء صنعت ؟ فقالت: استحى من الهى أن يرانى على هذه الصورة فقال يوسف عليه السلام: تستحين من صنم لا يأكل ولا يشرب ولا أستحى أنا من إلهى الذى هو قائم على كل نفس بما كسبت . ثم قال لا تناليها منى أبداً . وهو البرهان الذى رأى) .

قلت هذا ليس ببرهان ولكنه حكاية لما يظن أنه قد وقع فعلا ولا دليل لمن ساقه على أنه هو البرهان الذى صرف عنه السوء والفحشاء ويرد هذه الرواية

أنها جعلت إمرأة العزيز أستاذة لرسول من رسل الله ومعلمة له كيف يكون الأدب مع الله تعالى وهذا مالا يصح أبداً .

ـ وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم فى الحلية عن جعفر بن محمد رضى الله عنه قال: لما دخل يوسف عليه السلام معها البيت وفى البيت صنم من ذهب قالت كما أنت حتى أغطى الصنم فإنى أستحى منه ـ فقال يوسف عليه السلام هذه تستحى من الصنم ! أنا أحق أن استحى من الله . فكف عنها وتركها [١]) .

٦ — أنه إشارة نبهته عليه السلام إلى قدوم العزيز .

وهو قول من الأقوال التى أجازها الأستاذ عبد الكريم الخطيب عندما تعرض للروايات التى حددت البرهان ، فيجوز عنده أن يكون (إشارة كانت تعلن عن قدوم العزيز إلى أهله) [٢] .

٧ — ومن المفسرين من أطلق البرهان ولم يعينه ، يقول الإمام الطبرى (وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال أن الله جل ثناؤه أخبر عن هم يوسف بامرأة العزيز كل واحد منهما بصاحبه ، لولا أن رأى يوسف برهان ربه ، وذلك آية من آيات الله زجرته عن ركوب ماهم به يوسف من الفاحشة وجائز أن تكون تلك الآية صورة يعقوب ، وجائز أن تكون صورة الملك ، وجائز أن تكون الوعيد فى الآيات التى ذكرها الله فى القرآن على الزنى) [٣]

فالامام الطبرى يرى إطلاق البرهان وعدم تحديده لعدم وجود مايرجح رواية على أخرى .

(ب) البرهان عند من علق الهم بالضرب :

تعرض الفخر الرازى للبرهان المرئى فى حالة همه عليه السلام بضربها دون أن يجزم بشىء ، يقول فى كتابه عصمة الأنبياء [٤] (يجوز أن يكون لماهم

---

(١) الدر المنثور جـ ٤ ص ١٤ .

(٢) عبد الكريم الخطيب : التفسير القرآنى للقرآن: الكتاب السادس ص ١٢٥٥

(٣) الإمام الطبرى : جامع البيان جـ ١٢ ص ١٩١ .

(٤) الفخر الرازى : عصمة الأنبياء ص ٥١ .

بدفعها وضربها أرى برهاناً على أنه لو قدم على ماهم به أهلكه أهلها وقتلوه ، وأنها تدعى عليه المراودة على القبيح وتنسبه إلى أنه دعاها إلى نفسه وضربها لامتناعها منه ، فأخبره الله تعالى أنه صرف بالبرهان عنه السوء والفحشاء اللذين هما : القتل والمراودة ، وظن القبيح ، واعتقاده فيه) .

ثم عاد فى موضع آخر فقال (فان قلت فما البرهان الذى رآه يوسف عليه السلام ؟ قلت فيه وجوه ثمانية) [1] قلت وهى لاتخرج عما ذكرناه آنفاً .

وذكر الإمام الشعرانى أنه سأل شيخه عن معنى قوله تعالى (لولا أن رأى برهان ربه) وما هذا البرهان ؟ .

(فقال رضى الله عنه «كان برهانه الذى رآه من الرأى أن يدفعها عن نفسه بالقول اللين بل ورد أن الحق تعالى أمره بأن لايعنفها عما وقعت فيه ، وقال: سسها فانها امرأة موصوفة بالضعف على كل حال - فهو من رؤية النفس) [2]

بطلان جميع الروايات التى تقول أن البرهان كان آية زاجرة له عليه السلام عن ارتكاب الفاحشة :

إن الروايات التى تحكى أنه عليه السلام لم ينصرف عن الفاحشة إلا بعد رؤيته للبرهان وهو عندهم آية أو أكثر تزجره عليه السلام عن ارتكاب جريمة الزنى ، إنما هى روايات مردودة من الوجوه الآتية :

— كيف يغيب عن نبى من خيار المرسلين قبح الزنى وبشاعته وسوء سبيله ، وما أعده الله تعالى من العقاب والعذاب لمرتكبه دنيا وأخرى ، كيف يغيب عنه ذلك فيحتاج إلى آية من ربه وحجة باهرة قاطعة تبين له ذلك وتصده عن ارتكاب الفاحشة ؟ !

وكيف غاب على نبى مرسل الظلم العظيم المنطوى فى جريمة الزنى وخاصة

---

(١) الفخر الرازى : عصمه الأنبياء ص ٥٣

(٢) الجواهر والدرر للامام الشعرانى (على هامش الإبريز) ص ٢٩٧ .

إذا كانت الجريمة ترتكب فى حق الرجل الذى بذل كل مافى وسعه لإكرامه وإيوائه ؟ فالفاحشة فى هـذه الحالة تندرج تحتها فواحش يندى لها الجبين !! أم غاب عنه ـ وحاشاه ـ أن الزانى لايزنى وهو مؤمن ؟

ـــ ماهو موقف هـذه الروايات مع آية المراودة نفسها وهى صريحة فى أنه عليه السلام :

قد استعاذ بما تدعوه إليه الاستعاذة الكاملة بالله تعالى ؟ وإذا استعاذ نبى مرسل بالله تعالى أعاذه سبحانه .

قد بين لها عليه السلام ألا سبيل لهـا إليه : إذ من المحال أن يواجه خالقه الذى أحسن إليه وشمله برعايته الكاملة فى جميع تقلباته وشئونه،بهذه الكبيرة التى تقشعر منها جلود الذين يخشون ربهم ، ويأنف منها كل من كانت له كرامة فلا يرتكبها .

أفمن يضع هذه المعانى الكريمة أمام المرأة التى تراوده يحتاج بعد ذلك إلى من ينبهه إلى أن الزنى من الكبائر ! بل ويحتاج إلى تجريده من الشهوة كى ينصرف عن الفاحشة ، فيكون انصرافه بسبب العجز لا بسبب خشية الله تعالى ؟!

ـــ أم غاب عنه عليه السلام لحظة أنه من الأنبياء المرسلين ، مع أن أباه وهو من خيرة المرسلين قد ذكر له ذلك فى بداية السورة (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم واسحق . إن ربك عليم حكيم ـ ٦) .

ـــ وثالثة الأثافى ، وداهية الدواهى هذه الروايات التى تحكى حياء امرأة العزيز من آلهتها فجعلته أشد من حياء يوسف عليه السلام من الله تعالى !!

اللهم إن قطرة من حياء أحد المرسلين من جنابك الأقدس لا يسعها الخلق جميعا عدا النبيين .

— تذكر بعض الروايات أن جبريل عليه السلام قد ظهر فى مكان الواقعة: والمكان الذى صوروه يضم رجلا يهم بالفاحشة وامرأة مبدية مفاتنها متهيئة لذلك . ألم تعلموا أن جبريل عليه السلام لا يظهر فى مكان تراد فيه الفاحشة أمام امرأة كاشفة عن نفسها !!

— كيف يوفق عشاق هذه الروايات بينها وبين الآية السابقة للمراودة مباشرة ؟ أفيبطون بمن آتاه الله تعالى حكما وعلما ، وجعله من المحسنين إلى الدرك الأسفل بعد آية واحدة من هذا الثناء الإلهى المبين عليه ، فيجعلونه من المتيمين بالفاحشة فلا ينصرف عنها إلا برؤية معجزة خارقة ؟

— وكيف يتم الجمع بين العديد من الروايات التى تحدد البرهان ؟ هذا ولو أردنا الجمع بينها لاحتاج الأمر إلى مسرح أو دار للسينما كى تتسع لعرضها . وما معنى اضطراب الروايات واختلافها ومعارضتها للنص القاطع بغض النظر عن أسانيدها ؟

— وأقول لهؤلاء المتمسكين بتعلق الهم بالفاحشة : أرونى ماهو القصد من نزول العديد من الآيات القرآنية الكريمة التى تفصل فى نظركم كيف هم أحد المصطفين الأخيار عند الله تعالى بارتكاب الفاحشة ؟

نعم : وما هى العظة أو العبرة التى تؤخذ من أن نبيا مرسلا قد استدعته امرأة فلم يرجع عنها — بناء على زعمكم — إلا بعد أن جرده الله تعالى من شهوته !!

وأى فضل يكون لنبى مرسل لا ينصرف عن الفاحشة إلا بعد رؤية آية من ربه تزجره وتجرده فى نفس الوقت من شهوته !! فتارة يضربه جبريل عليه السلام أو يضربه أبوه ليخرجها منه ، وإذا كان هذا هو حال الأنبياء والمرسلين فكيف يطلب من الناس العاديين ألا يقربوا الزنى !! إن أى فاسق

أو داغر لو جردناه من الشهوة أو رأى مثلما رآه عليه السلام فيما ساقوه من الروايات لما أقدم على فاحشة قطعا .

— وكيف يتم الهم بهذه الجريمة فى زعمكم بلا محاسبة عليها ولا توبة منها ولا ندم ولا استغفار وكأنها من الأمور العادية الطبيعية فى حياة الأنبياء ! لقد كان المنتظر بعد سردكم هذا أن تختتم الواقعة بالتوبة والاستغفار والندم فكيف تعللون عدم وجود أية إشارة إلى ذلك يمكنكم أن تستندوا إليها لإثبات زعمكم الباطل ؟

— وأخيرا فإن البرهان الذى ذكروه لايصرف السوء والفحشاء ، فهذا البرهان عندهم يدور بين اتجاهين : —

(الأول) الزجر عن ارتكاب الفاحشة، وهذا لا يصرف السوء والفحشاء فإن مجرد وجوده عليه السلام فى مخدعها كاف لإثبات الفاحشة ، ولايقاع كل سوء به عليه السلام .

(الثانى) النهى عن ضربها وهذا لايصرف السوء والفحشاء لنفس ماورد فى الأمر الأول .

من هذا العرض يتبين أن جمهور المفسرين قد تورطوا فى هذه القضية فى أمرين متناقضين :

(أولهما) إجماعهم على إنكار كل تأويل لا يتناسب مع مرتبة النبوة والرسالة وجلالها ، سواء قبل النبوة أو بعدها .

(ثانيهما) عجزهم عن تقديم التأويل السليم لجميع الآيات المتصلة بهذه القضية . مما جعلهم يأتون بتأويلات تثبت عليهم ما اعترضوا عليه وأنكروه بصورة أو بأخرى مهما أختلف الأسلوب .

وبعـــد :

فإنا لا نجد بدأ من القول بأن المفهوم المسبق للمعنى ، والتأثر بالروايات المتضاربة فى هذا الشأن ، وهى روايات لاتليق بمراتب النبـوة والرسالة . وكذلك محاولة قياس تصرفات أحد المرسلين بمقياس تصرفات الدنيويين العاديين كل ذلك كان له دوره فى تأويل الهم والبرهان بطريقة لايتحملها اللفظ ولا السياق مما أدى إلى حجب المعنى الحقيق ، بل والعجز التام عن تأمل وجوه الإعجاز القرآنى فى جميع الآيات المتصلة بهذا الشأن حتى أنتهاء التحقيق فى هذه القضية .

وبعد أن عرضنا أتجاهات أقوال المفسرين نبين حقيقة الأمر مثل رابعة النهار فى الفصل التالى، وقانا الله تعالى شر الزلل وشرح صدورنا لقبول الحق واتباعه آمين .

الفصل الثالث

التأويل المبين لوجوه الاعجاز

فى آية الهم والبرهان

الهم لغة واصطلاحا :

قال الجوهرى : (هممت بالشىء أهم هما : إذا أردته[1])
وقال ابن منظور (هم بالشىء يهم هما : نواه وأراده وعزم عليه[2])
ونقل الزبيدى فى تاج العروس كلام ابن منظور[3] .

والهم عند الفقهاء هو مقاربة الفعل من غير دخول فيه ويجعلونه المرتبة الرابعة من مراتب القصد الخمسة التى نظمها أحد الفقهاء فقال :

مراتب القصد خمس «هاجس» ذكروا   «فخاطر» «فحديث نفس» استمعا
يليه «هم» «فعزم» كلها رفعت   سوى الأخير ففيه الأخذ قد وقعا

يشير الناظم إلى أن الإنسان غير مؤاخذ بها جميعا ما عدا العزم فإنه مؤاخذ به .

ونقول: إن حقيقة معنى الهم هو: مقاربة فعل تعارض فيه المانع والمقتضى فلم يقع لرجحان المانع ، وبهذا يرتفع أى إشكال يرد على مفهوم الهم .

وهذا يعنى أن الهم إنما يكون بالأعمال لا بالشخوص والأعيان ، كما يعنى وجود مانع يحول دون تنفيذ الفعل . وهذا المانع قد يكون من صاحب الهم

(١) الإمام الجوهرى : تاج اللغة وصحاح العربية جـ ٥ ص ٢٠٦١
(٢) الإمام ابن منظور : لسان العرب : جـ ١٢ ص ٦٢٠ .
(٣) الإمام مرتضى الزبيدى : تاج العروس جـ ٩ ص ١٠٩ .

كما حدث فى هم يوسف عليه السلام فكان المانع هو رؤيته للبرهان ، وقد يكون المانع من غيره كما هو الحال فى امرأة العزيز التى حال دون تحقيق ما همت به ، عصمته عليه السلام وانصرافه عنها نهائيا فلم تتمكن مما أرادت .

مواضع فعل هم الثلاثى فى القرآن الكريم :

جاء فعل هم الثلاثى فى ثمانية مواضع فى القرآن الكريم : اثنان فى سورة يوسف عليه السلام ، والمواضع الباقية متفرقة فى خمس سور من القرآن الكريم وهى :

(ا) فى سورة آل عمران :

١ — ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون - ١٢٢﴾ .

(أن تفشلا) أى تتركا المضى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم للقاء يوم أحد اتباعا لرأى عبد الله بن أبى ومن معه من المنافقين ولكن غلب عليهما داعى الإيمان فلم تفشلا ، والمانع من الفشل هو ولاية الله تعالى لهما .

(ب) وفى سورة النساء :

٢ — ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شىء . وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم . وكان فضل الله عليك عظيما - ١١٣﴾ .

ففكروا فيما فكروا فيه وما قاربوا والمانع هو فضل الله تعالى .

(ج) وفى سورة المائدة :

٣ — ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم . واتقوا الله . وعلى الله فليتوكل المؤمنون - ١١﴾

فالمانع هنا هو كفه تعالى أيديهم عن المؤمنين .

(د) وفى سورة التوبة :

٤ – (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة . أتخشونهم . فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين – ١٣) .
والمانع من تنفيذهم همهم المتعلق بإخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة هو خوفهم أن يستجيب غيرهم له صلى الله عليه وسلم فيقوى أمره ويظهر عليهم .

٥ – وحكى تعالى عن المنافقين أنهم (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا . وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله . فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة . وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير – ٧٤) .
وذلك أن نفراً من المنافقين قد تآمروا على اغتياله صلى الله عليه وسلم بعد منصرفه من تبوك سنة ٩ هـ[1] فى الطريق إلى المدينة فلم ينالوا شيئا والمانع هو عصمة الله تعالى وحفظه جل جلاله لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(هـ) وفى سورة غافر :

٦ – (كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم

---

(١) لما رجع صلى الله عليه وسلم قافلا من تبوك إلى المدينة سنة ٩هـ تآمر نفر من المنافقين أن يطرحوه صلى الله عليه وسلم من عقبة كانت فى الطريق . فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما بيتوه . ولما بلغ الركب هذه العقبة قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه من شاء منكم أن يأخذ ببطن الوادى فإنه أوسع عليكم ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريقه الذى يمر بالعقبة المشار إليها وأمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة وأمر حذيفة أن يسير خلفها ، فبينماهم كذلك إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم ، فتوجه إليهم حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنه ليرى الخبر وكانوا ملثمين ، فوقع فى قلوبهم الرعب خشية أن ينكشف أمرهم ، فهربوا . فأسر صلى الله عليه وسلم إلى حذيفة بأسمائهم –وكانوا اثنى عشر رجلا– وأمره بكتمانها ، ولما بلغ ذلك الصحابة رضوان الله تعالى عليهم قالوا : أولا تأمر بهم يارسول الله فتضرب أعناقهم؟ فقال صلى الله عليه وسلم أكره أن يتحدث الناس ويقولوا إن محمدا قد وضع يده فى أصحابه .

ليأخذوه . وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب - ٥) .

فالمانع هو نصر الله تعالى لرسله والذين آمنوا معهم .

وقد اقترن الهم فى الآيات الكريمة بالوجوه الآتية :

* التصريح بمتعلق فعل الهم .

* إن متعلق الهم أفعال عدوانية من أذى وطرد وقتل أو أفعال متصلة بالفشل والضلال .

* أن المانع من تحقيق متعلق الهم هو ولاية الله تعالى لأنبيائه ورسله والذين آمنوا معهم .

* لم يرد متعلق الهم فى القرآن العظيم بالفاحشة (الزنى) مطلقا[1] .

ويقتضى عدم الخروج على المعنى عند تأويل الهم مراعاة الآتى :

أولا : عدم تطويع المعنى لفكر مسبق فى الذهن، والالتجاء بقصد تبريره وتعزيزه إلى وجوه نحوية ضعيفة أو شاذة مثل إلغاء وظيفة العطف ، أو التلبيس فى جواب لولا ، أو المغايرة بين متعلق الهمين إلخ ...

كذلك عدم الالتجاء إلى الروايات المنكرة أو الواهية أو الموضوعة فى سبيل تبرير وجهة نظر المفسر .

---

(١) لم يرد فعل هم فى القرآن العظيم متعلقا بفعل الزنى ، وجاء النهى عن الزنى مقترنا بفعل (قرب) يقول الله تعالى ﴿ ولاتقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا - ٣٢ ﴾ ١٧ سورة الأسراء . وهذا من الاعجاز القرآنى الذى جمع النهى عن كل ما يوصل إلى الزنى كائنا ما كان : فالعين تزنى والأذن تزنى باشتهاء المرئى أو المسموع ، ويدخل فى ذلك كل التصورات الخيالية والمثالية المفضية إلى الاقتراب من الزنا .

ويقول تبارك وتعالى ﴿ ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن ﴾ من الآية ١٥١ سورة الأنعام . ولم يغادر هذا الجزء من الآية شيئا من الفواحش إلا وقد نهى عنه .

﴿ تلك حدود الله فلا تقربوها ﴾ من الآية ١٨٧ سورة الأنعام .

ومن تأمل حقيقة معنى (قرب) أدرك بعض ما فى هذه الآيات من أسرار الاعجاز .

(ثانياً) : إن اتحاد متعلق الهم من الطرفين ملزم بأنه غير الفاحشة قطعا لأن مرتبة النبوة والرسالة لاتعطى غير ذلك .

(ثالثاً) : يجب عدم انتزاع آية الهم من السورة وتأويلها وكأنها آية منفصلة لا ارتباط بينها وبين ماقبلها ومابعدها ، ذلك لأن مراعاة ارتباط آى الذكر الحكيم شرط أساسى من شروط سلامة التأويل ، وضمان ضرورى لعدم الانحراف نحو تأويلات يرفضها السياق ويرفضها النص كما يرفضها الإعجاز القرآنى :

(رابعاً) : إن ربط آية الهم والبرهان بالآية السابقة يقتضى : —

(ا) : عدم جواز تعلق الهم بفعل سبق شروعها فيه وهو الفاحشة .

(ب) عدم تعلق الهم بالفاحشة لأن ذلك يقتضى المصادرات التالية : —

— جعل ترتيب الهم بالشيء بعد الفعل وهـذا محال ، إذ الهم من درجات القصد السابقة للفعل قطعاً .

— التعارض مع ترتيب آى الذكر الحكيم إذ لما كان الهم بالفاحشة يسبق الشروع فيها استلزم ذلك أن تكون آية الهم سابقة لآية المراودة وهذا باطل قطعاً لمخالفته للنص .

— لو سبقت آية الهم والبرهان آية المراودة لألغت الأخيرة : إذلا مناسبة للمراودة بعد رؤية البرهان .

(جـ) يقتضى الربط أن يكون الهم متعلقاً بفعل مؤسس على الفشل فى المراودة، وهو فعل يقع على ذات كل من الجانبين لقوله (به) و (بها) .

(خامساً) : إن ربط آية الهم والبرهان بما بعدها يقتضى :

(ا) : تأسيس آية الاستباق نحو الباب على آيـة الهم والبرهان ، إذ جاء الإستباق نتيجة لرؤية البرهان ، وكان البرهان مؤسساً على الهم .

(ب) : ربط باقى الآيات التى جاءت فيما بعد فى السورة الكريمة مشيرة إلى

ماحدث من المراوذة والهم ربطاًيحول دون الخروج على النص القطعى فى سبيل التمسك بأدلة ظنية .

(سادساً) : مراعاة أصول الدين فى كل تأويل : وعدم الخروج عليها .

ومما يقتضيه ذلك عدم قبول أية رواية تنسب إلى السلف ـ الذين يؤخذ عنهم الدين ـ مايخرج على القواعد المقررة للتأويل بل ويتناقض مع أصول الدين !!

يقول أبو حيان (١) :

[(وأما أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضاً مع كونها قادحة فى بعض فساق المسلمين فضلا عن المقطوع لهم بالعصمة)والذى روى عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب... وقد طهرنا كتابنا هذا عن نقل مافى كتب التفسير مما لا يليق ذكره واقتصرنا على مادل عليه لسان العرب ومساق الآيات التى فى هذه السورة مما يدل على العصمة وبراءة يوسف عليه السلام من كل مايشينه] .

وبهذه المناسبة حكى الإمام الرازى فى تفسيره : أن بعض الحشوية روى حديثاً فى مجلسه:أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ما كذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات) . قال الرازى (٢) .

(فقلت الأولى ألا تقبل مثل هذه الأخبار) .

فقال على طريق الاستنكار . فإن لم نقبله لزمنا تكذيب الرواة !!

---

(١) أبو حيان . البحر المحيط ج ٥ ص٢٩٥، والعبارة التى بين قوسين نقلها الامام الآلوسى فى روح المعانى ج ٤ ص ٢٦ وزاد بعدها قوله (وبالجملة لاينبغى التعويل على ماشاع فى الأخبار . والعدول عما ذهب إليه المحققون الأخيار ، وإياك والهم بنسبة تلك الشنيعة إلى ذلك الجناب بعد أن كشف الله سبحانه عن بصر بصيرتك فرأيت برهان ربك بلا حجاب) .

(٢) الامام الرازى : مفاتيح الغيب ج ٥ ص ١١٩ .

فقلت له : يامسكين . إن قبلناه لزمنا الحكم بتكذيب إبراهيم عليه السلام وإن رددناه لزمنا الحكم بتكذيب الرواة . ولا شك أن صون إبراهيم عليه السلام عن الكذب أولى من صون طائفة من المجاهيل عن الكذب) .

وذكر أبو السعود بعض هذه الروايات عند تأويل قوله تعالى (لولا أن رأى برهان ربه) ثم قال بعدها (وقيل إن كل ذلك إلا خرافات وأباطيل تمجها الآذان وتردها العقول والأذهان وبل لمن لاكها ولفقها أو سمعها وصدقها)(١) .

وتطبيقا للقواعد التى ذكرناها نكشف فيما يلى عن الوجه الصحيح لهذه القضية التى زلت فيها أقلام العمالقة من العلماء الذين تعرضوا لها .

« بيان وجوه الاعجاز فى آية الهم والبرهان »

تأسيس آية الهم والبرهان على آية المراودة :

إن الهم بالفاحشه والعزم على ارتكابها من جانب امرأة العزيز أمر قدسبق المراودة قطعاً ، إذ لايصح أن تصدر المراودة إلا بناء على تفكير وقصد سابق منها ، تلته المرحلة التنفيذية التى كانت المراودة أهم أدوارها .

ومن المعلوم أن أى إنسان قبلأن يشرع فى أى فعل أو عمل يمر بدرجات القصد كلها من خاطر إلى حديث نفسى ، إلى هم إلى عزم ، ولا يصح أن يقال بعد شروع الإنسان فى العمل أنه يهم به!! لأن هذا القول إنما يلغى الفعل بعد الشروع فيه ، ويعود القهقرى إلى مرحلة ماقبل تنفيذه أى إلى مرحلة القصد بدرجاته المعروفة التى أشرنا إليها فى موضع سابق ، وهذا محال طبعاً .

فالهم بالمعنى الذى تصوروه — وهو المتعلق بالفاحشة — قد تلاه العزم ثم انتقل إلى التنفيذ بقيام المرأة بكل مايجول بخاطر الأنثى من عمل يحقق مقصودها .

---

(١) إرشاد العقل السليم ج ١ : ص ٧١٣ .

ويؤخذ من ذلك أن الهم المتعلق بالفاحشة قد كان من طرف واحد وأنه قد سبق المراودة ومن المحال أن يكون بعدها .

ومما يدل على أن الهم — المصرح به فى آية الهم والبرهان — لم يكن متعلقاً بالفاحشة مطلقاً أنه لم يذكر فى أية آية ذكرت فيها المراودة ، ولو كان هو الذى تعلق به اللوم لقالت نسوة المدينة « امرأة العزيز تهم بفتاها وفتاها يهم بها بدلا من (تراود فتاها) . ولقالت هى عند اعترافها بجرمها « انا هممت به فاستعصم » بينما النص (أنا راودته عن نفسه فاستعصم) .

ولما كان محور الاتهام كله يدور حول المراودة لا الهم ثبت أن الهم لم يكن متعلقاً بالفاحشة قطعاً .

ولو قال قائل [أن قوله (ولقد همت به) توكيد لما سبق من مراودتها له وتغليقها الأبواب وطلبها إياه ، قلنا : إنه لأمر معلوم أن التأسيس خير من التأكيد ، كما هو معلوم أن المؤكد يجب أن يكون من درجة المؤكد حال كون الهم بالمعنى الذى تحيلوه ليس هو من درجة المراودة وتغليق الأبواب وطلبها اياه ، بل الهم ليس من درجة العزم الذى هو أعلى من الهم](١)

فقواعد اللغة والمنطق والنص والسياق كل ذلك مبطل لتعلق الهم بفعل الفاحشة ، وقد وقع الذين علقوا الهم بالفاحشة فى المصادرات التالية :

(الأولى) : تقديم الفعل على التفكير فيه وقصده .

(الثانية) : معارضة ترتيب آى الذكر الحكيم ، وكل تأويل يؤخر الهم بالفاحشة ويجعله بعد المراودة عليها يكون باطلا ، ولا يلتفت إليه مطلقا .

(الثالثة) : الخلط بين أمرين شتان ما بينهما وهما : الهم بالفاحشة وقد سبق المراودة وهو غير مصرح به إذ لا تتم المراودة بدونه والهم المنصوص عليه فى آية الهم والبرهان والذى لا يكون إلا بعد الفشل فى المراودة هذا الفشل الذى كان تأسيسا لآية الهم والبرهان .

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف عليه السلام : جـ ١ ص ٥٣٨ .

(الرابعة) التشكيك فى عصمة الأنبياء[١] أو بناؤها على قواعد متحركة بحسب مايراه كل مؤول، والخوض فى مرتبة النبوة بما لايليق أن ينسب إليها .

---

(١) عصمة الأنبياء باب من أبواب (علم الكلام) وقد أفرده بعض الأئمة بالتأليف مثل الفخر الرازى،ويرجع التوسع فى الأمور المنافية للعصمة التى أجاز البعض صدورها عن الأنبياء إلى التشبث بتأويلات باطلة أو التقيد بمذاهب كلامية متناقضة . . . ونحن فى ذلك لانرجع إلا للكتاب والسنة . فالأنبياء، والمرسلون طبقا للنص القرآنى وطبقا للثابت من صحيح السنة المشرفة:لايعمدون إلى ارتكاب صغائر ولا كبائر. إذ العمد ليس فيه صغائر ، لأن مجرد العمد كبيرة سواء قبل النبوة أو بعدها . ثم إنهم بعد النبوة محاسبون على خطراتهم أن تجرى فى خلاف الأولى بالنسبة لمرتبتهم . كذلك ننبه إلى عدم وجود حد بين الصغائر والكبائر كما سنشير إلى ذلك فى موضعه فى الفصل الثالث من الباب الثالث. إذا تبين ذلك نعرض ماقاله أحد علماء الكلام (العلامة البهارى) فى عصمة الأنبياء وقد اخترناه من المتأخرين (ق ١٢ هـ) ليكون كلامه جامعا لكلام من سبقه من المتكلمين : يقول فى (مسلم الثبوت) مانصه :

[اختلفوا فى عصمة الأنبياء قبل النبوة ، وهى عدم قدرة المعصية أو خلق مانع غير ملجئ فالكثير على أنه لايمتنع عقلا ذنب مطلقا،خلافا للشيعة مطلقا وللمعتزلة إلا فى الصغيرة وأما الواقع فالتواتر أنه لم يبعث نبى قط أشرك بالله طرفة عين ولا من نشأ فحاشا سفيها وأما غير الكذب (كذا) من الكبائر والصغائر الخبيثة فالاتفاق على عصمتهم عن تعمدها سمعا أو عقلا بل تجويزها سهوا إلا الشيعة ، وجائز تعمد غيرها بلا إصرار عند أكثر الشافعية والمعتزلة ومنعه الحنفية (أقول) وهو الحق فإن صغيرتهم كبيرة ألا ترى أن مباحات العوام سيئات الابرار وحسنات الابرار سيئات المقربين] . مسلم الثبوت ج ٢ ص ٦٧/٦٨ وتأمل فى إبعاده الكذب عن الكبائر والصغائر الخبيثة أما نحن فنعده منها . وقد التبس الامر على من أسند الكذب إلى إبراهيم عليه السلام حاشاه أن يقول الكذب أو يسند إليه، بل نحن نبرىء أول مانبرىء الانبياء من هذه الخصلة الخبيثة .

موقف امرأة العزيز بعد رفض طلبها قد حدد متعلق الهم :

إن هذا الموقف يوضح لنا شدة ارتباط آية الهم والبرهان، بآية المراودة، وأن المراودة كانت تأسيساً للهم والبرهان ، ولبيان ذلك نقول :

لقد خلق الله تعالى الأنثى ، وركب فيها الاعتزاز بأنوثتها وجعل شرفها متوقفا على المحافظة على طهارتها وعفتها ، وسلحها بجميع الأسلحة التى تحافظ على هذه الطهارة، ولذا نجد أن طبيعة الأنوثة لا تسمح للأنثى أن تطلب من الرجل ما يطلبه منها ، بل تحاول أن تقضى وطرها عن طريق التعرض لمن تريد إغراءه، حتى إذا ما انتهت إلى تمكنها من قلبه ، تركته يجرى وراءها ، ويشتغل بطلبها، وهى أدرى بطبيعة الرجل فى هذه الشئون . فإذا ما وقع فى شباكها ، سيطرت عليه باختياره ورضاه ، وهذا هو سر قوتها ، فهى مطلوبة لا طالبة ، وهى متحكمة فى الرجل عن طريق تأثيرها فيه، وهو تأثير قد يصل إلى أنها تملى عليه ما تريد، فينفذ إرادتها ورغباتها طائعا مختارا على أنها مالكة لبه التى تأمر فيطيع وتطلب فيجيب ، وكثير من حماة الأنوف تراهم يطأطئون رؤوسهم لحسان تعلقوا بهن ، وربات جمال خضعوا لسحرهن ، وبذلوا فى سبيل ارضائهن كل ما يعتزون به من جاه ومال ، بل إن ممن يلعبون أمام شعوبهم أدوار الدكتاتورية، قد قص علينا التاريخ أنهم فى حياتهم الخاصة يذلون أنفسهم لجواريهم أو خدمهم أو زوجاتهم غير واجدين فى ذلك أية غضاضة أو وضاعة ومذلة .

إلا أن امرأة العزيز قد خرجت عن طباع الأنوثة المألوفة ، وسلكت سبيلا لا تسلكه الأنثى إلا فى حالات نادرة يكون فيها العشق جارفا ، والأمل قويا فى نيل المرام ، إلا أن هذا المسلك تعتبره أية أنثى فى الظروف العادية مهينا لها كل الإهانة ، ومهدرا لكرامتها كل الأهدار .

وها هى امرأة العزيز وهى السيدة ذات المكانة المرموقة ، تبذل نفسها لفتاها، وتتنزل له من عرش سلطانها ، ولم تتردد وقد برح بها الوجد واستولى عليها الهوى ، عن الإلتجاء إلى آخر ورقة معها : إذ دبرت كل شىء باحكام

واتقان ، وحددت للتنفيذ وقتا يكون فيه زوجها غائبا عن القصر ، نتخلصت من الخدم ، وغلقت الأبواب ، وأعدت الخلوة التى تمكنها من قضاء وطرها .

بل ها هى تصرح بما لاتكاد تصرح به انثى فتقول (هيت لك) فعرضت علنا ماتعده الأنثى عندها أغلى وأعز من الحياة .

فماذا كان موقفه عليه السلام ؟

لقد ظهر لها منه الإعراض المطلق عما تقصده ، وعدم الالتفات التام إلى ما تعرضه من حب وعشق وجمال ، بل ها هو عليه السلام ينهاها بلطف عن غيها ، ويستيعذ بالله تعالى استعاذة كاملة مما تطلبه مثنيا عليه عز وجل بالثناء الذى لا تجوز معه خيانة (إنه ربى أحسن مثواى[1]) .

---

(١) المثوى هو المحور الذى تدور حوله البلايا التى لاقاها عليه السلام: فقد كان فى بيت أبيه يتمتع بالرعاية فى بيت النبوة والرسالة وما أنبلها وأعلاها وأسماها وأشرفها رعايـــة .

وإذا بإخوته يكيدون له عليه السلام ، فيجعلون غيابة الجب مثواه ، فيمكث عليه السلام فترة من الزمن منقطعا عن العالم الدنيوى ، لايدرى ماذا سيكون مصيره فى هذا المثوى ، فتتداركه رحمة الخالق سبحانه فيوحى إليه مايثبت به فؤاده ﴿ لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون ﴾ .

ويخرج عليه السلام من الجب ليباع بيع الرقيق ، وتتداركه العناية الآلهية:فيشتريه عزيز مصر ، الذى يلقى الله تعالى فى قلبه حب يوسف عليه السلام ، فيفرح به كل الفرح ويعده ليكون له ولدا ، ويأمر بمعاملته معامـلة صاحب القصر لا الخـدم ويصرفه فى جميع شئونه .

وبعد ، أفمن السهل نسيان كل هذا ؟

أينسى أنه غريب قد قدم إلى بلد غير بلده فـآواه الله تعالى؟ أم ينسى أنه قدترك أباه وهو من المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم، والله يعلم قدر الحب المتبادل بين نبيين من المرسلين أحدهما هو الوالد والثانى ابنه ، ولئن ابيضت عينا الأب عليه السلام ... من الحزن على الابن الحبيب ، فإن هذا الحزن كان يمر به يوسف عليه السلام فى كل لحظة فيعصره عصرا . أيطيب له عيش وهو يعلم أى حال هوحال أبويه من بعده ! =

وفوجئت امرأة العزيز بالحقيقة المرة وهى أنهـا من المحال أن تنال منه شيئا وهذا ما لم يدخل فى حسبانها ، ولم يدر مطلقا فى خلدها .

فما هو شعور أية أنثى فى مثل مكانتها بعد أن استنفدت كل ما فى جعبتها فلم تجد سوى الفشل والرفض المهين ؟ ما هو شعورها بعد أن ظنت أنها قـد دبرت كل شىء يوصلها إلى مقصودها فاذا بالرجل الذى تهبه نفسها يرفضها رفضا كاملا ؟

ألا يملكها الاحساس بالمهانة والذلة بصورة قلما تمر بها أنثى مهما كانت مـكانتها وطبقتها الاجتماعية ؟

لقد فقدت امرأة العزيز كل شىء : حبها الذى لم يجد من فتاها سوى الإعراض والامتهان وعدم الالتفات ، وكرامتها التى ضاعت برفض فتاها عرضها الذى تضمن أثمن ما تملكه الأنثى ، وحل محل ذلك كله أمر واحد قد استولى عليها : هو جنون الانتقام الذى دفعها فى غضب وحشى إلى البطش بفتاها لتنفس بعض ما عندها من الغيظ الذى فجره فيها بموقفه منها ،ولتعوض بعض مافقدته من كرامتها السليبة ، واعتبارها المهدور .

وقد نبهت الآية الـكريمة إلى الانتقال من قصد إلى قصد جديد ، إذ بدأت بمـا يفيد الإضراب عن القصد السابق لآية الهم ، واستئناف فعل جديد مغاير

= أيسمع نداء الشيطان وهو من عباد الله المخلصين ! أيجزى من جعله الله تعالى سببا فى اكرام مثواه وصرفه فى جميع شئونه واتتمنه على ماله وعرضه أسـوأ الجزاء ، فيفـكر فى تلطيخ عرضه بالوحل والعار !

إن المؤمن العادى لايزال يتقرب إلى الله بالنوافل حتى يحبه فاذا أحبه كـان سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها .

فما بالك بدرجة الأنبياء والمرسلين !

إن الخيانة ظلم ، والاعتداء على الاعراض ظلم ، والإساءة إلى من أكرمك ظلم ، أفبعد هذا الاحسان الذى أحاطه به الله تعالى يكون الشكر ظلمات بعضها فوق بعض ! !

اللهم : لا .

له ، وتأكدت هذه المغايرة بتكرار فعل الهم عن طريق العطف ، إذ العطف هنا له فائدتان هامتان : -

(الأولى) : دل على الاشتراك فى مطلق فعلى الهم ولاتصح المغايرة بينهما أبداً إذ العطف يمنع ذلك ويحول دونه .

(الثانية) أفاد عطف همه عليه السلام على همها أن متعلق فعل الهم لايكون الفاحشة قطعا ، وبيان ذلك أنه عليه السلام لايهم بالفاحشة « بدليل ما سبق من رفضه لكل محاولة قامت بها امرأة العزيز بقصد استجابته لها ، فلا يكون همه بها إلا متعلقا بضربها وتأديبها ، ولما أن الهمين يشتركان فى متعلقهما ، فقد رفع ذلك كل لبس عما تعلق به همها إذ يكون المعنى أنها قد همت بضربه انتقاما وهم بضربها تأديبا والانتقام فى نظرها انما هو تأديب .

وجه الاعجاز فى ترتيب فعلى الهم :

لما كان الهم منها أولا أفاد ذلك أنه من المحال أن يكون متعلقا بفاحشة للوجوه الآتية :

١ — لأن الهم بالفاحشة قد حدث منها قبل المراودة وتلاه دور التنفيذ المبين فى آية المراودة .

٢ — لو كان الهم متعلقا بالفاحشة من الطرفين لتقدم هم الرجل على هم الأنثى ولاقتضى ذلك ان يكون الكلام « ولقد هم بها وهمت به ».

٣ — إن موقف امرأة العزيز قد حدد متعلق الهم : فهو موقف امرأة رفضها فتاها كل الرفض وأعرض عنها كل الإعراض ولم تجد منه سوى الانصراف عنها وعدم الاستجابة لاغرائها ، فلا يكون الهم فى هذا الموقف سوى الهم بالبطش طلباً للانتقام لما لحقها من ذل وصغار .

٤ — إن موقفه عليه السلام قد حدد متعلق الهم :

فلا ننسى فى غمرة الأحداث حق امرأة العزيز : فقد كانت امرأة الرجل

الذى أكرم مثواه عليه السلام ، وهى سيدة القصر الذى يعيش فيه ، وهى التى لم يبد من جانبها أى تقصير فى تنفيذ أمر زوجها بالنسبة إليه عليه السلام .

لكنها الآن تقف موقف المتمردة على جميع حقوق سيدها ، وتحاول أن تلطخ عرضه بأسوأ فاحشة ، وها هى فى موقف ينأى عنه كل كريم عفيف النفس وهى دون أن تدرى تضع النبوة والرسالة فى موقف يتنافى مع جلال هذه المرتبة العالية .

وها هى لم يكفها الرفض ولم يردها الزجر باللطف ، ولم تتزحزح قيد شعرة عن اعتقادها أنه فتاها ويجب عليه أن ينفذ ماتريد ومن حقها عليه الا يتطاول عليها برفضها أبدا ، ولما تحفزت المرأة للهجوم والبطش به عليه السلام ، هم بتأديبها غيرة على حرمات الله تعالى ، وزجرا لها عن انتهاك حرمة الرجل الذى أكرم مثواه ، وإيذانا منه عليه السلام باستحالة ماتطلبه منه وصرفا لها عن التعرض لهذا الأمر مرة أخرى أو محاولة استدراجه بأية وسيلة إلى ماتطلب .

ولا تفوتنا الإشارة إلى اطلاق متعلق الهم هنا : فقد بينا أن متعلق الهم حيثما ورد فى القرآن الكريم فهو موضح . أما هنا فهو مطلق: ذلك لأنه متعلق بكل مادار فى خلد امرأة العزيز من تأديب وانتقام،والحاق الصغار، والاذلال والاهانة ، والاتهام بنكران الجميل ، كما أنه متعلق بكل مادار فى نفسه عليه السلام من تأديبها .. كل ذلك يفهم من الاطلاق لا من التقييد، ومايفهم تدل عليه القرائن .

الأخطاء المترتبة على تعليق الهم بالفاحشة :

(أولا) بالنسبة لامرأة العزيز :

يفضى تعليق الهم بالفاحشة إلى القول بأن المرحلة الثالثة من مراحل ارتكاب الجريمة سابقة للمرحلة الأولى وهذا محال .

ولبيان ذلك نقول :

تمر الجريمة قبل تمام ارتكابها فى ثلاث مراحل[١] :

١ — التفكير فى الجريمة .

٢ — التحضير للجريمة .

٣ — الشروع فى الجريمة .

والمرحلة الأولى إذا انتهت إلى عزم الجانى على ارتكاب الجريمة بدأت المرحلة الثانية ، وهى مرحلة التحضير والاستعداد لها فيقوم الجانى بالأفعال التحضيرية الملائمة لارتكابها .

وبعد فراغ الجانى من أعماله التحضيرية للجريمه ، يتجه إلى ارتكابها ، وعندئذ يقال إنه شرع[٢] فيها .

وللشروع ركنان :

ركن مادى : أى النشاط الخارجى للجانى .

وركن معنوى : وهو القصد الجنائى : أى إتجاه الإرادة إلى ارتكاب الجريمـــة .

والركن المادى فى الشروع يتكون من عنصرين يميزانه عن الأعمال التحضيرية للجريمة :

(العنصر الأول) وهو البدء فى تنفيذ الفعل .

---

(١) وراجع الموجز البسيط فى شرح قانون العقوبات (القسم العـــام) للمستشار طه محمد دنانه ص ٩٢ ومابعدها ط سنة ١٩٦٧ .

(٢) إذا ماوصل الجانى إلى غرضه أصبحت الجريمة تامة . ولكن قد لايصل إلى غرضه بعد البدء فى تنفيذها فيقال إنه شرع فى ارتكابها .

وقد عرفت المادة (٤٥ ع) الشروع فى الجريمة بأنه البدء فى تنفيذها إذا أوقف التنفيذ أوغاب أثره لاسباب خارجة عن ارادة الجانى واختياره .

(العنصر الثانى) وقف تنفيذه أو خيبة أثره لأسباب لا دخل لإرادة الفاعل فيها ، أو لعدول الجانى عنها باختياره ، أو لكونها جريمة مستحيلة التنفيذ .

ويتحقق الشروع بكل فعل مادى يؤدى حالا ومباشرة إلى ارتكابها ولو كان سابقا على الأفعال الداخلة فى تكوينها المادى أو مستقلا عن ظروفها المشددة ، فالاعتبار الأول لشخص[1] المجرم بالإضافة إلى ماديات الجريمة .

هذا ولو طبقنا ذلك على القضية التى بين أيدينا لوجدنا أن التفكير فى الجريمة قد انتهى إلى التحضير لها بتهيئة الخلوة وغلق الأبواب وصرف الخدم واختيار الزمان وغير ذلك من الإجراءات والافعال والتصرفات اللازمة لارتكابها والمؤكدة لذلك .

ثم دخلت المرحلة الثالثة وهى مرحلة التنفيذ فشرعت فى الجريمة باستدعائها ليوسف عليه السلام إلى الخلوة وتغليقها الأبواب وقولها (هيت لك) .

وخاب أثر ذلك كله لأسباب خارجة عن ارادتها واختيارها إذ انصرف عنها عليه السلام بكليته فاصبح تنفيذ الجريمة مستحيلا .

يتضح من هذا البيان أن الذين علقوا الهم بالفاحشة قد نكسوا الاوضاع والحقائق وجعلوا الشروع فى الجريمة سابقا على التفكير فيها كما جعلوا الهم بعد الشروع فى الفعل وهذا يتناقض مع اللغة التى تقرر أن الهم هو مقاربة الفعل دون الوقوع فيه فلا يقال إذن لمن شرع فى الفعل أنه يهم به .

ونعود إلى سرد باقى الاخطاء التى تترتب على تعليق الهم بالفاحشة بالنسبة لامرأة العزيز فنقول :

• يلزم من هذا : التناقض مع صريح اعتراف المرأة من أنها راودته فاستعصم ﴿أنا راودته عن نفسه فاستعصم﴾ مع أنها لو اشتمت منه رائحة من الميل إليها

(١) هناك مذهبان فى تفصيل الشروع المادى والشخصى ، والقضاء المصرى يأخذ بالمذهب الشخصى .

بغريزة الأنثى التى لاتخطىء فى مثل هذه الأحوال ، لافتخرت بذلك ، وعدته انتصاراً باهراً لجمالها ، ولأعلنته أمام النسوة ولحكته مبالغا فيه كما هى طبيعة الأنثى .

• على فرض وقوع همين بالفاحشة فى آن واحد بين ذكر وأنثى فإن طبيعة التكوين تقتضى سبق هم الذكر على الأنثى ، ولاقتضى التعبير تقديم همه على همها ولكن الشأن أن يقال «ولقد هم بها وهمت به» مثلا ، فلما تقدم همها على همه كان ذلك إعلاما بأن الهم المشترك بينهما لم يكن متعلقا بالفاحشة قطعاً .

• لو كان فعل الهم متعلقا بالفاحشة من جانبها بعد أن أهانها وأعرض عنها وبين لها استحالة تمكينها من رغبتها — لكان الأولى أن تستولى عليها علامات ذلك من الاسترخاء والاستسلام مما يحول دون قيامها بمطاردته ، ولكننا نجد أن الذى حدث هو عكس ذلك تماما إذ كانت متمالكة لكل قواها متحفزة للهجوم: فدل ذلك على أن الهم كان بقصد الاعتداء والقهر والبطش لا الفاحشة.

• مما يدل على انتقال المرأة التام من محاولة ارتكاب الفاحشة إلى حالة البطش والقهر ، زوال الخجل والارتباك والشعور بالخيانة حين وجدت نفسها فجأة فى مواجهة العزيز ، فكان وقوفها امامه وقوف المتمكنة من أمرها . بعكس ما لو فوجئت وهى متعلقة بالفاحشة إذن لظهرت عليها الآثار النفسية الدالة على إرادة ارتكاب هذه الجريمة من خجل وارتباك وشعور بالخيانة مما لا يخفى على أحد .

• حينما رأت المرأة سيدها لدى الباب ، نسيت كل شىء ولم يلصق بذهنها سوى ماشهدته من همه عليه السلام بتأديبها ، وقد كبر عليها هذا منه عليه السلام وهى التى اعتادت أن تأمره فيطيع ، وتناديه فيجيب ، ولذا كان أول اتهام وجهته إليه عليه السلام فى خطابها لزوجها ما حكته الآية الكريمة (ما جزاء من أراد بأهلك سوءا) تشير إلى شعورها بالمهانة والمذلة سواء بإعراضه عنها أو بهمه

بتأديبها ، والأخير هو ما كانت تريد أن تبديه أمام زوجها، فلم تقل : من أراد بأهلك فاحشة . مما يؤكد أن الهم كان بقصد التأديب .

(ثانيا) بالنسبة إلى يوسف عليه السلام :

يلزم من تعليق الهم بالفاحشة فى حقه عليه السلام المصادرات التالية :

* التجرؤ على الأنبياء فى زمان نبوتهم أو ماقبله والأول طعن فى عصمتهم، والثانى طعن فى صلاحيتهم للنبوة ، فلا يصح بحال أن ينسب إلى نبى مرسل خيانة مغلظة تقع من شبه المتبنى على متبنيه ، ولا يسلم جمهور الأئمة بوقوع ما يتنافى مع الخلق الكريم منهم صلوات الله وسلامه عليهم .

وكيف يقابل الإحسان بأخس الإساءة من لقى من إخوته ماالقيه من الشدائد ، فلم يقابل عليه السلام اساءتهم إليه إلا بالصفح والعفو والإحسان لما أقدره الله تعالى عليهم ومكنه منهم ؟

* يلزم من هذا القول التعارض مع آية المراودة التى حكت استعاذته عليه السلام بالله تعالى استعاذة تامة مما تريده منه ، مع بيان أنه لايفلح الظالمون واستعاذة الأنبياء بالله تعالى مستجابة . فكيف ينسبونه عليه السلام بعد ذلك — فى الآية التالية مباشرة — إلى التعلق بالفاحشة ؟؟

* يلزم من القول بان الهم كان بالفاحشة أن يكون البرهان كما زعموا آية صرفته عليه السلام عن الفاحشة .

ويترتب على زعمهم هذا المصادرات التالية : —

— جهله عليه السلام بحرمة الزنى - حاشا لله تعالى - حتى نبهته إلى ذلك آية من ربه .

— اتهامه بالزنا فعلا إذ لا يكون الهم إلا بعد الاشتهاء ، فالعين تزنى والأذن تزنى ولذا جاء النهى عن الاقتراب بأية صورة من هذه الجريمة البشعة، يقول الله تبارك وتعالى (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) .

وقد روى أن رجلا نظر إلى امرأة اجنبية بشهوة ودخل على مجلس أمير

المؤمنين ذى النورين عثمان رضى الله تعالى عنه، فقال أمير المؤمنين للحاضرين (لا يدخل على أحدكم وآثار الزنا فى وجهه) . فقال الرجل (أوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أمير المؤمنين) فقال رضى الله تعالى عنه : لا . ولكنها فراسة المؤمن .

— اتهامه عليه السلام بأنه لم ينصرف عن الزنا خشية من الله تعالى بل لعجزه عنه بعد رؤيته للبرهان .

— مساواته عليه السلام بأقل رجل عادى لو رأى آية إلهية تزجره عن الزنا لانصرف عنه فى الحال .

— لو كان الهم بالفاحشة لما كان هناك ثمة داع للاستباق نحو الباب ، ولو بعد رؤية البرهان الذى ينهاه عن ارتكابها !

— قول من قال ان همه عليه السلام كان بالفاحشة يتناقض مع قوله تعالى (انه من عبادنا المخلصين) فهم يجعلون من عباد الله المخلصين هؤلاء الذين لا ينصرفون عن الزنى إلا بعد رؤية البراهين والآيات الزاجرة لهم عن ارتكاب الفاحشة ولا يذهب إلى هذا القول أحد لمخالفته لجميع القواعد والأصول، فان المخلصين قد صرفوا جميع احوالهم وشئونهم لله تعالى لا يشركون به سبحانه ولا يميلون إلى سواه عز وجل فكافأهم الله تعالى بصرف السوء والفحشاء عنهم تكريما لهم

— كيف يقال لمن عجز الشيطان عن غوايتهم (ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) انهم يهمون بالفاحشة ؟

— ان اسناد الهم بالفاحشة إليه عليه السلام يتعارض مع سنة الله تعالى مع انبيائه طبقا للنص القرآنى؛ إذ وقعت معاتبتهم فيما لا يخطر على بال الأبرار وهو كما قيل (حسنات الأبرار سيئات المقربين) وإذا وقع منهم ما يستوجب معاتبتهم عليه اقترن ذلك بالتجائهم عليهم الصلاة والسلام إلى الله تعالى طلباً للمغفرة والصفح: ولما لم ينص الذكر الحكيم على شىء من هذا فى هذه الواقعة علمنا أنه لم يصدر من يوسف عليه السلام ما يستوجب التوبة والاستغفار .

— كيف يجوزون الثناء من الله تعالى على من يهم من الأنبياء بالفاحشه ؟

بيان وجه الاعجاز فى ربط الهم باستباق الباب :

لو كان الهم بالفاحشة لـكانا فى حالة استسلام ، لا تتطلب مطلقـا استباق الباب من الطرفين فى آن واحد، وهذا يتناقض مع ماحدث فعلا، فإنهما استبقا الباب فى آن واحد ، مما يثبت أن الهم كان من الطرفين بقصد البطش والضرب لابقصد الفاحشة . فلما رأى عليه السلام البرهان علم أنه لانجاة إلافى مغادرة المكان بأقصى سرعة ممكنة فلما فعل ذلك طاردته حتى لايفلت منها .

تهديدات امرأة العزيز له عليه السلام حددت متعلق الهم :

صدرت عدة تهديدات من امرأة العزيز فى عدة مواضع ، فهى عندما واجهت سيدها لدى الباب وعرضت عليه القضية نجدها تقترح السجن أو العذاب الإليم ، وماذلك إلا لعدم استجابته عليه السلام لها ، كذلك نجدها : تصرح أمام النسوة بتهديده عليه السلام بالسجن والإذلال (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) كل ذلك يحدد لنا بوضوح متعلق همها كلما فشلت فى محاولتها ، وإنه كان هما بالانتقام لاهما بالفاحشة لعدم تمكينها من رغبتها .

وقد ذهب نفر قليل من العلماء إلى أن همهما كان متعلقا بالضرب أو القتل ومن متقدمى هؤلاء : الإمام على بن حزم الظاهرى : إذ قال أنها همت به قتلا وهم بها كذلك .

والشيخ الأكبر محي الدين بن العربى فى الفتوحات .

ومن المفسرين المحدثين الذين بحثوا ذلك بحثا وافيا السيد محمد رشيد رضا كما تدل عليـه الفقرات التالية التى نقتطفها من تفسير (المنار) وفيها الـكفاية لبيان ما انتهى إليه بحثه إذ يقول :

(وتالله لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه أمرها وهى - فى نظرها - سيدته وهو عبدها وقد أذلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها بعد الاحتيال عليه

بمراودته عن نفسه ومن شأن المرأة أن تكون مطلوبة لاطالبة ، ومراودة عن نفسها لامراودة)[١] .

ولما فشلت الأنوثة فى نيل ما تشتهيه (همت بالبطش به فى ثورة غضبها وهو انتقام معهود من مثلها وممن دونها فى كل زمان ومكان وأكثر ماترويه لنا منه : قضايا المحاكم وصحف الأخبار)[٢] .

(كان همهما واحدا وهو البطش بالضرب أو ما فى معناه وكان المانع منه إرادته هو وعجزها هى بهربه)[٣]

(فمن الجلى أنه لايصح تفسير ﴿ ولقد همت به ﴾ .... إلا بما قررناه ، وأن ما قاله الجمهور باطل لمخالفته له بل للغة القرآن وهدايته وإنما خدعتهم الروايات الباطلة وبيانه من وجوه :

أولها : أن الهم لا يكون بفعل للهام . والوقاع ليس من أفعال المرأة فتهم به ، وإنما نصيبها منه قبوله ممن يطلبه منها بتمكينه منه . وهذا التمكين هو الذى يثبت به دخول الزوجة الذى تستحق فيه المرأة النفقة من زوجها كما هو مقرر فى الفقه .

ثانيهما : أن يوسف عليه السلام لم يطلب من امرأة العزيز هذا الفعل فيسمى قبولها لطلبه ورضاها بتمكينه منه ، هما لها ، فإن نصوص الآيات قبل هذه الآية وبعدها تبرئه من ذلك بل من وسائله ومقدماته أيضا .

ثالثها : لو أن ذلك وقع لكان الواجب فى التبيين أن يقال ، ولقد هم بها وهمت به ، لأن الأول هو المقدم بالطبع والوضع وهو الهم الحقيقى . والهم الثانى يتوقف عليه لا يتحقق بدونه .

رابعها : إنه قد علم من القصة أن هذه المرأة كانت عازمة على ماطلبته طلبا جازما مصرة عليه ليس عندها أدنى تردد فيه ولا مانع فيه يعارض المقتضى له فإذن لا يصح أن يقال إنها همت به مطلقا)[٤]

(١، ٢، ٣، ٤) السيد محمد رشيد رضا : تفسير المنار ج ١٢ ص ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٤، ٢٨٥ : ٢٨٦ على التوالى .

ومنهم الأستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى إذ يقول :

(وراودته امرأة العزيز فامتنع بدليل اعترافها الآتى فى آية «٣٢» وعطفها استعصم بالفاء على المراودة. عند ذلك غلقت الأبواب وقالت : تعال ائت . فقال : معاذ الله أن أقابل نعمة ربى بعصيانه فأكون من الظالمين . فلما رأت منه هذا الاحتقار لها امتلأ صدرها بنار الغيظ وصممت على الانتقام من خادم اشترته وبينها ، فهمت بالبطش به وهم هو أيضا بقتلها ، ولكنه سرعان ما أدركته العناية فأدرك أن للخلاص طريقا غير القتل وهو الفرار ـ كهذا التثبيت : نثبت يوسف دائما فى المستقبل لنصرف عنه السوء والفحشاء لأنه من عبادنا المخلصين)[1]

وتعرض د . محمد عبد الوهاب بحيرى لهذا الموضوع (فى الرسالة التى تقدم بها لنيل شهادة العالمية من درجة أستاذ)[2] فقال : (فهمت بضربه لتقهره على ما تريد ، وهم أن يقابل العدوان بمثله لولا أن الله الهمه ان ذلك ليس من صالحه فى عاقبة أمره ، فلاذ بالفرار إلى الباب فأدركته وأمسكته بقميصه فقدته والفيا سيدها — وهو العزيز زوجها — لدى الباب)[2]

وجزم بذلك مؤتمر العلماء الذى قام بتفسير سورة يوسف عليه السلام ،كما أشرنا إلى ذلك فى موضعه .

ولا يعنينا ذكر من حكى هذا القول فيما حكاه من الأقوال فى هذا الشأن بل الذى يعنينا من جزم به واختاره على أنه هو التأويل الصحيح .

لولا أن رأى برهان ربه :

يقتضى عدم الخروج على النص عند بيان البرهان مراعاة شرطين أساسيين يحققان الحكمة من هذا البرهان وهما: صرف السوء، وصرف الفحشاء عنه عليه السلام وما يصلح لصرف أحدهما دون الآخر فليس هو بالبرهان المطلوب .

(١) الاستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى: تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم ص٣٠٦

(٢) د . محمد عبد الوهاب بحيرى : الاستاذ فى علوم القرآن والحديث فى كلية أصول الدين بجامعة الازهر : الحيل فى الشريعة الإسلامية ص ٩٤ .

وبناء على هذه القاعدة فإن جميع الروايات التى تدور حول البراهين التى تزجر يوسف عليه السلام عن ارتكاب الفاحشة أو تنهاه عن ارتكابها فهى باطلة قطعا إذ يلزم منها : —

. الهبوط بمرتبة النبوة والرسالة أو المرشح لها إلى حضيض الأفراد العاديين الذين لا ينصرفون عن الكبائر إلا برؤية برهان الهى .

. أن البرهان لايكون تكريما له عليه السلام بقدر ما يكون توبيخا لما ساوره من الهم باحدى الكبائر ، وهذا ما يتعارض مع النص القرآنى الذى بين أن البرهان كان تكريما له عليه السلام .

. تأسيس البرهان على أن الهم كان بالفاحشة لا بالتأديب والضرب هو تأسيس باطل من جميع الوجوه .

. كذلك لايكون البرهان هو نهيه عن تنفيذ ما هم به من ضربها إذ لو ضربها لأوهم أنه قصدها بشهوة، فلما امتنعت عليه ضربها . وحكى ذلك القرطبي وغيره .

كما أن كفه عن ضربها لا يترتب عليه صرف السوء والفحشاء عنه ، وبيان ذلك أنه لو كف عنها ومكث مكانه لناله الأمران معا : الإيذاء إلى درجة القتل والإتهام بالفحشاء .

الوقائع تحدد حقيقة البرهان :

لقد همت امرأة العزيز ببسط يدها إليه عليه السلام للانتقام منه ، وهم هو ببسط يده اليها لتأديبها ، وإيقافها عند حدها ، وقد عود الله تعالى رسله أن يتداركهم بآياته فى اللحظات الحاسمة ، وفى هذه اللحظة الحرجة لا فى تاريخه عليه السلام بل فى تاريخ النبوات رأى عليه السلام البرهان الذى أعطته رؤيته وجوب مبارحة المكان فورا وبأسرع ما يمكن إذ أن براءته ونجاته من السوء والاتهام بالفحشاء متوقفة على ذلك .

وليس من الضرورى بعد هذا البيان تحديد صورة ما رآه عليه السلام ، بل

العبرة فى توجيه كل ما صح مما روى فى هذا الشأن من الآثار إلى المعنى الذى ذكرناه أيا كانت صورة البرهان .

فمن قال إنه رأى والده عليه السلام عاضا على إصبعه: قلنا إنه يشير بذلك الى وجوب مبارحته المكان فورا لأن تنفيذ ماهم به من البطش بها يؤدى الى وقوعه فيما يريد النجاة منه والى إثبات الجريمة عليه .

ومن قال أنه جبريل عليه السلام أو أنه آية مكتوبة فى الحائط قلنا إن هذه الرؤية يقصد منها هذه النتيجة لاالنهى عن ارتكاب الفاحشة . وقد جوز البعض أن تكون الرؤية علمية[1] كما فى قوله تعالى : —

﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون — ٣١ ﴾ سورة يس .

﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين — ٧٧ ﴾ سورة يس .

﴿ سأل سائل بعذاب واقع — ١ ـ للكافرين ليس له دافع — ٢ ـ من الله ذى المعارج — ٣ ـ تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنه — ٤ ـ فاصبر صبراً جميلا — ٥ ـ إنهم يرونه بعيدا — ٦ ـ ونراه قريبا ـ ٧) سورة المعارج .

وننبه إلى أن الاستشهاد إنما هو بلفظ (يرونه) لا بلفظ (نراه) .

وجوه الاعجاز فى رؤية البرهان :

من هذه الوجوه :

• صرف السوء عنه عليه السلام : إذ لو تعدى عليها بالضرب لأمسكت بتلابيبه ومزقت ثيابه وأقبل الناس لنجدتها كما يحدث فى مثل هذه الأحوال وترتب

(١) وراجع مؤتمر تفسير سورة يوسف عليه السلام جـ ١ ص ٥٢٧ . وهناك آيات استشهد بها بعض أعضاء المؤتمر لايصح الاستشهاد بها فى هذا الموضوع لجواز وقوع الرؤية على حقيقتها .

على ذلك ضبطه فى حجرتها متلبساً بضربها ولكانت النتيجة هى تعرضه عليه السلام لأشد أنواع الإيذاء بالسب والضرب والإهانة بل والقتل كما يحدث لمن يضبط فى مثل هذا الموقف الرهيب .

• صرف الفحشاء عنه عليه السلام إذ لو تمهل لحظة بعد رؤية البرهان لأدى ذلك إلى اشتباكها معه واشتباكه معها بالضرب ولكان ذلك من البراهين القطعية التى تلصق به محاولة ارتكاب الفاحشة ولاستحال نفى هذا الاتهام المبين، وابطلت كل شهادة أو قرينة تدل على براءته من هذه الجريمة البشعة . بل إن السوء الذى يناله يكون من جراء ثبوت الفحشاء عليه ، وهو ثبوت تتكاتف فيه جميع القرائن لإلصاق الجريمة به عليه السلام مع تبرئتها هى منها : إذ ستظهر أمام الجميع وقد اضطربت زينتها , وتبعثر أثاث مخدعها واختل نظامه ، وسيرونه وقد تمزقت ثيابه وهو فى مخدعها فلا يسع من رأى ذلك سوى تصديقها فى كل ماتدعيه ضده تلميحا وتصريحا ، ولما سمعوا له قولا ، ولما سمحوا له بنفى العار الذى يلصق به : فالعرف والقانون وقواعد السلوك كلها تكون متكاتفة ضده لا محالة ويكون ضربها فى هذه الحالة بمثابة القرب من إثبات تهمة الزنى على نفسه بالدليل القاطع الذى لا يمكن نفية ، حتى أصبح الضرب نفسه مثل الاقتراب من الزنا من حيث إثبات التهمة .

• إن مبارحة المكان لن تعطيها أية فرصة لتنفيذ رغبتها ، كما تبعد عنه عليه السلام أية شبهة قد تتخذ قرينة أو دليلا يثبت عليه الجريمة : إذ تبقى زينتها دون أن تمس ، أو يظهر عليها الاضطراب ، كما أن مخدعها لا يمسه أى خلل فى ترتيبه أو نظامه .

• إن مطاردتها له عليه السلام ستكون من مصلحته . وستكون قرينة ضدها

• إن ضربها يتنافى مع مايستلزمه مقام النبوة والرسالة من الابتعاد عن مواطن الشبهات ، والابتعاد هنا لا يتصور إلا بمبارحة المكان فوراً حتى لا يتورط فيما يجره عليه البقاء من السوء والفحشاء .

وجه الاعجاز فى ارتباط البرهان بالاستباق إلى الباب :

من الإعجاز القرآنى ترتيب آية استباقهما الباب على آية الهم والبرهان : فلو كان البرهان خاصا بالكف عن ارتكاب الفاحشة لما كان لاستباقهما المفاجىء أى معنى ، ولكن الاستباق الفجائى جاء دليلا قاطعا على أن البرهان كان آية علم منها عليه السلام وجوب مغادرة المكان فوراً . ولذا نجده عليه السلام يتحول فجأة من الهم بتأديبها إلى المبادرة بمبارحة المكان بأسرع ما يمكن .

وعلى قول الذين قالوا إن البرهان كان زاجراً له عليه السلام عن ارتكاب الفحشاء لا يلزم منه استباق الباب من الطرفين ، إذ أن الأمتثال لهذا الزجر يتم بانصرافه عليه السلام عن الفاحشة مع مكثه فى مكانه .

وكذلك يقال عن كون البرهان زاجراً زجره عليه السلام عن ضربها ، فانه لا يترتب عليه مبارحة المكان أيضا .

وجميع ذلك يترتب عليه عدم صرف السوء والفحشاء عنه على السلام : إذ ستتمكن المرأة من مهاجمته ، فيناله حينئذ من الأذى والإذلال ما لا يليق بمرتبة نبى مرسل ، وفى نفس الوقت يلطخ اسمه بالعار والجريمة لتعذر قيام أدلة البراءة .

فاستباقهما الباب معا بعد رؤيته عليه السلام للبرهان دل على أن الهم كان متعلقا بالتأديب من الطرفين ، كما دل على أن رؤية البرهان كانت آية علم منها عليه السلام أن نجاته متوقفة على مغادرة المكان فورا ، ولما كانت هى فى وضع المتحفز للهجوم ، فقد استبقا الباب على هيئة المطاردة .

كذلك لنصرف عنه السوء[1] والفحشاء[2]

قالوا (السوء هو ما كان هم به من أذاها وهو غير الفحشاء)[3] .

وقال الإمام أبو بكر بن العربى (هو المراودة والمغازلة فما ألم بشىء ولا أتى بفاحشة)[4] .

قلت :

السوء هو الصغار والإذلال والإيذاء الذى يناله لو ضبط فى مخدع امرأة العزيز وهو يضر بها ، ومما يضاعف الأذى الذى سيناله : إن الجميع يعلمون يد العزيز عليـــه ، وشدة إكرامه له ، وحبه إياه فلا جرم ن كانت القسوة فى المعاملة على قدر الخيانة .

وصرف الفحشاء ، بصرف كل ما يلصق هذه التهمة البشعة به عليه السلام تهمة محاولة ارتكاب الفاحشة ، والفحشاء هنا محددة بالقرينة الدالة عليها .

فلولا البرهان لتضافرت جميع الأدلة التى تجلب كل سوء وتلصق أخبث الفواحش ، بمن اختصه الله تعالى بمحبته واصطفاه لرسالته تعالى .

---

(١) قال فى الـكشاف : السوء : القبح . والسوء لغة هو مايـكره من الأمور والأحوال . وجاء السوء مقترنا بالفاحشة فى موضعين فى القرآن العظيم وهو يسبقها ترتيبا ، وذلك فى هـذه الآية وفى قوله تعالى (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) الآية ١٦٩ من السورة التى ذكرت فيها البقرة .

(٢) قال فى الـكشاف : الفحشاء مايتجاوز الحد فى القبح .
والفحش ماعظم قبحه شرعا من الأفعال والأقوال ، وجاءت الفحشاء مقترنة بالمنـكر فى ثلاثة مواضع فى القرآن الـكريم والفحشاء تسبق المنـكر ترتيبا وهذه المواضع هى :
١٦ سورة النحل : ٩٠ / ٢٤ سورة النور : ٢١ / ٢٩ سورة العنكبوت الآية : ٤٥

(٣) الإمام الطبرى : جامع البيان جـ ١٢ ص ١١٠ .

(٤) الإمام أبو بكر بن العربى : أحكام القرآن . القسم الثالث : ص ١٠٧٠ .

ومن وجوه الاعجاز فى قوله تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) :

• إن تقديم السوء على الفحشاء دلالة على أن الهم لم يتعلق بالفاحشة مطلقا فلو بدر منه عليه السلام أى هم بفاحشة لكان المطابق لذلك أن يقال (لنصرفه عن الفحشاء ، ونصرف عنه السوء) .

• كذلك يدل هذا التقديم على أن الفحشاء لم تدر بخلده عليه السلام ، وإلا لكان الترتيب يقتضى الإبتداء بصرف ما هو موجود فى نفسه فعلا ، ثم صرف ما سيحدث بعد ذلك .

• الإبتداء بصرف السوء وهو قطعاً خارج عنه دليل على صرف الفحشاء وهى خارجة عنه وليست بصادرة منه .

فيكون المعنى حينئذ لنصرف عنه ما يترتب على وجوده معها من الأذى والضرب أو القتل كما نصرف عنه الاتهام بالفحشاء المترتب على الوجود فى موطن الريبة .

فما صرف تعالى عنه السوء إلا لبراءته من أى هم بمعصية ، وما صرف تعالى عنه الاتهام بالفاحشة إلا لكمال امتناعه عنها واستعاذته الكاملة بالله تعالى مما تريده منه .

وقد احتج الفخر الرازى بهذا النص من الآية الكريمة على فساد قول من زعم أنه عليه السلام قد هم بما لا يليق بمكانته وعقب على ذلك بأن (هذه المعصية التى نسبوها إلى يوسف — وحاشاه — من أقبح المعاصى وأنكرها ، وفعلها لو نسب إلى أفسق خلق الله تعالى وأبعدهم عن كل خير لاستنكف منه ، فكيف يجوز إسناده إلى هذا الصديق الكريم) .

(وأيضا إن الله سبحانه شهد بكون ماهية السوء وماهية الفحشاء مصروفتين عنه ، ومع هذه الشهادة : كيف يقبل القول بنسبة أعظم السوء والفحشاء إليه عليه السلام) .

(وأيضا إن هذا الهم القبيح لو كان واقعا منه عليه السلام كما زعموا وكانت الآية متضمنة له لكان تعقيب ذلك بقوله تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء

والفحشاء) خارجا عن الحكمة . لأنا لو سلمنا أنه لا يدل على نفى المعصية ، فلا أقل من أن يدل على المدح العظيم ، ومن المعلوم أنه لا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكى إقدامه على معصية عظيمة ، ثم إنه يمدحه ويثنى عليه بأعظم المدائح والأثنية) .

(وأيضا إن الأكابر كالأنبياء متى صدرت عنهم زلة أو هفوة استعظموا ذلك وأتبعوه بإظهار الندامة والتوبة ، والتخضع والتنصل ، فلو كان يوسف عليه السلام ، أقدم على هذه الفاحشة المنكرة ، لكان من المحال ألا يتبعها بذلك ولو كان اتبعها لحكى) ولكننا ما علمنا أنه قد صدر عنه فى هذه الواقعة ذنب أصلا ولذا قال تعالى فى ختام الآية « إنه من عبادنا المخلصين » .

قال أبو السعود[1] عند تأويل قوله تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) وفيه آية بينة وحجة قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه هم بالمعصية ولا توجه إليها وإلا لقيل لنصرف عنه السوء والفحشاء[2] وأنما توجه إليه ذلك من خارج فصدقه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة والعصمة) .

إنه من عبادنا المخلصين :

شهادة إثر شهادة من الذى يعلم السر وما تخفى الصدور بأن يوسف عليه السلام متصف بصفة لا تكون إلا لمن اجتباهم الله تعالى واصطفاهم .

فإن المخلص لله تعالى قد ذاق من حلاوة عبوديته له تبارك وتعالى ما يمنعه من العبودية لغيره عز وجل، وخالطه من محبته تعالى ما يحول دون محبته للسوى فما أحب شيئاً إلا بحبه لله سبحانه وليس أحلى على القلب ولا أطيب من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته الخالصة لله تعالى وذلك يقتضى الصدق فى التوكل على الخالق والتوجه الكلى إليه جل وعز فى جميع الشئون مع كمال المحبة والخشية والتعظيم .

---

(١) أبو السعود : ارشاد العقل السليم ج ١ ص ٧١٢ .
(٢) الأولى أن يقال عن الفحشاء والسوء. لو كان هناك هم بفاحشة ولكنه لم يكن.

فإذا أخلص العبد لله تعالى اجتباه ربه فأحيا قلبه ، واجتذبه إليه ، وصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء .

بخلاف القلب الذى لم يخلص لله تعالى فإنه يتشبث بما يهواه ، ويهوى ما يسنح له ، فتارة تجذبه الصور المحرمة ، وتارة تأسره الصور غير المحرمة ، فيبقى أسيرا وعبداً لمن لو اتخذه هو عبدا لكان ذلك نقصا وعيبا وذما - فتارة يعبد الرياسة وتارة يستعبده من يثنى عليه ولو بالباطل ، وتارة يستعبده الدينار والدرهم ، وغير ذلك من الأمور التى تستهوى قلوب الدنيويين فتستعبدهم لها ويصبح إله هؤلاء هو الهوى .

فمن لم يعبد الله استعبدته الكائنات ووقع به من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله وهذا أمر ضرورى لا حيلة فيه ، ولا خلاص من هذا الهلاك إلا بإخلاص الدين لله تعالى .

وقد جاءت هذه الشهادة (إنه من عبادنا المخلصين) قبل آية الاستباق نحو الباب ومواجهة العزيز لتؤسس فى النفوس براءته عليه السلام من أى شىء ينسب إليه .

وهذه سنة الله تعالى مع رسله صلوات الله وسلامه عليهم ، يتولى سبحانه حفظهم ودفع السوء عنهم ، مع الثناء عليهم ، وتكرار الثناء من الله تعالى على يوسف عليه السلام قبل آيات المراودة والهم والاستباق ، جاء عناية به عليه السلام ، مما يدفع كل شبهة قد تخطر للإنسان بالنسبة إليه صلوات الله وسلامه عليه وهذا من الإعجاز القرآنى المبين .

إذ لم تتخبط الأقلام مثلما تخبطت فيما مر به عليه السلام من المحن ، وخاصة مع امرأة العزيز ، التى مالت الأقلام فيها إلى تقرير معان مركوزة فى النفوس ، — لا إلى بيان المعنى المراد — وصاحب هذا الميل لا يهتدى إلى الصواب ، بل يتخبط فى خطأ يجره إلى خطأ دون شعور منه ، ومع تبرير الأخطاء ودعمها بأخطاء أخرى ، يوغل صاحبها فى الابتعاد عن المعنى الحقيقى ، كما يوغل فى التعارض مع النص الصريح .

ولعمرى إن ما كتب فى تأويل هذه الآيات مخالفا لما ذكرناه يتناقض مع صريح آى الذكر الحكيم، ومع عصمة الأنبياء المقررة فى أصول الدين، وليت هؤلاء الذين تخبطوا فى حق رسول كريم ما كتبوا فى ذلك شيئا ولا فسروا ولا أولوا وكفونا شرهم .

قال الفخر الرازى[1] :

قال القاضى أبو طاهر الطوسى رحمه الله تعالى :

شهد ببراءة يوسف من الذنب كل من له تعلق بتلك الوقعة من زوج وحاكم ونسوة وملك ، وادعى يوسف ذلك ، واعترف له خصمه بصدق ماقاله مرتين وشهد بذلك رب العالمين الذى هو أصدق القائلين . . .

أما شهادة الزوج فقوله تعالى (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم)[2] .

(يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين٢٩)

وأما شهادة الحاكم فقوله :

(وشهد شاهد من أهلها إن كان قيصه قد من دبر)[3] .

وأما شهادة النسوة فقولهن (حاش لله ما علمنا عليه من سوء)[4] .

وأما شهادة الملك فقوله (إنك اليوم لدينا مكين أمين)[5] .

وأما يوسف فصرح بقوله ﴿ هى راودتنى عن نفسى ﴾[6] .

﴿ رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه ﴾[7] .

---

(١) الفخر الرازى : عصمة الأنبياء ص ٤٩ .

* * جميع الآيات التى استشهد بها من سورة يوسف عليه السلام .

(٢) من الآية : ٢٨ .

(٣) من الآية : ٢٦ .

(٤) من الآية : ٥١ .

(٥) من الآية : ٥٤ .

(٦) من الآية : ٢٦ .

(٧) من الآية : ٣٣ .

(وأما اعتراف الخصم فقولها ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾[١].
وقولها ﴿ الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسى ﴾[٢] .
(وأما شهادة رب العالمين فقوله ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾[٣]
فأية شبهة تبقى مع هذه الشهادات فى براءته عليه السلام ! ! ؟

قلت :

يكفيه عليه السلام ما نزل بشأنه من آى الذكر الحكيم تتدفق أنواره مفصلة ومبينة شريف منزلته ورفيع مكانته التى تطأطىء لها رقاب المكابرين الذين ينسبون إلى هذا الجناب مالايليق والحمد لله تعالى الذى هدانا إلى رفع كل إشكال ولده سوء الفهم لا التعارض بين العقل الحكيم والنقل الصحيح إذ لاتعارض لو وجد النظر السليم .

---

(١) من الآية : ٣٢ .
(٢) من الآية : ٥١ .
(٣) من الآية : ٢٤ .

« قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى
إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن
وأكن من الجاهلين - ٣٣ - فاستجاب له
ربه فصرف عنه كيدهن. إنه هو السميع
العليم - ٣٤ - »

الباب الثالث

يوسف عليه السلام فى السجن

«ثم بدا لهم من بعد مارأوا
الآيات ليسجننه حتى حين — ٣٥»

الفصل الأول

تنفيذ ماهددت به امرأة العزيز

بين الإمام ابن القيم فى كتابه (الجواب الكافى) أضرار عشق الصور وعدد مفاسد هذا العشق فقال (ليس فى عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية ، بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف مايقدر فيه من المصلحة وذلك من وجوه)[١] :

ونلخص فيما يلى هذه الوجوه التى ذكرها ابن القيم مع إضافة وجوه أخرى إليها فنقول :

أحدها : الاشتغال بذكر المخلوق وحبه عن حب الرب تعالى وذكره فلا يجتمع فى القلب هذا وهذا إلا ويقهر أحدهما صاحبه ويكون السلطان والغلبة للأقوى .

الثانى : من أحب شيئا غير الله تعالى عذب به ولا بد، ولذا كان من صريح الإيمان الحب فى الله والموالاة فى الله تعالى .

الثالث : أن قلب العاشق يصبح فى قبضة معشوقه يسومه الهوان كيف شاء ، والعاشق لسكرة العشق لا يشعر بمصابه .

الرابع : العشق يشغل صاحبه عن مصالح دينه ودنياه ، فلا أضيع لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور :

---

(١) الإمام الحافظ شمس الدين بن القيم . الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى ص ٢٤٥ : ٢٤٨ .

أما مصالح الدين فإنها متوطنة باقبال القلب وجمعه على الله تعالى ، وعشق الصور أعظم شيء تشعيبا وتشتيتا للقلب .

وأما مصالح الدنيا فهي تابعة في الحقيقة لقوة التعلق بالله تعالى فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه ، فمصالح دنياه أضيع .

الخامس : إن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى عشاق الصور من النار في يابس الحطب ، وسبب ذلك أن القلب كلما قرب من العشق وقوى اتصاله به بعد عن الله تعالى ، وإذا بعد القلب عن الله تعالى طرقته الآفات من كل ناحية وتولته الشياطين واستولت عليه ولم يدع شيطان أذى يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله .

السادس : أن عشق الصورة إذا تمكن من القلب واستحكم وقوى سلطانه: أفسد العقل وولد الوساوس وربما التحق صاحبه بالمجانين الذين لا يرجى صلاح حالهم .

السابع : عشق الصورة إذا صادف عدم الاستجابة من المعشوق أدى إلى فساد الحواس وغالبا ماينتهي إلى الموت في أبشع صورة .

كذلك يؤدي إلى الفساد المعنوي فالعاشق لا يسمع ولا يبصر ولا يرى ولا يشعر إلا بما له صلة بمعشوقه ، فيرى كل شيء بمنظاره مهما كانت النتائج ، ولا عبرة عنده بالحقائق ، ولو انقشعت عنه الغشاوة لرأى الأمور عكس ما كان يراها :

هويتك إذ عيني عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

الثامن : إذا استولى عشق الصورة على القلب اشتغلت النفس بالخواطر المتصلة بالصورة فتتعطل القوى الإنسانية ويحدث بتعطلها من الآفات البدنية والنفسية ما يتعذر علاجه .

التاسع : إن إعلان عشق من لا يحل الاتصال به فيه أشد الظلم له ولأهله

فهو يفضى إلى سفك الدماء وارتكاب الجرائم وهتك الأعراض ...

العاشر : غالبا ماينتهى عشق الصورة إلى قتل المعشوق إذا لم يكن هناك تجاوب فى العواطف .

الحادى عشر : إن العاشق يتنازل عن حريته ويعرض نفسه لجميع أنواع الظلم والأذى ، إذا أراد المعشوق ذلك واستغله وسخره لنيل أغراضه وأطماعه، وحينئذ لايترددلإرضاء معشوقه فى ارتكاب جرائم القتل، والسرقة، والغصب والخيانة ، ومقاطعة الأهل والأصدقاء الخ ... فتكون حياته جحيما لا يطاق دون شعور منه .

الثانى عشر : قد ينتهى عشق الصورة إلى الكفر الصريح والخروج من الدين الحق ، إذا ما استولى العشق على القلب استيلاء تاما يقطع عن الخالق سبحانه نهائيا .

وعشق الصورة ماهو إلا فرع من فروع التعلق بالدنيا ، فمن كان حبه للدنيا وتعلقه بها بأية صورة انقطع عن الله تعالى .

ولا عاصم من ذلك كله سوى التعلق بالله سبحانه تعلقا لايزحزحه أى تعلق دنيوى كائنا ما كان ، ولا يتحقق هذا التعلق إلا بالاقتداء بالأنبياء ، والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم ، والتمسك بهديهم وما أنزل عليهم .

ولقد تورطت امرأة العزيز وصويحباتها فى عشق صورته عليه السلام ، وازداد الموقف خطورة بعد المجلس الذى أعدته امرأة العزيز لتكيد لمن كادن لها ، ووجد بين نسوة المدينة منافسات لامرأة العزيز يحاولن ماحاولته وتحاوله .

عن على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما قال (إنهن كن يرسلن إليه يواعدنه سرا يسألنه زيارتهن) .

ولكن امرأةالعزيز رجحتهن جميعا لطول إقامته عليه السلام فى قصرها ، وعدم غيابه عن عينها وقد برح بها العشق إلى درجة لم تجد معها غضاضة

فى التصريح علنا أمام نسوة المدينة أنها تراود فتاها عن نفسه . وأنه يستعصم منها ، بل أعلنت جهارا أنه إن لم يرضخ لها ويستجيب لندائها ليسجنن ويكونن من الصاغرين ، ويحمل تصريحها هذا تهديدا لمن تحدثها نفسها بمنافستها على محبته . ولم يثنها عن عزمها نقد ، ولا عذل ولا تشهير بها .

أين العزيز ؟ :

نحن نجزم بأن هذه الشخصية الحكيمة الوقورة قد وافاها الأجل ، واختفت من مسرح الحوادث : إذ ما كانت امرأته لتجمع النسوة فى قصره وتعلن عن مراودتها له عليه السلام وتهدد وتتوعد إن لم يفعل ما تأمره به . وما كانت لتكشف عن حبها له عليه السلام جهارا نهارا حتى أصبح حديث القصور ، ما كانت لتفعل ذلك إلا بعد وفاة سيدها الذى كان يثق فى يوسف عليه السلام ثقة لا يرتقى إليها الشك فى أمانته وإخلاصه وطهارته ونقائه عليه السلام ، ولكن جماله اليوسفى المقترن برجولته الكاملة قد ملك من سطع نوره عليه منهم دون أن يدرى أنه أمام جمال النبوة وجلال الرسالة وبهائها وكأنه عليه السلام يجذبهم بهذه المغناطيسية إليه ليقودهم إلى حب الله تعالى ولكنهم لا يشعرون .

روعة موقفه عليه السلام :

الأنبياء منزهون عن عشق الصور ، وحب الدنيا ، ومن لم يفهم ذلك فما أدرك من قدر النبوة شيئا .

هاهو الجمال النسائى يعرض عليه كما لم يعرض على رجل ، وحسان عصرهن يركعن عند أقدامه صاغرات ، قد جئن ومعهن السلطان والنفوذ ، والجاه والمال والنعيم الدنيوى ، وكل ما يتمناه أهل الدنيا .

فماذا كان موقف هذا النبى الكريم؟ لنفسح الطريق أمام الإمام ابن القيم (١) ليوضح لنا الموقف بقلمه السيال إذ يقول :

(١) ابن القيم : الجواب الكافى ص ٢٤١ : ٢٤٢ .

(ان الذى ابتلى به أى « يوسف عليه السلام » أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله عليه وكان الداعى ها هنا فى غاية القوة لوجوه :

احدها : ماركب الله سبحانه فى طبع الرجل من ميله إلى المرأة، كما يميل العطشان إلى المـاء، والجائع الى الطعام ... وهذا لا يذم، إذا صادف حلالا، بل يحمد كما فى كتاب الزهد للإمام أحمد .

الثانى : أن يوسف عليه السلام كان شاباً وشهوة الشباب وحدته أقوى .

الثالث : أنه كان عزبا لا زوجة له ولا سرية تكسر حدة الشهوة .

الرابع : إنه كان فى بلاد غربة لا يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما يتأتى لغيره فى وطنه وأهله ومعارفه .

الخامس : ان المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث ان كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى موافقتها .

السادس : إنها غير آبية ولا ممتنعة، فإن كثيراً من الناس يزيل رغبته فى المرأة إباؤها وامتناعها، لما يجد فى نفسه من ذل النفس والخضوع والسؤال لها، وكثيراً من الناس يزيده الإباء والامتناع حبا ورغبة ... فطباع الناس مختلفة فى ذلك : فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة نفسها ورغبتها، وتضمحل عند إبائها وامتناعها . . . ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع، ويشتد شوقه بكل مامنع .

السابع : أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد ؛ فكفته مؤنة الطلب، وذل الرغبة إليها، بل كانت هى الراغبة الذليلة ؛ وهو العزيز المرغوب اليه .

الثامن : انه فى دارها وتحت سلطانها وقهرها ، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له، فاجتمع داعى الرغبة والرهبة .

التاسع : إنه لا يخشى ان تنم عليه هى، ولا أحد من جهتها، فإنها الطالبة والراغبة، وقد غلقت الأبواب وغيبت الرقباء .

العاشر : أنه كان مملوكاً لها فى الدار ، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه ، وكان الأمن سابقاً على الطلب وهو من أقوى الدواعى ..

الحادى عشر : أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال ، فأرته إياهن وشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه ، فإستعان هو بالله عليهن .

الثانى عشر : انها توعدته بالسجن والصغار ، وهذا نوع إكراه ، إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ما هدد به ، فيجتمع داعى الشهوة ، وداعى حب السلامة من ضيق السجن والصغار .

ومع هذه الدواعى كلها فقد آثر مرضاة الله تعالى وخوفه ، وحمله حبه لله تعالى على أن اختار السجن على الزنى) .

(قال رب السجن أحب الى مما يدعوننى إليه) من الآية ٣٣

التنبيه إلى مافى هذا الجزء من الآية من وجوه الاعجاز :

• السجن إذا وفر دواعى مرضاته تعالى كان أفضل من مجتمع لايوفرها:

السجن عقوبة تمقتها النفس وتزدريها ، وتنفر منها ، لما فيه من سلب لأحب حقوق الإنسان إليه وأشرفها لديه واكرامها عنده ألا وهو الحريه.. حتى قال أحد فلاسفة اليونان لأن أعيش حراً متسولا ، أحب إلى من أن أعيش فى القصور أتمتع بجميع ملذات الحياة وأنا مسلوب الحرية .

• إن هذا يقرب إلينا المعنى الذى من أجله أحب يوسف عليه السلام السجن على حياة الرفاهية التى كانت تفرض عليه مع الفارق الشاسع بين مقصد الفيلسوف وبين نبى مرسل .

• انه عليه السلام يضرب للانسانية أينما وجدت أكرم الأمثال للمحافظة على طهارة الحياة وصفائها ونقائها ، وإختيار الأساليب التى توفر أسباب هذا الصفاء وذلك النقاء

فالمجتمع إذا بلغ مرحلة من الفساد لا تمكن من الدعوة إلى الله تعالى؛ ولا تترك للمؤمن القدرة على التمسك بالعروة الوثقى، وساد هذا المجتمع شح مطاع، وهوى

متبع ، وحب لذة عاجلة ، وتحكم الأراذل فى الأمور وسد أهل الشر طرائق الخير ، وكان السجن يوفر أسباب الكمال والدعوة إليه ، أكثر مما يوفره هذا المجتمع : كان السجن فى هذه الحالة أفضل من هذا المجتمع مهما وفر للإنسان من دواعى الترف والملذات : فمدار الحياة الكريمة إذن لا على توفير أسباب الانقطاع عن الله تعالى من شهوات وشئون دنيوية بل المدار على توفير أسباب مرضاته تعالى وتأمينها ، فتدور الحياة الكريمة معها حيث دارت .

ولذا نجده عليه السلام يبدأ الدعوة الى الله تعالى بعد دخوله السجن . هذا من الناحية العامة ...

أما من الناحية الخاصة، فقد كان السجن هو الحل الوحيد لصرف الأسباب الحائلة دون تبليغ الدعوة ممثلة فى كيد النسوة ومكرهن، للاعتبارات الآتية : —

• ان المشاكل النسائية أصبحت تتفاقم وتتعدد محاورها وتلاحقه عليه السلام فى كل عمل يؤديه ، ولما كانت هذه الأمور لا يمكن الاحتراز أو التخلص منها ، ومن المحال ضبطها ، ولما كانت تصرفاتهن مثيرة لسخط الرجال لما فيها من المساس بكرامتهم ، فانهن ولا شك سيورطنه عليه السلام فى عداء مستحكم مع رجال البلاط ، وكبار رجال الدولة ، مع طهارته وبراءته من كل هذه المناورات .

• ان النسوة من طبيعتهن ـ ان لم يستجب لهن ـ أنهن يتجهن إلى تلفيق اتهامات قد تمس العرض ويكدن له عليه السلام ماشئن من الكيد انتقاماً منه ، غير عابئات بالنتائج كما هى عادتهن .

• لما كن من الطبقة الاجتماعية الممتازة كان لديهن من الفراغ مايتسع لحبك هذه المؤمرات وتدبير تلك الدسائس .

• ان وقته عليه السلام سيتبدد وجهده سيضيع لا فى الدعوة الى الله تعالى بل

---

١ — وفى قراءة (السجن) بفتح السين المشدده بعدها جيم ساكنة على أنه مصدر ، وهو أعم من السجن بكسر السين .

للتخلص من مؤامرتهن التى تستدعى كل مؤامره منها الى اثبات البراءة منها .

• ان تصرفاتهن المنحرفة تكون سبباً فى إثارة الخلاف والخصام فى الأسر والعائلات ولا يحسمها سوى السجن لتعذر وصولهن إليه وتعقبهن له عليه السلام وبذلك تبطل مكائدهن التى لا تنتهى كما هددنه .

• إنه إذ صرح بتفضيل(١) السجن على مايعرضنه عليه من حياة تزول فيها

---

(١) فى الفتاوى الحديثية أن الامام ابن حجر الهيتمى سئل عن قوله تعالى (قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه) يقتضى ثبوت محبة الزنا ، وهو غير جائز على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم !

فأجاب رحمه الله تعالى بقوله :

[أشار البيضاوى إلى جواب ذلك بأن الزنا مما تشتهيه النفس طبعا !! ولا مؤاخذة فيه (يعنى فى الاشتهاء) والسجن مما تكرهه كذلك ، ومع ذلك فآثره عليه . وقيل لما سبق منها الوعيد إن لم يفعل كان إكراها . وقد يكون شرعهم يبيح الزنا ! ، فأصل الحب إنما ثبت لمباح . أو أن ذلك قبل النبوة ، أخذا من رسالة الزركشى فى قوله تعالى (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما) ـ

[وعندى فى جميع ذلك وقفة : أما فى الأول فلأن نفوس الأنبياء مطهرة عن جميع الخبائث الطبيعية والعارضة ولو قال البيضاوى أن حب الوطء ـ مع قطع النظر عن كونه زنا ـ طبيعى لكان أولى ، وإلا فالإشكال باق .

[وأما فى الثانى فلان التحقيق أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من جميع الكبائر والصغائر قبل النبوة وبعدها .

[والذى يتجه لى أنه إنما أتى بصيغة أفعل على ما ذكر تواضعا وإظهارا ـ فى مقام الذلة والخضوع ـ لعيوبه ، حذرا من تزكية نفسه فى مقام الخطاب] اهـ . من الفتاوى الحديثية ص ١٧٥ .

قلت :

إن ما نقله الهيتمى من كلام الامام البيضاوى فى منتهى الشذوذ والغرابة وهو كلام لا وزن له ، إذ أن النفوس الطاهرة لا تشتهى الزنا أبدا . وأما الاحتجاج بأن زمان حدوث ذلك كان قبل النبوة فليس ذلك بتأويل وإنما هو سبيل للهرب عند العجز عن التأويل . ورد ابن حجر الهيتمى عليه ليس بشىء . =

كل الموانع الحائلة دون التمتع بمفاتنهن إنما يقدم إليهن صفعة مؤلمة لاحتقاره لهن وعدم التفاته إليهن وتفضيل حياة السجون على مجاورتهن .

قال بعض المفسرين إنهن دعونه إلى طاعة امرأة العزيز وتمكينها من رغبتها فيه ، وقال آخرون : إنهن دعونه إلى مثل ما دعته امرأة العزيز . والدلائل تدل على أن الأمرين قد حدثا .

• فى تصريحه عليه السلام بتفضيل السجن إعلان بعدم الاكتراث بتهديدات امرأة العزيز وغيرها إن لم يرضخ لهن .

• إن السجن يقطع عليهن حبال الرجاء التى يتعلقن بها لتوصلهن إلى ما يردن ، فييأسن من نيل مرامهن .

• إن مرتبة النبوة والرسالة يجب أن تبقى بمنأى عن التعرض للريب والظنون والمشاكل التى لا تنتهى إلا بفضائح يندى لها الجبين .

• من وجوه الإعجاز تحديد ماوقع عليه التفضيل وهو (مما يدعوننى إليه) وما دعونه إلا إلى الدنيا وزينتها ولم يقل « أحب إلى منهن » فالسجن لا يكون أحب إلى الرجال من النساء قطعاً .

• إن لفظ (أحب[1]) هنا يعطى أنه عليه السلام لم يحب السجن لذاته ،

= والصواب : إنه عليه السلام قد أصبح أمام أمرين : إما أن يواصل حياته كما كان وسط هذه المروادات والمؤامرات ، وإن لم يفعل ذلك فليس أمامه سوى السجن ليتخلص من مكرهن نهائيا .

ولما كان السجن فى الوقت الراهن هو السبيل الوحيد لصرف القواطع عن الدعوة إلى الله تعالى أصبح السجن أحب إليه عليه السلام من حياة القصور ورغد العيش ومتاع الدنيا وملذاتها التى ستقدم مشوبة بالشبهات مقترنة بالمراودات ، وهى حياة يتناقض الرضا بها مع محبة تعالى الذى لا نعيم سواه فى الوجود وتفضيل السجن على مثل هذه الحياة ليس فيه اشكال يحتاج إلى جواب .

(١) أفعل التفضيل (احب) جاء فى القرآن الكريم فى ثلاثة مواضع : اثنان فى سورة يوسف (ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا) من الآية ٨ ـ وهذه الآية ، والموضع الثالث فى سورة التوبة : =

بل أحبه سعياً فى مرضاة الله تعالى والدعوة إليه عز وجل وهداية الخلق إلى الصراط المستقيم .

. إنه عليه السلام ما دعا على نفسه بالسجن - ودعاء الأنبياء مستجاب - فلو دعا بهذه الدعوة على نفسه لفهم من ذلك أنه عليه السلام ما طلب ذلك إلا لخوفه من الفتنة والإغراء والوقوع فى الفاحشة . وهذا ما لم يقصده عليه السلام بدعائه، بدليل أنه عليه السلام لم يكترث بزعيمة الفتنة ولم يلق إليها بالا وأحبط بمعونة الله تعالى كل ما دبرته .

. جاء بأفعل التفضيل أدبا مع الله تعالى فلم يجزم بطلب السجن كوسيلة وحيدة لصرف كيدهن عنه عليه السلام ، ولو فعل ذلك لوكل إلى ما اتكل عليه وفى هذه الحالة كان ولا بد من وصول كيدهن إليه عليه السلام لاتكاله فى النجاة من مكرهن على هـذه الوسيلة والأنبياء فى جميع شئونهم لا يتكلون إلا على الله تعالى .

فهو عليه السلام يبذل ما فى وسعه لصرفهن عنه ولو كان ذلك عن طريق السجن الذى يذكره على أنه أحب إليه من هذه الحياة الرخيصة التى ضيقت عليه سبل الدعوة إلى الله تعالى بانشغاله برد مكرهن .

. ظهر من ذلك إعراضه الكامل عليه السلام عن الدنيا وزخرفها وقد عرضت عليه كاملة غير منقوصة دون أن يكلفه ذلك شيئا وهذا مظهر من مظاهر إعراضه التام عليه السلام عما يقطع عن الله تعالى وعدم الالتفات إليه كائنا ما كان .

. يؤخذ من ذلك شدة حرصه عليه السلام على المحافظة على الأعراض عندما يفرط فيها أهلها .

= (قـل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانـكم وأزواجكم وعشيرتـكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليـكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهـدى القوم الفاسقين ٢٤) ٩ / سورة التوبة .

• التعلق الكامل بالله تعالى وحده فى مواجهة حزب الشيطان وتفضيل السجن مع الدعوة إلى الله تعالى على حياة تقطع الناس عنها .

(وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين) من الآية ٣٣

بعد تصريحه عليه السلام بأن السجن أحب إليه من حياة كلها مكر نسائى محتاج إلى مكر مقابل محبط لأثره لضمان السلامة من شره ويكون الممكور به على خطر عظيم ، فوض عليه السلام أمره إلى الله تعالى ليصرف عنه مكرهن ويحول بينه وبينهن ويكفهن عنه .

وهو عليه السلام فى ذلك ينزل جميع شئونه بالله تعالى شأن جميع المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم يفزعون إليه تعالى فى كل ما ينزل بهم ليساعفهم بألطافه جريا على سنته تعالى مع عباده المخلصين الذين يلجأون فى كل ضيق إليه تعالى فيفرج عنهم ما نزل بهم . فهو يحاربهن بالله تعالى لا بتدبيره الشخصى ومن لم يتمسك بهذا الهدى كان من الجاهلين الذين لا يعملون بما يعلمون ، لأن من لا جدوى لعلمه فهو والجاهل سواء ومن شأن أمثال هؤلاء التعلق بالشهوات وخاصة النساء .

(فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم — ٣٤)

لقد صرف الله تعالى عنه عليه السلام فى المرة الأولى السوء والفحشاء حين همت به وهم بها ، وفى هذه المرة صرف عنه عليه السلام ما يدبر له عليه السلام من الكيد لإخضاعه لهن .

(ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين — ٣٥)

وهذا من العزة الإلهية التى تجبر الظالم على أن يدبر بنفسه ما يهلكه وما يفسد أمره ، فقمن بأنفسهن باختيار ما يصرف كيدهن عنه عليه السلام حيث دبرن له السجن .

وضمير الجماعة فى (لهم) يشمل فئة يعنيها الأمر ، وهى فئة قادرة بيدها

الحل والعقد ، لكونها تمثل علية القوم ، وهؤلاء بالرغم مما رأوه من الأدلة القاطعة والآيات الباهرة الشاهدة ببراءته عليه السلام جعلوا يقلبون أمره عليه السلام بينهم حتى انتهوا إلى الاتفاق على الزج به عليه السلام فى السجن ، ولاشك فى أن النسوة كانت لهن اليد الطولى فى هذا الاختيار، لقد كان إنه أول شىء هددته به امرأة العزيز .

يقول الزمخشرى :

(وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها وفتلها منه فى الذروة والغارب[1] ، وكان مطواعة لها ، وجملا ذلولا ، زمامه فى يدها ، حتى أنساه ما عاين من الآيات ، وعمل برأيها فى سجنه ، لإلحاق الصغار به كما أوعدته . . وطمعت فى أن يذلله السجن ويسخره لها) .

ويرد على ذلك بأن الدلائل تدل على أن العزيز قد توفى ، والحوادث تجزم بذلك وما كان لامرأة فى مكانتها أن تعلن أنها تعشق غير زوجها مالم يكن زوجها قد توفى ، خاصة وأنها امرأة لها حيثيتها ، بل لا نتعدى الحقيقة إن قلنا أنها من نساء البلاط الملكى ، كما يدل عليه تدخل الملك نفسه فى القضية واستدعاؤه للنسوة ومن بينهن امرأة العزيز .

ولم تكن امرأة العزيز وحدها فى البداية بل كانت هناك نسوة وأميرات ينافسنها فى هذا الميدان ، وقد ظهرت آيات تبين مكانته عليه السلام عند الله تعالى ، مما جعلهم يفكرون كثيراً فى طريقة معاملته عليه السلام ، فلم تكن أمامهم من طريقة سوى سجنه فتحققت دعوته التى دعاها ، وكان ذلك آية أخرى من آياته (قال السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه) .

والواقع أنهم كانوا يقصدون من سجنه عليه السلام أمورا منها :

ـ حسم الكلام فى الموضوع حتى لا تتناقله الأخبار وتلوكه الألسنة ويصبح

---

(١) وفتلها منه فى الذروة والغارب : مثل يضرب لمن يتلطف فى خداع غيره حتى يتمكن من تذليله وقياده .

حديث القوم ، بعد أن ثبت للرجال أن النسوة لا يكففن عن مطاردته عليه السلام .

ـ حماية سمعة الرجال أمام الناس، وليقع فى روع من خفيت عليهم الأمور أنهم ماسجنوه الا لمعاقبته على شيء صدر منه ، تغطية الموقف .

كما نوا يعلمون تمام العلم براءة ساحته عليه السلام ، ولذا نجدهم لا يوجهون إليه عليه السلام أى لوم أو تثريب ولم يكن سجنه[1] بناء على حكم قضائى ولكنهم (بدالهم) ذلك. ولذلك جعلوا مدة السجن (حتى حين) فهى مفتوحه غير مقرره : ولو كان حكما قضائيا لتحددت مدة السجن .

والحين عند بعض المفسرين خمس سنوات وعند غيرهم سبع سنوات والصحيح أن الحين وقت من الزمان غير محدد .

ويذكر المقريزى فى الخطط[2] أنه عليه السلام قد سجن ببوصير من عمل الجيزة ، وقال (ان فى هذا المكان أثر نبيين أحدهما يوسف وقد سجن فيه سبع سنين ، وكان الوحى ينزل عليه ، والآخر موسى عليه السلام ، وقد بنى على أثره مسجد هناك يعرف بمسجد موسى) ويعقب على ذلك بقوله (وسطح السجن موضع معروف بإجابة الدعاء)

---

(١) فى تقدير عمره عليه السلام يوم سجن خلاف . قال المطهر بن طاهر (وطرح يوسف فى الجب وهو ابن سبع سنين وحبس وهو ابن خمس عشرة سنة وأقام فى السجن بضع سنين) :

المطهر بن طاهر المقدسى : كتاب البدء والتاريخ ج ٣ ص ٦٩

وحوادث القصة تدل على غير ماقاله المطهر فهو عليه السلام حين دخل السجن كان قد تخطى العشرين عاما .

(٢) المقريزى : الخطط ج : ١ : ص ٣٨٧ ، ٣٨٨

﴿ إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ من الآية ٣٧

الفصل الثانى

تحدى عقائد المجتمع ونظمه المبنية عليها

كان عليه السلام رحمة ونورا لمن كانوا فى السجن ، يرعى ضعفاءهم ، ويواسى مشكوبيهم ، ويطيب نفوس المظلومين منهم ، مع حسن معاشرته للجميع ، ولين الجانب ، وشدة الحب والعطف عليهم ، وقد ألفوه عليه السلام إما قائما يناجى الخالق بعبارات لم تطرق معانيها الأسماع من قبل ، ولم يذوقوا مثل حلاوتها وجمالها ، أو مشغولا بشئونهم ، فكان عليه السلام موضع محبتهم وإجلالهم ، وكان مما عهدوه فيه عليه السلام القدرة الخارقة على تعبير[1] الرؤى .

---

(١) علم التعبير من العلوم الوهبية التى لا دخل للكسب فيها (ولا يدرك بالتعلم لأنه موقوف على معرفة أحوال الرائى الخارجة عن ذاته ككونه بقالا أو تاجرا أو صانعا ، وهل هو من الأغنياء أو من الفقراء .... إلى غير ذلك من الأحوال التى لا تكاد تنحصر . وعلى معرفة أحواله الباطنة من كون الروح أمدت الذات بجميع أجزائها وهى ثلاثمائة وستة وستون جزءاً ، أو ببعضها وهل هو الأكثر أو الأقل . وكيف وضع سر العقل فى الذات ، وفى أى شىء يجول فكر الرائى وخاطره : حتى لو فرضنا أن مائة رجل جاؤوا إلى العالم بهذا العلم ، وقال كل واحد منهم « إنى رأيت فى المنام أنى شربت عسلا » فإنه يعبر لكل واحد تعبيرا لا يلاقى تعبير الآخر ، لأن التعبير موقوف على ما سبق من الأحوال الظاهرة والباطنة ولا يتفق فيها اثنان من تلك المائة) ــ الابريز للحافظ أحمد بن المبارك السجلماسى ص ٩٧ .

وكان من بين المسجونين رجلان من موظفى القصر دخلا السجن معه عليه السلام ، وكان أحدهما ساقى الملك والآخر يشرف على إعداد الطعام فى القصر الملكى .

وحدث أن كلاهما رأى رؤيا أهمته، ونظرا لما بينهما من روابط الزمالة فقد حكى كل منهما لصاحبه مارآه لعله يجد عنده شيئاً من المعرفة فى التعبير ، ولما عجزا عن الوصول إلى شىء اتفقا على عرض الأمر على يوسف عليه السلام:

﴿ ودخل معه السجن فتيان[1] قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين — ٣٦ ﴾

وماوصفاه بالإحسان إلا لغلبة ظهور هذه الصفة على يوسف صلوات الله وسلامه عليه فى جميع معاملاته كما بينه جل وعز فى آية سابقة :

﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ﴾ .

(قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى • إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ـ ٣٧)

للمفسرين فى العائد الذى يعود عليه الضمير فى قوله (قبل أن يأتيكما) قولان :

(الأول) لا يأتيكما طعام ترزقانه فى منامكما إلا أخبرتكما خبره فى اليقظة فالضمير فى (قبل أن يأتيكما) يعود على تأويله أى قبل أن يأتى تأويله .

(الثانى) لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بكل ما يتعلق به من بداية

---

(١) قال القشيرى لعل الفتى كان مرادفا للعبد فى عرفهم . وقال الماوردى ان العبد عندهم يسمى (فتى) سواء أكان صغيرا أم كبيرا . ويحتمل أن يكون اسما للخادم وإن لم يكن مملوكاً . وكان الفتيان من خدم الملك يقال أنهما اندمجا فى مؤامرة بقصد خلعه وجاء فى الحديث (ولا يقل أحدكم عبدى وأمتى وليقل فتاى وفتاتى وغلامى) .

إعداده إلى وقت إحضاره أمامكما ، فالضمير يعود على الطعام أى قبل أن يأتى الطعام [وعدهما بإخبارهما بكل طعام يأتيهما قبل إتيانه بطريق الكشف بنور النبوة لأجل أن يعلما صدقه فيمتثلا دعاءه لهما إلى التوحيد . وهذه معجزة كمعجزة عيسى حيث قال ﴿ وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ﴾ من الآية ٤٩/ سورة آل عمران .][1]

قال الإمام ابن تيمية :

[والمعنى لا يأتيكما طعام ترزقانه فى المنام كما قال أحدهما (إنى أرانى أعصر خمراً) وقال الآخر (إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا) إلا نبأتكما بتأويله فى اليقظة (قبل أن يأتيكما) التأويل . هذا قول أكثر المفسرين وهو الصواب.

وقال بعضهم (لا يأتيكما طعام ترزقانه) تطعمانه وتأكلانه (إلا نبأتكما بتأويله) بتفسيره وألوانه : أى طعام أكلتم وكم أكلتم ومتى أكلتم .. فقالوا : هذا فعل العرافين والكهنة . فقال : ما أنا بكاهن وإنما ذلك العلم مما يعلمنى ربى.

وهذا القول ليس بشىء : فإنه قال (إلا نبأتكما بتأويله) . وقد قال أحدهما (إنى أرانى أعصر خمرا) وقال الآخر (إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا) وقالا (نبئنا بتأويله) فطلبا منه تأويل مارأياه . وأخبرهما بتأويل ذلك ، ولم يكن تأويله طعام فى اليقظة ، ولا فى القرآن أنه أخبرهما بما يرزقانه فى اليقظة . فكيف يقول قولا عاما (لا يأتيكما طعام ترزقانه) وهذا الإخبار العام لا يقدر عليه إلا الله ؟ والأنبياء يخبرون ببعض ذلك لا يخبرون بكل هذا ، وأيضا فصفة الطعام وقدره ليس تأويلا له ، وأيضا فالله إنما أخبر أنه علمه تأويل الرؤيا .][2]

قلت الآية صريحة فى الإنباء عن تأويل مايرزقانه من الطعام ، ولم يرد

---

(١) سماحه الشيخ حسنين محمد مخلوف : صفوة البيان : ج ١ ص : ٣٨٥ .

(٢) الامام ابن تيمية : تفسير سورة الاخلاص ص ١١٢ / ١١٣ .

مطلقا الإنباء عما سيرزقانه من الطعام ، والبون شاسـع بين معنى كل منهما فلا داعى لتأكيد الرد على معنى لم يرد . كذلك لم ينص على أنه عليه السلام قد أوتى علم تأويل الرؤيا وحده ، بل المنصوص عليه هو علم تأويل الأحاديث (ويعلمك من تأويل الأحاديث) من الاية (٦) و (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث) من الاية (١٠١) . وقد خصص الطعام دون غيره بالتأويل لأنه كان موضوع رؤيا كل منهما فالتخصيص هنا ليس للحصر ولـكنه جاء لمقتضى الحال مع دخوله فى عموم علوم تأويل الأحاديث التى أوتيها عليه السلام .

التنبيه إلى بعض ما فى الآية الـكريمة من وجوه الاعجاز :

. الإعلام بأن علوم تأويل الأحاديث من العلوم التى علمها الله تعالى له عليه السلام وهى آية من آيات النبوة ومنها علم تأويل الرؤى .

. إن الرؤى الصادقة بجميع أنواعها ترتبط ارتباطا وثيقا بحياة الإنسان ومنها ما يدل على الوقائع التى تحـدث فى المستقبل ، وقد عجز علماء التحليل النفسى عن إدراك الرؤى أو تأويلها ، ولم يعترفوا إلا بأضغاث الأحـلام الصادرة عن الجانب الحيوانى الشهوانى النفسى . واقتصرت المدرسة الفرويدية على وجه واحد من الجانب الحيوانى وهو الوجه الجنسى . وعللوا الأحلام بأنها لا تعدو أن تـكون رغبات حبيسه تنطلق عند النوم وتسترسل فى الصور الملائمة للشخص ، ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن الصحة النفسية تتطلب إشباع هذه الشهوات وعدم كبتها ما أمـكن ، وكأنهم يطلبون من الشخص أن يسلك السبيل المفضى إلى دماره فى سبيل المحافظة على صحته النفسية !!

هذا وإن تفسير هؤلاء للأحلام إنمـا يرتـكز على عقيدتهم الـكونية ونظريتهم فى تفسير الوجود التى تثبت التفسير المادى وهو تفسير يحذف أية رابطة تربط الإنسان بخالقه جل جلاله . ويهدر هذا التفسير ويكذبه كل شىء

فى الوجود من مخلوقات وذرات وعلوم معارف ، فكلها آيات دالة على بطلان هذا الدين الوضعى الدنيوى .

وبصدد مانحن فيه نقول إنه قد وجدت رؤى لا دخل لها بالشهوات ولا بالرغبات الحبيسة ولا رابطة تربطها بالجنس، وقد دل تحقيقها على ارتباطها الوثيق بالمستقبل والحوادث التى تجرى فيه زمان وقوعها، وهذه وقائع تقوض دعائم المدرسة المادية من أساسها ، ولا يمكن لهؤلاء الضالين إنكار ذلك لأنه إنكار لما يراه آحاد الناس يوميا .

• من هذا التقديم البليغ الذى قدمه عليه السلام استقر فى ذهن صاحبى السجن أن مارأياه ليس بأضغاث أحلام ، بل علما أنهما قد رأيا شيئا له خطره ، ولو كان ما رأياه أضغاث أحلام لبين عليه السلام لهما ذلك بادىء ذى بدء دون حاجة إلى مثل هذا التقديم . وفى نفس الوقت علما أنه عليه السلام على علم يقينى بتأويل مارأياه .

• لما كانت آيته الكبرى عليه السلام التى عجز الجميع - من كهنة وعلماء يرجع إليهم فى المعرفة لحل المعضلات - عن تحديه عليه السلام فيها هى تأويل رؤيا الملك : لذا نبه عليه السلام إلى أن ما اختص به من التأويل ليس هو من قبيل السحر ولا الكهانة ولا العرافة ، بل هو محض اجتباء من الله العزيز الحكيم وليس لمخلوق فيه قدم إلا من هذا الوجه (ذلكما مما علمنى ربى) ، فكان الكلام تأسيسا لما سيحدث فيما بعد عند طلب من يعبر رؤيا الملك .

• ربط عليه السلام الدعوة إلى الله تعالى بما يهتم السامع بمعرفته ، وما يدور فى خلده من الأفكار والخواطر عنه ، ليتم إقباله بكليته على الإصغاء لما يدعى إليه .. وإن ربط الدعوة بموضوع الاستفسار الذى قصداه من أجله يجعل النفس آنس للحديث وأرغب فى متابعته ، مما يهىء لقبول الدعوة والإيمان بالله تعالى ، وذلك بخلاف مايحدث لو واجه السامعين بالدعوة

كموضوع مستقل(١) لا علاقة له بأمر الاستفتاء ، فإن ذلك لا يأتى بالنتيجة المرجوة بل تكون النتيجة عكسية لدى السامعين الذين يتجهون فى هذه الحالة لا إلى الإصغاء لما يقال لهم ، بل إلى بحث أسبابه ومراميه ، وتدبر ماسيلاقونه

---

(١) ما أحوجنا إلى اقتفاء أثر الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم فى أدب الدعوة إلى الله تعالى — ومن تدبر القرآن العظيم والسنة المشرفة علم مقدار تخلفنا فى هذا المضمار . فمن آداب نشر الدعوة بيان أن كل آية تشهد أنها دعوة الحق ومادونها هو الباطل ومنها : ترفع الداعى عن كل اهتمام دنيوى يقطعه عن الله تعالى . ومن آدابها الربط بين الدعوة وبين اهتمامات النفوس البشرية بحيث تتحول هذه الاهتمامات إلى عوامل دافعة إلى العمل بالشريعة والانتصار لها ، وهاهو يوسف عليه السلام يبدأ الدعوة بإظهار فساد النظم القائمة تارة ، وطلب النجاة والسلامة عن طريق التوجه إلى الكمال الأعلى وبناء النظم الاجتماعية على الأسس الموصلة إليه .

فأول شىء يقوم به الأنبياء والمرسلون هو بناء مجتمع كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى لأنه مجتمع قائم على الارتباط فى جميع شئونه بالله تعالى ومقاومة الشرك والظلم والفساد مهما كانت ضراوة النظام المؤيد للظلم أو عتوه وجبروته .

وقد أدركت الكليات الجامعية الأجنبية المتخصصة فى دراسة اللاهوت أو الايديولوجيات خطورة علوم الدعوة فجعلتها أخطر وأعز علومها مكانة — وأصبح هذا العلم روح الايديولوجيات المعاصرة التى اهتم أصحابها باحتواء الاهتمامات الدنيوية للشعوب ليتمكنوا بهذه الوسيلة من غزو البلاد واخضاعها بحجة تحريرها . وننبه هنا إلى أن هذه الايديولوجيات تقوم بعكس ما يقوم به الدين : فبينما تستثمر الايديولوجيات الاهتمامات الدنيوية للشعوب بكل وقاحة وتجعلها تجارة رابحة لكسب الأنصار والاتباع ، نجد أن الدين يحيى ما فى النفوس البشرية من اهتمامات تدفع البشر إلى الخالق جل وعز وتوقظ ما انطوى من الحنين الكامن إليه تعالى — وشتان ما بين المنزلتين فالأولى تهوى بالإنسان إلى أسفل سافلين والإسلام يرقى به إلى عليين .

والمسئولون عن الدعوة فى جميع العالم الإسلامى مطالبون بتطبيق المنهج المحمدى فى نشر الإسلام : إذ لا يصح أن يدور نشر الإسلام فى فراغ نظرى أو بيروقراطى وإن أية محاولة لنشر أية دعوة تقوم على هذا الأساس مآلها الفشل حتما .

من جراء الاستماع إلى ما يخالف ملة القوم التى تعترف بها الدولة وتدور عليها النظم الاجتماعية — فمن شأن مثل هذه المواجهة إذن توليد الشك والحذر وتحريك الأنفس إلى اتخاذ الحيطة خشية من بطش أولى الأمر .

• اقتضى الحال تقديم الدعوة على إجابة طلب صاحبي السجن ليقترن إعلان الدعوة بآية دالة على صدق صاحبها ولو تم التأويل قبل إعلان الدعوة لما كان آية للسامعين ترتبط فى أذهانهم بها ، وحيث أن تأويله عليه السلام لرؤيا صاحبي السجن آية من آيات نبوته وصدق دعوته فقد لزم ذلك تقديم بيان الدعوة على التأويل .

• لو بدأ عليه السلام بتعبير رؤياهما لا نصرف الذهن نهائيا عن متابعة الكلام والإصغاء إليه . ولاتجه الاهتمام إلى تدبر مصيرهما ، وما سيلاقيه كل منهما وفى ذلك تشتيت للانتباه ، وتضييع للأثر المطلوب من اتخاذ التعبير باباً للدخول منه على بيان العقيدة الصحيحة . فالانتقال من بيان العقيدة الصحيحة إلى التأويل يكون أبلغ فى النفوس وأوقع ، خاصة وأن أحد الرجلين مآله الصلب ، وإن عرض الدعوة عليه قد يكون سببا فى إيمانه الذى يهون عليه معرفة حقيقة تأويل رؤياه ، فيلاقى ربه مؤمنا .

• لما كان اختصاصه عليه السلام بالخصائص الباهرة التى بينها يثير الاستفسار لمعرفة السبب الذى كان من أجله هذا الاختصاص الفريد : أجاب عليه السلام عن ذلك (إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) ، ليرتكز فى النفوس أن ملة القوم تحجب عن نيل أى اختصاص مرضى عند الله تعالى .

• كان هذا التقدم تأسيسا لدك عقيدة القوم دكاً دكاً ، وإعلان دعوة الحق التى تخرج الناس من الظلمات إلى النور .

ولما كان الاصطدام بعقيدة الجماهير يعرض الإنسان لأشد ألوان الاضطهاد والتعذيب التى تخطر ببال بشر حتى أصبحت المجتمعات الدنيوية أقوى حائل

يحول دون أعتناق الدين الحق ، فقد احتاج السامعون ومن بلغتهم دعوته عليه السلام إلى قدوة يقتدون به فى الخروج على ملة القوم بلا رهبة من بطش ولا خوف من سلطان . فكان عليه السلام فى إعلانه البراءة من ملتهم جهارا نهارا ، قدوة لهم جميعا ليتبعه الذين صغت قلوبهم لما جاءهم من الحق دون خشية من المجتمع ولا المسيطرين عليه .

• تضمن إعلانه وجهره عليه السلام بالبراءة من ملة القوم أبرز صفات الداعين إلى الله تعالى : ألا وهى عدم التردد فى إعلان الحق على الملأ حتى أننا لو فرضنا أنه انفرد بهذا الإعلان بين العالمين لما منعه ذلك من تبليغه ولم يتزحزح عن قوله ولو عارضه أهل الأرض جميعا .

• جاء الكلام فى الصيغة الخبرية لا فى صيغة الأمر والنهى فقوله عليه السلام (إنى تركت) بخلاف ما لو قال (اتركوا ملة قوم) أو (اتبعوا ملة إبراهيم) فإن صيغة الأمر والنهى قبل التأسيس لها إنما تبعثهم على الفرار خشية مما ينزل بهم من العقاب لمجرد الإصغاء . والرسل صلوات الله وسلامه عليهم من شدة حرصهم على الهداية لا يلقون إلى القوم ما لا طاقة لهم به .

• فى الجهر بالدعوة فى السجن آية من الآيات الدالة على نبوته عليه السلام ، فالسجن موضع رقابة أجهزة الأمن المسئولة ، وكل كلمة فيه تصل إلى المسئولين ، وهو عليه السلام يعلم ذلك كما يعلم أنه يقوض عقائد القوم ونظمهم المبنية عليها : فلا يجهر أحد بالدعوة فى مثل هذا الموطن إلا كان صادقا إذ أن الداعى يعرض نفسه فى سبيل الله تعالى لأشد أنواع البلاء والأذى .

ولو كان عليه السلام مطلق السراح لكان هناك أمل فى النجاة ، أو هناك فرصة للاعتصام مع أتباعه فى جهة تسمح لهم بالمقاومة حتى يحكم الله تعالى بين المؤمنين وأعدائهم ... ولكنه عليه السلام كان سجينا ، والسجين فى الإمكان استدعاؤه فى أى وقت ومحاسبته محاسبة المتمرد أو الثائر على الدولة ونظمها

واتهامه بمحاولة تقويض العقيدة وما انبنى عليها من النظم ليلاقى أخيرا العقوبة المروعة المقررة فى مثل هذه الأحوال .

وما كانت هذه الاعتبارات لتحول بين رسول الله يوسف عليه السلام وبين إرسال صيحة الحق مدوية على مرأى ومسمع من الجميع ، مع أن الذين أدخلوه السجن لأنه مثال الطهارة التى لا تشوبها شائبة فى استطاعتهم أن يتلقفوا الإتهام الجديد ليفعلوا به عليه السلام ماشاؤا ، خاصة وأن حكام هذه العصور لا يكبح من سلطانهم لجام أو يعوقه دستور ، بل كان الكهنة يتمتعون فى ظل عبادة الأرباب بقداسة مستمدة من آلهتهم وهى قداسة تكفى لإرهاب من يفكر فى معارضتهم .

بناء الحياة على الصروح الدنيوية لا يقود إلا إلى الخراب :

فى الآية تصريح وتأكيد بأن الحياة لاتستقيم على فساد العقيدة فإن فسادها لا يقود أهلها إلا إلى الباطل كما أن فسادها يقود إلى نظم لاتستطيع الوقوف إلا إذا جبرت بحشد من النظم الفاسدة ، ولو توانى حماتها فى عمليات دعمها وترقيعها وترميمها لانهارت على رؤوس الجميع فكانت كثيبا مهيلا ، وهكذا تبدأ الحلقة المفرغة من الفساد ، نظم فاسدة مقدسة تحمى عقائد فاسدة بتشريعات فاسدة فاحتاج الفساد إلى فساد آخر يسنده ودواليك .

ولا علاج لذلك سوى ترك هذه الملل لفسادها وفساد ما يترتب عليها فإنها لا تجر إلا إلى ضلال يفضى إلى الهلاك .

(وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع وإن تعدل كل[1] عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون — ٧٠) سورة الأنعام .

---

(١) إن تعدل هذه النفس الهالكة ذاتها بكل شىء تقدمه فدية لهـا لا يقبل منها (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين — ٩١) سورة آل عمران .

وجميع الصروح الدنيوية التى يبنيها الناس على أساس عدم الإيمان بالله تعالى أو عدم اتباع الهدى الإلهى : إن هى إلا صروح باطلة لا تعطى سوى الأوهام ، ولا تقود إلا إلى الشقاء ولا تنتهى إلا إلى سراب يحسبه الظمآن ماء. هذه الصروح التى تؤسسها وتبنيها المجتمعات البشرية وتشترك فى تشييدها مئات الأجيال إنما هى سجون تضيع فيها الأعمار ، وشباك يقضى الإنسان عمره فى التخلص منها ، هنالك لا يتحرك الإنسان إلا فى الحدود التى تسمح بها هذه الصروح ويتبدد النشاط البشرى فى شئون لا صلة لها بالكمال الإنسانى ولا بالكمال الأعلى اللذان لا تقوم الحياة الحقة إلا عليهما .

فالدنيويون يعيشون أسرى انفعالات ومؤثرات لا تزيدهم إلا بعدا عن الحياة المتصلة بالكمال الأعلى ، فيتبدد نشاطهم فى الصراع من أجل مفاهيم أملتها الأهواء المتدفقة من كل صرح دنيوى ، فهم لا ينفكون عن الجرى وراء آمال إن حققوها اتضح لهم أنها تدفعهم إلى آمال أبعد منها تتراءى لهم وقد سطعت أضواؤها فلا يحجمون عن التضحية بكل رخيص وغال فى سبيل الحصول عليها لينالوا الغنى والثروة والسلطة والمجد وغيرها من الأهداف الدنيوية التى تحولت إلى أصنام آلهة لها طقوسها وشعائرها ولا يحجم اتباعها عن ارتكاب أخس الجرائم فى سبيلها ، وأصبحت القاعدة الذهبية التى لا يعرف الدنيويون سواها « الغاية تبرر كل وسيلة تقرب إليها » .

إنهم داخل هذه الصروح يرتكبون كل شىء يحقق تكاثرهم الدنيوى بطرق مفضية إلى هلاكهم فتراهم يبذلون ما فى وسعهم ، ويقامرون بكل شىء لديهم لتحقيق ما تمليه عليه أهواؤهم ، ويتعبدون فى الدنيا بلا كلل ولا ملل أو فتور ، قد باعوا وجودهم الحق بثمن بخس للشياطين ليواجهوا النهاية الرهيبة : نهاية انقطاعهم عن الله تعالى هذا الانقطاع المدمر لهم فى الدنيا والآخرة وهى أسوأ نهاية تنتظر أهل الخسران .

﴿واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء . ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون — ٣٨﴾

التنبيه إلى بعض ما فى الآية الكريمة من وجوه الإعجاز :

. الإشارة إلى نبوته ورسالته عليه السلام : إذ اقتصر فى بيان آياته على الرسل ، وبدأ بإبراهيم الخليل عليه السلام ثم جده المباشر إسحق عليه السلام ثم أبيه يعقوب صلوات الله وسلامه عليهم ، وجمع عليه السلام نفسه معهم عند بيان فضل الله تعالى عليهم ، كما يدل عليه ضمير الجمع المتكلم (ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا) للتنبيه إلى أنه واحد منهم حتى جاز له أن يضم نفسه إليهم ويتكلم عنهم .

. إن الفراغ العقائدى مهلك :

إن ترك الملة الفاسدة ، والاكتفاء بهذا الترك لا ينجى الإنسان من الهلاك ، لأن الترك وحده لا يعنى فى حد ذاته الهداية إلى الصراط المستقيم .

وما زاغ البصر وطغى إلا حين خلت القلوب من الإيمان بالله تعالى وكتبه ورسله ، فإن فراغ القلوب من العقيدة الصحيحة هو سر الكوارث التى حاقت بالبشرية وإن العامل الوحيد الذى يزج بالإنسان فى هذا الفراغ المهلك هو التعلق بالدنيا ، ولهذا التعلق وجهان مهلكان :

(ا) إحاطة حب الدنيا بالقلب إلى درجة تصرف عن الخالق نهائيا .

(ب) التعلق بالدنيا تعلقا يملك شغاف القلب ويطغى على حب الإنسان لله تعالى .

إن كارثة كل مجتمع بشرى تحل عند محاولة استبدال الإسلام بدين آخر ، وعملية الاستبدال هذه تبدأ عندما يضعف تعلق الإنسان بالله تعالى . ويقابل هذا الضعف ازدياد فى التعلق بالدنيا : حينئذ تبدأ عملية حل عرى الإسلام عروة فعروة ، وكل عروة انحلت تحل محلها عروة بديلة تربط الإنسان بالدنيا حتى إذا ما تجرد الإنسان والعياذ بالله تعالى من التعلق بالله عز وجل يكون

قد اكتمل صرحه الدنيوى الذى يربطه من جميع جهاته بالدنيا ، فلا يصدر عنه فى جميع شئونه إلا ما يقطع عن الله جل ثناؤه .

هذا الصنف من البشر يكون قد خلع ربقة العقيدة الصحيحة التى تصد عنه هجمات جحافل قوى الظلام ، وهو إذ تجرد من الوقاية الوحيدة التى يمكنها أن تقيه شر مصير رهيب ، يصبح ريشة فى مهب رياح الفساد التى تعتوره من كل صرح دنيوى مسيطر على وجوده ، وبعد أن تسقى ذاته بظلمات هذه الصروح يصبح جنديا من جنود الظلمات لا يرتاح إلا فى عقائد أهلها ولا يفرح إلا بهم ولا يحزن إلا حين يبتعد عنهم ....

وأى خير يرجى من هذا الذى نسى خالقه ورازقه والمنعم عليه بكل نعمة فى الوجود ؟ وأى خير ينتظر ممن أعرض عن مولاه وأعرض عما نزل من الحق إذ جاءه ، واستبدله بضلالات أيديولوجية صاغتها شياطين الإنس والجن لتحل محل الوحى الإلهى ؟ .

أى نفع يرجى من هذا الذى يناصب خالقه العداء فيصرف عمره كله لتحقيق هذه الغاية وتأكيدها ويهوى إلى درجة من الانحطاط تجعل تصرفاته الغريزية كلها قاطعة عن الله تعالى ؟

أى خير ينتظر من هذا الذى يناصب صفوة الخلق العداء ويلقى بكل وده إلى أعداء الله تعالى وأعداء البشرية ! أى خير فيمن أعرض عن النور الإلهى المبين وألقى بنفسه بين يدى الشياطين يلعبون به كما تلعب الصبية بالكرة ، يسومونه سوء العذاب ويسوقونه إلى أسوأ مصير مع الاستسلام الكلى لعمالقة الشر .

إن العقل يؤكد أن مثل هذا الصنف المسعور من البشر إنما يوجه حياته توجيها يفضى به وبأمثاله إلى نهاية مراحل الانحطاط البشرى لانقطاعه الكلى عن الكمال الأعلى .

٥ نجاة الإنسان معلقة باتباعه للأنبياء والمرسلين :

لما بينت الآية السابقة ضرورة البراءة من العقائد الفاسدة ، ووجوب تركها ، ولما كان الفراغ العقائدى المجرد مهلكا . صرحت هذه الآية بالملة التى لا نجاة لأحد إلا فى اتباعها .

وفى معنى الملة يقول الآمدى عندقوله تعالى (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين - ١٢٣) سورة النحل :

[إن المراد بلفظة الملة إنما هو أصول التوحيد وإجلال الله تعالى بالعبادة ، دون الفروع الشرعية ويدل على ذلك أربعة أوجه :

(الأول) أن لفظ الملة لا يطلق على الفروع الشرعية بدليل أنه لا يقال ملة الشافعى وملة أبى حنيفة لمذهبهما فى الفروع الشرعية .

(الثانى) أنه قال عقب ذلك (وما كان من المشركين) ذكر ذلك فى مقابلة الدين ومقابل الشرك إنما هو التوحيد .

(الثالث) أنه قال (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه[1]) . ولو كان المراد من الدين الأحكام الفرعية لكان من خالفه فيها من الأنبياء سفيها وهو محال .

(الرابع) أنه لو كان المراد من الدين فروع الشريعة لوجب على النبى عليه السلام البحث عنها لكونه مأمورا بها . وذلك مع اندراسها ممتنع .

ثم وإن سلمنا أن المراد بالملة الفروع الشرعية ، غير أنه إنما وجب عليه اتباعها بما أوحى ولهذا قال (ثم أوحينا إليك)][2] .

ولو أطلقت الملة دون تحديد لاندرجت تحتها كل ملة صحيحة وباطلة ، ولكن الآية عينت الملة التى اتبعها عليه السلام ودعا إلى اتباعها وهى ملة الأنبياء والمرسلين ، فما اتبع عليه السلام إلا من أمر الله تعالى باتباعهم والاقتداء بهم من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم .

ولا يقولن قائل ما دام اتباع الآباء مطلوبا هنا ، فإن اتباع القوم لآبائهم

---

(١) من الآية (١٣٠) السورة التى ذكرت فيها البقرة .

(٢) الآمدى . الاحكام فى أصول الأحكام ج ٣ : ص ١٣٢

ينسحب عليـــه هذا الحكم ، فكيف يقبح منهم ويعاب عليهم ويكون شركا وكفرا ؟.

والجواب أن الفرق بين الاتباعين هو الفرق بين النقيضين ، فإن اتباعه لآبائه عليهم السلام ما وقع إلا على ملة الأنبياء والمرسلين ، أما اتباع القوم فما وقع إلا على ملة باطلة اخترعها آباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان . والإتباع فى العقائد لا يكون لأحد دون من أمر الله تعالى باتباعهم من النبيين والمرسلين . وهذا الاتباع يفضى إلى اليقين والتمسك بالعروة الوثقى وعدم تجاوز الدين القيم . فمحور الاتباع الذى دعا إليه عليه السلام إذن يدور حول اتباع النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم ، وهؤلاء ما أمروا إلا بعبادة الله وحده ، والرغبة إليه والتوكل عليه تعالى ، وإخلاص الدين وإسلام الوجه له عز وجل ، والتفويض والإنابة إليه . وحبه وخشيته ، والرجا فيه سبحانه فمن اتبعهم واقتدى بهم فقد تحقق بالإسلام الذى بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل الكرام .

فلا يقبل الله تعالى من أحد دينا إلا هذا الدين القيم ولا عملا إلا إذا طابق الدين القيم ، وما من عبادة حقة إلا وهى داخله فى الدين القيم ، فمن لم يقف عند هذه الحقيقة الإسلامية فى عبادته تعالى ، فما وجه عبادته إلا إلى الشيطان ، واستحق الخسران والهلاك .

لا يصح لأحد فى الوجود أن يزيد على الدين القيم أو ينقص منه :

إن بيان الدين القيم مرتبط بالإحاطة بالوجود ، ومصير الموجودات ، وحقائق المخلوقات ، وهداية العالمين إلى أرشد الطرق لبلوغ درجات الكمال وأقومها واجتناب مهاوى الشقاء وأسباب الهلاك . وهذا كله خارج عن مرتبة المخلوقات ، متعلق بخصائص الألوهية ، فالله تعالى وحده هو الذى يبين الدين القيم فضلا منه ورحمة بعباده ، فمن أراد النجاة فعليه باتباع من اصطفاهم الله عز وجل لتبليغ رسالاته .

وحين أعرض الناس عن الدين القيم ، وانصرفوا عن اتباع هداة البشرية إلى الصراط المستقيم ، أخذ كل قوم ينسجون الحياة كما يشتهون ، مما أفضى إلى قيام أكبر وثن نسجته البشرية من جميع الشئون القاطعة عن الله تعالى والتى أصبحت لها المشروعية العليا داخل صروح دنيوية لها عاداتها وتقاليدها وشرائعها وقوانينها ونظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى صيغت فى قوالب تتمشى مع مفاهيم كل صرح كما تربط أهل كل صرح ربطا محكما بعقائدهم وعلومهم الدنيوية لا يستطيعون منه خلاصا ولا فكاكا .

إن حرية الإنسان الحقة التى وهبها له الله تعالى ، وإن الحقوق الأساسية للإنسان التى لا يمكن المساومة عليها أو التلاعب بها ، وإن النظم النقية الصحيحة التى تربط الإنسان بالكمال الأعلى . كلها متوقفة على اتباع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم ، فهم الرحمة المهداة للناس من الخالق سبحانه ، وهم الأنوار التى تهدى البشرية إلى ما فيه نجاتها من أخطبوط الصروح الدنيوية وضلالاتها العمياء .

إن الإنسان المتعلق بالله تعالى المتبع فى تعلقه لهدى النبيين والمرسلين لا يوجد لديه فراغ للعبث ، ولا توجد عنده دوافع تدفعه إلى سلب الحقوق واغتصابها ، وليست لديه أية قابلية للتلذذ بتعذيب الآخرين ، ولا توجد عنده العاهات التى لا يشبعها سوى استعباد الغير والتى تدفعه إلى تسخير ذئاب البشر ، والكوادر السرية لتعمل على إذلال الناس واستباحة دمائهم وسلب أعراضهم وتجريدهم من حقوقهم باسم الدفاع عن مصالحهم .

إن اتباع النبيين والمرسلين يجعل شئون الحياة كلها منبثقة من نور الوحى الإلهى الموجه إلى الكمال الأعلى والمرشد إلى الصراط المستقيم والموصل إلى مرضاته تعالى ، فالدين القيم يجمعك بالله تعالى وكل دين سواه يقطعك عنه عز وجل ، نعوذ بوجهه الكريم من مواطن الهلاك والخسران .

أشرف المراتب الانسانية هى مرتبة الدلالة على الله تعالى :

إن الدلالة على الله تعالى وهداية العالمين إليه عز وجل : هى المرتبة الجامعة لكل خير فى الوجود فلا تدانيها فى الكمال مرتبة ... بل تتلاشى بجانبها قيمة الدرجات والمراتب . بل إن وجود أى فضل فى أية مرتبة أخرى إنما هو رهين بدرجة ارتباطه بهذه المرتبة المهيمنة على جميع مراتب الكمالات أو نسبته إليها .

وهذه المرتبة العليا هى خاصة بالأنبياء والمرسلين بالأصالة - وهى لغيرهم بالتبعية لهم . ومرتبة كل مرشد من اتباع الرسل إنما تتوقف على مايحسنه من علوم الوراثة النبوية ، التى تربط الناس بخالقهم وغير ذلك لا يكون ، وما تخلف من تخلف من اتباع الرسل إلا من حيث تقصيره فى الأخذ بعلوم الوراثه ، وتفريطه فى قوة الاتباع ، فلا يلومن المنبت إلا نفسه .

* الإسلام هو دعوة جميع الأنبياء والمرسلين :

ما هى الملة التى اتبعها عليه السلام ؟

إنها ملة إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب ، إنها الملة الصافية النقية ، انها دعوة جميع الأنبياء والمرسلين : انها الإسلام .

فالاسلام هو دعوة يوسف عليه السلام فى الآية الكريمة (توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين[1]) . وهو دعوة الخليل إبراهيم وذريته من الأنبياء ، ورتل دعاء إبراهيم وإسماعيل إذ يرفعان القواعد من البيت (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) من الآية ١٢٨ - سورة البقرة .

وهو وصية ابراهيم لبنيه ويعقوب عليهم الصلاة السلام :

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه . ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين - ١٣٠ - إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين — ١٣١ — ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون — ١٣٢ — أم كنتم شهداء إذا حضر يعقوب

(١) سورة يوسف من الآية ١٠١ .

الموت قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلـهك وإلـه آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق إلـها واحدا ونحن له مسلمون — ١٣٣) سورة البقرة .

(أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى . قل ءأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله . وما الله بغافل عما تعملون — ١٤٠) سورة البقرة .

(ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن حنيفا مسلما وما كان من المشركين — ٦٧) ٣/ سورة آل عمران .

والإسلام هو دعوة جميع الرسل قبل الخليل عليه السلام :

(واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون - ٧١ فإن توليتم فما سألتكم من أجر . إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين - ٧٢) ١٠/ سورة يونس .

وهو دعوة الرسل والأنبياء بعد يوسف عليه السلام :

(وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين - ٨٤) ١٠/ سورة يونس .

وكان دعاء السحرة حين آمنوا (ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين) من الآية ١٢٦/ سورة الأعراف .

وجميع الأنبياء الذين أقاموا التوراة كانوا مسلمين :

(إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء . فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون - ٤٤) ٥/ سورة المائدة .

وهو الدين الذى أشهد الحواريون الله عز وجل بأنهم يدينون به .

(وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون - ١١١) ٥/ سورة المائدة .

واحتجوا بقوله تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين - ٣٥ - فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين - ٣٦) ٥١ : الذاريات .

بأنه لا يمكن تأويله إلا بأن الإيمان والإسلام بمثل معناهما الشرعى ومن قال بالمعنى اللغوى فقد تكلف .

فالإسلام هو الدين الحق الذى لادين سواه مذخلق الله تعالى الخلق وأرسل الرسل ، وما دعا نبي إلا إلى الإسلام[1] :

(إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب - ١٩) ٣/ سورة آل عمران .

(ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبـل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين — ٨٥) آل عمران .

(قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين - ٩٥ - إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين - ٩٦ - فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين - ٩٧) ٣ : آل عمران .

---

(١) ولهذا آمن المسلمون بجميع الأنبياء والمرسلين والكتب المنزلة من عنده تعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله) من الآية ٢٨٥ : سورة البقرة .

فكان خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه أولى الناس بالنبيين جميعاً ، فهو صلى الله عليه وسلم أولى الناس بإبراهيم والأسباط وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، يقول صلوات الله وسلامه عليه (أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة ليس بينى وبينه نبى، والأنبياء أولاد علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد) رواه الشيخان والإمام أحمد وأبو داود .

والعلات بفتح العين الضرائر .

أى أنهم إخوة لأب فى المقصود من بعثتهم ، وشبه شرائعهم المتفاوتة فى الصورة بالأمهات فالدين من حيث الأصول والعقيدة هو الإسلام وهو دعوة جميع الأنبياء ، أما من حيث فروع الشريعة فهى تختلف بحسب الأمة التى كلفت بها .

فالعقيدة لا تبديل فيها ولا تغيير ، وعليها تدور صحة الأعمال والأحوال والأقوال، بل إن حقوق الإنسان الأساسية إنما هى متفجرة من عقيدة الإسلام وقد توصل علماء حقوق الإنسان أخيرا إلى أنها إن لم تصدر عن عقيدة كانت مجرد قصاصات من ورق ، ولذا نجدهم فى بحثهم عن عقيدة تصدر عنها حقوق الإنسان يتخبطون فى تعيين هذه المصادر ، وهذا التخبط كان سبيلا للتلاعب بهذه الحقوق التى اعترفوا بها ، ولو اهتدوا إلى مصدرها الحقيقى لما اختلفوا على شىء منها .

وما ضل الناس وهانت البشرية إلا حين فرطوا فى الإسلام واستبدلوه بصروح دنيويه تمدهم بملل ومذاهب تحل محل ما أنزل الله تعالى: فاستبدلوا النور بالظلمات والهدى بالضلالة ، والجنة بالجحيم ، والنعيم بشقاء مقيم .

حطم الاصنام إبراهيم الخليل عليه السلام :

تذكر الآية فى قوله تعالى (ملة آبائى إبراهيم) بمواقف أبى الأنبياء وإمام الحنفاء عليه الصلاة والسلام . وهى مواقف مذكورة فى كثير من السور القرآنية .

يقول الله تبارك وتعالى مبينا موقفه عليه السلام من قومه ومن أصنامهم :

(قال أفرأيتم ماتعبدون — ٧٥ — أنتم وآباؤكم الأقدمون — ٧٦ — فإنهم عدو لى إلا رب العالمين — ٧٧ — الذى خلقنى فهو يهدين — ٨٧ — والذى هو يطعمنى ويسقين — ٧٩ — وإذا مرضت فهو يشفين — ٧٠ — والذى يميتنى ثم يحيين — ٨١ — والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين — ٨٢) ٢٦ / سورة الشعراء .

(قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك

وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير - ٤)
٦٠ / سورة الممتحنة .

(وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون - ٢٦ - إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين - ٢٧ - وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون - ٢٨) ٤٣ / سورة الزخرف .

فجعل البراءة من كل معبود سوى الله تعالى كلمة باقية فى عقبه يتوارثها الأنبياء ومن تبعهم بعضهم عن بعض وهى كلمة (لا إله إلا الله) التى فطر الله تعالى عليها جميع المخلوقات وعليها قامت الأرض والسموات وورثها الحنفاء إلى يوم القيامة .

(أما كان لنا أن نشرك بالله من شيء):

بعد أن بين لهم الملة الصحيحة شرع فى بيان العقيدة التى تقوم عليها: وهى عقيدة التوحيد الخالص من كل شرك، فنفت الآية وجود أقل القليل من الشرك وهذا هو مايعطيه موقع (من) فيها .

وخصص الشرك لأنه أصل كل ظلم فى حياة المكلفين وفى حياة غير المكلفين بالتبعية والامتصاص ، ويكفى أنه أساس الانقطاع عن الله تعالى ، والصد عن سبيله عز وجل فما وجد الشرك إلا وجد معه الفساد والفجور والعلو فى الأرض والطغيان والتعطش إلى سفك الدماء والقسوة وإنتهاك الحرمات ، واغتصاب الحقوق، وإهدار الإنسانية وضياع الحريات، واختلال الموازين وكل مايقطع عن الخالق سبحانه .

ولا أنانية تفوق أنانية المشرك لفقدانه أساس التوازن النفسى الصحيح وهو الدين القيم . ولتعلقه بشروط وهمية للتوازن لاتدور إلا على صرحه الدنيوى ، ولا يفضى إلا إليه . وقد بلغ هذا الصرح نهاية دركات الانحطاط

عند الأمم التى لاتؤمن بوجوده تعالى لانقطاع هؤلاء كلية عن مصدر كل كمال وتأسيسهم الحياة على الشرك المطلق بربط الوجود بغيره تعالى .

وترى المشرك إذا كال لنفسه استوفى الكيل وإذا كال للناس أو وزنهم بخسهم حقوقهم المادية والمعنوية وهو فى ذلك لم يخرج عن أحكام صرحه الذى ينتسب إليه .

وحقيقة الشرك أن ينزل المخلوق منزلة الخالق وبالعكس ، مثل مساواة المخلوق بالخالق فى أى شىء أو منازعة المخلوق لخالقه فى خصائص الألوهية .

فالشرك إذن قد يظهر وقد يخفى ، وما خفى كان أعظم[1] . وقد حذر إمام الأنبياء والمرسلين وقدوة الهداة صلوات الله وسلامه عليه من كل عمل يفضى إلى الشرك ومن كل مايقرب من الشرك ، ونبه الأمة إلى الشرك الخفى وبين أنه محبط للأعمال .

يقول إمام الهداة والرحمة المهداة صلى الله عليه وسلم (إن أخوف ماأخاف

---

(١) — قسم الإمام ابن القيم الشرك إلى قسمين : —

(أولا) : الشرك المتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته تعالى وهو نوعان :

النوع الأول : شرك التعطيل وهو ثلاثة أقسام :

(ا) تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه .

(ب) تعطيل الصانع سبحانه عن كمالاته بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله .

(ج) تعطيل معاملته تعالى عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد.

النوع الثانى : شرك من جعل مع الله إلها آخر ولم يعطل أسماءه وصفاته .

قلت : هذا الجعل نفسه هو عين التعطيل .

(ثانيا) : الشرك فى العبادة والمعاملة ويقع فيه السواد الأعظم ، وسببه عدم الاخلاص لله تعالى فى العبودية فتصدر الأعمال متلبسة بقصدين : مقصد دنيوى ينطوى تحته حظ النفس وشهواتها ومقصد أخروى . قلت : المقصد الأخروى يبطله الازدواج .

على أمتى الإشراك بالله : أما إنى لست أقول يعبدون شمسا ولا قمرا ولا وثنا ولكن أعمالا لغير الله وشهوة خفية)[١] .

(أيها الناس اتقوا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل ، قالوا : وكيف نتقيه يارسول الله ؟ قال : قولوا : اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لانعلمه)[٢] فأعمال المشرك ترد على صاحبها لأنها ليست لله تعالى . وأخفى الشرك هو الرياء : ويطلق عليه الشرك الأصغر ، ولم يدخل فى عمل إلا أفسده ولم ينتشر فى مجتمع إلا قوض أر ... ه وخرب نظامه وهدم بنيانه . ولقد أصبح هذا الداء هو (موضة) القرن الرابع عشر الهجر ... ى والعشرين الميلادى : يتزين الناس بالرياء ويجعلون ذلك كياسة ، ويمدحون الرجل بقدر ... ا اكتسبه من النفاق والرياء ولقد يكون أحدهم مفطورا على قول الحق لايخشى فى الله لو ... مة لائم فيواجه من العذاب فى الحياة أشكالا وألوانا ، وما من سبب لذلك سوى فطرته ... السليمة وإذا رثى له ناصح لم يجد نصيحة يهديها إليه أوفى من قوله (نافق نافق فنحن فى عصر النفاق وإلا فلا تلومن إلا نفسك) ! ولم يدر هؤلاء لجهلهم بطبيعة البشر أن الطبع يغلب التطبع وأن الإنسان مرده إلى ماجبل عليه ، لا يتغير ذلك عن طريق التصنع أو التمثيل وأن الأخلاق ليست بالثوب الذى يخلعه صاحبه لمقابلة فلان أو ارضاء علان كما يفعل المنافقون .

---

(١) رواه ابن ماجه وأبو نعيم فى الحلية كلاهما عن شداد بن أوس ، وخرجه فى الجامع الصغير ورمز له بالضعف وروى الامام أحمد والطبرانى فى الكبير والحاكم فى المستدرك وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الإيمان عن شداد بن أوس (أتخوف على أمتى الشرك والشهوة الخفية _ قيل : يارسول الله : اتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : نعم _ أما إنهم لايعبدون شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولا وثنا ولكن يراؤون الناس بأعمالهم . والشهوة الخفية : أن يصبح أحدهم صائما تعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه) واسناد الطبرانى صحيح . وقال فى مجمع الزوائد رواه أحمد وفيه عبد الواحد بن زيد وهو ضعيف . والروايات فى هذا الباب كثيرة يقوى بعضها بعضا .

(٢) رواه الإمام أحمد والطبرانى .

ويحذرنا الحديث تلو الحديث من الشرك فى العبادات فقد جاء :

(من صلى وهو يرائى فقد أشرك . ومن صام وهو يرائى فقد أشرك ومن تصدق وهو يرائى فقد أشرك[1]) .

وهذه قاعدة عامة تنطبق على كل ما يصدر عن الإنسان .

ومما جاء فى التحذير من شرك المعاملات :

(ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيح ؟ الشرك الخفى : أن يقوم الرجل لمكان الرجل[2]) .

ومن شرك المحبة أن يعدل الإنسان حب المخلوقات بحبه تعالى والذين آمنوا أشد حبا لله .

ومن الشرك التعلق بالدنيا أشد من التعلق بالله عز وجل . ومثل هذا التعلق المنحرف يصرف المرء عن الهدى الآلهى ويجعله أسيرا لصرحه الدنيوى .

ومن الشرك تعليق الضرر والنفع على سبيل الاستقلال بالمخلوقات وهى لا تملك بالأصالة نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ، ولا عطاء ، ولا منعا ولا خيرا ولا شرا ، وهذا النوع من الشرك مدمر للعلاقات الاجتماعية ، مدمر لمصالح المجتمع : إذ يؤدى تعليق الضرر والنفع بالمخلوق على وجه الاستقلال إلى الخوف من المعتدين ، وترك الحبل على الغارب للمستبدين والطغاة ، والتوجه إلى الغير بما لا يصلح التوجه به إلا لله تعالى ماديا ومعنويا ، من ذل وخضوع وخشوع الخ . وتخصيص للغير بما لا يكون إلا لله تعالى من الأسماء والصفات والأفعال ، أو تخصيص النفس بذلك وهو أشد وأنكى : إذ يسند الإنسان إلى نفسه أسماء العظمة وصفات الكبرياء ، ويدعو إلى إطرائه وتعظيمه والثناء عليه والرجا فيه والتعلق به خوفا وطمعا ، ورغبا ورهبا وهو فى كل ذلك ينازع

---

(١) رواه الطيالسى والامام أحمد والطبرانى والحاكم والبيهقى .

(٢) رواه الامام أحمد ، والحاكم ، والبيهقى .

الألوهية، ومن نازع الألوهية في شيء هلك هلاكا كاملا، ولا ينال من تعلق بهؤلاء سوى الحرمان من خير الدنيا والآخرة . قال البيهقي في (شعب الإيمان) أنشدنا أبو القاسم الحسن[1] بن محمد بن حبيب في تفسيره قال، أنشدني أبي :

إن الملوك بلاء حيثما حلوا — فلا يكن لك في أكنافهم ظل
ماذا تؤمل من قوم إذا غضبوا — جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا
فإن مدحتهم خالوك تخدعهم — واستثقلوك كما يستثقل الكل
فاستغن بالله عن أبوابهم أبدا — إن الوقوف على أبوابهم ذل

والمراد بالملوك هنا الحكام الذين يغلب عليهم الجور .

وفي الحديث القدسي (يقول الله سبحانه الكبرياء ردائي والعظمة إزاري[2]

---

(١) إمام عصره في معاني القرآن وعلومه قال أبو زكريا العنبري : هو أشهر مفسري خراسان : صنف في القراءات والتفسير والآداب توفي عام ٤٠٦ هـ .

(٢) قال ابن الاثير ضرب الازار والرداء مثلا في انفراده بصفة العظمة والكبرياء . وقال السندي : لأنهما (ليسا كسائر الصفات التي قد يتصف بها غيره تعالى مجازا كالكرم والرحمة ، كما لا يشارك في ازار أحد وردائه غيره ، وظاهر الحديث يعطي الفرق بينهما ، ويظهر من كتب اللغة أنه لافرق ، فتوقف فيه بعضهم وفرق آخرون) .

وقيل العظمة باعتبار كون الذات لايدرك كنهه ، والكبرياء باعتبار الرفعة التي لا يقابلها شيء فكانت الأولى ازارا والثانية رداء .

وقال الإمام البيهقي في كتابه النفيس (الأسماء والصفات) : أراد بهذا أنهما صفتان له تعالى يقال اتزر فلان بالصلاح ، وارتدى بالورع على معنى أنه اتصف بهما والله أعلم) اهـ منه ص ١٣٣ . ولا تجوز منازعة الألوهية فيهما كما لا تجوز المشاركة في الثوب والازار الواحد. قلت : إن تخصيصهما جاء من وجه أن جميع مصائب البشر من هذه المنازعة مما أدى إلى ارتكاب الجرائم التي تقشعر من هولها الابدان ، وإلى تجريد الناس من حقوقهم واستعبادهم إلخ .. والحديث القدسي يحرم على البشر ارتكاب مثل هذه الأعمال الناجمة عن تقمصهم ماليس لهم من خصائص العظمة : والكبرياء الإلهية .

فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في النار(١) .

حكم الشرك :

لقد حرم الله تعالى الظلم وأسبابه وأشكاله وصوره ، وأقبح الظلم الشرك : فقد حرم الله تعالى على المشرك الجنة لا يقبل منه صرف ولا عدل ، فالشرك محبط للأعمال التي تخللها ليس لله منها شيء ، فهي عذاب وجحيم على صاحبها .

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما — ٤٨ » ٤ : سورة النساء .

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا — ١١٦ » ٤ سورة النساء .

« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار — ٧٢ » ٥ : سورة المائدة .

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة والدارقطني في الافراد عن أبي هريرة وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم ، وفي رواية (العز إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني منهما شيئا عذبته) رواه مسلم والطبراني في الاوسط والصغير ، وروى مسلم في كتاب الإيمان من صحيحه عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) الحديث .

فمن ابتلي بشيء من هذا فليدرك نفسه قبل هلاكها فإنه قد ورد أن المتكبرين والجبارين يحشرون يوم القيامة أمثال الذر — وكانوا حكاما ورؤساء جمهوريات وملوكا الخ . يطؤهم الناس من حقارتهم . وجاء : إن مقدار يوم القيامة خمسون ألف سنة لا يدرى المجرمون كيف تمضي عليهم ، وتمر على أهل الله تعالى وخاصته كلمح بالبرق ، فقدم لنفسك قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال .

الاعجاز التربوى لعقيدة التوحيد :

من أعجب العجب وكل أمورنا أصبحت عجبا : هو اتجاه المسلمين فى القرنين التاسع عشر والعشرين إلى هجر التربية طبقاً للهدى القرآنى وبيانه المحمدى[1]، والإنطلاق وراء مذاهب ونظريات تربوية تهيم بهم فى كل صقع وواد وأصبحنا كالأيتام الذين ضاعوا فى مأدبة اللئام ، وقادنا الجهل - وبئس القائد هو - تحت شعارات الدعاوى العلمية المزيفة إلى الضياع الكامل تربويا بالاغتراب عن الإسلام نفسه، واللف والدوران داخل صروح دنيوية تقتضى هذا الاغتراب إذ ترفض الإسلام وتعاليمه : وبدلا من أن يجد الناس فى المسلمين القدوة التربوية الصالحة ، إذا بالمسلمين يتمسكون بنظريات ومذاهب دنيوية أشد من تمسك أصحابها بها وهى مذاهب ونظريات لاتتجه إلا إلى الانقطاع عن الله تعالى لأنها من إفرازات صروح دنيوية لاتغذى أهلها إلا بأسباب الانقطاع .

(١) لا عذر لنا فى هذا الإهمال إذ مامن أمة غطت مؤلفات علمائها من أئمة السلف والخلف جميع فروع التربية وعلوم النفس مثل الأمة العربية الإسلامية وأخصها علوم الصحة النفسية وعلم النفس التطبيقى والتربوى والسلوكى والاجتماعى والقيادى الخ .

ولكننا لم نكترث بهذا التراث لأمور منها : —

(الأول) الميل إلى التملق بالصروح الدنيوية المعاصره وعلومها .

(الثانى) العجز عن الأخذ بأسباب الكمال كما بينها لنا القرآن العظيم والسنة المشرفة .

(الثالث) إن التبعية فى أى فرع من فروع المعرفة لأى صرح دنيوى تقود إلى تطبيق باقى فروع المعرفة فى هذا الصرح لاستحالة تجزئة نظرية المعرفة فى كل صرح دنيوى .

(الرابع) اعتبار المتخصصين — من المثقفين الهامشيين — ان تراثنا فى هذا الشأن من العلوم التى عفا عليها الزمن وانها قد انتهت بانتهاء عصرها .

(الخامس) الجهل بأصول التربية الإسلامية وقواعدها بسبب الاغتراب عن الاسلام إلى درجة تشويه ما كتبه أئمة هذه التربية وقادتها بل والتشكيك فيما كتبوه .

(السادس) الجهل بتشريح الصروح الدنيوية المعاصرة ومعرفة ما انطوى فيها من أسباب الهلاك والدمار .

هذه الأيديولوجيات الدنيوية تولد بعض أو كل أوجه الفساد التالية :

* تأليه المخلوقات وتعظيمها من دونه تعالى وأهم صور هذا التأليه فى القرن العشرين الميلادى هى عبادة الفرد وتخصيصه بالكمالات الإلهية . وإن جميع الأيديولوجيات التوتاليتارية تقوم على هذه العبادة التى جرت أهلها ومعتنقيها إلى توجيه الهمم لا إلى رفاهية الشعوب وتحقيق الخير للانسانية ولكن إلى توطيد أركان هذه العبادة وحمايتها بشبكات من الكوادر والتنظيمات السرية التى تجعل المشروعية العليا لكلمة الفرد لا لكلمة الله تعالى ، ويتنافى هذا ويتناقض مع الهدى الاسلامى الذى يحرم تأليه المخلوق كائنا ما كان ، ولا ندرى بأى وجه من الوجوه ينصب أى إنسان عاقل نفسه وصيا على البشرية ليحدد المشروعية العليا المهيمنة على كمالاتها وعلى مصيرها ! وكيف يبلغ الافتراء درجة تجعل واحداً من الناس يدعى لنفسه خاصية من خصائص الألوهية .. والأعجب من هذا أنه يجد قطيعا من الحيوانات والذئاب والجراثيم البشرية يؤمن بقدسية هذه الزعامات المشوهة ويدافع عنها .

فأية وضاعة وأية خسة هذه ؟ وأى أعراض هذا عن الحق ؟

إن الإنسان لا يصح له وجود ولا يستقيم له أمر مالم يفرد الخالق تبارك وتعالى بالأسماء الحسنى فلا يشرك بالله أحدا (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم — ١١٥) السورة التى ذكرت فيها البقرة .

ومن شك فى كفاية الله تعالى له فقد خسر الدنيا والآخرة .

* التعلق بالمخلوق على سبيل الاستقلال وهذه هى الحالقة التى تجرد المرء من القابلية للترقى لأى كمال إذ يؤدى ذلك إلى :

* مفسدة الالتجاء والافتقار إلى غيره تعالى وما يتبع ذلك من ذلة ومهانة ومتاجرة فى بالدين وحقوق الإنسان وهو ظلم للنفس .

* مفسدة إيذاء من تعلق به الإنسان باعتباره مسئولا عنه وهو ظلم للخلق .

* فيه تخصيص للمخلوق بما لا يكون إلا لله تعالى شكا فى الحق عز وجل نعوذ بالله من ذلك .

* الإخلاص فى الظاهر والباطن لغيره تعالى : فيتجه الإنسان بإخلاصه إلى الفرد أو المبدأ أو المذهب أو الايديولوجية (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة - ٥) ٩٨ : سورة البينة .

فمن لم يخلص فى جميع شئونه لله تعالى ظاهراً وباطنا قلبا وقالبا ، قولا وعملا فقد أبتغى غير الله تعالى وقطع نفسه عن خالقه ، وما أقام ما أمره به الله جل وعز بل أتى بشىء غير ما أمر به قطعا فلا يصح له عمل ولا يتقبل منه :

وفى الحديث القدسى (لا أتقبل إلا ما ابتغى به وجهى)[١].

فمهما عمل الإنسان من وجوه الخير وهو ينوى أن يكون هذا لوجه فلان ولله تعالى فقد حبط عمله : وفى الحديث القدسى (أنا خير شريك فمن أشرك معى شريكا فهو للشريك : يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم لله ، فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له . ولا تقولوا هذا لله وللرحم فإنها لرحمه وليس لله منها شىء ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم فإنها لوجوهكم وليس لله منها شىء)[٢]

(أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه)[٣].

---

(١) رواه الإمام التجارى فى تاريخه عن أنس رضى الله تعالى عنه .

(٢) رواه الإمام البزار عن الضحاك رضى الله تعالى عنه .

(٣) رواه الإمامان مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، وأخرجاه عنه من طريق آخر بلفظ (أنا اغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء) .

وفى حديث آخر (أنا خير قسيم لمن أشرك بى : من أشرك بى شيئا فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذى أشرك به وأنا عنه غنى) رواه الإمام أحمد والطيالسى والطبرانى فى الكبير عن شداد بن أوس رضى الله تعالى عنه .

وهذا المرض يندر من يبرأ منه ، والشرك فى الأعمال يقود إلى عـــدم الإخلاص فيها وإلى فسادها وغلبة ضررها على نفعها مع سوء عاقبتها .

ومما يقتضيه جعل المشروعية العليا من دون الله تعالى للنظريات والمذاهب الدينوية : أن يسوى الإنسان بين الله وبين مخلوقاته فيما يجب أن يكون له تعالى وحده . ولامفر حينئذ من التعلق بصروح دنيوية تدور حول الطواغيت القاطعة عن الله تعالى فيدخل الوهن على المسلم فى دينه وإيمانه ويعجز عن القيام بتكاليف الشريعة لانقطاعه عن الله جل جلاله انقطاعا يجره إلى الهلاك .

وما من خلق مفسد للفطرة مهلك للبشرية إلا وهو منطو فى الشرك ظاهره وخفيه وماخفى كان أعظم فهو الأس الجامع للاسباب القاطعة [١] عن الله جل ثناؤه والحائلة دون سلوك أسباب الكمال ، وماتطرق الوهن إلى الأمة إلا من التقصير فى سد أبواب هذا الداء المهلك سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وتربويا وخلقيا وثقافيا إلخ .. فانصب البلاء صبا على الأمة من هذه الأبواب وهم لايشعرون .

* تمكين ودعم النظم الفاسدة مما يفضى إلى :

— تمكين الظلمة من رقاب الرعية فتفسد أحوالها ، مع أن اختيار الأصلح للأمة فى كل موطن فرض عين على المسئول ولايجوز له أن يتخطاه إلى غيره أبدا ، ومن أكبر الكبائر تقليد الأمر لمن لايصلح [٢] .

---

(١) نقترح تقرير مادة تحت عنوان (القواطع عن الاسلام) تدرس فى جميع مراحل التعليم ابتداء من الإعدادية كل مرحلة بما يناسبها ، ويحتاج ذلك إلى بيان آثار هذه القواطع العقدية والتشريعية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والخلقيه الخ . إذ أنها تطبع كل شىء بطابع يوجه الحياة نحو الضياع وهو علم لاغنى لمؤمن عنه .

(٢) أخرج الإمام أبو يعلى فى مسنده عن حذيفة رضى الله تعالى عنه حديث (أيما رجل استعمل رجلا على عشرة أنفس علم أن فى العشرة أفضل ممن استعمل فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين)

فما بالك لو أصبحت القاعدة هى تقديم الأفسد وتأخير الأصلح !!

— افلات المفسدين فى الأرض من كل رقابة فيتضاعف الفساد حدة إلى درجة يتعذر اصلاحها .

— التهاون فى مصالح الناس تهاونا يفضى إلى تصادم بعضهم ببعض ويغذى الاحقاد والضغائن بينهم .

— إن التقصير فى تدبير شئون الرعية يفتح الباب لارتكاب الكبائر من سلب للحقوق وسفك للدماء مما يفتح باب الردة عن دين الله تعالى على مصراعيها .

وإن أشد الناس هلاكا من كان منهم سببا فى فتح أبواب الشرك ليدخله الناس أفواجا من أى باب شاؤوا فيخرجون من دين الله أفواجا . وقد بين لنا القرآن العظيم هذا الصنف المدمر من البشر فمنهم من يقف حجر عثرة دون تطبيق الشريعة . ومنهم من يعربد بمصالح الأمة فيسلمها لكل طامع ، ومنهم من يسعى فى الأرض فسادا ويجند أجهزة الاعلام ليقال إنه من المصلحين ! ومنهم من يضيق على الناس أقواتهم وسبل معايشهم ليشعرهم بالذلة والهوان ، ومنهم من يسوق الرعية سوق الماشية مستعينا بذئاب البشرية ليسقيهم كؤوس العذاب أشكالا والوانا مع الهتاف الحاد والتصفيق المتواصل فى حياته وبعد مماته لمنقذ البشرية من الدمار ! ! .. ومنهم من يجبر المسلمين جهارا نهارا على ترك الاسلام واعتناق الشيوعية مستندا إلى حماية الحراب الحمراء .

التوحيد هو دعوة جميع الأنبياء والمرسلين :

كل دعوة إنما هى تدور حول (لا إله إلا الله) ومن هذه الشهادة أشرقت الكمالات وصلح أمر الدنيا والآخرة ، وهى دعوة الأنبياء والمرسلين التى لاصلاح للعالمين إلا فى الإيمان بها وإقامتها ، بها انقسم الناس إلى شقى وسعيد، مقبول وطريد ، وتميز أهل النور والفلاح من أهل الشقاء والخسران .

(وروح[1] هذه الكلمة وسرها إفراد الرب جل ثناؤه وتقدست اسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره: بالمحبة والاجلال والتعظيم والخوف والرجاء وتوابع ذلك : من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة ، فلا يحب سواه، بل كل ماكان يحب فإنما هو تبع لمحبته ، ولكونه وسيلة إلى زيادة محبته ، ولا يخاف ولا يرجو سواه . ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يرغب إلا إليه ، ولا يرهب الامنه ، ولا يحلف إلا باسمه ...

ويجتمع ذلك فى حرف واحد وهو ألا يعبد بجميع أنواع العبادة إلا هو فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ... ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها ... وهى فى القلب بمنزلة الروح من البدن:فروح ميتة ، وروح مريضة إلى الموت أقرب وروح إلى الحياة أقرب وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن، وفى الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم (إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت روحه لها روحا) فحياة هذه الروح بهذه الكلمة . .. قال تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى - ٤٠ - فإن الجنة هى المأوى - ٤١)[2] فالجنة مأواه يوم اللقاء وجنة المعرفة . المحبة والانس بالله والشوق إلى لقائه والفرح به والرضى عنه وبه : مأوى ...ه الدار ... فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشا ، وأنعمهم ا ، وأسرهم قلبا ، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة .

... روحه فى صد... بالا ، وأشرحهم صدر.

قال النبى صلى الله عليه وسلم (إذا مررتم برياض الجنه فارتعوا . قالوا وما رياض الجنة ؟ قال حلق الذكر)[3] .

(١) ابن القيم : الجواب الكافى ص ٢٢٦ / ٢٢٧ .

(٢) سورة النازعات : ٧٩ .

(٣) رواه الامام أحمد والترمذى وقال حسن غريب وأبو يعلى وابن شاهين فى الترغيب فى ال... وفى ... الذكر والبيهقى فى شعب الإيمان عن أنس رضى الله تعالى عنه . ... حديث (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة ؟ قال مجالس العلم) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما .

وفى الحديث (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قيل وما رياض الجنة قال المساجد: ==

فمن أقبل على الله تعالى لم يفته من النعيم شيء ومن انصرف عن مولاه لم يفته من العذاب شيء، وانما تغيبت الروح من العذاب لاشتغالها واستغراقها في غير الله تعالى ، فيكون الانسان بمنزلة السكران ، فاذا انكشف الغطاء بالموت ذاق من الآلام مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

والبراءة من الشرك تقتضي :

• اتباع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم عقيدة وشريعة فيما جاؤوا به من تكليف ولصحة هذا الاتباع علامات منها :

• عبادته تعالى بما شرعه من الدين :

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين - ٢ - ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لايهدى من هو كاذب كفار — ٣) ٣٩ : الزمر .

(وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة - ٤ - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء . ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة - ٥) ٩٨ : سورة البينة .

• جعل المشروعية العليا في كل شيء لله تعالى فتتجه النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتشريعية والعسكرية الخ . . إلى إقامة شعب الإيمان وتأسيس المجتمع القرآني حيث لا يكون الامر إلا بشيء يقرب إلى الله تعالى، ولا النهى إلا عن شيء يقطع عن الله تعالى، وامتثال الأمر والنهى لا يكون إلا عن نية ومتابعة

= قيل وما الرتع قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) رواه الترمذى عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه .

لصاحب الشريعة صلوات الله وسلامه عليه ، حينئذ يتجه النشاط البشرى إلى الترقى فى معارج الكمالات الانسانية إلى ما لانهاية ، ويسد الأبواب التى تنفذ منها عوامل الفساد والانحلال كما يوفر للافراد البيئة اللازمة للنمو الصحى السليم الخالى من عاهات الصروح الدنيوية .

هذا هو الدرع الواقى من التعلق بغيره تعالى والتمسك بصروح دنيوية صارفة عن الحق ، موجهة أتباعها إلى الباطل وأهله مما يجعلهم أحرص على التمسك بالنظريات الدنيوية لهذه الصروح من تمسكهم بكتاب الله تعالى . وقد أغلق الإسلام هذا الباب حتى لايذل الإنسان أو يهان وتكون العزة لله ولرسوله والمؤمنين .

• إن العقيدة الإسلامية إذا اشتعل نورها كاملا فى القلب حالت دون الاشراك بالله تعالى ، فتصدر الأعمال خالصة لله جل وعز مما يجعل الحياة روضة طاهرة تتنزل عليها البركات من السماء فتخرج أرضها من كل الثمرات رزقا طيبا مباركا فيه .

الآية الكريمة وعلم التغيير الاجتماعى :

لا يقودك التأمل فى أى وجه من وجوه حياة القوم إلا وجدت أن الفكر موصلك إلى أثر تعدد الأرباب فى هذا الوجه ، فالعادات والتقاليد والنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحياة الثقافية والتعليمية والتربوية والآداب الفولكلورية والقصص الاسطورية الدينية Mythology التى ألفوها وتوارثوها كلها نابعة من عقيدتهم وهى جزء لا يتجزأ من وجودهم .

ولم يكن تشبثهم بهذه العقيدة وليد التدبر والروية والمقارنة المبنية على الدليل والبرهان . بل هو تشبث قد ولدته عمليات اجتماعية معقدة اشتركت فيها مئات الأجيال الغابرة التى ساهمت فى بناء معالم صرح دنيوى إله سماته الخاصة التى التى وصلت إلى جيلهم المعاصر الذى وجد أهله أوضاعا مقدسة غير قابلة

للمناقشة عليهم أن يمارسوها ، فقبلوها كما هى دون أن يكلفوا أنفسهم مجرد التفكير فى أصلها . وويل لمن تعرض لتغيير هذه الأوضاع أو تصحيحها ، فإن أشد بلاء يمكن أن يواجهه إنسان لهو البلاء الذى يواجهه من جراء تعرضه لتغيير أى شىء فى هذه النظم سياسيا كان أم إقتصاديا أم اجتماعيا أم ثقافيا — وإن أشد الناس إبتلاء من دعا إلى تغيير جميع هذه الوجوه تغييرا كاملا متجها نحو الكمال الأعلى ، وإن دعوة النبيين والمرسلين إنما هى دعوة إلى هذا التغيير الشامل .

إن القيم والمثل والأخلاق هى المعبر الحقيقى عن الشعوب المميز لعقائدها أو صروحها الدنيويه — وإذا كان الأمر كذلك : فما هو السبيل إذن لاحداث تغييرات اجتماعية للانتقال من حالة أدنى إلى حالة أعلى !

إن هذا الموضوع الرئيسى قد شغل جهابذة الفكر فى كل عصر ، وقد تبلورت هذه المجهودات فى قرننا المعاصر فى علم جديد أطلق عليه (علم التغيير الاجتماعى) الذى تخصص علماؤه فى كيفية فرض تغييرات أيديولوجية أو اجتماعية على الشعوب ، مجندين لذلك جميع العلوم الإنسانية لإحداث هذه التغييرات ، ومن هذه الابحاث يتبين لنا : —

• أن الشعوب تقتصر فى امتصاصها للايديولوجيات على ما يتفق مع ثقافاتها وصرحها الدينوى الذى يحكمها .

• إن فرض أية أيديولوجية بالقوة على شعب ما ، لابد وأن يقترن بعمليات تتنافى مع جميع حقوق الإنسان ، كما يقترن بإجراءات رهيبة يقصد منها إخضاع هذا الشعب للوطن المصدر لهذه الأيديولوجية إن كانت من الأيديولوجيات التى تقوم على فرض عالميتها على الأمم .

• أن التغيير الذى يحدث لا يعتبر حركة من وضع أدنى إلى مستوى أعلى بل هو عملية أنتقال من حالة إلى حالة أو من صرح دنيوى وطنى إلى صرح دنيوى أجنبى ، وقد دلت التجارب على أن أسوأ الصروح الدنيوية هى الصروح

الدنيوية التابعة ، ومهما بدا المظهر أفضل ، فإن الشعوب التابعة يكفيها مذلة وعارا قبولها الولاية التامة عليها من الشعوب المصدرة لهذه الأيديولوجيات .

وقد جرب هؤلاء نقل الأيديولوجيات من شعب إلى آخر عن طريق عمليات الغسل الثقافى . إذ جندوا جميع وسائل الإعلام المعروفة ووسائل الإتصال الثقافى لخدمة الأيديولوجية التى يريدون زرعها فى جسم الشعب ، وجربت المذاهب الشمولية وعلى رأسها الشيوعية الطرق النفسية السلوكيه لبناء الإنسان ، ففشلت هذه التجارب فشلا تاما ، ولكن القوم لم يثنهم هذا الفشل عن إرتكاب جريمة إتخاذ الإنسان حيوانا معمليا تجرى عليه تجارب الصواب والخطأ ! لإنتاج (الإنسان الجديد) الذى يعنى عندهم : الإنسان الذى يؤمن بمعطيات الماركسية ومفاهيمها إيمانا يلغى أى إيمان بالله تعالى[1] ، ويكفر بالقيم ما عدا القيم الموصلة إلى الماركسية ، وبجميع حقوق الإنسان ما عدا الحقوق التى تقررهـــا الماركسية ! ويقيس الخير والشر ، والحق والباطل والفضيلة والرذيلة بالمعايير التى تعترف بها الفلسفة الشيوعية ! وقد نجح هؤلاء فى توزيع عملائهم على جميع بلدان العالم لإنشاء الخلايا وتأسيس الكوادر من الوطنيين الذين يصبحون ولا وظيفة لهم سوى إعداد شعوبهم لساعة الصفر ويفعلون ذلك بكل براعة مع عدم الاحجام عن إرتكاب أخس الوسائل الموصلة إلى هـــذه الغاية ! ! ويعلنون فى كل مكان عن شعارات الشيوعية البراقة : من تحرير للانسان ! ومناصرة لحركات التحرير المزيفة والتى (تفبرك) بقصد نشر الشيوعية: وكلها حركات مفرغة من أى مضمون إنسانى ، ومخططة

---

(١) وحاول الماركسيون أن يخدعوا الناس فخرجوا عليهم بنظرية التعايش السلمى بين الماركسية والأديان ولقد علموا أن مجرد إيمان الإنسان بأى دين يلغى دينهم الشيوعى حتما . ولذا نجد أن هؤلاء القوم عندهم حساسية شديدة من ناحية الأديان ، ولهم مخطط عجيب لتخريب مبادئها والطعن فيها، مما يجعل الأديان ــ على حد قولهم ــ تنهى نفسها قاتلهم الله أنى يؤفكون .

تخطيطا يمكن من توزيع ملكية رقبة الإنسان على العديد من الطغاة، ومن بينهم قادة الحزب، وأعضاء الحزب من المناضلين، والطليعة والنخبة الممتازة والكوادر واجهزة الدولة كل ذلك يرتكب لتحرير الإنسان وإنتاج إنسان جديد! هو فى الحقيقة مسخ جديد قد انقطعت جميع صلاته بالكمال الأعلى وشد وثاقه بجميع الاغلال التى ابتكرتها الشياطين من الجن والانس لربطه بقاع الانحطاط الذى تمثله هذه الأديان الوضعية الشمولية المدمرة للبشرية.

ولا يخجل هؤلاء بعد ذلك كله من إعلان المكاسب التى كسبتها الشعوب على أيديهم!! وما كسبت الشعوب على أيديهم سوى الكفر والموت والجهل والحرمان والتجرد من جميع الصفات الموصلة للكمال.

إن علة العلل تتركز فى الوقوع فى أسر صروح دنيوية سجن الناس أنفسهم داخلها مما حكم على كل تغيير يحدث بكونه مجرد حركة لا تتجاوز الابعاد الحديدية لهذه الصروح، وقد تكون الحركة موضعية، وقد تكون شاملة — ثورة — تفرض ثقافة صرح على صرح، ولا عبرة للصلاح فى مقاييس هذا التغيير الدنيوى الذى لا يعنى سوى محاولة صرح دنيوى متخلف أو ضعيف دنيويا: تقليد صرح أكثر تقدما أو قوة على ما فيه من أسباب الانحطاط.

إن قادة التغيير الدنيويين أشبه بحمار الرحا الذى يتحرك وهو لا يبتعد أنملة عن حركة دورانه، وكل ما اداهم إليه علمهم أنهم قد أعتبروا الإنسان مشتلا للتجارب كلما انتهوا من تجربة فشل جاؤوا بفشل جديد لإصلاح الفشل الذريع الأول، ولا نتيجة لذلك سوى تراكم جبال من الفشل بمعدل متوالية هندسية تزيد من وقدة الأحقاد والضغائن التى تتسبب فى قيام حالة دائمة من الحروب الباردة أو الساخنة ستنتهى حتما بحرب لا تبقى ولا تذر.

كيف يتم التغيير بحيث يتجه من مستوى أدنى إلى مستوى أعلى :

يجب أن نقرر أولا أن عمليات التغيير لا تتم إلا عن طريق الإيمان : فالإيمان قد يكون منجيا وقد يكون مهلكا (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا — ٥١) سورة النساء .

والإيمان الصحيح هو الإيمان الذى أمر به الأنبياء والمرسلون ليس وراء ذلك حبة خردل من إيمان ، أما إذا تعلق الإيمان بمعطيات الصروح الدنيوية من عقائد ومبادىء ونظريات ومذاهب فهو إيمان باطل يقود إلى الدمار والهلاك .

فالذى يؤمن بمبدأ أو بمذهب أو بدين تتغير مثله وقيمه وتتلون بلون ما آمن به .

فالذى يؤمن بالدكتاتورية إيمانا جازما نجد أن أساليبه وسلوكه ومعاملاته ومقاصده كلها مدموغة بطابعه، مهما حاول أن يظهر أمام الناس بمظهر الرجل الديموقراطى — والعكس بالعكس — ويكفى شاهدا ما سجلته المسارح السياسية العالمية من تمثيليات قامت فيها أبشع القيادات الدكتاتورية بدور أبطال الديمواقرطية الحريصين على تطبيقها ! فكان فشل الممثلين مزريا وسقوطهم مخزيا ومدويا .

والذى يؤمن بالشيوعية تراه يتجرد من جميع القيم والمثل المناهضة للشيوعية أو التى لا تتفق معها ، ولا يؤمن إلا بما يوطد أركانها ، ولا يناضل إلا فى سبيلها ولا يعمل إلا لتثبيت دعائمها ، ويعادى كل من يقف أمام مسيرتها ولو عن غير قصد ، ولا عبرة عنده بالدين سواء عليه أكان مسلما أم مسيحيا أم يهوديا أم بوذيا أم مجوسيا .. لأن إيمانه بالشيوعية يصب الدين فى قوالب ماركسية ، ولا ينظر إلى الدين إلا بمنظار شيوعى ، ولو وجد هذا وأمثاله:

معسكرين إحدهما على دينه والآخر شيوعيا لانتصروا للأخير على الأول دون تردد لأنهم قد جعلوا للمبادىء الشيوعية المشروعية العليا المتحكمة فى جميع تصرفاتهم .

فالإيمان الوضعى لا يصحح شيئا ولا يوجه إلى كال أبداً ، وكيف يوجه إليه وقد قطع نفسه عن مصدر الكمال المطلق وسلك سبيل الكمال النسبى الوضعى الدنيوى ؟ ! هذا لعمرى فى الأمور عجيب !

إن الإيمان الوحيد الذى يصحح المعايير والقيم ، ويقوم ما أعوج من النفوس التى أفسدتها الصروح الدنيوية هو الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله دون تحريف أو تبديل . لقد قضى خالق هذا الكون الذى لا مبدل لكلماته أنه لا منجا منه إلا إليه ، ولا صلاح للعباد إلا فيما يقربهم إليه . ولا كال إلا فى اتباع هدى رسله وإنبيائه ، وسلوك صراطه المستقيم ، فما لكم عن التذكرة معرضين ، ولا تفرون إليه جل ثناؤه فيهديكم ويصلح بالكم ؟

هذا هو الايمان الوحيد الذى يحدث معجزة التغيير فى أقصر وقت ممكن ، ولا تطول فترة الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام إلا بقدر عدم استكمال شعب الايمان ، أما من كملت شعبه فإن المعجزة تحدث فى لمح البرق فينتقل من أسفل سافلين إلى أعلى عليين .

والمعجزة الثانية للتغيير هنا أنه دائماً يوجه إلى المستوى الأعلى والاكمل والارقى والافضل . لأن المسيرة إنما تتجه نحو الكمال المطلق بلا لبس ولا غموض ولا إبهام .

فإذا كان معدن علم التغيير هو سلوك أمثل الطرق الموصلة إلى الكمال الإنسانى فى أقرب وقت ممكن وبأصح الوسائل الممكنة ، فلا سبيل إلى تحقيق ذلك إلا عن طريق الإيمان الموجه للانسان إلى التعلق بالله تعالى ، ومتابعة النبيين والمرسلين وبدون ذلك لا يتم حدوث التغيير فى مستوى أعلى .

إن الحياة الكاملة فى جميع مظاهرها هى الحياة التى ترتبط فيها هذه المظاهر كلها بالكمال المطلق فتكون النيات كلها لله تعالى وحينئذ يكون الاتجاه نحو الخير دائماً .

هذه هى الأسس التى غابت عن علماء التغيير فى قرننا المعاصر فضاعت مجهوداتهم بل لم تثمر سوى زيادة العناء ومضاعفة أسس البلاء ، إذ أن كل إيمان غير مرتبط بالوحى الإلهى فإنه لا يقود إلا إلى شر .

أضف إلى ذلك أن أى تغيير فى تركيب الصرح الدنيوى إنما يحدث بعد جيل على الأقل أو عدة أجيال وقد يتم خلال عدة قرون .

ومن الإعجاز الباهر إذن أن الرجل الذى يكون مثالا للجاهلية الأولى. ما أن يسطع على قلبه نور الإيمان فيربطه بالهدى الإلهى حتى يتحول فى لحظة واحدة إلى إنسان آخر يتمتع بجميع الصلاحيات التى تجعل منه قائداً عظيما أو مصلحا عالميا ، أو داعية من دعاة الهداية الأعلام. وتتم هذه الخارقة فى طرفة عين بمجرد استقرار نور الايمان فى قلبه . فإذا به ينقلب من شخص تافه إلى رجل ناضج صحيح نفسيا وعقليا يتحرى فى جميع شئونه اتباع أقوم منهاج وأصح طريق .

يقول إمام الهداة صلوات الله وسلامه عليه (خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا)[1]

---

(١) اخرجه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

وهذا الحديث من معجزاته صلوات الله وسلامه عليه فمن تأمل فى جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم علم أن المعجزات الشريفة لاتقع تحت حصر ـ ومما يؤخذ من الحديث الشريف .

ا ـ أن أفضل الأمة هم الأصحاب رضوان الله تعالى عليهم إذ لم يأت بعدهم مثلهم فى قوة معرفتهم بدين الله تعالى لمخالطتهم لمولانا سيد العالمين صلى الله عليه وسلم .

ب ـ إن أفضل الأمة بعدهم الذين يلونهم وهكذا ثم الأمثل فالأمثل .

جـ ـ إن أفضل حالات المؤمن حين يسخر الدنيا لينال مرضاة الله تعالى

د ـ إن التفاضل حينئذ يكون طبقا للحالة التى كان عليها من الخيرية قبل الفتح .

ومن تأمل هذا علم أن أفضل الأمة هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: فلم يجاهد فى الإسلام أحد بعدهم مثل جهادهم ، وسر قوتهم إنما هو فى شدة تعلقهم بالله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه لا بالدنيا، وكلما ضعف هذا التعلق كلما اشتد التعلق بالدنيا وظهرت علامات الضعف والفساد فى المجتمعات الإسلامية ، كل مجتمع بقدر تفريطه فى جنب الله تعالى . حتى إذا ما رجح التعلق بالدنيا[1] على التعلق بالله تعالى فقد المسلمون هيبتهم، واغتربوا عن الإسلام ، واتجهوا إلى الصروح الدنيوية يلتمسون تقليدها ، فكانت الطامة الكبرى والمصيبة العظمى إذ بعد أن كانت المشروعية العليا للشريعة أصبحت للنظم الوضعية الدنيوية وكلها تتجه إلى قطع الصلة بالله سبحانه لأنها نظم مبنية أصلا على ثقافات منقطعة عن الله تعالى فعلا . وأخذت المجتمعات الإسلامية تجرى على سنن المتعلقين بالدنيا وتحذو حذوهم ، فتحددت مكانتهم طبقا لصرحهم الدنيوى قوة وضعفا بعد أن كانت مكانتهم فى المقدمة دائما لقوة تعلقهم بالله تعالى وشدة حرصهم على متابعة مولانا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

فالإيمان بما أنزل الله جل وعز على النبيين والمرسلين ومتابعتهم صلوات الله وسلامه عليهم فى العمل بما أنزله تعالى عليهم ، هو القوة الوحيدة التى تصحح ما اعوج من الأخلاق والقيم والمثل والآداب والتى تعد الإنسان للكمال اللائق به ، كما تمكن من تطهير الصروح الدنيوية من الفساد الذى يجرى فيها مجرى الدم فى الشرايين .

هذا الإيمان هو الطريق الوحيد لإحداث تغيير متميز بالسمات التالية :

* شموله لجميع أوضاع الحياة البشرية النفسية والاجتماعية والثقافية

---

(١) كل من كتب عن أسباب تخلف المسلمين فى أى عصر جاء بأسباب فى الإمكان ردها جميعا إلى هذا السبب الرئيسى ومع ذلك فقد غفل عن ربطها به وتفريعها عنه .

والسياسية والاقتصادية الخ ... وتوجيه هذه الأوضاع نحو خدمة الإنسان فى مسيرته نحو الكمال .

* اتجاهه نحو المستوى الأعلى دائما لاهتدائه بهدى الكمال الإنسانى الأعلى .

* تكوين مجتمعات يكون فيها التعلق بالله تعالى هو المحور الذى تدور حوله جميع وسائل الضبط الاجتماعى .

* بناء النظم على أسس تحقق قيام شعب الإيمان وتوجه إلى أداء ما حمله الإنسان من تكاليف الأمانة الإلهية ، وإلا فلامعنى لادعاء حب الله تعالى مع قيام نظم توجه الأفراد إلى الانقطاع عن الله تعالى .

* فتح الأبواب أمام الصالحين لقيادة المجتمع مما يوجد قيادات تتمتع بالمعرفة التامة والحكمة الحائلة دون التردى فى مهاوى الصروح الدنيوية المعاصرة .

* تأمين الشعوب والمجتمعات ضد برابرة البشرية من طلاب الغنائم والأسلاب وتجار الشعارات والأحلام الذهبية وقراصنة حقوق الإنسان وهواة استعباد الشعوب وإذلالها لإشباع نهمهم ورغبتهم فى التسلط الشمولى على حياة البشر ، ولا مكان لهؤلاء الجعلان فى أرض تشرق بنور ربها ومن عظم هؤلاء أو سار فى ركابهم أو كثر سوادهم فهو منهم .

* قصر فترة الانتقال مما يوفر الجهد والعناء على الأجيال والقرون إذ تحدث معجزة التغيير فى أقصر وقت ممكن .

* تجنيب الشعوب كارثة الوقوع فيما يسميه غربان الماركسية والاشتراكية العلمية (تجارب الصواب والخطأ) وهدفهم الرئيسى من هذا الشعار هو إيجاد (الشماعة) التى يعلقون عليها فشلهم المستمر فى كل شىء وفى نفس الوقت لا يستطيع أحد أن يحاسبهم على ما يقومون به من التخريب لأن المحاسبة

خروج على القاعدة، كما يتسترون وراء هذا المنهج الذى يعتبر من لوازم التطبيق الأساسية عندهم لفرض الدمار والضياع على الشعوب التى تدور فى فلكهم . مع أن هذا الخراب الذى يقود اليه زعماء الصواب والخطأ بصفة منهجية وهذا الضياع الذى يحققونه على جميع المستويات فى الحياة يضعهم طبقا لجميع الشرائع التى عرفها البشر فى نهاية مراحل الجريمة التى انحط اليها آدمى .

هذا ولو جمعنا جميع علماء التغيير يؤيدهم من شاءوا من فلاسفة ، وعلماء العلوم الإنسانية وطلبنا منهم إحداث تغيير تتوافر فيه شروط التغيير الذى يحدثه الأنبياء والمرسلون لعجزوا جميعا عن ذلك ولو عاشوا ملايين السنين لسبب بسيط جدا ، ألا وهو أنهم لم يخلقوا الإنسان ، بل لم يخلقوا ذرة فى هذا الوجود (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه. ضعف الطالب والمطلوب — ٧٣) سورة الحج .

فإذا كانوا هم أنفسهم معترفين بعجزهم عن إيجاد كائن حى فكيف يتمسكون بدعوى عريضة ألا وهى دعوى هداية الإنسان سواء السبيل ؟

والذى يتدبر فى تاريخ أرباب الدعوات الإصلاحية الذين حاولوا الإصلاح أو فرضه عن طريق غير هذا الطريق يجد أنهم فشلوا جميعا ولم ينجح منهم أحد عند تقييم تجربته الإصلاحية ككل : ذلك لأنهم أعجز من أن يحيطوا بجوانب الوجود الإنسانى . وما حاولوا سوى إصلاح زاوية من الزوايا التى كشفتها وجهة نظرهم . ولو قاسوا مافعلوه بالنسبة لمجالات الكمال الإنسانى لوجدوا أنهم على هواء .

إن توجيه البشر نحو الكمال الإنسانى لا يكون إلا للموصوف بكل كمال مطلق دل عليه هذا الوجود فهو الذى يهدى البشر إلى أعلى مراحل الكمال الإنسانى ذلكم هو الله تعالى .

ولما كان التغيير الصحيح الشامل المتجه نحو الكمال المطلق لايكون إلا عن طريق الارتباط بالله سبحانه ، ولما كان الارتباط بالله سبحانه لا يصح إلا عن طريق الهدى الإلهى كما بلغه النبيون والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين : كان من المحال أن يبتكر مخلوق طريقة تهدى الإنسان إلى الصراط المستقيم ، ومن ادعى ذلك فقد ادعى زورا وبهتانا جميع صلاحيات النبوات والرسالات التى لا تصح لبشر مالم يكن من الأنبياء والمرسلين والله تعالى أعلم حيث يضع رسالته إذ اصطفى سبحانه عبادا من خلقه يطيقونها ويطيقون حملها وأداءها باذن الله رب العالمين : فإن التبليغ عنه جل وعز مرتبة من المراتب التى لا يصلح لها إلا هؤلاء فقط من المصطفين الأخيار ، ولذا كانت سلامة البشر تقاس بقدر اتباعهم للمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم .

(ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس) :

إن هذه المرتبة العظمى مرتبة دعوة الناس إلى الله تعالى وهدايتهم سبيل الرشاد وتعريفهم بأسباب نجاتهم ، وتحصيل سعادتهم دنيا وأخرى ، إنما هى من فضل الله تعالى على المرسلين وعلى العالمين ، الذين يجب أن يقابلوا هذه النعمة الكبرى بما يليق بها من الشكر والثناء .

ومن الآية الكريمة يتبين أن هـــذا الفضل العظيم لا ينال بالدراسة ولا يكتسب بالقراءة والمطالعة فى الكتب . ولا يطلب بالتعلم والتلقى ولا بالتدريب ولا بالتمرين . . . . كما قد يظنه الجهلاء الذين وقعوا فريسة للكهنوت . . . بل إنه هو محض فضل الله تعالى يمن به على من اصطفى من عباده الذين يعلمهم الكتاب والحكمة ويكلفهم بتبليغ رسالاته إلى الخلق ، ودعوتهم إلى الدين القيم .

هذا الدين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لا يمكن التوصل إليه عن طريق تجارب الصواب والخطأ التى حولت الأرض إلى معمل كبير

لإجرائها . إذ لايشرق نور هذا الدين القيم إلا من الوحى الإلهى المقدس الذى ينسف كل باطل من أوضاع البشر ونظمهم نسفا ، ويرشدهم إلى بنائها على الوجه الصحيح الذى يتجه بهم إلى الكمال الأعلى ، ويجذبهم من ظلمات الانقطاع عن الله تعالى إلى نور التعلق به جل وعز ، والاهتداء بسنن النبيين والمرسلين .

إن هدى الدين القيم يبنى الإنسان[1] الذى يحركه فى كل مايصدر عنه تعلقه بخالقه ابتغاء مرضاته تعالى .

ومن فضله تعالى على الناس أن من عليهم إذ بعث فيهم النبيين والمرسلين، وهم بشر مثلهم يدعونهم إلى الله تعالى . وإذا قيست جميع الأفضال إلى جانب هذه النعمه لم يعدلها فضل أبدا ، ذلك لأن كل خير إنما هو رشحة من رشحاتها .

(ولكن أكثر الناس لايشكرون) :

هذه النعمة العظمى التى تتضاءل إلى جانبها كل نعمة، بل وتندرج فيها كل نعمة فى الوجود — وهى نعمة معرفته تعالى وطاعته وإفراده عز وجل بالعبودية ، والاهتداء بهدى النبيين والمرسلين — إنما هى أعظم النعم التى تستوجب الشكر،ولكن أكثر الناس غافلون عنها غير عالمين بقدرها وقيمتها .

---

(١) تدعى الشيوعية إن الانسان نوعان . « انسان قديم » ويندرج تحت هذا النوع كل من لا يؤمن ولا يعمل بها ، ويشمل فى هذا القرن الانسان البورجوازى والانسان الامبريالى والرجعى الخ . .

و (انسان جديد) وهو الذى يؤمن بها ، ويناضل فى سبيل نشرها ، واعتناقها وتطبيق تعاليمها . ويفخر الشيوعيون بانتاجهم لهذا الانسان الجديد أو «الانسان التقدمى» الذى تليق به ألقاب « الانسان المسيخ » و « الانسان المشوه » و « الانسان الضال » أو المختل أو الفاجر أو الكافر إلى آخر ألقاب الفسوق التى يستحقها الذين يحاربون الله تعالى ورسله صلوات الله وسلامه عليهم .

(ياصاحبي السجن ءأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار — ٣٩) :

بيان بعض ما في هذه الآية الكريمة من وجوه الإعجاز :

(ياصاحبي السجن) : لما كان اهتمام الرجلين متعلقا بتأويل ما رأياه احتاجا إلى ندائهما لجذبهما إلى من يوجه الحديث إليهما ، إثارة لانتباههما ، وإعلاما بأهمية ما يلقى إليهما ، وإلا فقد كانا معه عليه السلام ، وكانا يتحدثان معه ، وكان في الإمكان أن يشرع في بيان ما جاءا لأجله دون نداء .

وفي تخصيصهما بلفظ عزيز هو لفظ (الصحبة) إيناس للمدعوين إلى الله تعالى ، وتحريك المحبة في قلوبهم ، وجذبهم إلى ما يلقى إليهم ، وتأكيد للمودة والألفة معهم ، وهذا هو ما يتفق مع طبيعة الدعوة ، ليعلم المدعو أنه إنما يسلم نفسه لمن يحبه ويعطف عليه ، فيكون الكلام أوقع لديه . وأدعى للقبول . وفيه إشعار بصلاحيتهما للايمان .

ولفظ السجن قد بين أن هذه الصحبة قد حدثت في السجن ، ولم تكن موجودة قبله لاستبعاد أية شبهة تدعو إلى الظن بوجود هذه الصحبة قبل السجن ولو كان الأمر كذلك لقيل (أيها الصاحبان) .

ومن تدبر وجد أن الفارق كبير بين هذا النداء وبين غيره من وجوه النداء مثل « ياصاحبي الرؤيا » أو « أيها المستفتيان » أو « أيها الرجلان » وما شابه ذلك من أساليب موعزة بعدم وجود ارتباط بين المنادي والمنادى عليه ، وكأنهما غريبان تماما عنه عليه السلام .

(ءأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) .

محور الدين القيم هو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ولذا اتجه عليه السلام بادىء ذي بدء إلى هذا الأصل الذي تدور حوله دعوة العالمين إلى الله تعالى ، فلا يجوز الابتداء بالدعوة إلى الفروع دون تصحيح ذلك الأصل .

بهذا الاستفهام شدت الآية السامعين إلى تدبر القضية الكبرى التي تتوقف

عليها سعادة الإنسان تدبرا يطرح أقوى القضايا التى ينبنى عليها صحة تفسير الوجود طرحا لايمكن التهرب منه أبدا لتعلق الجواب بالمقارنة بين عقيدتين:

(الأولى) : تدور حول الإيمان بجيش من الأرباب المتفرقين وهى عقيدة القوم .

(الثانية) : الإيمان بالله الواحد القهار الذى ليس كمثله شىء .

وبهذا التنبيه وجهت الآية الكريمة الدعوة إلى السامعين ليخرجوا من سلبيتهم العقدية إلى الإيجابية التى تطالبهم بالإجابة على الاستفهام ، فاذا رفضوا تلك المقارنة كان ذلك اعترافا منهم ببطلان ملتهم ، لأن الإنسان شديد الحساسية فى كل مايمس عقيدته ، ولا يتردد فى الدفاع عنها بكل مايملك من وسائل الدفاع لأنه إنما يدافع عن صحة وجوده ، وأية حياة تبدأ دون البت فى هذا الجواب هى حياة مبنية على أسس باطلة ، ورفض الإجابة فى هذا المقام إنما هو دليل على نضوب معينهم من البراهين الدالة على صحة عقيدتهم إذ لا يصح أعتناق دين دون معرفة الأسس التى يرتكز عليها .

أما فى حالة قيامهم بالمقارنة بين العقيدتين فإن ذلك يسوقهم سوقا إلى اكتشاف ماهم عليه من الباطل الذى لا يقوم على دليل ولا يعترف به عقل ناضج .

إن القوم لو بحثوا فى حقيقة عقيدتهم لوجدوا أنهم قد أسسوا أخطر شىء فى وجودهم — إذ عليه تتوقف سعادتهم — أسسوه على ماوجدوا عليه الآباء والأجداد ، دون أن يكلفوا أنفسهم مؤونة التفكير ولا التدبر فى صحة ماوصل إليهم ، ولكن ماهو السبب الذى مد فى كسلهم العقلى هنا فلم يوجهوا إلى هذه القضية من العناية ماهى أهله ؟ مع أنها قضية تتوقف عليها سلامة نظمهم وصحة أوضاعهم وسعادة الأجيال فى الحاضر والمستقبل ؟

إن السبب فى ذلك هو خشيتهم من نتيجة المقارنة وإحساسهم الباطن الذى يحذرهم منها خشية إنهيار ماهم عليه من عقيدة ونظم مبنية عليها ، إنهم

يخشون مواجهة الحقيقة العظمى وهى أنهم ليسو على شىء ولا معنى لهذا الاكتشاف سوى السقوط والضياع والعدم ، إنهم يرهبون مواجهة تؤدى إلى تداعى صروحهم الدنيوية على رؤوسهم ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نجد أن كل ما فى هذه الصروح يشدهم إليها ويدعوهم إلى سد آذانهم كيلا يسمعوا شيئا يهاجمها . كما يدعوهم إلى أغلاق عقولهم وحجب أبصارهم عما يخالف صروحهم التى اعتادوها ، ولذا كان شعار الايديولوجيات الشمولية الحديثة (لا أسمع لا أرى لا أتكلم) اه ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء . صم بكم عمى فهم لا يعقلون — ١٧١) السورة التى ذكرت فيها البقرة .

وهذا يبين لنا مدى قوة تشبث السواد الأعظم بتعاليم الصروح الدنيوية إلى درجة إلغاء وظيفة القوى المدركة للانسان ولو تأملوا وتدبروا وخرجوا قليلا من قواقعهم المسيطرة على وجودهم لعلموا أن خوفهم هذا ليس فى موضعه :

(أولا) لأن هدم الباطل لا يهدم الحياة بل يوجهها — إذا كان فى سبيل الله تعالى — إلى الكمال وإلى إقامة الحق ، أما هدم الباطل لإقامة باطل آخر فهو إمعان فى الفساد فى الأرض . والله لا يحب الفساد .

(ثانيا) إن المخيف ليس هو ترك هذه العقيدة الباطلة بل هو الإقامة عليها مع جهلهم بحقيقتها وتمسكهم الأعمى بها .

إن هذا المنهج المقارن يقتضى تتبع ما يترتب على عقيدة الأرباب المتفرقين ليلمسوا بأيديهم فسادها ، وفساد ما يترتب عليها ، كما يقتضى تدبر ما يترتب على عقيدة التوحيد الخالص من توليد للطاقات الضرورية للحياة القويمة ، وتوفير البيئة الصحية التى تسمح للانسان بالإنطلاق نحو الكمال دائما .

إن هذه المقارنة تستلزم :

* تتبع عقيدة الشرك ، ومعرفة أصولها ، وأسبابها ومسبباتها ، وأى تدبر فى ذلك يقود إلى معرفة وجوه فسادها ، والعلم بأنها لا ترتكز إلا على عقائد وضعية ولدتها الصروح الدنيوية ، قد تواطأ البشر فى حالات إنقطاعهم عن الله تعالى — على نحتها لتتناسب مع مقتضيات صروحهم .

وإن بناء الحياة على أساس عبادة أرباب متفرقين إنما هو بناء مبنى على مصادرات منها :

١ — توجيه العبودية والقداسة والتألية إلى مجرد مخلوقات عاجزة مجردة من خصائص الألوهية والربوبية ، فى حين أن العبودية تقتضى أن تكون الوجهة إلى إله واحد قادر قاهر للموجودات منزه عن الشريك .

٢ — عبادة الصانع لما يصنع وخضوع البشر لآلهة قاموا هم بنحت أسمائها وصفاتها بل وذواتها وشخوصها ، فعبدت الصور والأيقونات والتماثيل وقوى الطبيعة ، وأفراد من البشر إلخ ...

٣ — عبادة الأعلى للأدنى كعبادة المشركين لمخلوقات هم أرقى منها عنصراً ، فهى مخلوقات لا تستطيع التصرف مثل تصرفهم وتشترك معهم فى أنها لا تملك إفاضة الوجود على ذواتها فهى إذن آلهة تستمد الوهية مزيفة من عابديها !!

٤ — تنازل البشر عن بشريتهم وتحولهم إلى عبيد لمجموعات متعددة من الأرباب المخلوقة التى لا وجود لها إلا فى أذهانهم وتصوراتهم .

٥ — الإنقطاع الكلى عن الله تعالى فى سبيل عبادة العديد من الأرباب ، وهذا الانقطاع عن الخالق يولد نفوسا لا تعرف سبيلا للكمالات إلا بقدر ماتسمح به صروح دنيوية لاتصلح إلا لمعرفة كمالات نسبية قد تكون أروع صور للانحطاط ، ولذا نجد أن أمثال هؤلاء إذا ما حاولوا أن يحققوا الخير ، فإنهم يفعلون ذلك فى حدود مفاهيمهم الدنيوية بغض النظر عما ينجم عن ذلك

من شر أو خير، بل إن هؤلاء يكونون أشد اغتباطا بمن يوصلهم إلى مقاصدهم مهما جاءت به من الشرور، ويكيلون الثناء لمن يسعفهم بمرادهم، ويعتبرون أن ما أسداه إليهم جدير بأن يخلده فى التاريخ. هذا وإن حدث وخالفوا ما اعتادوه أعتبروا ذلك منهم خروجا على الطريق الأمثل وسرعان مايعودون إلى سلوك سبيل صروحهم الدنيوية.

٦ — إن تعدد الأرباب يستلزم تبعية البشر لصروح دنيوية منقطعة عن الوحى الآلهى — عن الإسلام — الدين الحق. وتتسم النظم الدينوية بطابع الصروح الدنيوية التى تنتمى إليها، ويشوبها من النقص بقدر الانقطاع عن الكمال المطلق، ولقد خضع الدين داخل هذه الصروح لأكبر عمليات التزييف والتزوير فى الحياة، وذلك عن طريق زحزحة الدين ليحل محله نظام كهنوتى دنيوى يخضع لما تخضع له بقية النظم داخل الصرح الدنيوى، وفى إطار هذه الكهنوتية يسيطر الكهنة على حياة الإنسان بدعوى الوساطة بينه وبين خالقه وبدعوى حاجة الإنسان إلى وصاية دينية تفرضها صلاحيتهم المطلقة لتفسير الدين فيمارسون سلطات هى أبعد ماتكون عن الدين، وهى موزعة بشكل دقيق يتدخل فى جميع مظاهر النشاط الإنسانى، السياسى والتعليمى والفكرى، والتشريعى والقانونى والقضائى، والأخلاقى إلخ... وسرعان مايتم تحويل الدين إلى نظام كهنوتى له تعاليمه وطقوسه وتقاليده التى تصرف الإنسان عن الخالق باسم الدين! الذى يتحول إلى عالم تباع فيه صكوك الغفران، وتوزع، الجنان وتسعر المغفرة حسب مايراه المسيطرون على هذا العالم الكهنوتى، وقد قاست الشعوب الأمرين خلال هذه المرحلة من تاريخها، واستمر ذلك حقبة من الدهر تختلف طولا وقصرا حسب التركيب التاريخى للصرح الدنيوى وقد مكثت أوربا طوال القرون الوسطى وهى تعانى من هذا البلاء مــــدة تبلغ حوالى ١٠٠٠ عام.

ولما استيقظ الأوربيون على ضوء تعاليم الإسلام، إشتعلت الثورات

فى كل مكان ، واستمرت فى بعض الأماكن عدة قرون ، وانتهى الأمر برفض الصروح الدنيوية للعصر الوسيط وتأسيس صروح دنيوية جديدة تقوم على عزل المسيحية عن الحياة ، لحلوا المشكل بشكل آخر أشد تعقيدا يربط الإنسان بنظريات دنيوية كونية لا مكان للايمان بالله تعالى فيها ، وقد تضمنت مالانهاية له من الأرباب التى تتحكم فى مصير الإنسان ، ويمثلها كل عنصر دنيوى قاطع للانسان عن الكمال .

ويستلزم الولاء لهذه الأرباب تكبيل الإنسان بأغلال التبعية لصروح دنيوية تموج بالضلال إذ تفسر الوجود على أسس باطلة مزورة ، ويقتضى ربط الإنسان بهذا التفسير وضع نظم دنيوية تربط المجتمع والأفراد بتفسيرات تغرقهم فى الظلمات وتقطعهم عن الخالق سبحانه وتعالى .

٧ — تكوين مجتمعات مغلقة يتقوقع كل منها داخل صرحه الدنيوى لا يتعداه ولا يخرج على قيمه ومعاييره وأفكاره، ومعتقداته : ولذا نجد أن دولا متقدمة فى إرتباطها بالأشياء تأتى مجتمعاتها فى مقدمة المجتمعات المغلقة ويتمثل هذا الانغلاق فى توريطها للمجتمع الدولى كله فى حروب باردة وجيوب نارية وحروب ساخنة من أجل تحقيق أهداف صروحها الدنيوية التى لا تتحقق إلا عن طريق فرض سيطرتها على العالم أو إزالة صروح دنيوية معادية لها .

٨ — تؤدى عقيدة التعدد فى المجالات النفسية إلى ظهور شخصيات مشوهة مراهقة أو مريضة بأمراض تقوم على عبادة الذات أو الغير أو تدين بالشوفينية والخضوع والخشوع لغيره تعالى — وقد أصبحت الشعوب النامية مشتلا لتربية أجيال يسودها الشك ، تريد أن تظهر بمظهر الرجال بأفعال الصبية والصغار :

وقلب كقرط الغانيات مفزع ... وإرادة من حيرة وشكوك
عاشوا صعاليك الحياة وليتهم ... ظفروا بصدق عزيمة الصعلوك
أبقت ليالى الأنس من أخلاقه ... فزع النعامة وازدهاء الديك

أن عقيدة الشرك تدمر صاحبها نفسيا إذ أن الشرك هو العامل الرئيسى لدين عبادة النفس ، فكل عبودية لغيره تعالى مردها إلى أصل نفسى ، فما عبد المشرك فى الحقيقه سوى نفسه .

قال العارف أبو الحجاج[١] الأقصرى :

قالت لى نفسى مرة من ربك ؟

فقلت : ربى الله ! !

فقالت لى : ليس لك رب إلا أنا : فإن حقيقة الربوبية امتثال العبودية : فأنا أقول لك : اطعمنى ، تطعمنى . نم ، تنم . قم تقم . إمش ، تمش . إسمع ، تسمع . إبطش ، تبطش . فأنت تمتثل أوامرى إذن فأنا ربك وأنت عبدى .

قال فبقيت متفكرا فى ذلك حتى ظهرت لى عين من الشريعة فقالت لى : جادلها بكتاب الله تعالى .

فإذا قالت لك نم . فقل لها (كانوا قليلا من الليل مايهجعون) وإذا قالت لك : كل . فقل لها (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) .

فجعل أعماله كلها لله تعالى ولم يجعل للنفس فيها أى حظ .

وحكى الإمام أبو العباس[٢] المرسى فى مجلس من مجالس العلم أن ملكا من الملوك قال لبعض العارفين : تمن على .

فقال له ذلك العارف : تقول ذلك لى ، ولى عبدان قد ملكتهما وملكاك وقهرتهما وقهراك : هما الشهوة والحرص . فأنت عبد عبدى . فكيف أتمنى عليك .

قال العارف الكبير داود بن ماخلا :[٣]

---

(١) العارف يوسف بن عبد الرحيم بن غزى الحسينى ت ٦٤٢ هـ .

(٢) العارف أبو العباس المرسي توفى ٦٨٦ هـ بالإسكندرية .

(٣) العارف داود بن ماخلا الشاذلى توفى بالإسكندرية عام نيف وثلاثين وسبعمائة .

من علامة عدم حرية الرجل نقله قدمه حيث قاده هواه .

وقال العارف أبو مدين[1] التلمسانى :

ماوصل إلى صريح الحرية من بقيت عليه من نفسه بقية .

• وفى مجالات التشريع يقتضى تعدد الأرباب استمداد المشروعية العليا من مصادر مزورة ، تبرر الارتباط الدنيوى بأرباب اخترعتهم الأوهام البشرية وزيفت وجودهم لقطع الناس عن الوحى الإلهى ، واتباع ماتوحى به الشياطين إلى كل أفاك أثيم .

• وفى المجالات الاجتماعية تدور النظم فى المجتمعات حول محور القوة حيثما دار ، ويتحكم أرباب المصالح المسيطرون على هذا المحور فى العطاء والمنع دون اعتبار لكرامة الإنسان وحقوقه ، بل العبرة بالمسامحات التى تمنحها مراكز القوة والسلطة ، حسب الضغوط الواقعة عليها ، فتزداد حدة الظلم كلما خفت هذه الضغوط وتقل كلما اشتدت .

وفى المجالات السياسية ينفتح الباب على مصراعيه لتأليه الفرد وعبادته وتقديسه ، كما يصبح ولاء الأفراد للنظم والايديولوجيات لا لله تعالى .

وفى مجالات الاقتصاد يصبح المحور الرئيسى لكل نظام اقتصادى هو دعم الصرح الدنيوى الذى ولد هذا النظام ولا تهتم هذه النظم فى كثير ولا قليل بما تستفيده البشرية منها مما يعجل بهلاك الشعوب ودمار البلاد ، وزيادة حدة الصراع بين الامم ، ولا سبب لذلك سوى التعلق بنظم اقتصادية لاتتجه إلا إلى ربط المجتمعات بالصروح التى تنتمى إليها .

تعدد الارباب يقترن بقيام نظم دنيوية غير صالحة للاتجاه نحو الكمال الاعلى:

إن كثرة الارباب تستلزم تعدد الإنسانية بتعدد مصادرها - وهو تعدد يقتضى التناقض والتصادم والاتجاه إلى الانحطاط لا إلى التقدم إذ أنه مبنى

(١) أستاذ العارفين أبو مدين شعيب التلمسانى ت ٥٩٤ هـ .

على تضارب المثل الموجهة إلى الكمال، وتصادم هذه المثل وتعارضها، ولا نتيجة لذلك سوى تشتيت المجهودات الإنسانية بين المجتمعات المختلفة وتأصيل أسباب الخلاف بين الامم والشعوب، وحصيلة ذلك هى: تأميم البؤس والشقاء وانهيار حقوق الإنسان، والاتجاه إلى الصراع لا إلى الوفاق، إذ يصبح كل ماقرب من هذه النظم فهو حق، وكل ماباعد عنها فهو باطل، فيحل التقييم الدنيوى المزيف محل التقييم الصحيح الذى يرشد إليه الهدى الإلهى، وتخضع حقوق الإنسان وواجباته للأحكام الوضعية مما يعرضها لكل تلاعب ممكن عن طريق الفساد والجهل والاستبداد وكلها طرق غير مشروعة إذ أن أى تدخل لتحديد هذه الحقوق والواجبات الاساسية إنما هو ادعاء لمرتبة الالوهية.

وتفسد العلاقات لتولدها عن مصادر فاسدة، تدفع كل مجتمع إلى صبغ البشرية بالصبغة الملائمة لهذه المصادر من حيث العقيدة ومن حيث المثل والقيم والفكر، وهذا يعمق من أسباب تعدد الصروح تعددا يلزم منه تمزقها بسبب الجهل بحقيقة الإنسانية التى لاتتعدد، والجهل بالعقيدة الواحدة التى لاشرك فيها وهو جهل يدفع إلى مواجهة ظروف لايمكن أن توصل إلى الاستقرار أبدا.

لقد تضمنت الصروح الدنيوية نظما سياسية واجتماعية واقتصادية تحقق قيام نظريات خاطئة ولدها على مر الاجيال التواطؤ على الانحراف عن الحق، ووضع نظريات فاسدة لسد الفراغ الناجم عن غيبة الصلة بالخالق سبحانه ليجد أهل الضلال قواعد تسمح لهم - مهما كان زيفها - ببناء وجودهم الدنيوى عليها.

هذه الصروح الدنيوية مبنية على ماسببه الانقطاع عن الله تعالى من صراعات دائمة بين البشر أفضت إلى تأسيس تلك الصروح التى تختلف من مجتمع إلى آخر حسب البنية الفوقية لهذا المجتمع.

فالاصل الذى نشأت عنه هذه الصروح يجردها نهائيا من الصلاحية للاتجاه نحو الكمال الاعلى، فهى ليست وليدة التوجه إلى الحق سبحانه وتعالى ولكنها

وليدة صراع طويل ولده التعلق بالدنيا قد تكونت معه نظم دنيوية معينة تتشبث بها المجتمعات ، وتتناقض فيما بينها تناقضاً يولد الصراع بصفة دائمة.

هذه الصروح والنظم الداخلة فى تركيبها تحرم الإنسانية من الخاصية الرئيسية التى تجعلها صالحة لكل رقى وتقدم وكمال . خاصية الارتباط بالله تعالى، وتترك البشر فى مهب الرياح التى تربط الإنسان بالدنيا وحدها .

ولما كان كل أساس يحاول البشر الاستقرار عليه بعيدا عن الوحى الإلهى — إنما هو أساس فاسد ، لذا لم تستقم لهؤلاء حياة ولم يكمل لهم نظام وهذا هو سر المعاناة التى تواجهها البشرية فى القرن الرابع عشر الهجرى وهى على أبواب القرن الخامس عشر .

لقد هجر الناس الوحى الآلهى ليواجه بعضهم بعضا مواجهة الوحوش الكاسره بمفاهيم دنيوية كائنة ما كانت قد تجعل من السفاحين أبطالا ، ومن إباده الشعوب أعمالا مجيده ، ومن أحط الرذائل فضيلة،وقد تكرم الانحطاط فتخلع عليه أفخم ألقاب الرقى والتقدمية : وذلك لأنها منطلقة من صروح دنيوية توحى بهذا الانحراف وتفضى إلى هذا السلوك الشاذ .

إن عقيده الشرك هى مصدر كل بلاء حل بالبشرية ، فالشرك هو محور كل عبودية لغير الله تعالى ، وهو الهيكل الرئيسى لكل صرح دنيوى يربط الإنسان بغير خالقه سبحانه .

والشرك هو العامل الرئيسى فى كل تركيب اجتماعى يطحن الإنسان وينسف حقوقه نسفا ، ويتركه فى مهب الرياح الاجتماعية الدنيوية التى قد تسير فى صالح شهواته ولكنها تنتهى دائما بتدميره .

إن تصرفات الدنيويين لها طابع مميز لا يؤدى فى النهاية إلا إلى الدمار ، ومن خصائص هذه التصرفات : —

• إنها تصرفات مرتبطة ببناء دنيوى (صرح دنيوى) تختلف المفاهيم الداخلة فى تركيبه مع باقى الصروح .

• إنها تصرفات متجهة إلى دعم هذا الصرح الدنيوى لا إلى دعم الكمال الإنسانى :—

• إنها تصرفات مرتبطة بهدف دنيوى قاطع عن الله تعالى ، ولذا لا يمكن أن تتبلور هذه التصرفات حول هدف ثابت تلتقى عنـــده باقى التصرفات الإنسانية .

• إنها تصرفات لاثمرة لهـا ولا نتيجة سوى وضع البشر أمام ضروب جديدة من المعاناة .

• إنها تصرفات نابعة من نظم وعقائد مزيفـة تتجه إلى قطع الإنسان عن الكمالات الحقة وعن الكمال الأعلى .

ولذا نجد أن أحد قادة الشعوب يعلن عن مبادىء يعتبرها الغاية التى تنتهى عندها مرحلة القلق لتبدأ مرحلة الاستقرار،وفى نفس الوقت يتقدم معاصروه بمبادىء مضادة تقوض النظريات التى أعلنها — وتستمر عمليات التزييف بين التغيير والتقويض والإحلال والإزالة ، حسب تناقض وجهات النظر ، لا طبقا لما تقتضية حقائق الأمور ، حتى إذا ماتم الانقطاع عن الله تعالى أصبح كل مايفضى إلى الكمال جريمة،وكل مايقطع عن الله عز وجل كمالا ... نعوذ بالله تعالى من شر هؤلاء ، ومن شر مايقرب إليهم ...

الانقطاع عن الله تعالى يؤدى إلى تـكوين صرح دنيوى يحل محل الهدى الآلهى :

(لم يدخل الظلام على الإنسان إلا من تعلقه بالأشياء أشد من تعلقه بالله تعالى ، وهذا التعلق إذا كمل ، أفضى إلى الانقطاع نهائيا عن الخالق سبحانه ، وبمضى الزمن يتـكون من علاقة الإنسان بالأشياء صرح دنيوى

جاهلى ينتظم كل مايربط صاحبه بالمجتمع : من تقاليد وعادات ونظم وأخلاق وتشريع، وتتحكم مضامين هذه الصروح فى العلاقات الاجتماعية، كما تحدد الأهداف والغايات، ويصبح كل شىء مطبوعا بطابع الانقطاع عن الخالق سبحانه .

(فانقطاع الإنسان عن الله تعالى أدى إلى قيام أنواع من الصلات المزيفة بين الإنسان وبين الأشياء ، لتكون بديلا عن صلته بالله تعالى ، ولتشغل الفراغ الناجم عن هذا الانقطاع ، وهكذا يستبدل الإنسان كل صلة تصله بمعنى قدسى بصلة تربطه بالأشياء ، ومعنى ذلك أن وجود الإنسان يصبح تابعا للأشياء التى تتحكم فيه بنسيانه لخالقه ، فيشغل الارتباط بالأشياء جميع أوضاع الحياة البشرية من مشاعر وعواطف وأخلاق وعادات وتقاليد وروابط وغيرها من مضامين الوجود البشرى ومظاهره الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدستورية والثقافية ، وإذا ما كمل الانقطاع عن الله تعالى عاش الإنسان فى الشىء وبالشىء وللشىء ، ومن ارتبط هذا الارتباط الكلى بالاشياء استبعد من وجوده ارتباطه بخالقه ، وهكذا يقلب وجوده رأسا على عقب ، فبدلا من الاستغناء بالله تعالى ، يستغنى عن الله تعالى وهذه المرتبة هى أسفل مراتب الانحطاط البشرى)(١) .

الكمالات الانسانية التى تفجرها عقيدة التوحيد فى الاسلام :

إن عزيز رفيع منيع مرتبة الألوهية تقتضى أنه تعالى ليس كمثله شىء ، فلا يشاركه تعالى فى صفاته القدسية وأسمائه الحسنى وكمالاته العليا شريك ، كما تقتضى ألا يقصد بالعبودية أحد سواه تعالى .

وتتوقف الكمالات الإنسانية على التعلق بالله سبحانه ، طبقا للهدى الآلهى ومن هذه الكمالات :

١ - ولاء الإنسان لله تعالى فى جميع شئونه ولا يتم ذلك إلا إذا كانت

---

(١) القرآن يتحدى : للمؤلف : ص ٥٢ .

المقاصد والنيات كلها خالصة لله تعالى . وحينئذ تكون المسيرة إلى الكمال الأعلى دائما ، ولا يصدر عن الإنسان إلا ماهو خير ، ولا يتجه إلا إلى مافيه سعادته وسعادة الناس جميعا .

٢ — التحرر من أغلال الصروح الدنيوية التى تربط الناس بالدنيا لا بالله تعالى ، وهذه هى الحرية التى تطلق الإنسان من ربق القيود التى يفرضها التعلق الدنيوى بالأشياء .

إن عقيدة الإسلام هى أساس التحرر من العبودية لغير الله تعالى ، وبدون ذلك لا يذوق البشر طعم الحرية الحقة أبدا .

٣ — فى مجالات التشريع تكون المشروعية العليا فى كل شىء للشريعة الآلهية مما يحفظ الإنسان من التلاعب بحقوقه ومصيره فلا يمكن أن تزاحمها أية مشروعية أخرى لعدم صلاحية المخلوقات لتحديد المشروعية المفضية إلى الكمال الأعلى .

وأى انحراف عن سبيل الهدى الآلهى إنما جاء بسبب إسناد المشروعية العليا إلى مبادىء وضعية توجه التشريع إلى ربط الإنسان بما يعزله ويقطعه عن الخالق سبحانه فيكون فى ذلك هلاك الإنسان والمجتمعات .

فالعقيدة والشريعة فى الإسلام يقيان المجتمعات من جهنم الخروج على أحكام الله تعالى فلا عذاب كمثل هذا العذاب :

(وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون — ٥٤) ٣٩ : سورة الزمر .

قال إبراهيم الخواص (ت ٢٩١ هـ) فى تأويل هذه الآية الكريمة :

الإنابة أن ترجع بك منك إليه ، والتسليم أن تعلم أن ربك اشفق عليك من نفسك ، والعذاب عذاب الفراق) والقطيعة .

٤ — وفى المجالات السياسية يكون المقصد الأعلى هو إعلاء كلمة الله تعالى

وسيادة أحكام الشريعة ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولا استغلال للمناصب ولا تنافس عليها من أجل الكسب ، أو لمجرد اشباع غريزة التسلط للتحكم فى رقاب العباد .

والانحراف عن هذا المقصد الأسمى يؤدى إلى ظهور نظم سياسية قائمة على عبادة الفرد وتقديسه ، فتتحول رعاية الشعوب إلى جبروت ورهبوت يتمثل فى عصابات إرهابية يستند إليها قراصنة الحكم والمناصب المحافظة على مكاسبهم باسم إسعاد الأمة وإصلاح أحوالها والسعى فيما يحقق رفاهيتها إلخ..

٥ — وفى المجالات الدستوريه يكون للافراد وللمجتمع حق الرقابة التامة على الحكام ، وحق المشورة فى شئونهم العامة .

٦ — وفى المجالات الإدارية تكون المسئولية موزعة بين جميع مستويات السلطة ، وهى مسئولية تجعل الوظيفة تكليفاً لا تشريفاً ، خدمة للشعب وليست تسلطا عليه ولا تحكماً فيه .

٧ — وفى المجالات الاجتماعية تتفجر الرعاية الاجتماعية الكاملة من شعب الإيمان لا من وسائل الدعاية ، ولا من شعارات التخدير التى تستخدم للوصول إلى كراسى الحكم بأى ثمن ، حيث تكون الرعاية المحاسيب والأنصار والطليعة والحزب والكوادر إلخ ... ولو أدى ذلك إلى الضياع الكامل .

٨ — وفى المجالات الاقتصادية يكون المحور الرئيسى الذى تدور حوله جميع مظاهر النشاط الاقتصادى هو تسخير عناصر الاقتصاد لسد جميع وجوه الإنفاق فى سبيله تعالى ، وعدم تعطيلها بوجه من الوجوه سواء فى مجالات الانتاج أو التوزيع أو الإستهلاك أو المحافظة على كيان الأمة .

٩ — وفى مجالات القيم والأخلاق تقوم المعايير ويدور السلوك على أساس التخلق بالخلق النبوى الكريم إذ أن تصرفات الإنسان لا تسير فى اتجاه الصراط المستقيم إلا فى حالة إتباع الهدى الآلهى ، حينئذ تكون هذه التصرفات مرتبطة

بهدف باق لايزول ، متجهة دائما نحو الكمال، تبنى ولاتهدم ، متميزة بالأصالة وعدم التبعية لأى فكر دنيوى .

١٠ — وفى مجالات العلاقات الإنسانية والميادين النفسية نجد أن عقيدة التوحيد فى الإسلام هى السبيل الوحيد للكشف عن عيوب النفس البشرية وعلاج أمراضها وآفاتها ، إذ أنها السبيل الوحيد لتطهير النفس من كل شرك يؤكد هذه العيوب ويرسخ هذه الأمراض ويثبتها .

هذه العقيدة الاسلامية تطهر النفوس من كل اتجاه يربط الانسان بالعبودية لغير الله تعالى كما توجه الانسان إلى الاحسان فى جميع شئونه ومعاملاته وعلاقاته.

١١ — إن جهل البشر بحقيقة الانسان، وحقيقة الوجود، وحقيقة الكمال لامعنى له سوى التمسك بالهدى الآلهى

وكيف ينعم بالوجود من لم يهتد بهديه تعالى ؟!

وعلى أى أساس يسير هذا الذى لايستضىء بنوره عز وجل ؟!

وإلى أية وجهة يتجه هذا الذى نسى خالقه سبحانه ؟!

وإلى أية نهاية ينتهى من يطاب غيره جل جلاله ؟!

وأى كمال يبتغيه هذا الذى يضرب فى سبل المعرفة والقيم والمثل والسلوك بلا هدى ولا كتاب منير ؟!

وأى هدف تتبلور حوله أفعال هؤلاء الذين يطلبون الدنيا ولاهم لهم سواها ؟!

وأى ارتباط بين الحياة الدنيوية وبين البعث فى نظر عباد الدنيا ؟ وأية فائدة أو قيمة لأعمال البشر إذا كانت تنقطع بانتهاء دنيا الإنسان ولا صلة لها بالحياة الآخرة ؟!

وكيف يربط النظم بالكمال الأعلى ، هؤلاء الذين لايعرفون هذا الكمال ولا يستضيئون بنور الله تعالى ؟!

وكيف يسلك الصراط المستقيم هؤلاء الذين عجزوا عن معرفة حقيقتهم ؟!

١١ — إن عقيدة التوحيد تعنى وحدة الدين ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ، كما تعنى وحدة المثل الإنسانى الأعلى : وحدة الإنسانية، ووحدة الصراط المستقيم الموجه إلى الكمال الأعلى ، ووحدة الهدف .. وكل ذلك يؤكد ويدعم الأصول والقواعد الحقيقية التى يجب أن تلتزمها البشرية كما تعنى استحالة فصل الكمال الإنسانى الأعلى عن الهدى الآلهى المقدس .

١٢ — أن عقيدة التوحيد تحول دون الإنحراف فى تفسير الوجود الذى لا يصح تفسيره إلا على أساسها كما بلغها الأنبياء والمرسلون لاقوامهم ،وكما بلغها إمام الهداة صلوات الله وسلامه عليه:للعالمين، فوصلتنا محفوظة من التحريف والتبديل فى قرآن يتلى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد — ٤٢ ، ٤١ — سورة فصلت .

وأى تفسير آخر للوجود إنما هو تفسير دنيوى مزور يدفع بالبشر إلى هاوية من الشقاء ما لها من قرار .

١٣ — وكيف يصح نظام لمن يعبد سواه عز وجل ؟!

ولو تتبعنا التاريخ البشرى لوصلنا إلى هذه القاعدة التى نطرحها أمام جميع العلماء والمفكرين والفلاسفة وهى :

(إن الكمال البشرى يتناسب تناسبا طرديا مع التعلق بالهدى الالهى ، وإذا ما كمل هذا التعلق فان البشر يكونون صالحين للترقى فى مراتب الكمال إلى مالا نهاية) .

والعكس صحيح وهو :

(إن الانحطاط البشرى يتناسب تناسبا طرديا مع الانقطاع عن الله تعالى وإذاما كمل هذا الانقطاع فإن البشر يكونون قابلين للانحطاط إلى مالا نهاية) .

ويؤخذ من هذه القاعدة : —

(ا) إن البشر ما اتجهوا إلى الكمال إلا فى فترات تعلقهم بالله تعالى واتباعهم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم .

(ب) إن أعلى مراتب الكمال البشرى خاصة بمرتبة الكمال الإنسانى الأعلى.

(ح) إن مرتبة الكمال الإنسانى الأعلى هى مرتبة من كان خلقه ومعجزته القرآن العظيم .

(د) إن أعلى مراتب المجتمعات البشرية هى مرتبة المجتمع الإسلامى المعاصر لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(هـ) إن المجتمعات التالية فى الكمال هى المجتمعات الإسلامية التى أسسها الأنبياء والمرسلون .

(و) إن الانحطاط البشرى يقاس بقدر الظلام الداخل على علاقة المخلوق بالخالق سبحانه .

(ز) إن أحط المجتمعات البشرية هى المجتمعات التى كمل انقطاعها عن الله تعالى .

﴿ ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ من الآية ٤٠

الفصل الثالث

إما الإسلام وإما البربرية

جميع الأديان الوضعية باطلة لسبب بسيط ذلك لأن تشريع الدين يتطلب الإحاطة بكل ما اتصل به الوجود، وهذه الإحاطة ليست من خصائص البشر ولا المخلوقات فى شىء، فمن دعا إلى دين وضعى فقد ادعى لنفسه خصائص الالوهية ... فما أثبت لنفسه سوى الفسق والفجور والجهل والظلم والكفر والتجرد من القابلية للكمال الإنسانى.

وما دامت الأديان الوضعية باطلة فكل ما بنى عليها فهو باطل، ونهايتها الحتمية هى تدمير المؤمنين بها. فالدين الحق كله لله تعالى ليس لمخلوق فيه نصيب، وهو السبيل الوحيد لنجاة البشر وفوزهم فى الدارين.

ومن رحمته تعالى بعباده أن اصطفى منهم صفوة يبلغون رسالاته وكلامه ويبينون للعالمين طريق الهدى وسبيل الرشاد. وكما أن دعوة الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم تدور كلها حول عقيدة التوحيد التى بدونها لا تستقيم حياة لاحتجاب من لا يؤمن بها عن معرفة الله تعالى فيحتجب عن كل كمال، فإن دعوة الأديان الوضعية تدور حول محور يتناقض مع دعوة الأنبياء: ألا وهو محور الشرك والانقطاع عن الله تعالى.

ولو قارن القوم بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك لتبين لهم فى أية هوة تردوا، وبأى باطل تمسكوا وتعلقوا، ولو صدقوا فى المقارنة: لوجههم صدقهم إلى قبول دعوة الحق : دعوة الدين القيم .

﴿ ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله . أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾.

الكلام على ما فى هذا الجزء من الاية الكريمة من وجوه الاعجاز (١) .

• يفهم من قوله ﴿ ماتعبدون ﴾ أن العبادة لاتكون إلا بمستند شرعى

---

(١) لقد فجرنا المعرفة ـ ونحن على أبواب قرن هجرى جديد ـ تفجيرا هيدروجينيا يصحح مسارها بإصدار كتابنا (القرآن يتحدى) الذى يعتبر بحق الانطلاقة الأولى فى عمليات تفجير تجلية الاسلام المبنية على ما أطلقنا عليه (التأويل المبين لوجوه الإعجاز القرآنى) لتحرير المعرفة الاسلامية مما شابها من أخلاط الصروح الدنيوية ويقتضى ذلك :

* التركيز على وجوه الاعجاز التفصيلية للعالمين والقيتمان أن هذا الكتاب الآلهى لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من الكمالات وسبل الهداية إلا أحصاها وكل دعوة من دونه فهى باطله .

* التنبيه إلى الكمال المطلق فى الهدى القرآنى وأحاطته بكل كمال احاطة تظهر حقيقة الثقافات المنبثقة من الصروح الدنيوية القاطعة عن الله تعالى .

* تفصيل الكمال الإنسانى الاعلى المجسم فى أحوال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كما بينها القرآن العظيم ، وفصلتها السيرة المشرفة العاطرة .

بيان التوجيه القرآنى للمعرفة البشرية والذى يحول دون تملق الإنسان بشىء من الصروح الدنيوية الباطلة .

* تقييم الحضارات والحياة والنظم من حيث الصلاحية والفساد والرقى والتخلف على قدر القرب أو البعد من الهدى القرآنى الكريم .

* تقييم وسائل الضبط الاجتماعى على قدر صلاحيتها لاداء متطلبات شعب الإيمان واستجابتها للهدى القرآنى الاعلى .

فلا يعبد تبارك وتعالى إلا بماشرعه وبينه ونزل به الوحى ، فلا تخضع العبادة للمقاييس الدنيوية الوضعية أما العبادة التى يؤدونها فما هى إلا تصرف شخصى صادر عنهم بلا مستند شرعى، وما اتجهت عبادتهم إلا إلى ماسولت لهم أنفسهم فهى عبادة باطلة من أساسها لم تصنعها سوى نفوس محجوبة عن الحق تائهة فى بيداء الضلالة فحقيق أن يقال لهؤلاء: من أسوأ السيئات أن تأتوا بباطل من عندياتكم لتفرضوه على فاطر السموات والأرض وخالق كل شىء — سبحانه — وأول افك خضتم فيه وانتهيتم إليه أنكم اشركتم وعبدتم من دون الله أربابا وأنشأتم دينا احتوى على دماركم وهلاككم.

---

* تقييم جمع الايديولوجيات الدنيوية التى غزت البشرية فى صور براقة خادعة تذيق الإنسان العذاب أشكالا وألوانا ، على ضوء الهدى القرآنى المبين .
* بيان أن حملة المنهج القرآنى هم قدوة العالمين فى الكمالات ولا يصح أن يندرج فيهم من اتبع كل غراب ناعق .
* بيان أن تطبيق المنهج القرآنى يجلى الحياة فى أبهى حللها وأكمل صورها وأرقاها وأرفع معانيها .

والتصدى لبيان هذا المنهج لا مكان فيه للدنيويين الذين اتخذوا الدين تجارة ووسيلة للكسب مهما كان مركز الواحد منهم ومهما ادعى من التخصص فى علوم الدين .

هذا وقد حرصنا فى جميع مؤلفاتنا على إبداء صور من هذا التأويل لتكون أنموذجا يحتذيه من أراد سلوك هذا المنهج إلى أن يأذن الله تعالى بإصدار تأويل للقرآن العظيم على هذا النمط الذى شرحناه فى مؤلفاتنا .

أن التفجير الهيدروجينى الدنيوى لايبقى ولا يذر فهو مدمر مخرب مفجر لما لا نهاية له من العذاب والآلام ، أما التفجير المعرفى الذى ندعو إليه فهو مدمر لجميع مفاهيم الكفر والضلال التى تهدد حياة الإنسان فى كل ركن من أركانها ، إنه تفجير يطلق طاقات من الأنوار لا نهاية لها توجه إلى كل خير جاء به خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه ، إنه تفجير يعدل وضع المعرفة البشرية لتسير على قدميها لا على رأسها فيسير حملة مشاعل الإسلام فى المقدمة كما كانوا أول مرة .

• فى قوله تعالى ﴿ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها﴾ تجريد لهم من كل حجة ، وهدم لبنيان الشرك من أساسه ونقض لكل حجر فيه ، فماعبدوا سوى أسماء مفرغة من جميع خصائص الألوهية وهذه الأسماء هى من مخترعاتهم (وهى مجرد أسماء كاذبة باطلة لامسمى لها فى الحقيقة ، فانهم سموها آلهة وعبدوها لاعتقادهم حقيقة الآلهية لها ، وليس لها من الآلهية إلا مجرد الأسماء لاحقيقة المسمى ، فاعبدوا إلا أسماء لاحقائق لمسمياتها : وهذا كمن سمى قشور البصل لحما . وأكلها . فيقال ما أكلت من اللحم إلا اسمه لامسماه ، ولمن سمى التراب خبزا وأكله : يقال له : ماأكلت إلا اسم الخبز . بل هذا النفى أبلغ فى آلهتهم فانه لاحقيقة لإلهيتها بوجه)[1]

ولا إمعان فى الباطل أشد من إمعان من عبد اسما لاحقيقة لمسماه من هذا الوجه الذى عبده .

• إن تسميتهم الحقائق بغير أسمائها يوجب فساد النظم واختلال موازين الحياة .

ولو أوجب تبديل الأسماء والصور ، تبدل الأحكام والحقائق لفسدت الديانات ، وبدلت الشرائع ، واضمحل الإسلام .

[وأى شىء نفع المشركين تسميتهم أصنامهم آلهة وليس فيها شىء من صفات الآلهية وحقيقتها ؟

وأى شىء نفعهم تسميتهم الإشراك بالله تقربا إلى الله ؟

وأى شىء نفع المبطلين لحقائق أسماء الله وصفاته تسمية ذلك تنزيها ؟

وأى شىء نفع الغلاة من البشر واتخاذهم طواغيت يعبدونها من دون الله تسمية ذلك تعظيما واحتراما ؟

---

(١) ابن القيم : بدائع الفوائد ج ١ ص ١٩

[وأى شىء نفع نفاة القدر المخرجين لأشرف ما فى مملكة الرب تعالى من طاعات أنبيائه ورسله وملائكته وعباده عن قدرته تسمية ذلك عدلا ؟

وأى شىء نفعهم نفيهم لصفات كماله تسمية ذلك توحيدا ؟

وأى شىء نفع أعداء الرسل من الفلاسفة القائلين بأن الله لم يخلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ولا يحي الموتى ، ولا يبعث من فى القبور ، ولا يعلم شيئا من الموجودات ، ولا أرسل إلى الناس رسلا يأمرونهم بطاعته : تسمية ذلك حكمة ؟ .

وأى شىء نفع أهل النفاق تسمية نفاقهم عقلا معيشيا وقدحهم فى عقل من لم ينافق نفاقهم ويداهن فى دين الله ؟

وأى شىء نفع المكسة تسمية ما يأخذونه ظلما وعدوانا حقوقا سلطانية وتسمية أوضاعهم الجائرة الظالمة المناقضة لشرع الله ودينه شرع الديوان ؟

وأى شىء نفع أهل البدع والضلال تسمية شبههم الداحضة عند ربهم وعند أهل العلم والدين والإيمان عقليات وبراهين ؟ وتسمية كثير من المتصوفة الخيالات الفاسدة والشطحات حقائق ؟

فهؤلاء كلهم حقيق أن يتلى عليهم ﴿ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾][(1)] .

. ومن المفاهيم التى يتضمنها لفظ (سميتموها) أنهم يصنعون مايعبدون فكان ذلك إغراقا منهم فى الباطل بلا حدود . إذ أن مجرد صنعهم لأربابهم وآلهتهم يلزمهم بمصادرات تنقض دعواهم من أساسها ومنها : —

— عجز آلهتهم وعدم صلاحيتها للربوبية لأنها صلاحية ممنوحة لها من عابديهـــا .

---

(١) ابن القيم : أعلام الموقعين عن رب العالمين حـ ٣ ص ١٣٠

افتقار آلهتهم إليهم فى كل ماخلعوه عليها من خصائص الألوهية حتى احتاجت إليهم فى تلفيق هذه الخصائص التى لاتملكها ولا يملكونها ، فارتكبوا أكبر الكبائر باسنادهم الربوبية إلى مخلوق عاجز ترفض مرتبته قبولها .

— إن اختراعهم لعبادة أرباب لاوجود لحقيقتهم، يضع هؤلاء المخترعين فى مرتبة أعلى من مرتبة هؤلاء الأرباب .

— إن مجرد تصرفهم الباطل فى صفات الألوهية وخصائصها يضعهم فى مرتبة هى أحط من مراتب البهائم لتجاوزهم حدود المرتبة التى تحكمهم ، ولادعائهم التصرف فيا لا يملكون التصرف فيه ولتزويرهم على خالقهم سبحانه .

فهم إذن يقومون بأكبر عمليات النصب والاحتيال والتضليل والتزوير التى عرفها التاريخ ، ولا يستحون بعد ذلك من أن ينصبوا أنفسهم أئمة لنشر الضلال والغواية ، بفرض عقيدتهم الباطلة على غيرهم ومؤاخذة من يخالفهم فيها ، ويجعلون من معتقداتهم الوضعية معيارا لتقييم كل مايصدر عن البشر .

— إنهم بالرغم من إحاطة الحجة البالغة بهم لم يفكروا فى بطلان عقيدتهم: مع أن تعدد الأرباب الذى زعموه ينفيه الوجود الذى خلا من أى وجه من الوجوه التى تقتضى عبادة هذه الأرباب ، كما أنه تعدد يكذبه الواقع ويدحضه العلم وتبطله كل آية فى الكون . ولو بحثوا عن مستند لهم لم يحصلوا إلا على خيالات فاسدة سيطرت على العقول وتحكمت فى النفوس فجردتها من نور الحق، وغمرتهم بظلمات الباطل ، فلم يصدر عنهم من التفكير إلا مايناسب حالهم من الفساد الذى جعل الظن يقينا ، والباطل حقا ، مما أعماهم عن رؤية حقيقة الحقائق التى ينبنى عليها صلاح أمور الدنيا والآخرة .

• لقد سجلوا افتراءهم وكذبهم باتخاذهم العديد من الأرباب آلهة خلعوا

عليها ما شاؤوا من الأوصاف والأسماء ، فى حين أن صفات الألوهية وأسماءها تقتضى الوحدانية وتبطل التعدد لتنزهها عن المشاركة فى خصائصها فهم يعرضون عن الحق من أجل قضية تحمل مايصادرها وليست فى حاجة إلى من يصادرها.

• فتعدد الأرباب يلزم منه بطلان ربوبيتهم جميعا : لأن الربوبية إما أن يتساوى مدلولها على جميع أفراد المسميات التى جاؤوا بها، فيبطل القول بتعددها.. وإما أن يختلف مدلولها فيثبت لكل واحد من أربابهم العجز لافتقاره إلى ماعند الآخر من خصائص ليست عنده .

فالتعدد دائما يفضى إلى فساد العقيدة .

• لقد تولوا هم أنفسهم إثبات عدم صلاحية أربابهم فى جميع مجالات الحياة من تشريع وحقوق ، وأخلاق ، وقيم ومعاملات ، وعلاقات ، وسياسة واقتصاد الخ . وذلك لأنهم قاموا بوضع مايشتهون من نظم وعقائد ونسبوا مافعلوه إلى أربابهم دون أن يكون لهؤلاء من الحكم شيئا ، ولكى يضفوا على باطلهم صبغة شرعية ابتدعوا ماشاؤوا من الأسماء التى تعطى لهذه الأرباب حق الولاية عليهم فيما صدر ويصدر عنهم من أحكام ونظم : فكيف يعبدون مالا حكم له على شىء ؟ بل هو محكوم بالأبعاد التى تحدد وجوده وليس فى استطاعته تغييرها .

لقد قيدوا أنفسهم بأحكام لم تصدر عن الأرباب بل هى صادرة فى الحقيقة عنهم ولم يضعها أحد سواهم ، ونسبوها إلى أربابهم ليخلعوا عليها صفة القداسة .

• إن التساؤل اللازم لذلك هو : كيف يعبدون ما يصنعون؟

ومن الذى يوافقهم على قيام الصانع بعبادة ماصنعه من الأشياء ؟

• لما كانت هذه الأرباب عاجزة عن خلق شىء فى الوجود لتجردها من جميع صفات الألوهية وخصائصها ، فقد ألزمتهم الحجة إذ توجهوا بالعبادة

والخضوع إلى متصف بالعجز ، متجرد من صفات الكمال المطلق التى تقتضيها مرتبة الألوهية .

• لا يصح أن توجه العبادة إلا إلى خالق الموجودات سبحانه فهو وحده المتصف بالكمال المطلق المنزه عن المشاركة .

• كل عبادة تخرج عما أنزله عز وجل فهى عبادة فاسدة باطلة ، والوحى الآلهى ينسف هذه الأرباب نسفا ويجرد أصحابها من كل برهان يدعوهم لعبادتها (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) من الآية ١١١ السورة التى ذكرت فيها البقرة .

• إن التكريم الالهى للعالمين اقتضى أن تكون المشروعية العليا لما أنزله الله تعالى وهو سبحانه وحده العليم بما فيه صلاح العالمين فى دنياهم وأخراهم.

• إن هذه المسميات التى رفعوها إلى مرتبة الربوبية ضلالا وكفرا (ما أنزل الله بها من سلطان) فكيف يجرؤون على تخصيصها بالعبادة ، وكيف يقدسون ما أمر الله تعالى بالبراءة منه !!

. لقد استلزمت عبادتهم الباطلة لهذه الأرباب ضياعهم وخسرانهم المبين إذ كان مما استلزمته تأسيس الطقوس التى تربط وجودهم بها ، وابتداع النظم التى تدور حول ما نحتوه وصنعوه من آلهة ، ولكى يكون الأمر كله فى يد آلهتهم التزموا بما يجعل المشروعية العليا لما اعتقدوه فمكنوا من أنفسهم عقيدة يحكم بفسادها و بطلانها كل ما بنى عليها .

• بطلان العقائد المبنية على الظن :

العقائد مبنية على اليقين ، وكل عقيدة أساسها الظن أو الشك فهى باطلة ، كذلك كل عقيدة دليلها ما وجد الإنسان عليه آباءه وأجداده فهى فاسدة إذ لم يستند فى اعتقاده إلا على ظنه فى هؤلاء ، كما أن مثل هذه العقيدة ليس لها سوى مستند دنيوى مع أن العقيدة لا تستند إلا على ما جاء به الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم .

وأولئك الذين يقفون عندما وجدوا عليه آباءهم ، تنتهى عقولهم عندما تعودت إدراكه من عقائد الآباء . ويبطلون ماعدا ذلك ولوكان وحيا من عند الله تعالى ، كما أبطلوا عمل قواهم العاقلة والمدركة فى كل ما اتصل بالعقيدة ، ويتشنجون على ما وصلهم عن طريق صرحهم الدنيوى لايبغون عنه حولا فيفضى ذلك إلى هلاكهم .

يقول السيد جمال الدين الأفغانى رحمه الله تعالى (إن الدين الإسلامى كاد ينفرد بين الأديان كلها بتقريع المقتنعين بلا دليل ، وتوبيخ المتبعين للظنون).

واتباع الظن فى العقائد يفسد جوهر الإنسان ووجوده ويحوله إلى مخلوق مدمر مخرب لاوزن لأفعاله فى مقاييس الخير ، ولاقيمة لها فى موازين الصلاح بل عنده الصلاحية لقبول أية أيديولوجية تفرض عليه .

• إن عبادة الأسماء التى سموها تفضى إلى :

— الإنحراف عن سبيل الكمال المطلق ، للاصابة بالعمى الكامل الذى لايسمح بسلوك هذا الطريق ولايعين على الاهتداء إليه ، مما يقوض أية محاولة تهدف إلى تأسيس نظام مرتبط بالكمال الأعلى ، كما يؤدى إلى معاداة من يدعو إلى الكمال .

— بناء صروح دنيوية ملائمة لعبادة غيره تعالى وتنسيق هذه الصروح وتشييدها على دعائم تسمح بالشرك وتوطد دعائمه مما يترتب عليه نشر الفساد فى الأرض بطلب غيره تعالى ، والانصراف عن أصل كل كمال ألا وهو قصد الحق تبارك وتعالى فى جميع الأحوال والشئون .

— اتباع المخادعين وأهل الباطل الذين يسيطرون على أهل هذه الصروح ويوجهونهم إلى مفاهيم ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، ويجبرونهم على اعتناقها وفى ذلك شقاوتهم وتعاستهم دنيا وأخرى .

– عبادة الشيطان : فإن كل عبادة توجه إلى غيره تعالى إنما هى عبادة للشيطان الذى لا طريق لعبادته سوى ربط وجود الإنسان بهذه الصروح الدنيوية وقطعه عن الله تعالى نهائيا .

فما عبد أحد من بنى آدم معبودا غير الله كائنا ما كان إلا وقعت عبادته للشيطان فيستمتع المعبود بالعابد فى تعظيمه له، وإشراكه به مع الله وهذا هو غاية ما يرضاه الشيطان[1] .

(ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون - ٤٠ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون - ٤١) ٣٤/ سورة سبأ .

ولما دعا إبراهيم عليه السلام آزر إلى الله تعالى نهاه عن عبادة الشيطان مع أنه كان يعبد الأصنام :

(يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا - ٤٤ - يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا - ٤٥)١٩/سورة مريم

(ويوم يحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا — قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ماشاء الله . إن ربك حكيم عليم — ١٢٨) ٦/سورة الأنعام .

بعض ما فى قوله تعالى (إن الحكم إلا لله) من وجوه الاعجاز :

كلمتان من الآية الكريمة تضمنتا من المعانى مايحتاج بيانه إلى دوائر معارف يشترك فى وضعها جهابذة المتخصصين فى العلوم الإنسانية وغيرها .

ومما اشتملتا عليه :

---

(١) ابن القيم ، الجواب الكافى ص ١٦٣ .

• إن المشروعية العليا فى الوجود لا تكون إلا للهدى الإلهى: لأنها مشروعية تتطلب الإحاطة بالموجودات والعلم بوجوه ارتباط كل شىء بأسباب الخير والشر والنعيم والعذاب، وصلته بالكمال الأعلى والنعيم الأبدى أو الضلال والكفر والشقاء الدائم — وتلك المشروعية بهذه الكيفية هى من خصائص الألوهية، ليس لمخلوق فيها قدم فمن جعلها لشىء من دونه عز وجل فقد أسند الألوهية من هذا الوجه إلى ذلك الشىء.

• الحكم لا يكون إلا لخالق كل شىء ومالك الملك فاطر السموات والأرض، لا منازع له فى ملكه، ولا شريك له فى حكمه، ومن اتخذ من دونه إلها فقد أسند الحكم إلى غيره تبارك وتعالى وضل ضلالا بعيدا بإسناده خصائص الألوهية إلى مخلوقات لا تملك ضرا ولا نفعا ولا حياة ولا نشورا، وهؤلاء فى شركهم لا يملكون دليل حق، ولا برهان صدق، إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى عن الحق شيئا.

• إعلان للعالمين بأنه ليس لأى مخلوق الحق فى أن يعمد إلى صياغة عقائد ولا مبادىء ولا ايديولوجيات يطالب الناس باعتناقها أو اتباعها أو تطبيقها، وإذا تصادم حكم المخلوق مع حكم الله تعالى فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

• ليس لمخلوق أن يدعى مرتبة هداية المخلوقات استقلالا، وكيف يتجاسر عاجز لا يملك خلق مثقال ذرة، بل هو يستمد وجوده فى كل لحظة من خالقه كيف يجرؤ من كان هذا شأنه فيطلب من الناس أن يجعلوا المشروعية العليا المنظمة لوجودهم وحياتهم لأفكاره ومفاهيمه ومخترعاته!! مهما كانت الفلسفات التى تتراءى له، أو النظريات التى يعتقد فى صلاحيتها دون غيرها؟

ومع ذلك فما أكثر الجهلة الذين تجاوزت آذانهم رؤوسهم، فلم يكتفوا بتسليم وجودهم لهذه الضلالات والأباطيل، بل ضحوا فى سبيلها كل ما يملكون، معرضين عن الحق المتفجر فيهم وحولهم وفى كل شىء محيط بهم، (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية

لايؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين — ١٤٦) سورة الأعراف .

وإن أشد الناس عذابا من آتاه الله الهدى فأعرض عنه ونأى بجانبه واتبع سبيل أئمة الصروح الدنيوية واختار ما عندهم على أنزله الله تعالى هدى ورحمة للعالمين .

. إعلان للعالمين أنه ليس لمخلوق أن يتكبر فى الأرض بغير الحق فيعطى لنفسه مرتبة ليست له ، بادعاء ماهو لله تعالى فيجعل المشروعية العليا لأحد من دونه جل وعز ، ومن فعل ذلك فقد قطع نفسه ومن اتبعه عن الله تعالى فضل ضلالا بعيدا .

إن تفويض المشروعية العليا فى الحكم: لله تعالى ولبيان المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم يلغى الكهنوتية فى الدين ، والتسلط والسيطرة والاستعباد فى الشئون السياسية ومايجره ذلك على الناس من ويلات تجردهم من حقوقهم ومن أسباب راحتهم وسعادتهم .

ولا ضرر يصيب البشرية مثل الضرر الناجم عن إهمالهم فى حكم الله تعالى أو الإنصراف عنه وكل مجتمع فعل ذلك عاش مغلولا داخل صروح دنيوية لا وظيفة لها سوى القطع عن الله تعالى ، وكل مافيها يتجه إلى ترسيخ هذا الانقطاع وتثبيته مما يعزل المنتمين إلى هذا الصرح عن خالقهم ، وحينئذ يفسر كل شىء تفسيرا يلائم المقتضيات الدنيوية فالدين يفسر تفسيرا يعزله عن الوحى ويوافق كل مقاصد الصرح الدنيوى ، وحينئذ تجرى الأمور طبقا للمصطلحات الوضعية الدنيوية ويخلو الجو أمام هواة الطاغوت والجبروت الذين يتلذذون بتعذيب الشعوب ولا يبالون إلا بزيادة رصيدهم من الطغيان مما يزيد فى ضعف المستضعفين ويضاعف ظلم الظلمة ويزيدهم شراسة وعنفاً .

. إن البشر مهما علا شأنهم ومهما أوتوا من علم دنيوى عاجزين - بعيدا عن الهدى الآلهى — عن وضع نظام يوجههم إلى الكمال المطلق .

. أن تبليغ حكمه تعالى للعالمين يكون عن طريق النبوات والرسالات، فالأنبياء والمرسلون هم هداة البشرية إلى الصراط المستقيم ،الجامع لكل خير، كيلا تكون للناس حجة بعد إرسال الرسل .

. لا يكمل عدل إلا فى ظلال عقيدة التوحيد الإسلامية :

فالقيام بالقسط لا يكمل إلا فى ظلال ما أنزل الله تعالى ، وكما أن أظلم الظلم الشرك فإن أعدل العدل هو التوحيد ، وما تم عدل ولا استقام إلا على عقيدة التوحيد الإسلامية .

. (إن الحكم إلا لله) لامعقب لحكمه فيما فرضه على عباده، ولا فيما حرمه عليهم ، ولا فيما بينه رسله صلوات الله وسلامه عليهم . وأحكم الحاكمين هو الله تبارك وتعالى :

(ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين — ٤٥) ١١ / سورة هود .

(أليس الله بأحكم الحاكمين — ٨) ٩٥ / سورة التين .

بلى يارب نشهد إنك أحكم الحاكمين .

. لا يوجد مخلوق يستطيع أن يدعى أنه قد أحاط بجميع الشئون التى تتوقف عليها العدالة حتى يستأثر لنفسه بحق حمل الناس على السبيل الذى رآه ليقيموا القسط وينصرفوا عن الظلم ، لأن بيان الهداية المستلزمة للعدالة فى كل شيء لا يكون إلا لله تعالى إذ يستلزم بيانها الإحاطة بجميع العلوم وحقائق الموجودات وأسرار الوجود ومآل المخلوقات ، وتقييم كل عمل وتحديد جزائه فى الدنيا وفى الآخرة ، بل إن كل عدالة غير مرتبطة بما أنزله الله تعالى فهى عدالة نسبية صالحة لجميع صور الظلم والفساد .

. شرط النجاة أن يكون الحكم لله تعالى وما ثم وراء ذلك سوى الهلاك والدمار ، ولا يقوم الناس بالقسط إلا إذا تمسكوا بما أنزل الله تعالى من الهدى ودين الحق :

(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) من الآية ٢٥ سورة الحديد /٥٧ .

. انتقل بهم بعد تقويض باطلهم إلى بيان الدين الحق ليتبين لهم سبيل الرشاد من سبل الغي والهلاك ، وطريق النور من طرق الظلام ... ولا يتم من ذلك شيء إلا إذا نفضوا أيديهم من الباطل وجعلوا الحكم لله تعالى .

. وكيف تضعون أنفسكم تحت تصرف شيء من دونه تعالى فتنزلون من عبادة خالق الشيء إلى عبادة الشيء ! وكيف تبررون انحداركم من المرتبة العالية للانسان القابل لكل تكريم ، فتنسون الله تعالى وتنسون أنفسكم وتهوون إلى أسفل سافلين بطلبكم الأسماء الحسنى وصفات الألوهية – المنزهة عن الشبيه وعن النظير وعن المثلية – في سواه عز وجل ، بل وفي مخلوقات دون مرتبة الإنسان بدرجات، بل في أشياء توليتم صنعها بأنفسكم ثم عكفتم على عبادتها ! فأفسدتم وجودكم حين كيفتموه تكييفا يجعله ملائما للضلال ، وعمدتم إلى الحياة فوجهتموها توجيها يقطعكم عن الكمال، وأسستم نظمكم بحيث يتم خضوعكم الكامل لما عبدتموه من دون الله تعالى ؟ !

وها أنتم قد أسندتم إلى غير الله تعالى مالا يصح إسناده إلا لله عز وجل ، وها أنتم قد استندتم إلى غير الله تعالى فيما لا يصح الاستناد فيه إلا إليه سبحانه، وها أنتم قد ارتبطتم ارتباط المخلوق بالخالق مع أشياء قد خلقت كما خلقتم بل ، لقد خلقت من أجلكم . فكيف تفعلون ذلك وتعرضون عما نزل من الحق وهو الذي يهديكم إلى ما فيه صلاحكم ونجاتكم دنيا وأخرى ؟ لقد جاءكم من الله نور ولكنكم أعرضتم عنه ونأيتم وآثرتم عليه صروحكم الدنيوية ، وكلها تقود إلى الشقاء الكامل والتعاسة الدائمة والهلاك الأبدي !

إن الله الذى أنشأكم وصوركم ، وخلقكم خلقا من بعد خلق ، وأبرزكم إلى الوجود بجهزين بجميع الآيات التى يمكنكم تسخيرها لتعلموا مالم تكونوا تعلمون . . .

وإن الله الذى خلق لكم مافى السموات والأرض جميعا منه، فأنتم وما تعبدون من الأرباب : إن أنتم إلا بعض مخلوقاته سبحانه وتعالى.

وإن الله الذى يرعاكم فى جميع شئون وجودكم بنعمه التى لاتحصى. وكل نعمة فيها من النعم مايعجز عن منحها سواه تعالى ، فلا يصلكم نفع إلا بتقدير ذى الطول والإنعام ، ذى الجلال والإكرام ، لا إله إلا هو . . .

إن الله الذى أرسل رسله بالهدى ودين الحق ليخلصكم من العبودية لغيره تعالى رحمة بكم ، وتكريما لكم ، كيلا تذلوا لغيره فتهلكوا أو تطلبوا سواه فتضلوا وتشقوا . . .

إنه جل جلاله : (أمر ألا تعبدوا إلا إياه) .

بيان بعض مافى قوله تعالى (أمر ألا تعبدوا إلا إياه) من وجوه الاعجاز :

إن العبودية التى يتوقف عليها الثواب والعقاب ،السعادة والشقاء هى عبودية التكليف لا القهر .

فالعبودية[1] لله تعالى نوعان : عبودية قهر وعبودية تكليف : ـ

(١) يقول الإمام القشيرى سمعت أبا على الدقاق رحمه الله يقول : العبودية أتم من العبادة ، فأولا عبادة ثم عبودية ، ثم عبودة ، فالعبادة للعوام من المؤمنين والعبودية للخواص والعبودة لخاص الخاص . وسمعته يقول العبادة لأصحاب المجاهدات والعبودية لأرباب المكابدات ، والعبودة صفة أهل المشاهدات . ويقال العبودية : القيام بحق الطاعات بشرط النظر إلى مامنك بعين التقصير . وقال ذو النون المصرى العبودية أن تكون أنت عبده فى كل حال كما أنه ربك فى كل حال. وقيل العبودية شهود الربوبية (راجع الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٤٢٨ : ٤٣٠ تحقيق د. عبدالحليم محمود ، ود. محمود ابن الشريف ط ١٩٧٤ .
=

— وعبودية القهر عامة تشترك فيها جميع المخلوقات لاتنفك عنها أبداً كما لاتنفك صفة الافتقار إلى الله تعالى عن المخلوقات فى جميع شئون الوجود، فالمخلوقات من هـذا الوجه لاتخرج عن قبضة القهر الإلهى وسلطانه تعـالى (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرهاوإليه ترجعون — ٨٣) آل عمران.

وللسجود[1] حكم العبودية.

والعبودية العامة شاملة لجميع أنواع المخلوقات بلا استثناء، كما تشمل برهم وفاجرهم: (ويوم يحشرهم وما يعبـدون من دون الله فيقول ءأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل — ١٧) ٢٥/سورة الفرقان.

= وقال الشيخ أبو سعيد الميهى (٣٥٧ - ٤٤٠ هـ) حقيقة العبودية شيئان: حسن الافتقار إلى الله وهذا من باطن الأحوال وحسن القدوة برسول الله صـلى الله عليه وسلم وهذا ليس للنفس فيه نصيب ولا راحة (أسرار التوحيد ص: ٣٢١).

(١) السجود فى هذا التقسيم مثل العبودية: منه ماهو قهرى ومنه ماهـو تكليفى أختيارى، فالقهرى هو سجود الخضوع له تعالى، فـكل مخلوق خاضع لجلاله عز وجل ذليل لعزته، مقهور تحت سلطانه سبحانه.

(ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغـدو والآصال — ١٥) ١٣ / سورة الرعد.

وسجود التـكليف عن طواعية واختيار تعظيما له تعالى وإيماناً به عز وجل:

(ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل مايشاء — ١٨) ٢٢ / سورة الحج.

والسجود فى هذه الآية شمل سجود القهر وسجود التـكليف.

فسماهم الله تعالى عباده مع ضلالتهم ، لكنها تسمية مقيدة بالإشارة المبينة لضلالتهم وهذا من دلائل الإعجاز .

وقال تعالى :

(قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ــ ٤٦)٣٩/سورة الزمر .

(وما الله يريد ظلما للعباد) من الآية ٣١ من سورة غافر .

(قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ــ ٤٨) ٤٠/سورة غافر .

والناس يحشرون يوم القيامة مجردين من الصفات التى تتنافى مع العبودية لمنازعتها أحكام الربوبية :

(إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ــ ٩٣ . لقد أحصاهم وعدهم عدا ــ ٩٤ ــ وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ــ ٩٥) ١٩/سورة مريم.

ــ وعبودية التكليف :

وهى قائمة على ما جاءت به الرسل من عند الله تعالى ، فمن لم يعبد الله سبحانه على الوجه الذى بينته الرسل فقد ضيع الأمانة وخاب وخسر دنيا وأخرى .

وعبادته تعالى هى التى كلف بها الجن والإنس وأرسل الرسل لبيانها (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ـ ٥٦)٥١/سورة الذاريات .

وجميع ما جاءت به الرسل لا يخرج عن الإسلام والإيمان والإحسان[1].

(١) أخرج الإمام البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث =

وما من عمل من أعمال القلوب والجوارح أو مايخطر ببال إنسان إلا وهو داخل تحت مسمى الدين ، فالعبادة (اسم جامع لكل مايحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)[١] .

والعبودية القلبية هى روح مايصدر من أعمال العبودية لله تعالى كائنة ما كانت .

إخلاص العبودية لله تعالى يقتضى إتباع النبيين والمرسلين :

العبادة قائمة على العقيدة ، فإذا صحت العقيدة صحت العبادة ، ولاتصح العقيدة مالم توافق عقيدة التوحيد التى جاء بها الأنبياء والمرسلون،فإذا لم توافقها دخلها الشرك فأفسد العقيدة وأفسد العبادة وكان كل ماترتب على هذا الفساد باطلا.

فدار العقيدة الصحيحة والعبادة الخالصة لله تعالى يدور حول إتباع الأنبياء والمرسلين، ونصيب كل فرد من عبودية التكليف الخالصة لله تعالى بقدر نصيبه

= قال ما الإسلام ؟

قال : الإسلام ان تعبد الله ولاتشرك به وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان .

قال : ما الإحسان ؟

قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال : متى الساعة ؟

قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ـ وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربها ، وإذا تطاول رعاة الإبل إليهم فى البنيان) الحديث .

وكان السائل هو جبريل عليه السلام، فعل ذلك ليعلم الناس أن الدين شامل للاسلام والإيمان والإحسان .

(١) ابن تيمية : العبودية : ص٣ .

من متابعتهم صلوات الله وسلامه عليهم ، فالدعوة إلى اتباعهم إنما هى دعوة إلى الدين القيم - الإسلام - فمن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه .

ولصحة الاتباع علامات منها :

- إسلام الوجه لله تعالى ، ومن صدق فى إسلامه التزم هدى الأنبياء والمرسلين لايخرج عنه أبدا .

- تبليغ الأمانة - الإسلام - لكل من كلف بأدائها إليه دون تحريف ولا تبديل .

- المشاركة فى إعداد الأفراد والمجتمع إعدادا يحقق التطبيق السليم للهدى الآلهى فى جميع شئون الحياة ، ويوفر البيئة الصحية لاستكمال أوصاف العبودية لله تعالى . ومن ظن أن الدين القيم فيه شىء من السلبية فقد ضل سواء السبيل : إذ أن الدين القيم يحيط بمضامين الكمال فى الحياة فأى مضمون يقطع عن الله تعالى فليس من الدين القيم فى شىء - ومع ذلك فإن أمثال هذه المفاهيم الخاطئة - حين ضعف المسلمون - أصبحت من الفضائل التى يمدح من يتحلى بها .

- التحلى بكل مايرضاه عز وجل والتخلى عن كل ما يسخطه تعالى .

إن الأفراد والمجتمعات الإسلامية فى حاجة إلى تدريب مستمر متصل على كل ماتقتضيه أحكام الربوبية ، حتى تصبح مراعاة ماهو أولى فى كل وقت وموقف غريزة فى المؤمن ، ولايتم له ذلك إلا بمخالطة مايقربه إلى الله تعالى ، ومداواة النفس من كل مرض يقطعها عنه جل وعز - وهذا بحر لاساحل له ولا قرار - وقد ترك لنا أئمة التربية الإسلامية من كل العارفين فى هذا الباب من المؤلفات مالو نشرت أو استثمرت فى مجالات التطبيق لكان فيها الكفاية لا للمسلمين فقط بل وللعالم أجمع -

والتفريط فى الهدى الالهى يسوق البشر إلى الإهمال فى التطبيق وهذا يقود إلى الاغتراب عن ذلكم النور المبين ممايترتب عليه الالتجاء إلى الصروح

الدنيوية فى مجالات الهداية الآلهية ، ومحاولة الوصول إلى الله تعالى عن طريق التربية الموصلة إلى هذه الصروح !! وزاد البعض فى نغمة الطنبور فعملوا على تطويع الإسلام للصروح الدنيوية ليقال إن التمسك بهذه الصروح إنما هو تمسك بالهدى المحمدى : مع أن من يقبل ذلك لايجنى سوى الانقطاع عن الله تعالى والحرمان الكامل من أسباب التوفيق - ومثل هؤلاء : مثل قوم يسيرون فى بحر لجى تغشاه الظلمات من كل مكان ، ومعهم سراج عظيم يستضيئون بنوره ، ويسيرون على هديه ، ولم يعجب ذلك بعض أهل الضلال الذين سمعوا بأن أقواما لديهم سرج لم يملك أحد مثلها ، فدعوا قومهم إلى ترك السراج الذى يستضيئون بنوره والاستضاءة بسرج غيرهم ، فأطاعهم البعض ، وانفصلوا عن الجماعة وتركوا سراجهم الوهاج وأوغلوا فى الظلمات وراء أئمة الضلال يبحثون عن السرج التى وصفوها لهم ،فلم يظفروا إلا بظلمات متراكمة إذا أخرج احدهم يده لم يكد يراها، فتفرق شملهم ، وتشتتت جمعهم، وتعددت اتجاهاتهم ، ولم يدر الأخ عن أخيه شيئاً ، وشغلتهم أنفسهم بما أهمهم . حتى إذا جاء أحدهم الموت لم يدر فى اى واد قد ادركه . ولا على اى شىء مات. نعوذ بالله تعالى من الضلال والعمى بعد النور والهدى .

كل عمل تكون النية فيه ليست لله تعالى فهو مردود :

إن الإخلاص لله تعالى يقتضى تحرير جميع موازين الأعمال من سيطرة الصروح الدنيوية . فمن اقام مراعاة احكام هذه الصروح نصب عينه وقاس صحة الأعمال على هذا الأساس فقد ضل ضلالا بعيدا وكان من الأخسرين أعمالا .

ولا يمكن التحرر من هذا الأخطبوط الذى يفسد جميع احكام المنتمين إلى هذه الصروح إلا إذا وزنت الأعمال بميزان الشريعة الآلهية فكل ماوافقها فهو حق . وماتصادم معها فهو باطل.

فمن ادعى مثلا : دعوى مثل الجهاد فى سبيله تعالى . فليبحث عن جهاده

هل هو يقربه من الله تعالى أم يقربه من النار ؟ فإذا كان من الذين يتجرون باسمه تعالى لتوجيه مازعموا أنه جهاد فى سبيله عز وجل إلى ترسيخ قواعد الايديولوجيات الفاسدة ، أو ربط الناس بأية فلسفة دنيوية كائنة ما كانت أو تصدير الثورات الحمراء إلى البلدان الغافلة باطلاق الجهاد على حركات تحرير مصطنعة مزيفة لا يقصد منها فى الحقيقة سوى تجريد الشعوب بأسرها من حقوقها وتسخيرها وتسخير إمكانياتها لخدمة إبليس وجنوده ، وسلبها استقلالها باسم المكاسب الشعبية لتصبح ترسا من تروس الأجهزة الحمراء . . . فهذا ليس بجهاد ، ولكنه محاربة لله تعالى ، وصراع فى سبيل أخس المقاصد الدنيوية للتوصل - عن طريق استغلال الشريعة - إلى نهاية دركات الانقطاع عن الله تعالى .

وكم من المؤتمرات التى تنعقد لمقاصد إسلامية سامية ، فإذا بإخوان الشياطين يتسللون إليها لاستغلالها فى دعم أغراضهم باحتوائها وتوجيهها لتحقيق نواياهم وكم من رجال مشهورين بالعلم والصلاح قد اشتركوا فى هـذه المؤتمرات وهم لا يدرون أنهم يعملون مع أناس يجاهدون فى سبيل الشيطان . ولو جاءهم من يدعوهم حقا إلى الجهاد فى سبيله تعالى لرجموه وحكموا عليه بالمروق من دين الله !! إن القصد من دعوة الأسماء اللامعة إلى حضور مثل هـذه المؤتمرات إنما هو استغلال أسمائهم للحصول على موافقة الأمة على مايصدرونه من قرارات قد دبرت وطبخت منذ أمد بعيد . وكم من المؤتمرات التى تنعقد باسم الدين لإعلان الجهاد المقدس : فإذا بها تتمخض عن قرارات تتجه فى الواقع إلى دعم منظمات شيوعية ، او تغذى ثورات حمراء تفجرت فى الوطن الإسلامى باسم تحرير بعض شعوبه . وتكون النتيجة التى تفوق تقدير كل مقدر إنما هى تعميق النفوذ الشيوعى فى العالم الإسلامى . ومنح « المناضلين » فرصة اكبر للتغلغل فى البلدان الإسلامية وتمكينهم من السيطرة على قرارات الشعوب والحكومات باسم الجهاد المقدس . واتهام من يقاومهم بالكفر والخيانة والمروق .

كل ذلك لم يحدث فى العالم الإسلامى إلا حين غفل المسلمون عن حكم الله تعالى واتبعوا غير سبيله عز وجل. ولو اعتصموا بالكتاب والسنة ما وقعوا فريسة يصطرع على التهامها ذئاب الحريات الذين يقلبونهم ذات اليمين وذات الشمال وهم لاحول لهم ولا قوة، حتى أصبحت هذه الشعوب مضرب الأمثال فى تخبطها فى كل شىء. فكان ضعفها هذا فاتحا لشهية كل دولة تتطلع إلى السيطرة عليها، لتسخرها فى سبيل تحقيق مطامعها. وتحولت هذه الأوطان التى لم تستقر بعد. إلى مشتل خصب لتربية صعاليك الايديولوجيات الحاملة فى طواياها لكل شذوذ والتواء والتى لاهم ولا هدف لأصحابها سوى إخضاع الشعوب فكريا وسياسيا واقتصاديا للبلد المصدر لهذه الايديولوجيات.

فكيف تعرضون عن الهدى الآلهى وانتم تتلون قوله تعالى (إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه) وقد جمع هذا البيان المعجز أسباب النجاة. وأسباب الخلاص بل لم يغادر كبيرة ولا صغيرة فى هذا الشأن إلا أحصاها. فلا نجاة من الهلاك والدمار إلا أن يكون الحكم لله. وجميع شئون العبد متجهة لله تعالى فيكون الدين كله لله وما وراء ذلك حبة خردل من الإيمان. بل إنه يفهم من الآية الكريمة إن من لم يبلغه شرع آلهى فحكمه حكم أهل الفترات يسرى عليه مايسرى عليهم.

(ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون)

ذلك: إشارة إلى ما سبق بيانه من ملة إبراهيم وإسحق ويعقوب صلوات الله وسلامه عليهم تلك الملة التى تدعو إلى عبادة الواحد القهار. والبراءة من عبادة أرباب سموها هم وآباؤهم تلك الملة التى توجه جميع المقاصد لله فلا حكم فيها إلا لله الذى أمر ألا تعبدوا إلا إياه:

والدين القيم هو دعوة جميع النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم وهو دين الإسلام:

(قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين - ١٦١) سورة الأنعام .

(فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها . لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون — ٣٠) ٣٠ : سورة الروم .

(فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون - ٤٣) سورة الروم .

حتمية التمسك بالدين القيم للنجاة من الشقاء فى الدارين :

إن العد التنازلى فى اتجاه الدمار يبدأ من لحظة الانحراف عن الدين القيم . وابتداء من هذه اللحظة يخضع الأفراد وتخضع المجتمعات لأعقد وأغرب وأوسع وأبشع عمليات التغيير والتزوير والتضليل التى تمتد لتشمل جميع مظاهر الحياة البشرية : وتلتقى جميع هذه العمليات عند نقطة واحدة : هى توجيه البشر نحو إحلال ما يربطهم بالدنيا محل ما يربطهم بالله تعالى . وتكمل مسببات الدمار فى اللحظة التى يتم فيها الانقطاع التام عن الدين القيم . إذ تكتمل الروابط التى تشد جميع ذرات الوجود البشرى إلى الصروح الدنيوية التى صاغها البشر لتمثل كل اهتماماتهم : فلا يستسيغون إلا مفاهيم هذه الصروح ولا يبصرون إلا بعيونها . ولا يضحون إلا فى سبيلها بكل ما كان يجب ان يضحوا به فى سبيل الله تعالى .

وإذا ما ملأت الصروح الدنيوية الفراغ الناجم عن غياب الدين القيم : شغلت المقاصد الدنيوية كل ما كان ينبغى أن يشغله التعلق بالله عز وجل : فتتجه التصرفات اتجاها غريزيا إلى كل ما يصرف الأفراد عن الله جل جلاله فى قيامهم وظعنهم وحلهم وترحالهم وجدهم وراحتهم - فتدور جميع الأجهزة بكيفية ينسى بها الناس خالقهم ، وتصبح مقاصد هذه الصروح هى المشروعية

العليا التى توجه تشريعاتهم ونظمهم ، وداخل هذه الصروح الجهنمية التى ضيع الدنيويون فى تشييدها جميع أعمارهم . تدور أخبث الطقوس وأخسها وأحقرها . ذلك لأنها قائمة على عبادة ما تعلق به الأفراد تحت مسميات تواطأت المجتمعات على قبولها ، فكل مجتمع قد استقر على عبادة توارثها عبر القرون تليق بعاداته وتقاليده وتطلعاته ومفاهيمه التى فرضها على أفراده صرحهم الدنيوى .

(واستعباد[1] القلب أعظم من استعباد البدن ، فان من استعبد بدنه استرق وأسر وهو لا يبالى بذلك . إذا كان قلبه مستريحا مطمئنا . بل يمكنه الاحتيال فى الخلاص . وأما إذا كان القلب الذى هو الملك رقيقا مستعبدا متيما بغير الله . فهذا هو الذل والأسر المحض . . . وعبودية القلب وأسره هى التى يترتب عليها الثواب والعقاب ، فان المسلم لو أسره كافر أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك إذا كان قائما بما يقدر عليه من الواجبات . . وأما من استعبد قلبه فصار عبدا لغير الله فهذا يضره ذلك ولو كان فى الظاهر ملك الناس فالحرية حرية القلب ، والعبودية عبودية القلب) .

وفى غيبة الدين القيم : تنعكس الأوضاع لانعكاس مصادرها : ألا وهى تعدد الأرباب . فتتضارب القيم . ويصبح الخير نسبيا والشر كذلك . فتتعدد الإنسانية على قدر تعدد صروحها ، كما تتعدد المثل العليا وتتناقض تبعا لذلك .

ولقد أغرق الدنيويون فى الضلال والوهم حين قاسوا التقدم والرقى بمقدار القرب أو البعد من صروحهم . وانطلاقا من هذه القاعدة نظروا إلى الدين نظرة تفرغه من مضمونه بظنهم أن الدين القيم إنما هو عبارة عن شعائر وطقوس تعزل الإنسان عن الحياة متأثرين فى هذه النظرة بطقوسهم الدنيوية التى تدور حول عبادة أرباب لا نهاية لها تمثل الدين الحق عندهم .

---

(١) ابن تيمية : العبودية ص ٢٦ / ٢٧ .

وما علموا أن درجات الرقى والتقدم إنما تقاس على قدر مايطبقه المجتمع من تعاليم الدين القيم وهديه :

وما علموا أن الدين القيم : هو توجيه الحياة لله تعالى وربطها به عز وجل طبقا للهدى الإلهى : فالدين القيم هو الحياة الإنسانية فى أبهى صورها وأكملها وأنبلها وأعلاها وأسماها ، وهو حتمى لصلاح البشرية وسعادتها .

إن الدين القيم لايلمس جانبا من جوانب الحياة إلا قومه أحسن تقويم وكمله وصحح مافيه من اعوجاج، لتصبح الحياة فى ظلال الدين القيم نعيما لا يضاهيه نعيم فى الدنيا ، وإن أى تخلف فى شأن من شئون الحياة فالدين القيم منه براء . ولا يزحف التخلف إلا حين يحتجب الإنسان عن أنوار الدين القيم ويلتمس النجاة فى مفاهيم الصروح الدنيوية .

والدين القيم ليس بالمدعوى التى يدعيها كل مدع بلا برهان على صحة دعواه : ومن ادعاه فليبين صدقه فى اتباع الهدى الإلهى ، ومن لم يسلم وجهه لله تعالى فما تمسك بالدين القيم ولا عمل به (فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم . فان أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ـ ٢٠) آل عمران .

(ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا ـ ١٢٥) سورة النساء .

(ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ـ ٢٢) : لقمان .

إن الدين القيم يعنى فيما يعنيه وضع أكمل النظم سياسية واقتصادية واجتماعية وتشريعية إلخ ـ لتحقيق ماجاء به الهدى الإلهى بحيث يتمكن الأفراد والمجتمعات من بناء العلاقات الإنسانية على أسس شعب الإيمان التى قررها الدين القيم ـ

وإلا فلا معنى لاعتناق الدين القيم بينما تسير المجتمعات على نظم تقتضى حل عراه وإلغاء أحكامه . والتمسك بالصروح الدنيوية من دونه .

إن الدين القيم يقتضى تهيئة المناخ الملائم لتحقيق مقاصده بتطويع وتشكيل جميع الأجهزة والأنشطة بحيث تستجيب للهدى الإلهى كما بينه الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم . وحينئذ تتجه اساليب الحياة ومناهجها ونظمها إلى توثيق ارتباط الإنسان بالله تعالى .

قال إمام الهداة وسيد العالمين صلوات الله وسلامه عليه (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى[1]) . ولا يتم تطبيق الدين القيم مالم تؤد الأجهزة ماتؤديه أعضاء الجسد الواحد للانسان من خدمات .

وهذا هو يوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه يتولى حكم مصر فى احلك اوقاتها فيكون أكثر من أب رحيم لجميع اهلها ، كما سيأتى بيانه .

ولما كان التمسك بالصروح الدنيوية هو الغالب على معظم الناس حتى اعماهم عن شهود فضل الله العظيم ، وتذوق منته الكبرى عليهم قال :

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

لا يعلمون ما فى الدين القيم من خير ونعيم . ولا يعلمون مايجره انحرافهم عنه من بلاء . ولا ما يجره الاحتجاب عن الكمال الأعلى والانصراف عن الخالق من شقاء ابدى ولا ما يجره تعلقهم بالدنيا من عذاب فى الدارين .

وإن ضلال أكثر الناس ليس بحجة يحتج بها الإنسان لاتباعهم . لأن الدين

---

(١) رواه الامام أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير رضى الله عنه .

القيم بعد أن فصله الأنبياء والمرسلون ما كان موضع إبداء الرأى ، ولا كان متاعا يتلقفه هذا ، أو يفسره ذاك وفق شهواته . كما أن شعب الإيمان لم تكن لحظة من اللحظات موضع مناقشة أو تجارة دنيوية .

إن هو إلا وحى يوحى ٠

﴿ وقال الملك ائتونى به فلما جاءه
الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله
ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن .
إن ربى بكيدهن عليم — ٥٠ ﴾

الفصل الرابع

رفض الخروج من السجن

حتى يعاد التحقيق فى سبب دخوله

بعد أن بين لهم عليه السلام أن علوم التأويل التى أوتيها لا فضل لأحد عليه فيها إلا الله تعالى الذى من عليه بها ، وبعد أن صرح لهم أنه برىء من كل ملة قد كفر أصحابها بالله تعالى ، وعبدوا أسماء قد ابتدعوها لمسميات اخترعوها لا حكم لها ولا سلطان ، بل هى مجردة من كل حول وقوة لأنها لا تملك شيئا من صفات الربوبية التى نسبوها إليها واختصوها بها ، منصرفين عن حقيقة الحقائق التى يدور حولها الوجود كله ألا وهى كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » كما جاء بها الأنبياء والمرسلون الذين وضحوا علومها التى تربط الإنسان من جميع الوجوه بخالقه جل ثناؤه .

وبعد أن بين لهم عليه السلام أنه لا خير إلا فى الدين القيم : ملة آبائه إبراهيم وإسحق ويعقوب — صلوات الله وسلامه عليهم — الذين فضلهم الله تعالى برسالاته وأنعم بهم على الناس ليبينوا لهم سبل الهدى والرشاد .

بعد بيان ذلك كله شرع عليه السلام فى تأويل ما رأياه ، فجاءهم ببرهان ناصع يؤيده ، وآية مستلزمة لصدقه وثبوت نبوته ، ويحصل لمن تنبه إليها العلم — بالضرورة أو بالنظر — أنه رسول الله حقا :

﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه . قضي الأمر الذي فيه تستفتيان — ٤١ ﴾ .

وجه عليه السلام الخطاب إليهما ليندرج الحكمان معاً فلا يواجه المحكوم عليه بالصلب بمصيره ، وترك لهما عليه السلام إدراك تعبير ما رأياه طبقاً لمقتضى الحال .

وقد يخطر على بال من سيصلب أنه قد ينجو من هذا المصير بأية وسيلة ، ولو بإنكار الرؤيا ، فجاء التعقيب على التأويل قاطعاً بأن هذا الأمر مبرم لا مرد له ولا نقض ولا دفع ، ليواجه نهايته ما استطاع بقلب ممتلىء إيماناً إن كان من المؤمنين .

﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ .

الاستفتاء[1] يكون في الحادثة لا في حكمها ، يقال استفتى الفقيه في الحادثة أي طلب منه بيان حكمها ، ولا يقال استفتاه في حكمها .

وكذا الإفتاء : فإنه يقال أفتى فلان في الواقعة الفلانية بكذا ، ولا يقال أفتى في حكمها أو جوابها بكذا .

والاستفتاء يكون في النوازل المشكلة الحكم المبهمة الجواب .

وكان تأويله عليه السلام لرؤياهما من الأسباب التي مكنت له عليه السلام في الأرض إذ سرعان ما ظهرت آية هذا التأويل فيما حدث لصاحبي السجن ، وشهد الملأ هذه الآية فيما جرى لهما طبقاً لما نطق به عليه السلام . كما مهد ذلك ليصبح الناجي منهما هو السفير بين الملك وبينه عليه السلام ليأتي القوم بتأويل رؤيا الملك .

---

(١) إرشاد العقل السليم ط ص ٧٢١ — ط بولاق ١٢٧٥ هـ .

(وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك) من الآية ٤٢

اختلف المفسرون فى مراد يوسف عليه السلام من قوله للناجى من صاحبي السجن ﴿ اذكرنى عند ربك ﴾ فقال بعضهم إنه عليه السلام قد طلب من الساقى وهو الناجى من صاحبي السجن — أن يعرض قضيته عليه السلام على الملك للنظر فى الإفراج عنه وإطلاق سراحه من السجن .

وعقبوا على ذلك بأن هذا القول منه عليه السلام فيه التجاء إلى المخلوق إذ لم يرفع حاجته إلى الله تعالى . كما فاته التأسى بجده الخليل ابراهيم عليه السلام حين وضع فى المنجنيق وسأله جبريل عليه السلام قبل أن يقذف به فى النار (هل لك من حاجة ؟) .

فأجابه الخليل عليه الصلاة والسلام : أما إليك فلا .

وبنوا على تأويلهم هذا : أنه عليه السلام ما لبث فى السجن بضع سنين إلا لأنه قد جاء بما يؤاخذ عليه من الاستعانة بالمخلوق لدفع الظلم ، وإن كانت هذه الاستعانة لا شىء عليها بالنسبة لغير الأنبياء ، أما بالنسبة إليهم صلوات الله وسلامه عليهم فهى من الأمور التى يؤاخذون عليها .

وهذا التأويل مردود من وجوه منها : —

• إنه لو كان عليه السلام يتعجل الخروج من السجن : لما كانت هناك ثمة ضرورة لرفض الخروج منه حين استدعاه الملك لمجلسه ، بل كان المناسب لذلك أن يبادر بالامتثال ، ويغادر السجن ما دام هذا هو الهدف .

ولكن الوقائع أثبتت عكس ذلك إذ رفض عليه السلام الخروج من السجن ، وتضمن الرفض طلب إعادة التحقيق فى سبب دخوله السجن على أن يتم ذلك بمعرفة الملك نفسه ضماناً للعدالة .

فاهتمامه عليه السلام لم يكن منصباً على إطلاق سراحه ... ولكنه كان متجهاً إلى تأكيد براءته أمام الملأ من جميع ما حدث وإحاطتهم بحقيقة الأمر .

* إن خروجه عليه السلام من السجن لا يقدم ولا يؤخر بالنسبة للموقف من النسوة ومراودتهن . إذ سيستأنفن المطاردة ويعود الحال إلى ما منه بدا ، وتتكرر المراودة مرة أخرى ، فيحتاج الأمر إلى مواجهة قضايا جديدة وهى قضايا من النوع الحساس الخطير الذى يمس العرض والشرف والأمانة ، ولا يمكن اجتثاث الفتنة من جذورها ما لم تعرض القضية على المجلس الملكى .

* إن الخروج من السجن دون إعادة التحقيق فى سبب دخوله يترتب عليه ضياع الحق فى عرض القضية على المجلس الملكى ، مما يفوت إصدار الحكم فيها من هذا المجلس الأعلى — الذى لا يجوز التعقيب على حكمه — ويتركها قضية مفتوحة يصح أن تتخذها بطانة السوء فى المستقبل ذريعة للهمز والغمز واللمز حقدا وحسدا .

وأقل ما يمسه عليه السلام هو الادعاء بأنه عليه السلام كان مذنباً وشمله عفو ملكى وغير ذلك مما لا يليق بمرتبة النبوة .

* إن وضع الساقى نفسه لا يسمح — من ناحية ظروفه أو مرتبته — أن يكون واسطة فى إطلاق سراحه عليه السلام .

* ليس هناك أى دليل يقتضى أنه عليه السلام قد طلب من الساقى هذا الطلب ، ولم يجر فى القضية أنه عليه السلام قد اشتكى من طول مدة سجنه ، بل إن الدليل قائم على أن السجن أحب إليه عليه السلام ، طالما أن الظروف التى دعت إلى ذلك ما زالت قائمة .

* إن الملك حينما استدعى يوسف عليه السلام فيما بعد استدعاء تكريم رفض أن يجيب داعى الملك وأن يخرج من السجن حتى يعاد التحقيق فى قضيته على أن يتولى الملك شخصيا هذا التحقيق .

فكيف يقال عن الذى يرفض دعوة الملك للخروج من السجن أنه لجأ إلى ساقى الملك ليتوسط له عند سيده ليخرجه من السجن !

• وكيف يلجأ من يقول لصاحبي السجن ومن معهم فى السجن (ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إن الحكم إلا الله • أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون — ٤٠) .

ثم يلجأ بعد ذلك إلى ساقى الملك ليتوسط له عند الملك ليخرج من السجن !!

• أما استشهادهم بقصة الخليل إبراهيم عليه السلام فهو حجة على من استشهد بها إذ أن أحد المرسلين غير محتاج إلى من يذكره برفع مطالبه إلى الحق عز وجل ، بل إن هذا الحال لا يفارق كل مؤمن قد اطمأن قلبه بالإيمان .

يقول الإمام الرازى(١) فى هذا الصدد :

(والذى جربته من أول عمرى إلى آخره أن الإنسان كلما عول فى أمر من الأمور على غير الله صار ذلك سببا إلى البلاء والمحنة والشدة والرزية ، وإذا عول العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه .

(فهذه التجربة قد استمرت لى من أول عمرى إلى هذا الوقت الذى بلغت فيه إلى السابع والخمسين ، فعند هذا استقر قلبى على أنه لا مصلحة للانسان فى التعويل على شىء سوى فضل الله تعالى وإحسانه)

قلت وأنا أقول مثل مقالة الإمام الرازى وقد بلغت الحادية والستين وأسأله تعالى أن يغنينى بفضله عمن سواه .

والمرسلون معصومون من الالتفات إلى غيره تعالى لرفيع مكانتهم وعزيز مرتبتهم ، وعدم غفلتهم عن مشاهدة بارئهم . أما المؤمنون فيتفاوتون فى ذلك حسب درجاتهم ، فمنهم من يشعر بالعقوبة عند صدور اية التفاتة منه إلى غيره

---

(١) الفخر الرازى : مفاتيح الغيب ص ١٩٥ و ١٩٦

تعالى ، ومنهم من لا يشعر بهذا الشعور إلا بعد أن يتكرر ذلك منه عدة مرات.

أما الدنيويون : فتجرى أمورهم على عكس ما يقتضيه الإيمان، حتى الذين ينتمون منهم إلى الأديان تكون ثقتهم فى الخلق أشد من ثقتهم فى الله تعالى ، وما أصيبوا بهذا البلاء إلا لطغيان تعلقهم بالدنيا على تعلقهم بالله تعالى .

فإذا كان الخليل عليه السلام لم يلتفت وهو فى شدته إلى سؤال جبريل عليه السلام له ، فكيف يلتفت يوسف عليه السلام إلى ساقى الملك من دونه تعالى ؟ هذا لعمرى فى القياس عجيب غريب !

وقال آخرون :

إنه عليه السلام طلب من الساقى أن يذكر أمام الملك دعوته عليه السلام إلى الدين القيم وإلى تطهير العقيدة من الشرك وعبادة الأوثان فلا تتجه العبادة إلا إلى الله الواحد القهار .

ويستندون فى ذلك إلى أن سياق الآيات يقتضى أن الدعوة إلى الله تعالى كانت محور حديثه عليه السلام مع صاحبى السجن ، فيكون المناسب هو أن يطلب من الناجى أن يذكر ذلك عند الملك.

(ولم يكن يوسف حين أوصاه هذه الوصية متبرما بالسجن ولا ضجرا من هذه المحنة ، ولا مستعينا بالمخلوق دون الخالق كما يقول بعض المغرمين بتجريح الأنبياء ، ولم يكن قد نفد صبره ، ولا ترك الجهاد — ولم يقصد بقوله للساقى ﴿ اذكرنى عند ربك ﴾ أن يذكر له أن إخوته ظلموه ، ولا أن المرأة ظلمته، ولا أن يستغيث بالملك ليخرج من السجن .

(لم يقصد شيئا من هذا كله ، بل إنه رسول كلف بتبليغ الرسالة ، فلا بد أن يسعى ويجد فى تبليغها . والتبليغ إما مباشرة وإما بواسطة ، وقد بلغ الفتيين هذه الرسالة ، فلما علم أن أحدهما سيكون ساقيا للملك ، أوصاه بذكره له ، وما جاء به من دين يخالف دين الملك ، وهذا أمر يهتم به الملك جل الاهتمام

فإما أن يرسل إلى يوسف ويسأله عن هذا الدين الجديد الذى كان يدعو إليه فى السجن ، وإما ألا يرسل إليه فيكون الغلام أبلغه دعوة الدين الجديد)[١].

ويعترض على هذا القول : —

أن يوسف عليه السلام ما كان ليدعو الملك ورجال الدولة إلى الإسلام مالم تعلن براءته أمامهم ، ولا يعترض على ذلك بأنه عليه السلام قد أعلن الدعوة فعلا وهو مايزال فى السجن ، ولم يؤجل إعلانها حتى يفرج عنه .

ويجاب على ذلك بأنه اعتراض غير مستند على شيء يقوم عليه،إذ الفارق كبير بين من كانوا فى السجن وبين هؤلاء الملأ من القوم :

فالذين فى السجن كانوا مؤمنين ببراءته عليه السلام وأنه قد سجن ظلما وعدوانا : كما يظهر من الألقاب التى كانوا ينادونه عليه السلام بها : الصديق المحسن .

فالموقف داخل السجن غيره فى الخارج . والذين يعاملهم هنا غير الذين يعاملهم هناك . وما كان أهل السجن فى حاجة إلى إعادة التحقيق لإثبات براءته عليه السلام .

أما الملأ من القوم فمنهم من كان لا يعرف حقيقة ماحدث فكان فى حاجة إلى بسطها أمامه ، ومنهم من كان يعلم الحقيقة إلا أنه كان يخفيها مراعاة لمركز إمرأة العزيز ومكانتها .

كذلك لو كان الغرض هو تبليغ الدعوة إلى الملك وملئه لما رفض عليه السلام مبارحة السجن حتى يعاد التحقيق فى القضية أمام الملك ، ولكان ذلك أدعى إلى أجابته عليه السلام للملك والمبادرة إلى الخروج من السجن .

ولو كان القصد هو تبليغ الدعوة لما قال (أذكرنى) وهو يقصد تبليغها،

(١) عبد الحميد كحيل : يوسف عليه السلام ص ٨٣

ولوقعت المعاتبة من أجل هذا : إذ المقام لا يكون فيه مـــذكور سوى الله عز وجل .

حقيقة الامر :

إن الموضوع واضح لا غموض فيه ولا إبهام وقد دلت عليه الآيات فيما بعد :

فهو عليه السلام لم يطلب من الساقى إلا أن يذكر للملك عند اللزوم مارآه صاحبا السجن وما سمعاه منه عليه السلام : فيترتب على هذا الذكر :

• إحاطة الملك بالخاصية التى أوتيها عليه السلام ألا وهى خاصية التأويل وتعبير الرؤى ، فإذا ما حدث ورأى الملك رؤيا يعجز المـــلأ من قومه عن تعبيرها ، لجأ إليه عليه السلام فى تأويلها ، فيكون ذلك آية ليوسف عليه السلام وبرهانا دالا على نبوته .

وحينئذ لا يخالف له الملك أمرا لو طلب منه عليه السلام إعادة التحقيق فى قضيته ليظهر للملأ براءته عليه السلام من كل سوء .

فلم يكن قوله عليه السلام لصاحب السجن « أذكرنى عند ربك » بقصد الإفراج عنه ولا الوصول إلى منفعة قد تجرها صلة الساقى بالملك . ولا بقصد التوطئة لنيل ماتهفو إليه نفوس الطامعين كعادة الدنيويين ولا بقصد إنابة الساقى عنه عليه السلام فى الدعوة إلى الله تعالى .

بل كان القصد من ذلك كله هو أستعجال التحقيق فى قضيته عليه السلام ليعلم الملأ أن ساحته — وهى ساحة النبوة والرسالة — أسمى من أن تكون موضع ريبة وأطهر من أن تكون موقع تهمة. ولا يمكن لأحد أن يمس جلالها بسوء أو أن يقدح فى نزاهتها قادح .

والحال يقتضى إعلان هذه البراءة على رؤوس الاشهاد مقترنه بآية من آيات نبوته عليه السلام حتى لاتلتبس البراءة بعمل من أعمال العفو أو الصفح أو المنة التى قد يصدرها الملك . كما أن المسألة لاتحتاج إلى سكوت خشية اختفاء أشخاص الشهود من مسرح الحياة ، أو أن يتفرقوا بحيث يتعذر أستدعاؤهم وهذا كله مما يقتضى استعجال نظر القضية قبل أن يصبح نظرها لاجدوى منه.

لذا طلب عليه السلام من صاحب السجن أن يخبر الملك بما حدث بشأن مارآه صاحبا السجن وما قاله عليه السلام لهما ، حتى إذا مارأى الملك رؤيا يعجز القوم عن تأويلها لجأوا إليه عليه السلام فيكون تأويلها آية له عليه السلام يشهدها الملأ وتكون سببا فى إعادة التحقيق وسببا فى براءته .

فكأنه عليه السلام ربط خروجه من السجن بذكر صاحب السجن ذلك أمام الملك وهذا هو مافهمه الساقى من قوله (أذكرنى عند ربك) وارتبط ادكار صاحب السجن برؤيا الملك التى وطأت له عليه السلام حكم مصر .

فلبث فى السجن حتى حدثت هذه الرؤيا فادكر صاحب السجن وقتئذ .

(فأنساه الشيطان ذكر ربه) من الآية ٤٢ .

الذين قالوا إنه عليه السلام التجأ فى هذه الواقعة إلى الاستعانة بالمخلوق من دون الخالق قرروا أن ضمير (فأنساه) يرجع إلى يوسف عليه السلام ، وممن ذهب إلى ذلك الحشوية ورتبوا على ذلك أنه عليه السلام مالبث فى السجن بضع سنين إلا بسبب هذه الاستغاثة (١) .

---

(١) اتخذ الفخر الرازى من قول أصحاب هذا التأويل حجة رد بها على من ادعى أن همه عليه السلام فى آية الهم كان متعلقا بالفاحشة ، ونص عبارته فى هذا الصدد (إن الذى يصير مؤاخذاً بهذا القدر ، لأن يصير مؤاخذا بالاقدام على طلب الزنا ومكافأة الإحسان بالإساءة كان أولى . فلما رأينا الله تعالى آخذه بهذا القدر ، ولم يؤاخذه فى تلك القضية البتة ، وما عابه ، بل ذكره بأعظم وجوه المدح والثناء ، علمنا أنه عليه السلام كان مبرأ مما نسبه الجهال والحشوية إليه) ـ مفاتيح الغيب ج : ٥ : ص : ١٩٦ .

وأيد أصحاب هذا التأويل رأيهم بوجوه منها :

(الأول) إن فى لفظ الآية الكريمة « فأنساه الشيطان ذكر ربه » مايدل على أن صرف الضمير إلى صاحب السجن الناجى ضعيف ، إذ لو كان الأمر كذلك لقال (فأنساه الشيطان ذكره لربه) .

(الثانى) ماروى من الحديث فى هذا الشأن وسيأتى بيانه وتوجيهه .

(الثالث) قالوا — مراعاة لعصمة الأنبياء — إن هذا لايثبت أى تصرف للشيطان فى يوسف عليه السلام ، لأن النسيان كان لتذكره عمل الشيطان فى زوجة العزيز التى كانت سببا فى سجنه ، فكان تذكر عمل الشيطان سببا فى النسيان . فلاوجه للطعن فى عصمة الأنبياء وهو من قبيل قوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم — ٥٢ ﴾ ٢٢ : سورة الحج .

ومعلوم أن الإلقاء إنما يكون فى الأمة التى يتمنى الرسول أن تؤمن بما أنزل عليه من ربه .

وقال آخرون : إن الضمير فى الآية إنما يرجع إلى صاحب السجن الناجى فيكون المعنى إن الشيطان قد أنساه ذكر يوسف عليه السلام أمام الملك حتى طال الأمر واحتجوا لذلك بأمرين :

(الأول) قوله تعالى « وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة » فيكون النسيان منه لأنه قد وقع منه التذكر .

(الثانى) إن صرف عمل الشيطان فى النسيان إلى ذلك الرجل أولى من صرفه إلى يوسف عليه السلام مراعاة لقاعدة عصمة الأنبياء . بل القاعدة العامة ألا سلطان للشيطان على عباد الله المصطفين المخلصين ولا يمكن خرقها مطلقا يأبى ذلك الشرع والنقل والعقل .

قلت: إن الآية فيها دليل على أن الناجى قد آمن، فيكون المعنى إن الشيطان قد أنساه ذكر الله عز وجل فنسى ذكر وصية يوسف عليه السلام .

إيمان الناجي من صاحبي السجن :

تذكر فيما يلي القرائن الدالة على إيمان الناجي - وهو الساقي - من صاحبي السجن وتلك القرائن هي :

• إنه قد ظهرت له في نفسه آية باهرة وهذا النوع من أقوى الآيات التي لاقبل لأحد بردها أو إغفالها أو إنكارها : فقد شهد عفو الملك عنه واقترن العفو بعودته إلى وظيفته طبقا لما أخبره عليه السلام .

• وكذلك نفذ الحكم في زميله طبقا لما نطق به عليه السلام لم ينخرم من ذلك شيء .

• حينما أدكر بعد أمة ، أخبر القوم خبر الواثق من تأويل رؤيا الملك ، واستأذن ليكون سفير الملك إلى يوسف عليه السلام . ومن تلهفه للقيام بهذه المهمة ، يظهر من هذه اللفهه أنه كان شديد الحرص على تلافي تقصيره في ذكر وصية يوسف عليه السلام ، كما كان أيضا شديد الحرص على معرفة القوم لحقيقته عليه السلام ولو كان عنده أدنى شك لما ظهر منه هذا الجزم والتصديق .

• حينما وجه خطابه إلى يوسف عليه السلام جاء بألزم الصفات لإيمانه إذ بدأه بقوله (يوسف أيها الصديق) ولم ينعته بهذا النعت إلا لإيمانه بجميع ماسمعه منه عليه السلام ، وإلا لما جاز أن يصفه بالصديقيه ، وهو في نفس الوقت يكذبه في أهم ماجاء به ، وألقاه إليه أيام صحبته له في السجن .

توجيه الاحاديث الواردة في هذا الشأن :

إن الذين قرروا أن يوسف عليه السلام قد لجأ إلى المخلوق إذ أنساه الشيطان ذكر ربه :

﴿(١) أقول اعتمدوا على ماروواه ابن جرير فى تفسير هذه الآية مسندا : قال: حدثنا ابن وكيع(٢) حدثنا عمرو بن محمدعن إبراهيم بن يزيد(٣) عن عمرو ابن دينار عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعا قال ﴾ :

﴿ قال النبى صلى الله عليه وسلم (لولم يقل الكلمة التى قال مالبث فى السجن طول ما لبث حيث يبتغى الفرج من عند غير الله) ﴾ والكلام على يوسف عليه السلام .

﴿ قال الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير فى تفسيره وهذا الحديث ضعيف جدا لأن سفيان بن وكيع ضعيف — وإبراهيم بن يزيد أضعف منه أيضا ﴾ .

﴿ قال الحافظ وقد روى عن الحسن وقتاده مرسلا عن كل منهما وهذه المرسلات ههنا لا تقبل لو قبل المرسل حيث هو فى غير هذا الموطن والله أعلم ﴾.

﴿ قلت إن الحديث المرسل الذى رواه ابن جرير ينتهى عند قوله (طول مالبث) والباقى زيادة بيان من راوى الحديث ، وهذا يحدث أحيانا من الرواة بحيث يظن من لا علم له بالحديث أن بيان الراوى من تكملة الحديث الشريف .

ولذا جاء فى رواية أخرى ﴿ رحم الله يوسف لولم يقل (اذكرنى عند ربك)

---

(١) عبد الحميد كحيل : يوسف عليه السلام ، نظرات فى التفسير : ص ٨٤/٨٥

(٢) هو سفيان بن وكيع الجراح ، قال عنه الامام أبو زرعة : كان يتهم بالكذب

(٣) هو ابراهيم بن يزيد الخوزى قال فى تهذيب التهذيب : قال البرقى – ت ٢٤٩ هـ – كان متهما بالكذب .

وقال ابن حبان – ت ٣٥٤ هـ – روى المناكير الكثيرة حتى يسبق إلى القلب أنه كالمتعمد لها .

(بيان) : تهذيب التهذيب : التهذيب الأول هو تهذيب الكمال فى أسماء الرجال للحافظ المزى ت ٧٤٢ هـ ، فى اثنى عشر مجلدا ، وهذبه وزاد عليه فوائد كثيرة الحافظ ابن حجر العسقلانى – ت ٨٢٥ هـ – فى كتابه تهذيب التهذيب .

مالبث فى السجن ﴾. كذلك استشهدوا بما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال (لما تضرع يوسف عليه السلام إلى ذلك الرجل كان قد اقترب وقت خروجه ، فلما ذكر ذلك لبث فى السجن بعده سبع سنين) .

ويسوق البغوى فى تفسيره رواية فى هذا الشأن عن كعب الأحبار[1] وهى محاورة بين جبريل ويوسف عليهما السلام هذا نصها :

قال جبريل ليوسف : إن الله يقول لك من خلقك !

قال : الله .

قال : فمن حببك إلى أبيك ؟ ... قال : الله .

قال : فمن نجاك من كرب البئر ؟ ... قال : الله .

قال : فمن علمك تأويل الرؤيا ؟ ... قال : الله .

قال : فمن صرف عنك السوء والفحشاء ؟ ... قال : الله .

قال : فكيف استشفعت بآدمى مثلك ؟

ومثل هذا الحوار لا يرتقى إلى مستوى حوار بين نبى مرسل وبين أمين الوحى، بل إن ركاكته تحكم بأنه من تصور الرواة المعجبين بالأسلوب القصصى فالنبى المرسل ليس بالشخص الذى يحتاج إلى تذكيره بهذه البديهيات كمقدمة لاتهامه بالاستشفاع بآدمى من دون الله تعالى .

ويروى فى الدر المنثور عن مالك بن دينار أنه قال :

لما قال يوسف للساقى أذكرنى عند ربك ، قيل له : يا يوسف اتخذت من

---

(١) هو كعب بن مانع بن عمرو كان يهوديا وأسلم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : قيل فى عهد الصديق أو فى خلافة عمر رضى الله تعالى عنهم ، وتكاد تتفق كلمة النقاد على توثيقه ، وقد يجتهد فى تفسير بعض آى الذكر الحكيم فلا يصيب ، ولذا قال عنه معاوية (إنه لمن أصدق هؤلاء الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب) .

دونى وكيلا ؟! لاطيلن حبسك . فبكى يوسف وقال : يارب . أنسى قلبى كثرة البلوى . فقلت كلمة ولن أعود .

ويروى عن الإمام الحسن البصرى أنه قال :

دخل جبريل عليه السلام على يوسف فى السجن فلما رآه يوسف عرفه .

فقال له : ياأخا المنذرين « المرسلين » إنى أراك بين الخاطئين !

فقال له جبريل : ياطاهر يابن الطاهرين . يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك « أما استحييت منى أن استشفعت بالآدميين ؟ فوعزتى وجلالى لالبثنك فى السجن بضع سنين » .

فقال يوسف : وهو فى ذلك عنى راض ؟

قال : نعم .

قال : إذن لا أبالى .

وكان الحسن رحمه الله تعالى إذا تلا هذه الآية بكى وقال « نحن إذا نزل بنا أمر تضرعنا إلى الناس » .

فهؤلاء يجعلون قوله « اذكرنى عند ربك » زلة منه عليه السلام لا تليق بمقام النبوة لانها تشعر بالتوكل على المخلوق من دونه تعالى أو اتخاذ شفيع لدى مخلوق !!

وقد سبقت الإشارة إلى أنه عليه السلام لم يستعن بمخلوق أو يتضجر من طول ما لبث فى السجن ، إنما كان يستعجل عرض قضيته عليه السلام لإثبات براءته من كل ما يخالف عصمة الأنبياء - فالمؤاخذة - إن كانت فبسبب هذا الاستعجال عن طريق صاحب السجن - مع أن خروجه من السجن سيكون مقترنا بآية من الآيات التى تكون برهانا على نبوته عليه السلام ليمكن له تعالى

---

(١) هو الامام الحسن بن يسار البصرى (٢١ : ١١٠ هـ) : يعدونه أفضل التابعين. وقد رويت عنه فى التفسير روايات تعرض لها علماء التفسير والحديث والأصول بالنقد.

فى الأرض ، وهذا بخلاف ما لو كان خروجه من السجن غير مقترن بهذه الآية الكبرى .

والأنبياء مؤاخذون بالعمل بالظن كائنا ما كان مثلما حدث لذى النون يونس عليه السلام :

﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين - ٨٧ ﴾ : ٢١ سورة الأنبياء .

﴿ وإن يونس لمن المرسلين - ١٣٩ - إذ أبق إلى الفلك المشحون - ١٤٠ - فساهم فكان من المدحضين - ١٤١ - فالتقمه الحوت وهو مليم - ١٤٢) ٣٧ : سورة الصافات .

(فلبث فى السجن بضع سنين)

قال الفراء : لا يذكر البضع إلا مع عشرة أو عشرين إلى التسعين ، وذلك يقتضى أن يكون مخصوصا بما بين الثلاثين إلى التسعة - وقال هكذا رأيت العرب يقولون ، وما رأيتهم يقولون (بضع ومائة) .

وروى الشعبي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : كم البضع ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : دون العشرة .

واتفق الأكثرون على أن البضع ههنا كان سبع سنوات . وقالوا إن يوسف عليه السلام حين قال للرجل (اذكرنى عند ربك) كان قد لبث فى السجن خمس سنوات ، ثم بقى بعد ذلك سبع سنين .

رؤيا الملك :

لما أذن الله تعالى ليوسف عليه السلام بالخروج من سجنه ، قيض لخروجه الملك نفسه ، فأجرى السبب على يديه .

ذلك أن الملك رأى فيما يراه النائم رؤيا أفزعته . وأهمه أمرها هماً شديدا حتى جمع من أجل ذلك خاصته من أهل مشورته فقص عليهم : أنه رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات مهازيل ، وسبع سنبلات يانعات قد امتلأت حبا يقابلها سبع سنبلات يابسات لا حب فيها . وطلب من السامعين أن يفتوه فى تعبير رؤياه :

(وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف[1] وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون - ٤٢)

ويفهم من قوله (إن كنتم للرؤيا تعبرون) أنه يشك فى مقدرتهم على التعبير وإدراك المقصود من هذه الرؤيا بالنفاذ من هذه الصور المتخيلة فى المنام إلى حقيقة ما سيؤول إليه فى عالم الحس والشهادة . كما يفهم منه أيضا تقييد من يتصدى لبيان ذلك بمعرفة علم التعبير ، ولا عبرة بمن يدلى بدلوه تخمينا سواء صادف الحقيقة أم لم يصادفها كما يفعل المرء عادة إذا قص عليه بعض أصحابه رؤياه .

وصدق جوابهم حدس الملك إذ وصفوا ما رآه بأنه أضغاث[2]

(١) العجف : بفتحتين ذهاب السمن ، وعجف ، على وزن فرح وكرم ، ذهب سمنه
(٢) أضغاث : جمع ضغث وهو ما جمع من أخلاط النبات وجعل فى حزمة ، استعير لما تجمعه القوة المتخيلة فى المنام من أحاديث النفس ووساوس الشيطان .

قال الشريف الرضي : =

أحلام(١) وأحاديث نفس تتمثل للنائم فيما يراه . وعلى فرض صحة ما رآه فقد صرحوا بأنه لاقدم لهم فى علم التعبير .

وكان فى إمكانهم الإكتفاء باعترافهم بجهلهم بعلوم التعبير والتأويل ، ولكنهم حينما رأوا قلق الملك واضطرابه وشدة اهتمامه بهذه الرؤيا ، قدموا أولا ما يطمئنه ويذهب عنه الروع والفزع والهم ، ويمحو من نفسه الأثر الذى تركته هذه الرويا أو يخفف منه . وبعد أن قدموا ذلك عرفوه بحقيقة الأمر ، وهو أنهم لا علم لهم بتأويل الأحلام :

(قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين)

سئل الإمام أبى عمرو عثمان بن عبدالرحمن الشهرزورى(٢) عن مسائل تأويل بعض آى الذكر الحكيم ومن بينها قوله تعالى (قالوا أضغاث أحلام) ، مامعنى أضغاث أحلام ؟ ومن أين يفهم المنام الصالح من المنام الفاسد ؟ ونذكر إجابته بتمامها لتحصل الفائدة ثم نعلق عليها و نعقب بما فتح الله تعالى به علينا :

فأجاب رحمه الله تعالى :

(أحد الأضغاث ضغث وهو الخليط من الحشيشه المضموم بعضه إلى بعض كالحزمة وما يجرى مجراها . فشبه سبحان اختلاط الأحلام وما مر به الإنسان من المحبوب والمكروه والمساءة والسرور باختلاط الحشيش المجموع من أخياف عدة واحناف كثيرة) . تلخيص البيان ص ١٧١ .

(١) الأحلام جمع حلم بضم الحاء وتسكين اللام أو ضمها وهو مايراه النائم مما ليس بحسن .

(٢) هو الامام الحافظ الفقيه الأصولى تقى الدين عثمان بن عبد الرحمن بن موسى الشهر زورى الشافعى المشهور بابن الصلاح (٥٧٧ — ٦٤٣ هـ) ، له فتاوى جمعها بعض أصحابه فى مجلد ، نشرت ادارة الطباعة المنيرية ثلاثة أقسام منها وهى الفتاوى المتعلقة بالتفسير والحديث والأصول والعقائد وذلك لأول مرة ١٣٤٨هـ ، تحت عنوان : فتاوى ابن الصلاح فى التفسير والحديث والأصول والعقائد .

وأما قوله تبارك وتعالى (قالوا أضغاث أحلام) فإن الأضغاث جمع ضغث وهو الحزمة التى تقبض بالكف من الحشيش ونحوه .

والأحلام جمع حلم وهى الرؤيا مطلقا ، وقد تخص بالرؤيا التى تكون من الشيطان ، ولما روى فى حديث : « الرؤيا مطلقا من الله تعالى والحلم من الشيطان » .

فمعنى الآية : أنهم قالوا للملك إن الذى رأيته أحلام مختلطة فلا يصح تأويلها .

وقد أفرد بعض المعبرين اصطلاحا لأضغاث الأحلام ، فذكر أن من شأنها أنها لا تدل على الأمور المستقبلة ، وإنما تدل على الأمور الحاضرة والماضية ، ويجب معها أن يكون الرائى خائفا من شىء أو يكون راجيا لشىء ، وفى معنى الخوف والرجاء : الحزن على شىء ، والسرور بشىء .

فإذا نام من اتصف بذلك : رأى فى نومه ذلك الشىء بعينه .

كذلك أن يكون خاليا من شىء هو محتاج إليه : كالجائع والعطشان يرى فى نومه كأنه يأكل ويشرب . أو يكون ممتلئا من شىء فيرى كأنه ينجسه : كالممتلىء من الطعام يرى أنه يقذف (أى ما فى جوفه) .

وذكر أن هذه الأمور الأربعة مهما سلم الرائى منها فرؤياه لا تكون من أضغاث الأحلام التى لا تعبير لها ،

[وهذا الذى ذكر ضابط حسن لو سلم فى طرفيه ، لكن الحصر شديد وما ذكره فغيره من المنامات الفاسدة شاركته فى الاندراج فى قبيل الأضغاث .

[وأما سؤاله من أين يفهم المنام الصالح من المنام الفاسد ؟

فإن للرؤيا الفاسدة أمارات يستدل بها عليها ، وما تقدم حكايته فى شرح أضغاث الأحلام طرف منها .

فمنها : أن يرى ما لا يكون كالمحالات وغيرها مما يعلم أنه لا يوجد: بأن يرى الله سبحانه على صفة مستحيلة ، أو يرى نبيا يعمل عمل الفراعنة . أو يرى قولا

لا يحل التفوه به . ومن هذا القبيل ما جاء فى الحديث الصحيح من أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى رأيت رأسى قطع وأنا أتبعه » الحديث المعروف . وهذه الرؤيا الشيطانية التى ورد الحديث بأنها تحزين من الشيطان أو تلاعب منه بالإنسان ، ومن هذا النوع الاحتلام فإنه من الشيطان ، ولهذا لا تحتلم الأنبياء .

[ومن أمارات الرؤيا الفاسدة :

أن يكون ما رآه فى النوم قد رآه فى اليقظة وأدركه حسه بعهد قريب قبل نومه ، وصورته باقية فى خياله ، فيراها بعينها فى نومه .

ومنها : أن يرى ما قد حدثته به نفسه فى اليقظة ويكون مما يفكر فيه قبل النوم بمدة قريبة ...

[ومنها أن يكون ما رآه مناسبا لما هو عليه من تغير المزاج[1] ، بأن تغلب عليه الحرارة من الصفراء فيرى فى نومه النيران والشمس المحرقة ، أو تغلب عليه البرودة فيرى الثلوج ؛ أو تغلب عليه الرطوبة فيرى الأمطار والمياه ، أو تغلب عليه اليبوسة والسوداء فيرى الأشياء المظلمة أو الأهوال والأدواء السوداوية فجميع هذه الأنواع فاسدة لا تعبير لها .

[فإذا سلم الإنسان فى رؤياه من هذه الأمور غلب على الظن صحة رؤياه ، وتقع العناية بتعبيرها ، وإذا انضم إلى ذلك كونه من أهل الصدق والصلاح قوى الظن بأنها صادقة صالحة ، وفى الحديث الثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم (أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا) ... ومن أمارات صلاحها أن تكون تبشيرا بالثواب على الطاعة أو تحذيرا من المعصية ، ثم إن القطع على الرؤيا بكونها صالحة لا سبيل إليه إنما هو غلبة الظن : ونظير ذلك من حال اليقظة الخواطر

---

(١) يقسم أطباء العرب : قديما الأمزجة البشرية إلى أربعة أقسام : حار ، وبارد ، ورطب ويابس ويجعلون ذلك أساساً لعلامات الأمراض ووصفها ، مما لا يستغنى عنه الطب العلاجى عندهم .

ومعلوم أن إدراك ما هو منها حق مما هو باطل يكون عن طريق الظن][1].

قلت تنقسم المرائى إلى الأقسام الآتية :

(أولا) مرائى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وهذه داخلة فى الوحى ويقع المثال حسبما هم فيه من المشاهدات ، وهم يعلمون المقصود منه ، ويقال لمرائيهم قبل النبوة أنها إرهاصات ومقدمات للنبوة .

(ثانيا) مرائى غير الأنبياء وتنقسم إلى :

١ — رؤيا حقائق متصلة بالإنسان أو بمن له دخل فى الرؤيا وهذه الحقائق :

(ا) إما أن ترى كما هى أو مخلوطة برموز خفيفة ويقال للرؤيا حينئذ أنها رؤيا روحية :

(ب) وإما أن تكون دلالة الرموز على الحقائق التى تشير إليها دلالة بعيدة معقدة ، وهذه تحتاج إلى تأويل يصل منه المعبر إلى الحقيقة .

٢ — مرائى دالة على الأحوال النفسية فالرؤيا فى هذه الحالة تكون معبرة عما يشغل المرء فى اليقظة من ملاقاة محب أو خوف من عدو أو نجاة من خطر يتهدده ، ومن هذا القبيل الرغبات المكبوتة المحبوسة التى تنطلق عند ما يفقد الإنسان سيطرته فى النوم على عقله الواعى . وهذه المرائى صالحة للتحليل النفسى .

٣ — مرائى سببها ما غلب على الإنسان من أمراض جسمية وهذه صالحة للاستدلال منها على نوع مرض الإنسان .

٤ — أضغاث أحلام وتشمل :

(ا) الأحلام التى تجرى فيها المحالات التى لا هدف لها سوى إلقاء الرعب فى الرائى وهذه من تلاعب الشياطين بالإنسان وقد وردت الاستعاذة منها .

(ب) إدراكات فى النوم مر بها الإنسان فى اليقظة فتعلق بها خياله فجاء ما أدركه فى منامه إستمرارا لهذه الحالة .

---

(١) فتاوى ابن الصلاح : ص ٦ : ٧ .

والتفرقة بين هذه الأنواع لا يدركها إلا من رسخ فى علم التعبير وهو من العلوم العزيزة التى لا تدرك إلا عن طريق وراثة علوم النبوة ، إذ يحتاج هذا العلم إلى:

— رسوخ فى المعارف الإلهية .

— التمسك بالهدى الإلهى واتباع النبيين صلوات الله وسلامه عليهم .

— التمكن فى علوم النفس ومعرفة الظلام الداخل على النفوس من مفارقة الوحى والانقطاع عن الله تعالى ، ومعرفة النور الذى تسقى به من متابعتها للوحى .

— الرسوخ فى علوم الخواطر والتفرقة بين أنواعها (ملكية أو نفسانية أو شيطانية .

— معرفة خصائص الروح الآدمية ومدركاتها .

فمن تجرد من هذه المعرفة ، لم يكن له حظ فى علم التعبير ، وكل ما يعرفه عنه إنما هو من قبيل التخمين ، شأنه فى ذلك شأن حاطب الليل .

وقد شاهدنا العجب العجاب ممن فتح عليهم فى هذا العلم ، وكأنهم يقرأون كتابا مفتوحا ، وكان لا ينخرم من تأويلهم شىء ، وتمام التعبير كان يظهر ـ فى بعض الأحيان ـ بعد وفاة المعبر بمدة طويلة قد تزيد على العشرين عاما .

والرؤيا الصادقة إذا تكررت من الرجل كانت دليلا على التزامه الصدق والرؤيا الصالحة من أجزاء النبوة ، وأول ما يبدأ الوحى بالرؤيا الصادقة . والمرائى الصالحة تسمى المبشرات ـ وقد جاء فى الحديث الشريف :

(إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثا)[1]

(لم يبق من النبوة إلا المبشرات ـ قالوا وما المبشرات ؟ قال صلى الله عليه وسلم : الرؤيا الصالحة)[2] . وفى حديث آخر بزيادة (يراها الرجل أو ترى له)

(١) رواه البخارى ومسلم وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

(٢) راجع الحديث فى كتاب (بهجة النفوس وتحليها) للامام الحافظ عبد الله ابن أبى جمرة الازدى ج ٤ ص ٢٣٤ ومابعدها، وقد تكلم رحمه الله تعالى أثناء الشرح على أنواع المرائى . وقد نبهنا فى بعض كتبنا إلى دراسة هذا الكتاب فى الكليات الأزهرية المتخصصة .

وفى ذلك دليل على إيناس الحق تبارك وتعالى لعباده الصالحين بالمبشرات تثبيتا لهم على الحق وتأييدا - (الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة)[1] .

استفتاء يوسف عليه السلام فى تأويل رؤيا الملك :

لما سمع صاحب السجن الناجى ما دار فى مجلس الملك ، وشهد عجز الجميع عن تأويل رؤياه . وتهربهم من التأويل بحجة أنها أضغاث أحلام ، جهلا منهم بعلم التعبير : تذكر وصية يوسف عليه السلام له حين كان فى السجن معه ، ووجد الفرصة سانحة ليدل القوم على يوسف عليه السلام ، ليعلموا مكانته

---

(١) رواه الأمام أحمد والبخارى والنسائى وابن ماجه عن أنس رضى الله تعالى عنه ، وفى حديث آخر (الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة) رواه البخارى عن أبى سعيد ، ومسلم عن ابن عمر وأبى هريرة ، وأحمد وابن ماجه عن أبى رزين . والطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنهم .

وهذا من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم - ومن دلائل النبوة فى هذا الحديث :

(ا) تقييد الاجزاء بالنبوة لا بالرسالة إذ الرؤيا قد تخص وقد تعم ، كما أن النبوة قد يكون معها الإرسال فتكون عامة للمرسل إليهم أو لايكون معها إرسال فتكون خاصة .

(ب) تقييد الرؤيا بالصلاح أو الحسن أخرج كل رؤيا خالفت هذا الشرط ، وبقيت المرائى التى تسر النفس أو التى تدلها على خير شرعى أو تحرضها عليه .

(ج) تقييد الرائى بالصلاح لأن من أنشغلت نفسه بغيره تعالى لا يدور حــديثه النفسى إلا فى الدنيا وزخرفها .

(د) إن الرؤيا ترتبط بعلم هام من علوم الروح علمه من علمه وجهله من جهله ، بخلاف مايظنه أهل الوسوسة من الذين يربطون المرائى بالكبت والعقد المتصلة بالجنس كما تفعل مدارس التحليل فى العصر الحاضر .

فهذه المدارس نظرت إلى الرغبات المكبوتة فقط فخرج من نظرها كل ماتدركه الروح الإنسانية خارجا عن هذه الرغبات .

العالية وليكفر هو بذلك عن تقصيره فى حقه عليه السلام إذ نسى ما وصاه به قبل خروجه من السجن فأخبر الملك خبر الواثق من نفسه بإنجاز وعده - أنه يستطيع أن يأتيهم بنبأ الرؤيا لو أرسلوه إلى يوسف عليه السلام فى السجن :

﴿ وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة . أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون -٤٥ ﴾

(وادكر بعد أمة) : أى تذكر بعد حين أو بعد مضى وقت طويل وصيته عليه السلام بذكره عند الملك على الوجه الذى بيناه آنفا .

فأذن له الملك فى الانطلاق ليأتيهم بالخبر اليقين ، وانطلق من فوره إلى السجن لعرض الرؤيا على يوسف عليه السلام .

﴿ يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون -٤٦ ﴾

ينادى يوسف عليه السلام مناداة المؤمن الذى امتلأ إيمانا ، والمشتاق إلى رؤيته عليه السلام والمعتذر عن تقصيره : ليخبره بأنباء ما جهله الملأ من تأويل هذه الرؤيا ليرجع إليهم فيجلو لهم ما خفى عليهم ليعلموا أنهم أمام نبى مرسل قد علمه الله تعالى من العلم ما لم يبلغه أحد منهم .

ونراه هنا يقول (أفتنا) ولا يقول (نبئنا) مقتبسا ما قاله أولا من قوله عليه السلام . ﴿ قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ .

الآية الكبرى ليوسف عليه السلام :

﴿ قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون -٤٧ ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون -٤٨

---

(١) قال ابن الانبارى (دأبا) قرىء بسكون الهمزة وفتحها ... والأصل هو الإسكان وإنما فتحت الهمزة لأنها وقعت عينا وهى حرف حلق . قال أبو حاتم : من سكنها جعلها مصدر (دأب) ومن فتحها جعلها مصدر (دئب ، يدأب ، دأبا) .

ابن الانبارى : البيان فى غريب إعراب القرآن ج ٢ ص ٤٢ .

ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون - ٤٩ ﴾

الكلام على بعض ما فى هذه الآيات الكريمة من وجوه الإعجاز :

• العبور من رموز الرؤيا إلى الحقائق المرتبطة بها . والكشف عن الصور المتخيلة فى المنام وبيان ما سيصير إليه أمرها فى عالم الحس وهو مراد الله سبحانه من صورة الرؤيا : فتمثل الرخاء بالبقرات السمان والسنبلات الخضر. وتمثلت مدته بالسنين بعدد البقر وعدد السنبلات. وتمثلت المجاعة بالبقرات العجاف، والسنبلات اليابسات ومدتها بالسنين بعدد هذه البقرات والسنبلات .

• بشرهم عليه السلام بأن ما يختزنونه من القوت خلال سنى الرخاء سيغطى احتياجات سنى المجاعة ويفيض منه القليل وفى ذلك أحسن بشرى بأن المجاعة ستنتهى بسلام :

(يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون) أى ينفذ فيهن ما ادخرتموه لهن من السنين المخصبة إلا القليل منه . تقول العرب : أكلت آل فلان السنة يريدون مسهم الضر فى عام الجدب، وزمان الضيق والشدة، ويقولون . أكلتهم الضبع أى نهكتهم سنة الجدب[1] .

• بشرهم عليه السلام بالخصب والنماء فى العام الخامس عشر ، فيعصر فيه الناس ما جرت عادتهم بعصره من زيتون وسمسم وكتان وعنب وغير ذلك .

ويقرأ أيضا (تعصرون) بضم التاء وفتح الصاد أى تمطرون وهو من قوله (من المعصرات)[2] .

• بينت الآيات خطة المواجهة اللازمة لاجتياز المجاعة بسلام وقد تضمنت هذه الخطة :

---

(١) الشريف الرضى : تلخيص البيان ص : ١٧٢ .

(٢) أبو البقاء العكبرى : إملاء مامن به الرحمن ج ٢ ص ٢٩ .

(ا) التركيز على زراعة الحبوب خلال سنى الرخاء لأنها محور الأمن الغذائى .

(ب) أن الأولوية تكون لزراعة الحبوب ذات السنابل لأن السنابل تساعد على الاحتفاظ بالحب سليما هذه المدة الطويلة .

(ح) إن ذلك يستمر سبع سنوات متواليات « دأبا » .

(د) بيان الطريقة الصحيحة للتخزين لوقاية الحبوب من التلف بترك ما يحصدونه ويجمعونه فى سنبله كيلا يسرع اليه الفساد .

(ﻫ) الاقتصاد فى الاستهلاك « إلا قليلا مما تأكلون » .

كذلك تضمنت الآيات الكريمة التنبيه إلى تطبيق علوم مواجهة المجاعات وهى من أدق العلوم وأهمها ليتمكنوا من تنفيذ الخطة المواجهة التى يستلزم تنفيذها :

• تخطيط اقتصادى اجتماعى شامل ينقذ البلاد من الكارثة : يتبين ذلك من قوله « تزرعون سبع سنين دأبا » « فما حصدتم فذروه فى سنبله » « إلا قليلا مما تأكلون » وكل جزء من الآية الكريمة يتطلب :

— التزام الناس بخطة زراعية موحدة تحدد الأصناف التى تزرع .
— عدم التصرف فيما يحصدونه إلا فى حدود التعليمات العامة للخطة .
— عدم تبديد المحصول بعد عزل ما يحتاجونه للطعام بدون إسراف .

• الإحاطة بشئون الاقتصاد الزراعى والأمن الغذائى ، ومن الآيات الكريمة تتبين الخطط الرئيسية للسياسة الزراعية خلال هذه الفترة الطويلة ويقتضى تنفيذها خبرات عالية فى شئون الرى وتوزيع المياه على الأراضى وفى شئون الإنتاج والتوزيع .

• يتطلب التنفيذ إدارة قوية حازمة على مستويات عالية من الكفاية والخبرة والقدرة على التصرف بحيث تكون على مستوى مسئولية هذه المواجهة ، مع

التحلى بكل خلق كريم مطلوب لالتزام العلاقات الإنسانية الصحيحة فى هذه الأزمة الخطيرة .

• ومن دلائل النبوة التى تضمنتها هذه الآيات الكريمة علاوة على ما سبق بيانه :

• عدم تعرضه عليه السلام نهائيا لقضيته ، بخلاف ما هو معتاد فى مثل هذه الأحوال التى يتخذمنها المظلوم مطية لإعلان مظلمته ونيل حقوقه، فيجعل إنصافه شرطا لحل المعضلة التى يطلب القوم منه حلها ، ومن فعل ذلك لا يمكن أن يتهم باستغلال الموقف ، وهو معذور شرعا وقانونا . ولكن عليه السلام لم يأت بأية إشارة إلى قضيته، وفى ذلك رد كاف على الذين قالوا إنه عليه السلام طلب من الساقى أن يعرض مظلمته على الملك كى يفرج عنه .

• دلت الآيات على خلق كريم لا يكون إلا ممن اختصهم الله تعالى بالنبوة والرسالة . فبالرغم مما تعرض له عليه السلام من ظلم وسجن لم يحل ذلك دون تأويله للرؤيا ، ولو اكتفى عليه السلام ببيان التأويل فقط لدل ذلك على منتهى الحلم والكرم منه ، إلا أنه زاد على التأويل ما هو أهم منه ألا وهو بيان ما يجب اتباعه لتتمكن البلاد من اجتياز البلاء الذى ينتظرها خلال السنوات الحالكة التى ستمر بها .

• الإعجاز الكمى والكيفى للآيات الكريمة التى تضمنت جميع ذلك وغيره فى أوجز عبارة وأجزل لفظ وأنسبه أداء للمعانى كل ذلك فى كلمات لا يتجاوز عددها بضعا وثلاثين ، مع أن بسط معانيها يحتاج إلى مجلدات كى تجلو خطة المواجهة خلال أربعة عشر عاما ما تتطلبه معانيها .

• الإعجاز الغيبى الذى يتضمن ما ستواجهه البلاد لمدة خمسة عشر عاما مستقبلة ، فقد تم الأمر كما بينته الآيات الكريمة .

عجز الملأ مجتمعين جاء آية على نبوته عليه السلام :

تبين للقوم أن الرؤيا كانت ذات تأويل بالغ منتهى الأهمية ، وأنها تتعلق بموضوع فى غاية الخطورة إذ يتوقف عليه مستقبل مصر فترة ليست بالهينة ، وقد كشف التأويل عن عجز مجلس الملك ومستشاريه ، وبين جهلهم الذى حاولوا تغطيته أمام الملك بأمور منها :

• وصف الرؤيا بأنها أضغاث أحلام وهم يقصدون أن يقولوا بصورة مهذبة إن ما رآه الملك إنما هو « كلام فارغ » .

• وحتى لا تكون كفايتهم موضع نقد أو طعن أو شك صرحوا بأنهم لا يلقون بالا إلى مثل هذه الأضغاث .

• جاؤوا بضمير الجمع المتكلم ليعلم أنهم مجمعون على رأيهم هذا ، ولو خطر فى أذهانهم إمكان الربط بين الرؤيا وبين الواقع لأشاروا بالبحث عن رجل قد أوتى هذا العلم .

كل ذلك قد أكد عجزهم[1] مجتمعين أمام الآية الكبرى التى بهرهم بها يوسف عليه السلام .

---

(١) ذهب البعض إلى أنه لا ينبغى تسمية خوارق الأنبياء معجزات إذ لم ترد هذه التسمية فى كتاب ولا سنة بل تسمى دلالات وآيات وبراهين ... ومن ذهب هذا المذهب أباح لنفسه ما حرم على غيره فسمى خوارق الأنبياء معجزات .

ويرد على هؤلاء : بأن لفظ (معجزة) لم يقم أى دليل على مخالفته للكتاب والسنة فيما أستعمله فيه الأئمة ، ولو استطرد هؤلاء فى مذهبهم لاقتضاهم ذلك أن يقولوا ببطلان أسماء العلوم لأنها لم ترد فى كتاب ولا سنة مثل النحو والبلاغة ومصطلح الحديث إلخ .. فضلا عن باقى العلوم الكونية . بل إن قولهم هذا يترتب عليه إنكار جميع مصطلحات العلوم لأنها لم ترد فى كتاب ولا فى سنة .

والمعجزة فى اللغة مأخوذة من العجز الذى هو نقيض القدرة . والمعجز فى الحقيقة هو فاعل العجز فى غيره وهو الله تعالى فكأنهم أكتفوا باصطلاح معجزة للدلالة على هذه العبارة وهى (أن الله تعالى قد أيد نبيه بآية معجزة لقومه دلالة على صدق نبيه) =

فهذا الذى قالوا عنه أنه أضغاث أحلام لجهلهم بحقيقة تأويله إنما يتوقف عليه مصير البلاد خلال أربعة عشر عاما يرتبط أولها بآخرها .

فماذا كانت البلاد ستلاقيه لو سار الأمر على أنها أضغاث أحلام ؟

كيف كان يمكن للقوم أن يواجهوا مجاعة مهلكة دون أن يمسكوا الإمكانيات التى تحميهم من غوائلها ؟ وماذا يكون الموقف لو حلت الكارثه فأكلت الأخضر واليابس وخلفت من المآسى ما تقشعر لهولها الأبدان؟ومن علم ما هى المجاعات وما تركته من خراب يفوق الوصف وآلام تفوق التصور علم مدى الهول الذى كان ينتظر البلاد خلال مجاعة تمتد سبع سنوات .

= قال أمام الحرمين [المعجزة مأخوذة لفظا من العجز وهو عبارة شائعة على التوسع والاستعارة والتجوز فإن المعجز على التحقيق هو خالق العجز . . . فالمعنى بالإعجاز الإنباء عن امتناع المعارضة . . . . لوجود العجز الذى هو ضد القدرة . وقد يتجوز بإطلاق العجز على انتفاء القدرة ، كما يتجوز بإطلاق الجهل على انتفاء العلم ، ثم فى تسمية الآية معجزة تجوز آخر ايضا وهو أسناد الإعجاز إليها ، والرب تعالى هو معجز الخلائق بها ، ولكنها سميت معجزة لكونها سببا فى أمتناع ظهور المعارضة على الخلائق] أمام الحرمين : الإرشاد : ص ٣٠٧ / ٣٠٨ .

وقال الإمام أبو منصور عبد القاهر البغدادى (وإنما قيل لأعلام الرسل عليهم السلام معجزات لظهور عجز المرسل إليهم عن معارضتهم بأمثالها . وزيدت الهاء فيها فقيل معجزة للمبالغة فى الخبر عن عجز المرسل إليهم عن المعارضة فيها كما وقعت المبالغة بالهاء فى قولهم علامة ونسابة وراوية) البغدادى : أصول الدين ص ١٧٠ .

ومادة (عجز) جاءت فى تسعة عشر موضعا فى القرآن الكريم ومنها :

٢٢/ سورة الحج (والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم ـ ٥١):

٢٤/ سورة النور (لاتحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير — ٥٧) .

٢٦/ سورة الاحقاف (ومن لم يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء . أولئك فى ضلال مبين — ٣٢) .

٧٢/ سورة الجن (وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا ـ ١٢) .

وها هو عليه السلام يرفع الغشاوة التى حالت دون إدراك الحقيقة، فظهر لهم ما جهلوه ، وتبين لهم حقيقة ما أعلنه عليه السلام فى السجن من سر اختصاصه بهذا العلم (ذلكما مما علمنى ربى) من علوم النبوة التى لا يصل إليها مخلوق بدون هذا الاختصاص الإلهى ، وإن هذا التأويل المقترن بخطة إنقاذ البلاد من الدمار لا يمكن أن يتلقاه أحد من البشر عن مخلوق إذ أنه ليس من العلوم الدنيوية بل هو آية من عند الله تعالى اختص بها عبده يوسف عليه السلام .

وها هو عليه السلام يخبر بما ستلاقيه البلاد من رخاء ومجاعة ، خلال فترة زمنية محددة فجاء الأمر كما أخبر وبين لهم طريق النجاة من أهوال لا قبل للناس بمواجهتها فكان الأمر كما بين .

يوسف عليه السلام يرفض مبارحة السجن حتى يعاد التحقيق :

ظهر للملك من يوسف عليه السلام ما شفى نفسه وسكن ما بها من القلق ، وتبين له أنه أمام علم مفرد لم يسمع بمثله ، وكفاه أنه قد كشف عن جهل جهابذة كهنته ورجال حاشيته وكبار مستشاريه وبرهن على أنه قد انفرد بعلم لا يشاركه فيه غيره من الناس — فأمر بإحضاره لتنتفع البلاد بعلومه وليستخلصه لنفسه .

﴿ قال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن . إن ربى بكيدهن عليم — ٥٠ ﴾

لم تؤثر دعوة الملك فى يوسف عليه السلام الذى لم يقابل طلب سيد البلاد برد الفعل المنتظر عادة كلما طلب من أحد من الرعية شيئا — فلم يبادر عليه السلام بالخروج ويسارع بالمثول بين يدى الملك طمعا فى عفو أو مكانة ، كما اعتاده الناس وألفوه ، بل عدل بلطف عن إجابة طلب الملك ، إلى تحريك الدعوى الجنائية بطريق الادعاء المباشر ، وهو حق مقصور على من لحقه من الجريمة ضرر مادى أو أدبى .

فهو بمثابة قوله « وأنا لا أخرج من السجن حتى يعلم ربك ما خفى عنه من أمرهن الذى علمه ربى لتظهر براءتى على رؤوس الأشهاد مما وصمونى به من السجن الذى من شأنه أن لا يكون إلا عن جرم . وإن لم تظهر براءتى لم ينقطع عنى كلام الحاسدين ، ويوشك أن يسعوا فى حط منزلتى عند الملك ولئلا يقولوا ما لبث هذا فى السجن إلا لذنب عظيم فيكون ذلك نوع من العار » .

(وفى هذا دليل على أن السعى فى براءة العرض حسن بل واجب)(١)

الكلام على بعض ما فى الآية الكريمة من وجوه الإعجاز :

١ — الإشارة إلى وقوفه عليه السلام موقف الند للند مع الملك، وهذا غير مألوف لدى المجتمعات الدنيوية المنقطعة عن الهدى الإلهى ، بل نراه يوجه الملك إلى إعادة التحقيق ويرفض دعوته المثول بين يديه ، وكان هذا الرفض فى صورة الاستفسار عن قضية مفتوحة لم يبت فيها، وهو يواجه بهذا الطلب الملأ الذين ائتمروا وزجوا به فى السجن ، وبعضهم فى مجلس الملك .

هذا فضلا عما فى هذا الرفض من تحد لارادة الملك . يصدر منه عليه السلام وهو سجين يفترض فيه أنه لاحول له ولا قوة ولا ناصر له ولامعين،

٢ — بإثارته عليه السلام القضية أمام الملك نفسه إنما يصعدها للنظر أمام أعلى المستويات القضائية فى الدولة وهو مستوى لاتقبل أحكامه النقض ولا يفعل ذلك إلا من كان واثقا من براءته الكاملة .

٣ — فى توجيهه للاستفسار عن قضيته إلى الملك نفسه ... تذكير له بمسئولياته عنها . فهو إن كان جاهلا بجميع ماوقع ثبت عليه التفريط فى أخص الشئون التى تمسه ، والذى يفرط فى أخص الأمور فان تفريطه فيما هو أعم يكون أولى : كيف لا والقضية تمس كبار رجال الدولة والحاشية ؟

(١) الإمام البقاعى: نظم الدرر ج ٣ ظهر ق : ١٧١ . النسخة الأزهرية .

بل إن طلبه عليه السلام أن يتولى الملك القضيـــة بنفسه يدل على أن بعض النسوة كن من نسوة البلاط وعلى رأسهن امرأة العزيز، وهذا هو ما دل عليه سلوك الملك معهن إذ كان سلوك من له معرفة بهن .

٤ — وإن كان الملك يعلم بما جرى فهذه أدهى وأمر : إذ كيف يكون أهلا للحكم من يؤيد الفساد ؟ ولا ينصف المظلومين ، بل لايأبه بهم ، ويترك الحبل على الغارب للظلمة يعيثون فى الأرض فسادا كما يشتهون .

٥ — لم يخصص عليه السلام امرأة بعينها بل عمم فى قوله (ما بال النسوة) يضرب عليه السلام المثل فى أدب التقاضى .

والبال هو الأمر الذى يهتم به ، ويبحث عنه . فهو يطلب بلطف أن يحاط الملك علما بما حدث وقد (ذكر النساء جملة لتدخل فيهن امرأة العزيز مدخل العموم بالتلويح ولا يقع عليها تصريح)[1] مع أنها أصل مالاقاه من الشدائد .

٦ — يقول الإمام البقاعى «وأخرج الكلام على سؤال الملك عن أمرهن لا على سؤاله أن يفحص عن أمرهن لأن سؤال الانسان عن علم مالم يعلم يهيجه إلى البحث عنه، بخلاف سؤاله فى أن يفتش لغيره ليعلم ذلك الغير ،فأراد بذلك حثه لأن يجد فى السؤال حتى يعلم الحق ليقبل بعد ذلك جميع ما حدثه به من الكيد والاحتيال فى إيصال الضرر)[2].

٧ — أشارت الآية إلى المجلس الذى عقدته إمرأة العزيز[3] ليتم الاستشهاد

(١) الإمام ابن العربى الاشبيلى : أحكام القرآن : القسم الثالث ص ١٠٧٩

(٢) الإمام البقاعى : مرجع سابق ج ٣ أول وجه من ١٧٢ .

(٣) هذا الموقف بخلاف موقفه عليه السلام منها حين تسترت على المراودة وحكت مايوهم براءتها وإسناد السوء إليه عليه السلام بصورة مبهمة ، فكانت مجاراتها فى تكتمها وتلبيسها لا تعنى سوى موافقتها على ماتريد وهو عين ماتقصده . ولذا لم يتردد عليه السلام فى تصحيح الواقعه (قال هى راودتنى عن نفسى) ليطرح القضية طرحا لامجال فيه للغموض واللبس ليتخذ التحقيق مجراه حفظا للحقوق وصيانة للأعراض .

بمن حضره من النسوة لعل إحـــداهن إن نسيت أو تغافلت أن تذكرها الأخرى وهنا تظهر آية من الآيات البينات التى أيد الله تعالى بها نبيه يوسف عليه السلام .

ذلك أن إمرأة العزيز ماجمعت النسوة التى لمنها فى يوسف عليه السلام إلا لتظهر حجتها عليهن ، وتبين لهن فساد ماذهبن إليه من إتهامها بالخلاعة والاستهتار . ودل ماظهر عليهن حين رأينه عليه السلام أن تجنب التعلق به هو فوق الطاقة التى تحملها أية أنثى .

وفى نفس الوقت كان هذا المجلس آية من الآيات المبرئة ليوسف عليه السلام: وكأنها اعدت بنفسها دليل براءته عليه السلام مما نسبته هى إليه فى أول القصة وقد شهدت النسوة معها على ذلك .

وفى ذلك توجيه إلى طلب الأدلة القطعية الصادرة من هذا المجلس مؤكدة براءته التامة عليه السلام ... ومنها :

• العلامة الحسية التى بدرت منهن حين خرج عليه السلام عليهن .

• شهادتهن حين قلن « حاش لله ماهذا بشر إن هذا إلا ملك كريم » فما شهدن فيه شيئا من الميل إليهن، بل ما بدا لهن منه سوى النور والصفاء والطهارة مما لا يعهد إلا فى الملائكة الكرام وهن بقولهن هذا يصرفن امرأة العزيز بلطف عما تعلقت به ومع ذلك فقد كان من بينهن من فعلت مثلها مع يأسهن من قضاء وطرهن .

• تصريح امرأة العزيز أمامهن « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » مما يثبت براءته عليه السلام من كل سوء .

• التهديد الصادر من امرأة العزيز « ولئن لم يفعل ما آمره به ليسجنن وليكوناً من الصاغرين »

٨ — إن حسم كيد النسوة يستدعى : —

(أولا) طرحه بصفة علنية ، فإنهن يكرهن ذلك ويخشين منه ، لأن من عادتهن كتمان ذلك عن الرجال .

(ثانيا) إن حسم كيدهن لا يكون إلا عن طريق مجلس تحقيق عادل يملك إيقافهن عند حدودهن .فيحكم فى القضية بما يراه ويعلن الحقيقة سافرة دون محاباة لاحد أو خشية من ذى سلطان .

ولما كان الامر يمس الملك فقد طلب عليه السلام أن يرأس الملك مجلس التحقيق حتى يصدر الحكم دون تأثر بأية شخصية ، ويكون نهائيا . . . لا يجوز التعقيب عليه لصدوره عن أعلى سلطة قضائية فى البلاد .

٩ — فى الآية بيان بأن الله تعالى محيط بكيدهن مهما دبرن وخططن من المؤمرات وهو تعالى القادر على رد كيدهن فى نحورهن وهو الذى يصرف السوء عن الذين آمنوا « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » من الآية ٤٣ سورة فاطر : ٣٥ .

« وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا يعلم ماتكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار — ٤٢ » ١٣ : سورة الرعد .

١٠ — يتبين من الآية الكريمة أنه عليه السلام قد رفض الخروج من السجن ولم يبال بالإفراج عنه ، ولا بدعوة الملك له ، ولم يدفعه مكثه الطويل فى السجن إلى المبادرة بالخروج ، بل طلب إعادة التحقيق فى هذه القضية الملفقة . . والحكمة من ذلك تظهر من وجوه منها :

. أنه لو خرج من السجن دون تحقيق ، فبعد مضى فترة طويلة سينسى سبب دخوله السجن ولا تبقى فى الذكريات سوى عقوبة السجن ، وهى وحدها قاطعة باتهام الشخص والشك فيه مهما كان بريئا ، فيحتاج أمام الناس إلى إثبات البراءة من جديد كلما احتاج الأمر إلى ذكر سبب دخوله السجن .

وكم من الأبرياء قد زج بهم فى السجون مع توافر براءتهم لدى معاصريهم إلا أن هذه البراءة تصبح موضع شك أمام جيل لم يعاصر القضية ولم يعلم أدوارها ، ولذا تتبع الدول الشمولية فى العصر الحاضر هذه الطريقة لتلويث سمعة الأبرياء ودمغهم بجرائم لم يرتكبوها ، كما أن العكس صحيح ، إذ يعرض المجرمون على القضاء ، عرضا متفقا عليه ثم يحكم ببراءتهم ليستأنفوا إجرامهم من جديد ، فيسرحون ويمرحون مطمئنين إلى عدم تجاسر أحد على اتهامهم بعد أن حصنهم القضاء بالبراءة بل لا يوجه اليهم سوى الثناء وطلب تعويضهم عما أصابهم من أضرار !.

• إن إعادة المحاكمة توقف المتآمرين عند حدهم فلا يحاولون إعادة الكرة معه عليه السلام . وكانت النية معقودة منهم على تركه فى سجنه حتى تنسى الواقعة ولا يبقى من ذكرياتها سوى سجنه عليه السلام . والدليل القاطع على ذلك أنهم سجنوه مدة مفتوحة غير محدودة . ليبقى اسمه عليه السلام تحت رحمة الشائعات .

• إن إعادة التحقيق أمام الملك نفسه تقطع ألسنة الذين يحاولون الاصطياد فى الماء العكر ، وتثبت براءته أمام الناس جميعاً ليعلموا أنه قد سجن ظلما وعدوانا ، وليتضح لهم أنه عليه السلام هو صاحب الحق على هؤلاء الذين تعدوا عليه دون مبرر اقتضى سجنه بل ولم يلتفتوا إلى الآيات والبراهين الدالة على براءته .

• فى ذلك تشريع قضائى يجب اتباعه إزاء كل مظلوم ، فلا يكتفى باطلاق سراحه من السجن ، بل يجب أن يعاد التحقيق لرد اعتباره أمام المجتمع وتعويضه عن الأذى الذى لحقه عن طريق أجهزة الدولة أو عن طريق المجتمع دون جريرة تقتضى ذلك .

وإن إهمال هذه القاعدة أدى إلى ما نراه الآن فى كثير من الدول التى

يتفشى فيها الظلم: من أن المظلوم يعاقب وقد تستمر العقوبة - بالرغم من ظهور البراهين الدالة على براءته - إرضاء لخصومه إن كانوا من أهل المكر والسلطان فانعكست القضية وبات المظلوم يخشى بأس الظالم بينما يتباهى الظالم بظلمه لا يخشى حسابا ولا عقابا ونسى أنه إن أفلت من الناس فلن يفلت من عقوبة الله تعالى فى الدنيا والآخرة .

• هذه آية له عليه السلام قد حصنته ضد كيد النسوة فلا يستطعن الكيد له أبدا بعد مثولهن أمام مجلس الملك ولو كان المجلس يرأسه غير الملك لاستأنفن ما كن فيه بعد خروجه عليه السلام من السجن ولعادت الحال إلى ما كانت عليه قبل دخول السجن. ولكن هذا التصرف قطع عليهن العودة إلى مؤامرتهن .

وفيه تشريع للمؤمنين لاتخاذ كل إجراء وقائى مشروع يحميهم ويصرف عنهم السوء .

١١ — دفعت الآية أية شبهة تمس مرتبة النبوة والرسالة من قريب أو بعيد إذ يجب أن تكون هذه المرتبة فوق الشبهات ليصلح من اختصه الله تعالى بها للتبليغ عنه عز وجل .

ولبيان ذلك نقول :

إن خطورة المسألة تتجلى فى كونها لم تعرض مطلقا على أية هيئة قضائية ، إذ تحاشى المتآمرون ارتكاب أى خطأ يسمح بأى تدخل رسمى فى القضية ، كما كان النظام القضائى[1] فى ذلك الوقت يسمح لذوى السلطان بحجب أية إجراءات لتحريك الشكوى لتصبح دعوى ، خاصة وأن هذه الدعوى بالذات

---

(١) من أقوى مظاهر النظام القضائى قبل العصر الحديث — عدا النظام الإسلامى — هو الجمع بين سلطتى الاتهام والمحاكمة فى يد واحدة ، وهذا الجمع بينهما لم تبق منه سوى معالم ضئيلة الشأن فى الشرائع الحرة الحديثة . ويطلق فى هذه الشرائع على قضاء المحاكمة القضاء الجالس ، وعلى قضاء الإتهام القضاء الواقف .

لو بلغت الملك لتدخل فيها تدخلا يدين المؤتمرين جميعا . ولذا حرصوا على بقاء الموضوع مجهولا من الناحية الرسمية ، وهذا مما يجعله عليه السلام فى وضع لا يكسبه تجاههم أى حق قانونى ، وفى نفس الوقت يعطيهم حرية التصرف دون خشية من اتهامهم بالخروج على حكم قضائى أو التمرد على قوانين الدولة ، فزجوا به عليه السلام مبدئيا فى السجن إلى أجل غير مسمى ، إلى أن يروا رأيهم فيه عليه السلام .

وكى يصبح الموضوع منتهيا قضائيا :

يجب أن يعرض على محكمة قضائية للنظر فيه لتصدر حكمها بناء على نظام الإثبات الجنائى المعمول به فى ذلك الوقت وهو نظام الأدلة[1] .

---

(١) سار القضاء الأوربى حتى الثورة الفرنسيه على نظام الأدلة التى أنقسمت الى :

(أ) أدلة وافيه أو تامه Preuves pleines

(ب) أدلة شبه وافيه أو شبه أدلة Preuves Semi-pleines ou Semi-preuves

ويطلق عليها أيضاً :

الإمارات أو الأدلة القريبه : Endices prochains ou preuves Légeres

والإمارات البعيدة :Endices eloignés

وقد أدخلت الثورة الفرنسيه تعديلات جوهريه على هذا النظام ، أقتبستها تدريجا باقى تشريعات الإجراءات الجنائيه التى أستبدلت نظام الأدلة بنظام حرية القاضى فى تكوين أقتناعه ويطلق على هذا النظام :

نظام الأدلة الأدبيه Preuves Morales أو نظام حريه الأدلة Liberté des preuves.

وساعد على أنتشار هذا النظام ظهور الأدلة العلميه وتقدمها خاصه فى القرن الحالى وهى لاتقبل بطبيعتها إخضاع القاضى لأى قيد بل ينبغى أن يترك أمر تقديرها إلى محض اقتناع القاضى .

وننبه هنا إلى أن القضاء الإسلامى قد سبق الاوربى بمئات السنين فى حراسته لحقوق الإنسان وحفظه للكليات الخمسة التى تقوم عليها الحياة وإن أولوياته الخالدة فى أحكامه منذ القرن الاول الهجرى تحتاج إلى مزيد من الدراسه والتجلية لتعريف العالمين بها بياناً لفضل الإسلام على العالم .

ومعنى ذلك أن الإجراء يحتاج إلى طلب من يوسف عليه السلام لتحريك الاتهام ، وحيث أن أية شخصية عدا الملك سترفض النظر فى هذه القضية الشائكة التى تمس وقائعها كبار رجال الحاشية ورجال الدولة وعلى رأسهم رئيس الوزراء ، فقد حرك عليه السلام القضية للنظر أمام الشخصية الوحيدة التى يمكن لصاحبها بحكم مركزه أن يبت فيها دون أن يعمل حسابا لسطوة أحد من الرعية .

ولكى يكون الحكم سليما ينبغى أن تتوافر فيه عدة شروط أهمها فى هذه الظروف :

١ — صحة إجراءات المحاكمة .
٢ — النطق به علنيا فى الجلسة .
٣ — توثيق الحكم واعتماده مسببا .

والنطق بالحكم يجب أن يتم فى جلسة علنيـة ، وفى مقر المحكمة الرسمى . ويجب أن يكون مبنيا على الجزم واليقين لا على مجرد الظن أو الترجيح إذ أن الشك يفسر لمصلحة المتهم أخذا بقاعدة أن الأصل فى الإنسان البراءة ولا ينبغى ألا يؤسس القاضى اقتناعه على دليل لحقه سبب يبطله ويعـدم أثره إذ (يصح أن يبنى حكم صحيح بالإدانة أو بالبراءة على دليل باطل فى القانون[1]) .

وتشمل أدلة الإثبات :

١ — الاعتراف . ٢ — شهادة الشهود . ٣ — ندب الخبراء
٤ — المحررات . ٥ — القرائن . ٦ — الأدلة الأخرى كالمعاينة وخلافها .

والاعتراف هو إقرار المتهم على نفسه بصحة ارتكابه للتهمة المسندة إليه وهو نوعان :

---

(١) د . رءوف عبيد : مبادىء الإجراءات الجنائيه ط ١١ سنـه ١٩٧٦ ص ٦٧٧/٦٧٨ .

الاعتراف القضائى « Aveu Jadiciaire » وهو سيد الأدلة وأقواها .

والاعتراف غير القضائى « Aveu Extra Judiciaire »

(والاعتراف القضائى .... هو ما يصدر من المتهم على نفسه فى مجلس القضاء ، وقد جرى القول بأنه يكفى ، ولو كان هو الدليل الوحيد فى الدعوى لتسبيب حكم الإدانة مادامت قد توافرت له شروطه[1] المطلوبة[2]) .

واعتراف امرأة العزيز أمام المجلس الذى دعت إليه النسوة فى قصرها هو اعتراف غير قضائى ، وهذا النوع من الاعتراف (ليس هناك ما يمنع من أن يكون سببا فى الإدانة ، لكن قيمته فى الاقتناع متوقفة على ما للمحرر الذى تضمنه أو على ما لشهادة الشاهد الذى نقله من قيمة فيه ، وهو لا يصلح على أية حال لأن يكون سببا فى عدم سماع الشهود[4]) .

---

(١) يشترط فى الاعتراف الذى يعتد به : والذى يجيز للمحكمة الاكتفاء به والحكم بناء عليه بدون سماع شهادة الشهود :

(ا) أن يكون من المتهم نفسه .

(ب) أن يكون صريحا لا غموض فيه .

(ج) ١ — أن يصدر عن متهم متمتع بالتمييز فلا يعتد باعتراف صادر عن مجنون حق ولو كان فى وقت الجريمة .

٢ — أن يكون المعترف حرا فى الإختيار وقت أعترافه فلا عبرة باعتراف، ولو كان صادقا إذا جاء نتيجة إكراه مادى أو أدبى مهما كان قدره .

والإكراه يبطل الاعتراف المترتب عليه بطلانا من النظام العام مهما كان قدر هذا الإكراه من الضآلة بل إن الإكراه فى حد ذاته جريمة تستوجب العقاب . ولو كان معنويا فقد أجمعت جميع الشرائع على أستنكارة .

(د) أن يستبين القاضى من الاعتراف مطابقته لباقى الأدلة، فإذا وجدها لا تقرره كان له أن يسقط الاعتراف من حسابه .

(٢،٣) د. رءوف عبيد : المصدر السابق ص ٦٤١ .

وتقدير هذا الاعتراف يتوقف على إصرار المتهم عليه فى الجلسة القضائية وحينئذ يصبح اعترافا قضائيا . أما إذا أنكره المتهم فان صفة الاعتراف غير القضائية تبقى على وصفها الأول ، ولو كان صادراً بناء على إجراءات صحيحة قد روعيت فيها كل الضمانات المطلوبة .

والإشارة فى كلامه عليه السلام إلى النسوة تضمن إمكان استدعائهن ، ليتم سماع المتهمة أمام الشهود إذ لو طلبت وحدها فقد تنكر ويستدعى ذلك إطالة المحاكمة والمقام فى حاجة إلى إنهائها لشدة حساسيتها بالنسبة للجميع .

واستدعاء النسوة ومعهن امرأة العزيز يجعلها أمام أمرين :

إما أن تعيد اعترافها أمام هذا المجلس ، فيصبح اعترافها قضائيا مستوفيا كل الشروط ، وإما أن تنكر اعترافها السابق ، فتسمع شهادة الشهود ويصدر الحكم بناء على ذلك ، ولمجلس الملك أن يستوفى جمع الأدلة طبقاً للشريعة المعمول بها فى ذلك الوقت .

كل هذه الاعتبارات تفسر امتناع يوسف عليه السلام عن الخروج من السجن حتى يعاد التحقيق .

يقول إمام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه :

(رحم الله أخى يوسف . لو أتانى الرسول بعد طول الحبس لأسرعت إلى الإجابة حين قال ﴿ إرجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة ﴾[1] .

لقد كان موقفه عليه السلام عكس ما كان ينتظر من إنسان برىء تمالأ عليه القوم ليتخلصوا منه ظلماوزورا فزجوا به فى السجن . ولما لبث فيه دهرا وفتح له باب الخروج كان من المنتظر أن يبادر بالامتثال فرحا بالخلاص من ربقة

(١) رمز المناوى لحسنه . وفى رواية (رحم الله يوسف إن كان لذا أناة حليما — لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إلى لخرجت سريعا) أخرجه ابن جرير وابن مردويه عن أبى هريرة ، وهذا من أحاطة مرتبته صلى الله عليه وسلم التى تمطى رد المكر السيىء على أهله مهما كانت الظروف ودون إرجاء أو تسويف .

السجن ولكنه عليه السلام فاجأ القوم بما لم يكن فى الحسبان ، وكان ذلك منه عليه السلام دالا على غاية الحكمة والتبصر مع الثبات والصبر .

فلو بادر بتلبية دعوة الملك وخرج من سجنه بعد هذه المدة الطويلة ، لما سلم من الوشاة والحاقدين والحاسدين ، ولوجدت بطانة السوء الثغرة مفتوحة للولوج منها إلى الإساءة اليه عليه السلام ، ولاتخذوا الموضوع سلما للنيل منه والحط من قدره والتهوين من شأنه لتسقط مكانته عند الملك وعند الناس ، فلا يعلق حينئذ لدعوته عليه السلام أثر فى القلوب ، وفى ذلك مافيه من تجريد للدعوة من الثمرة المقصودة منها .

وهذا هو المشاهد إذا اصطفى أحد الرؤساء عالماً أو مستشارا فإن البطانة المحيطة بالرئيس لا تألوه خبالا حتى تنجح فى طرد من اصطفاه الرئيس شر طردة لتستمر هذه العصابة فى سيطرتها على الحكم والتلاعب به كما تشاء ، وقد أفضى تغلغل هذه العادة إلى فساد أمور الدول ، واضطراب شئونها لوقوع المناصب حكرا تحت براثن قراصنة السلطة ودهاقنتها يستثمرونها لمصالحهم وأهوائهم .

فهو عليه السلام إنما يسعى إلى إجراء تحقيق يقتضى خلاصه من كل مانع يعوقه : لتشرق الدعوة على أرض النفوس وتجرى فى أودية القلوب فيصلح الانقياد إليها ما فسد ، ويستنير ما أظلم .

هذا إلى مافى طلب إعادة التحقيق من برهان على براءته عليه السلام مما نسب اليه ، إذ لو كان ملوثا من وجه ما ، لمنعه الخوف من العثور على أدلة جديدة تؤيد اتهامه أو تثير حوله على الأقل الريبة والشك . لمنع ذلك من طلب إعادة بحث القضية .

وهذه الدقة فى دفع الشبهات تبين للناس أنهم ليسو أمام رجل عادى بل إنهم يواجهون رجلا لا يتهاون فى أية جزئية من الجزئيات المتصلة بحسن السيرة وطهارة السريرة وهم لا يعلمون أن الاهتمام بهذه الشئون من أجـــزاء النبوة والرسالة التى لا تنفك عنها .

فكما عرف من عرف أنه قد دخل السجن : فليعلن الملك إذن أمام الناس جميعا أنه قد سجن ظلما ، وليعلن أنه عليه السلام بعيد عن كل ريبة ، وأن هذه العقوبة المفتراة لا صلة لها بأى موجب من موجبات القصاص فكأن المكث فى السجن خير من الخروج منه مع عدم تجلية القضية نهائيا وكان عليه السلام يعلم أن الملك لا يملك إلا إجابة طلبه لأنه محتاج اليه أما هو عليه السلام فغير محتاج إلى الملك .

الاعتراف بالحقيقة أمام الملك :

بلغ الساقى رسالة يوسف عليه السلام إلى الملك ، وقد كان ما أراده عليه السلام إذ قام الملك بفحص القضية ودراستها وعقد مجلساً حضرته كل من كانت لها دور فيها ، لإعادة التحقيق معهن .

﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء . قالت امرأة العزيز الآن حصحص[1] الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين — ٥١ — ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين — ٥٢ — وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم — ٥٣ ﴾

قال العلامة البقاعى :

(إذ راودتن) أى خادعتن بمكر ودوران ومراوغة .

(يوسف عن نفسه) دليل على أن براءته كانت متحققة عند كل من علم القصة ، ولكن الملك وبعض الناس وإن علموا مراودتهن وعفته ما كانوا يعرفون المراودة : هل هى لهن كلهن أو لبعضهن ، فكأنه قيل ما قلن ؟ فقيل : مكرن فى جوابهن إذ سألهن عما عملن من السوء معه فأعرضن عنه وأجبن بنفى السوء عنه عليه السلام وذلك أنهن :

---

(١) حصحص : ثبت واستقر . أو تبين بعد خفاء أو بان وظهر .

(قلن حاش لله) أى عياذا بالملك الأعظم وتنزيها له من هذا الأمر تمهيدا منهن للقطع ببراءته .

ثم فسرن هذا العياذ بأن قلن تعجباً من عفته التى لم يرين مثلها ولا وقع فى أوهامهن أن تكون لآدمى وإن بلغ ما بلغ .

(ما علمنا عليه) أى يوسف عليه السلام .

(من سوء) فخصصنه بالبراءة ... وهو جواب للملك الذى ترهب رؤيته وتخشى سطوته ، فكان من طبع البلد عدم الإفصاح فى المقال حتى لا ينفه عن طروق احتمال فيكون للنقض فيه مجال .

ولما تم ذلك كان كأنه قيل فما قالت التى هى أصل هذا الأمر ؟ فقيل :

﴿ قالت امرأة العزيز ﴾ مصرحة بحقيقة الحال :

﴿ الآن حصحص الحق ﴾ أى حصل على أمكن وجوهه وانقطع الباطل بظهوره ... ﴿ أنا راودته عن نفسه ﴾ أى خادعته وداورته .

﴿ وإنه لمن الصادقين ﴾ أى العريقين فى هذا الوصف : فى نسبته المراودة إلى وتبرئته نفسه. فقد شهد النسوة كلهن ببراءته ، وأنه لم يقع منه ما ينسب به شىء من السوء اليه ، فمن نسب اليه بعد ذلك هما أو غيره فهو تابع لمجرد الهوى فى نبى من المخلصين)[1] اهـ .

فاجأت امرأة العزيز مجلس الملك باعترافها بالحقيقة كاملة وكأن ناطق حالها يقول : هذا الذى تهتكت فى حبه ، وهذا الذى تعلقت به فلم أعرف للراحة طعماً بعد معرفتى إياه .

هذا الذى أصبح أسمى مضغة فى الأفواه لمطاردتى إياه ... إنه ليس برقيق ولا عبد ... إنه شريف ... إنه الكريم بن الكريم بن الكريم إنه يوسف ابن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الخليل هو رسول الله بن رسول الله بن رسول الله بن رسول الله بن رسول الله الآن حصحص الحق وسطع النور أمامكم فمن

---

(١) نظم الدرر جـ ٢ : ق : ١٧٤ ب / ١٧٥ أ . وقد أثبتنا تأويله للهم (راجع ص ١٤٢/١٤٣) فهو ينفى الهم لرؤية البرهان .

المحال أن يبدر منه عليه السلام سوء ، بل أنا التى راودته عن نفسه وحاشاه أن يلتفت إلى كما أريد .

والذى نعتقده أن هذه التى خدمته عليه السلام وخبرت فضائله ولمست كمالاته عليه السلام وتعلقت بذاته الشريفة ، قد تحول حبها إلى إيمان عميق جدا إذ علمت أنه رسول الله ، وتكشف لها ما كان خافياً عليها بعد أن عرفت سر هذا التعلق الذى لم تستطع له دفعا .

ويعلل البعض اعترافها بخوفها من شهادة النسوة ضدها وذكرهن ما صرحت به أمامهن من تهديدها له عليه السلام بالسجن إن لم يفعل ما تأمره به ، ويعلله آخرون بأنها كانت واقعة تحت تأثير تأنيب الضمير : إذ كانت سبباً فى إيذائه عليه السلام ومكثه فى السجن .

وهذا كله ليس بشىء .

إذ لو كان الأمر كما قالوا إذن لاكتفت — حين وجه الملك إلى النسوة جميعا الاتهام بالمراودة — بالإجابة العامة التى ذكرنها عنها وعن أنفسهن (قلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء) وهذا من مكرهن فى الجواب إذ عدلن عن الإقرار بمراودتهن إلى نفى عموم جنس السوء عنه عليه السلام وهو المعنى الذى يؤديه لفظ (سوء) الذى هو محور القضية .

ولكنها لم تكتف بذلك — مع أن أحدا لم يجبرها على ذكر التفاصيل — بل صرحت بما لا تطيق أنثى أن تصرح به عن نفسها أمام هذا الملأ الذى يرأسه الملك ، وأمام تراثبها ، وجاء اعترافها مؤكدا لصدقه عليه السلام فكان الاعتراف كاملا صريحا دون مداراة ولا غموض ولا إبهام وبمحض اختيارها مع عدم اكتراثها بما يسببه ذلك من السقوط فى نظر المجتمع ونظر الملك الذى تدل الدلائل على أنها كانت تمت اليه بصلة القرابة .

وهذا الذى صدر منها خلاف ما هو معتاد من النساء فى مثل هذه الأحوال

من إصرارهن على الانكار أو الالتجاء إلى اللف والدوران فى الإجابة وعدم التصريح بدورهن الإيجابى فى مثل هذه الأمور .

ونرى أنها ما فعلت ما فعلت إلا لما شهدته من آيات جعلتها تؤمن به عليه السلام وتتجرد من كل هوى ، كما سيأتى بيان الأدلة عليه .

﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين — ٥٢ — وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم — ٥٣ ﴾

اختلاف المفسرين فى إرجاع الضمائر فى هاتين الآيتين :

ذهب فريق من المفسرين إلى أن الكلام كان حكاية لما قاله يوسف عليه السلام ، وذهب آخرون إلى أنه كان تتمة لكلام امرأة العزيز .

واستشكل الفخر الرازى[1] المسألة فى تفسيره إذ يقول :

(فإن قيل جعل هذا الكلام كلاما ليوسف أولى أم جعله كلاما للمرأة؟) .

(قلنا جعله كلاما ليوسف مشكل لأن قوله ﴿ قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق ﴾ كلام موصول بعضه ببعض إلى آخره — فالقول بأن بعضه كلام المرأة والبعض كلام يوسف مع تخلل الفواصل الكثيرة بين القولين وبين المجلسين بعيد .

(وأيضا جعله كلاما للمرأة مشكل أيضا لأن قوله ﴿ وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ﴾ كلام لا يحسن صدوره إلا ممن احترز عن المعاصى ، ثم يذكر هذا الكلام على سبيل كسر النفس ، وذلك لا يليق بالمرأة التى استفرغت جهدها فى المعصية) .

ونعرض فيما يلى وجهة نظر كل من الفريقين :

---

(١) مفاتيح الغيب : ٥ / ص ٢٠٤

أولا : تأويل الآيتين عند من أسند القول اليه عليه السلام :

قالوا لما كان الكلام فى محضر الملك ، فان إضافة الكلام إلى يوسف عليه السلام من عند قوله تعالى (ذلك ليعلم أنى لم أخنه) والآية التالية ، يقتضى ذلك أن الملك أمر الساقى بالتوجه إلى يوسف عليه السلام ليعلمه باعتراف النسوة فقال عند ذلك عليه السلام ما حكاه الله تعالى عنه .

وقالوا إن الضمير فى ﴿ ليعلم ﴾ .

إما أن يعود على « الملك » فيكون المراد : ليعلم الملك أنى لم أخن العزيز بالغيب ، فانه إذا خان وزيره فقد خانه من بعض الوجوه .

وإما أن يعود على « الوزير » فيكون المعنى ليعلم العزيز أنى لم أخنه بالغيب .

﴿ وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ﴾

فلو كان خائنا ما هدى الله تعالى أمره ولا خلصه من هذه الورطة ، ولا أحسن عاقبتها ، وفى ذلك تعريض بكل من كاده عليه السلام بأن الله تعالى مبطل كيده ، ومدمر تدبيره .

﴿ وما أبرىء نفسى ﴾

لا أنزهها عن السوء من حيث هى هى ، قاله عليه السلام هضما لنفسه الكريمة البريئة من السوء ، فهو لا يسند هذه الفضيلة إلى نفسه بمقتضى طبعها من غير توفيق من الله عز وجل . قال تعالى ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾

﴿ إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ﴾

« ولم يقل لآمرة مبالغة فى صنيعها بكثرة الدفع فى المهاوى والقود إلى المغاوى : لأن «فعالا» من أمثلة الكثير ، كما أن «فاعل» من أمثلة القليل »[1] .

والمعنى أن النفس البشرية — والتى من جملتها نفسى — فى حد ذاتها

(١) راجع : تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى ص ١٧٣

لأمارة بالسوء مائلة إلى الشهوات ، مستعملة للقوى والآلات فى تحصيلها ﴿ إلا ما[1] رحم ربى ﴾ من النفوس التى يعصمها من الوقوع فى المهالك .

والاستثناء هنا فيه وجوه :

إما متصل وفيه وجهان :

(الأول) تقريره : إلا البعض الذى رحمه ربى بالعصمة كالملائكة والأنبياء

و (الثانى) : إن النفس أمارة بالسوء فى كل وقت إلا فى وقت العصمة .

أو منقطع ، وتكون (ما) مصدرية ، وتقريره :

ولكن رحمة ربى هى التى تصرف الإساءة كقوله تعالى ﴿ ولا هم ينصرون . إلا من رحم الله ﴾ سورة الدخان ٤١ : ٤٢ .

(ثانيا) تأويل الآيتين عند من جعل الكلام تتمة لمقالة امرأة العزيز :

ذهب هذا الفريق إلى أن السياق يقتضى أن يكون الكلام تتمة لكلام امرأة العزيز من الوجوه التالية :

•• إن يوسف عليه السلام ما كان حاضرا فى ذلك المجلس حتى يقال إن المرأة حين قالت ﴿ الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ قال يوسف عليه السلام ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ﴾ ، بل يحتاج ذلك إلى أن يرجع الساقى من ذلك المجلس إلى السجن فيحكى ليوسف عليه السلام ما دار فى مجلس الملك ، وحينئذ يقول عليه السلام ما قال ثم يعود الساقى إلى مجلس الملك فيخبرهم بمقالة يوسف عليه السلام .

---

(١) ذكر الإمام أبو البقاء العكبرى فى إعراب (ما) وجهين [(أحدهما) هى مصدر وموضعها نصب والتقدير إن النفس لأمارة بالسوء إلا وقت رحمة ربى ونظيره ﴿ ودية مسلمة إلى أهله إلا إن يصدقوا ﴾ من الآية (٩٢) سورة النساء .

وقد ذكروا انتصابه على الظرف وهو كقولك ما قمت إلا يوم الجمعة (والوجه الآخر) أن تكون ما بمعنى « من » والتقدير إن النفس لتأمر بالسوء إلا من رحم ربى أو إلا نفسا رحمها ربى فإنها لا تأمر بالسوء] : أملاء ما من به الرحمن ج ٢ ص ٢٩

وماجرى مثل هذا القطع والوصل بين كلامين اجنبيين فى نثر ولا نظم .
فعلم أن الآية الكريمة (ذلك ليعلم[1] أنى لم أخنه بالغيب) الآية: هى تتمة لكلام امرأة العزيز بعد التأسيس لها بحكاية اعترافها فى الآية السابقة لها مباشرة .

•• أن يوسف عليه السلام ما اتهمه أحد بالخيانة لا العزيز ولا امرأته ولا نسوة المدينة . والاتهام الوحيد الذى حاولت إمرأة العزيز تلفيقه فى حضور زوجها حكته الآية الكريمة (قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوء إلا أن يسجن أو عذاب أليم) الآية ٢٥ . وسبق أن بينا فى موضعه ماطوته فى قولها من المكر وقد ظهرت آيات براءته عليه السلام فى الحال وأذاع ذلك نسوة المدينة :

﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم —٢٨ — يوسف أعرض عن هذا . واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين — ٢٩ — وقال نسوة فى المدينة امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين — ٣٠ ﴾ .

فليس من المعقول أن يتعرض عليه السلام لدفع تهمة الخيانه عن نفسه وهى تهمة لم يوجهها أحد إليه !

---

(١) الضمير فى (ليعلم) إما أن يعود على يوسف عليه السلام فيكون المعنى «إنى وإن أحلت الذنب عليه فى حضوره ، لكنى ما أحلت الذنب عليه عند غيبته ، فلم أخنه ولم أكذب عليه وهو فى السجن ونطقت بما هو الحق والواقع » .

ثم أكدت ماقالت بأن الله تعالى لايهدى كيد الخائنين : يعنى أنها لما أقدمت على الكيد والمكر لاجرم افتضحت . وأنه لما كان بريئا عن الذنب لاجرم ظهرت براءته.

وإما أن يعود الضمير على زوجها العزيز ، فيكون المعنى :

« ذلك ليعلم العزيز أنى لم أرتكب الفاحشة فى غيبته ، وأن يوسف عليه السلام كان صادقا فى جميع ماقاله ، وإن الله تعالى لايهدى الخائنين فى كيدهم ولاينفذه ولايسدده بل يبطله ويزهقه .

والأول أنسب للسياق لأن العزير كما تدل الدلائل كان قد توفى، ومن جهة أخرى أن الكلام كله يدور حول يوسف عليه السلام والعدول عنه إلى غيره لاداعى له مادام المعنى تاما .

** ﴿ وما ابرىء نفسى ﴾ عن مراودته ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى ﴾ .

إن السياق والمعنى والترتيب والمناسبة كلها تدل على أن صاحبة هذا القول هى امرأة العزيز فكأنها تقول : ما أبرىء نفسى عن مراودته أو عن خيانته حتى فعلت به مافعلت مع علمى ببراءته، ولست بدعا فى ذلك فإن النفوس تدفع إلى المهالك ، إلا هذه النفوس الطاهرة التى رحمها الله تبارك وتعالى فعصمها من السوء مثل نفس يوسف عليه السلام .

ولا يعقل وهو عليه السلام فى مقام إعلان براءته أمام الملأ وأمام الله إن يعلن أنه لايبرىء نفسه ولو كان الأمر كذلك إذن لالتبس الأمر على الحاضرين ولتلقفه خصومه عليه السلام واتهموه بالمراودة ، ولأهدر هذا الاعتراف منه عليه السلام كل الإجراءات الحكيمة التى اتخذها لإعلان براءته من كل سوء .

وقال بعض المفسرين: ان يوسف عليه السلام قال (وما ابرىء نفسى) هضما لنفسه . وفات هؤلاء أن لكل مقام مقال . فلا يجوز فى مقام إعلان البراءة أن يقول البرىء لاأبرىء نفسى لأن النفس نزاعة إلى الشهوات مستعملة قواها لتحصيلها ؟؟ وإن أجابوا بأنه عليه السلام داخل فى استثناء (إلا مارحم ربى) قلنا لهم لقد ناقضتم أنفسكم إذ لم يكن ذلك من قبيل هضم النفس ، بل جئتم بتأويل يثبت المراودة قبل الاستثناء وينفيها بعده !

** يلزم الذين نسبوا الكلام إلى يوسف عليه السلام القول بأن نفوس الأنبياء أمارة بالسوء فى أكثر الأوقات ﴿ إن النفس لامارة بالسوء إلا ما رحم ربى ﴾ ولاينفعهم حمل ذلك على ما قبل النبوة بناء على من أجاز جريان ذلك عليهم قبلها، خاصة وأن الكلام هنا قد صدر بعد نبوته عليه السلام قطعا .

وقد قسم علماء التربية الإسلامية النفوس إلى ثلاثة أقسام :

ا — نفوس [١] أمارة وهى أدناها مرتبة .

ب — لوامة [٢] وهى أعلى من السابقه درجة .

ج — مطمئنة[٣] وهى أعلاها جميعا — وهى مراتب ودرجات لاتتناهى .

ولا يجوز جعل نفوس الأنبياء فى المرتبة الدنيا من مراتب النفوس .

من هذا يتبين أن الآيتين ٥١ ، ٥٢ هما حكاية لما قالته امرأة العزيز من قوله تعالى (ذلك ليعلم أنى لم أخنه) إلى آخر الآية التى تليها (إن ربى غفور رحيم) .

قال ابن كثير وهو الأشهر والأليق والأنسب لسياق القصة ومعانى الكلام

---

(١) النفس الأمارة هى التى تميل إلى الطبيعة الجسدية وتأمر باللذات والشهوات الحسية وتجذب القلب إلى الدنيا فهى مأوى الشر ومنبع الأخلاق الذميمة والأفعال القبيحة .

(٢) أخذ العلماء ذلك من قوله تعالى (ولا أقسم بالنفس اللوامة — ٢) ٧٥ : سورة القيامة .

وقالوا إنها النفس النقية التى تلوم نفسها على مافات وتندم على الشر لم فعلته ، وعلى الخير لم لم تستكثر منه .

قال العلامه أحمد ضياء الدين الكمشخانوى (هى التى تنورت بنور القلب فتيقظت وبدأت بإصلاح حالها مترددة بين جهتى الربوبية والخلقية فكلما صدرت سيئة منها بحكم جبلتها الظلمانية وسجيتها . تداركها نور التنبيه الآلهى فأخذت تلوم نفسها وتتوب عنها مستغفرة راجعة إلى باب الغفار الرحيم : ولهذا نوه الله بذكرها بالإقسام بها) .

(٣) النفس المطمئنة (هى التى تم تنورها بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة وتخلقت بالأخلاق الحميدة ، وتوجهت إلى جهه القلب بالكلية مشايعة له فى الترقى إلى جناب عالم القدس متنزهة عن جانب الرجس ، مواظبة على الطاعات مساكنة إلى حضرة رفيع الدرجات حتى خاطبها ربها بقوله :

﴿ ياأيتها النفس المطمئنه — ٢٧ - أرجعى إلى ربك راضية مرضية — ٢٨ — فادخلى فى عبادى — ٢٩ — وأدخلى جنتى — ٣٠) .

وراجع العلامة : أحمد ضياء الدين الكمشخانوى : جامع الأصول فى الأولياء وأنواعهم وأوصافهم ص ١٢٤ : ١٢٥ .

وإليه ذهب الجبائى . وحكاه الماوردى فى تفسيره واستظهره أبو حيان وأقره الإمام أبو العباس ابن تيمية فى تأليف أفرده على حده .

وسأل الإمام الشعرانى شيخه العارف الخواص عن قوله تعالى ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ هل هو من كلام يوسف عليه السلام أم من كلام امرأة العزيز ؟

فأجاب : هو من كلام المرأة فى مجلس العزيز (قلت الصحيح أنه مجلس الملك) قالت ذلك هضما لنفسها حين بان لها الحق ، وليس ذلك من كلام يوسف لأن الأنبياء تعلم أن النفس ليست مائلة للسوء من حيث ذاتها وإنما يعرض لها قبول السوء من القرين إذا ألح عليها وهى محجوبة عن مقامها الكريم (١)

انعقاد المجلس الملكى آية من آيات نبوته عليه السلام :

وهكذا تم ما أراده عليه السلام إذ اجتمع الملأ وعلى رأسهم الملك ليشهدوا بأنفسهم آيات نبوته عليه السلام ومنها : —

١ — كمال صفاته وعلو مكانته ، حيث أنه قد تعرض لما لو تعرض له أى شخص دنيوى لسقط على أم رأسه .

٢ — نفى عموم جنس السوء عنه عليه السلام بشهادة خصومه (ما علمنا عليه من سوء) وهو المعنى الذى يؤديه تنكير لفظ (سوء) وهو محور القضية

٣ — الاعلان عن مكانته العلمية الفريدة عليه السلام .

٤ — رد هذا المجلس الاعتبار لامرأة العزيز ، فلو تركت وشأنها دون استدعاء لهذا المجلس ومثولها أمامه لأصابها من الذلة والمهانة ما أصابها . ولكن التحقيق أثبت طهارتها فان براءته عليه السلام شرف لها ، كما أن ما فرط منها لم يكن فى حق رجل عادى بل ها هى تعلن أمام الجميع أنها أمام رجل من المصطفين عند الله تعالى وتسأله تعالى المغفرة وأن يتولاها بالرحمة .

---

(١) الإمام الشعرانى : الجواهر والدرر ص ٢٩٨

فخرجت من المجلس مرفوعة الرأس ولعل ذلك كان تكريما لها لما بذلته من خدمته عليه السلام حين آواه العزيز إلى قصره .

كلمة عن امرأة العزيز :

كانت هذه المرأة كما تدل الدلائل من الأسرة المالكة وقد ذكر بعضهم نسبها بما يؤكد ذلك ، وكانت قوية الشخصية حادة الذكاء . مستقيمة السيرة ، ولا يصح ما يقال عنها من أنها كانت امرأة ماجنة ، خليعة مستهترة منهتكة . وإن أشرف شريفات زمانها باستثناء بيوت النبوات لو وقفت موقفها هذا مع جهلها به عليه السلام ، فإنها تقع فيما وقعت فيه إمرأة العزيز .

ويكفى لبراءة ساحتها ماجرى فى المجلس الذى عقدته فلو كان ماوقعت فيه يرجع إلى خلاعتها لما وقعت النسوة فيما لمنها فيه ومابدا منهن مابدا حين ظهر عليهن يوسف عليه السلام . والذى حدث فى هذا المجلس أنهن جميعا نسين ماصدر منهن من اللوم والاتهام لامرأة العزيز واستولى حبه على جميع جوارحهن حتى قطعن ايديهن لدهشتهن وغيابهن عن شعورهن .

وهذا الحب الذى استولى عليها ، لا حيلة لها فيه ، فقد كانت واقعة دون علم منها فى أسر أنوار النبوة وجلال الرسالة ولا أدل على ماقلناه من أن خلاصة الحرائر حين رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ، فلم تكن امرأة العزيز شاذة فيما دهاها واستولى عليها .

ولا يصح الاستشهاد بالمجلس الذى عقدته للنسوة لتجريحها واتخاذه دليلا على فسقها وفجورها ، لتصريحها أمام المدعوات بما لا تصرح به سيدة متزوجة فقد يكون المجلس الذى عقدته بعد وفاة العزيز . وليس فى حياته ـ وكل ماجرى بعد ذلك يكون بعد وفاته ـ إذ لم تأت أية إشارة تثبت وجوده على قيد الحياة بل إن ما صنعته هو أكبر دليل على وفاته إذ لا يصح أن تصرح بما صرحت به أمام النسوة فى حياة زوجها ، أو يكون قد تم انفصالهما . ولازمها لقبها (امرأة العزيز) .

وتصرفاتها الأخيرة تدل على أنها قد علمت بحقيقته عليه السلام فآمنت إيماناً صافيا عميقا ويؤكد ذلك :

• أنها أشد الناس معرفة به عليه السلام وبسموه الخلق ، وقد رأت من آياته ما يبهر الألباب ، إلا أنها ما كانت تلقى إلى ذلك بالا لانشغالها بهواها فلما ثابت إلى رشدها وتدبرت فى أمره مذ عرفته عليه السلام علمت من هو .

• قولها (الآن حصحص الحق) آية على إيمانها فإنها تصرح بسطوع شمس الحقيقة وانبلاج الصبح لذى عينين بما رفع الغشاوة عن البصيرة فانكشف لها وللقوم أنهم أمام رجل لا كالرجال بل هو نبى مرسل أنقى من كل نقاء عرفه أهل الدنيا .

• تضحيتها البالغة التى لا تطيق أنثى مهما كانت مكانتها أن تقوم بها فى غير هذه الظروف ، فما بالك بمن كانت فى مثل مكانتها وهى إحدى الأميرات ؟ فأدلت باعتراف كامل أمام المجلس الملكى ، وهى تعلم تمام العلم أنها تعرض مكانتها وسمعتها للانهيار وأنها تقضى على نفسها بالموت الأدبى وكان فى إمكانها أن تسلك مسلك النسوة فتعترف ببراءته عليه السلام ولا تزيد ـ ولكن الإيمان جعلها تلجأ إلى الله تعالى ليغفرلها ويرحمها خشية مما فعلته مع نبى مرسل ، ولعله عليه السلام يصفح عنها ويدعو لها :

لعل رحمة ربى حين يقسمها　　　تأتى على حسب العصيان فى القسم

• لم تكن عادتها من قبل الالتجاء إلى الله تعالى فلما آمنت عرفت الذلة والانكسار والخضوع لله تعالى . وأنه جل وعز لا يهدى كيد الخائنين .

• تجردت من كبريائها وخيلائها واتهمت نفسها فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربى . فرحمته تعالى هى أصل سعادة الإنسان ولا تعطى هذه المظاهر الدنيوية البراقة شيئا .

ولا شك فى أنها كانت تتتبع أخباره عليه السلام وهو فى السجن، ولا شك

أن صوت الرسالة قد بلغها وهو يدعو إلى الله الواحد القهار ، ولا شك فى بلوغ آياته عليه السلام وهو فى السجن إلى علمها ، كما بلغها تأويله لرؤيا صاحبى السجن ، وتأويله لرؤيا الملك بعد أن عجز عنها هؤلاء الذين يرجع إليهم الملك فى شئونه ، وحينئذ بدأت تتجه الاتجاه الصحيح ، وتدبرت فى أحواله عليه السلام فعلمت أنها ليست أمام شخص عادى ، وليست أمام أمير أو ملك . إنها ليست أمام إنسان تغريه ابتسامة وتجذبه إشارة أو يغويه ملك أو جاه أو سلطان . إنها أمام شخص لا تغره الدنيا وما فيها . وإذا بالحقيقة تسطع أنوارها فتتغلغل فى شغاف قلبها لتعلم أن هذا الكمال وذاك الجمال الذى سلبها عقلها وأخذها عن نفسها إنما هو جمال النبوة وكمال الرسالة ، وحينئذ لم يبق فى قلبها من اشتهاء المرأة للرجل شىء ، وحل محله حب المؤمن للنبوة والرسالة ، فلا جرم أن آمنت به عليه السلام وهى أدرى الناس وأخبرهم بأحواله ، فما شهدته إلا متعلقا بالله سبحانه ، وما جربت عليه ريبة قط فى المواطن التى تزل فيها أقدام الصناديد من الرجال ، ولا يعقل أن تشهد له بقولها (وإنه لمن الصادقين) ثم لا تصدقه عليه السلام فى عمود الأمر وسنامه .

أخرج الحكيم الترمذى عن وهب : أنها قد أصابتها الفاقة ، فقيل لها : لو أتيت يوسف بن يعقوب فسألتيه ؟ فاستشارت الناس فى ذلك . فقالوا لها لا تفعلى فإنا نخاف عليك .

قالت : كلا . إنى لا أخاف من يخاف الله تعالى .

فلما مثلت بين يديه ورأته فى ملكه . قالت « الحمد لله الذى جعل العبيد ملوكا بطاعته ثم نظرت إلى نفسها فقالت : الحمد لله الذى جعل الملوك عبيدا بمعصيته .

فقضى لها عليه السلام جميع حوائجها .

ويذهب معظم مؤرخى العرب إلى أنه عليه السلام تزوجها : روى

الإمام[1] الطبرى أن الملك زوج يوسف عليه السلام منها (وأنها حين دخلت عليه . قال : أليس هذا خيرا مما كنت تريدين ؟) .

وروى الطبرى أيضا عن ابن إسحاق : قال فيزعمون أنها قالت أيها الصديق (لاتلمني فإني كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة ناعمة فى مالك ودنيا . وكان صاحبي لايأتى النساء . وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك فغلبتني نفسى على مارأيت) .

فيزعمون أنه وجدها عذراء وقد رزق منها بولدين افرايم ومنشا[2].

قال المطهر المقدسى (وكان تزوج زليخا فولدت له اثنين افرايم بن يوسف جد يوشع بن نون ، وكان ولى عهد موسى من بعده ، ومنشا بن يوسف أبا موسى صاحب الخضر كما يزعم أهل الكتاب[3]) .

وجاء فى قصص الأنبياء المنسوب إلى الإمام الكسائى أن يوسف عليه السلام لما أجتمع بأهله أخبرهم بما جرى له فى مصر (وحدثهم بحديث زليخا وأن أولاده منها . قال واستدعى يعقوب زليخا فحضرت وقبلت يديه، وسألته أن ينزل عندها . فقال يعقوب لا أرضى بزينتكم هـــذه ، ولكن اصنعوا لى عريشا من البردى والقصب مثل عريشى بأرض كنعان[4]) .

وقال الكسائى فى موضع آخر (وكانت زليخا ماتت قبل يوسف فحزن عليها ولم يتزوج بعدها)[5] .

وإن كان زواجها فى نفس العام الذى تولى فيه يوسف عليه السلام منصب عزيز مصر ، يكون اجتماعها بيعقوب عليه السلام بعد ذلك بتسع سنوات .

---

(١) الإمام الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ١ ص ٣٤٧ .

(٢) أفرايم : الله جعلنى عزيزا ، ومنشا : الله أنسانى تعبى .

(٣) المطهر المقدسى : البدء والتاريخ ج ٣ ص ٦٩ .

(٤) و (٥) الكسائى : قصص الأنبياء وجه ق ١٨٦ وظهر ق ١٨٨ على التوالى .

وتصرح مصادر أهل الكتاب أن يوسف عليه السلام قد تزوج Asenath[1] بنت فوطيفارع[2] رئيس كهنة مدينة (أون) .

ومما يلفت النظر هذا الاتفاق العجيب فى اسم عزيز[3] مصر ورئيس كهنة أون وهذا الاشتراك فى الاسم يؤدى إلى احتمال افتراض من اثنين :

١ — إن كان اسم (فوطيفارع) هو اسم والد زوجة يوسف عليه السلام فمن المحال أن يكون هو نفسه العزيز وحينئذ تكون زليخا بنت رئيس كهنة أون وتكون صلتها بالبيت المالك عن طريق الأم وتكون (اسنات) اختها وفى هذه الحالة يكون للعزيز اسم آخر غير (فوطيفارع) .

٢ — إن كان الاسم مشترك بين الرجلين فلا يستبعد أيضا زواج زليخا ثم زواج اسنات بنت رئيس كهنة أون الذى آمن بيوسف عليه السلام .

والمصادر لا تسعف فى البت فى مثل هذه الأمور .

(1) Sayce : Fresh Light from the Ancient Monuments, p., 49.
والمقطع الأخير من (اسنات) يشير إلى معبودة الدلتا Nath.

(٢) يتكون من مقطعين الاول (Poti) والثانى (pherah) يعنى هدية إله الشمس.

(٣) فوطيفار أو فوطيفارع .



﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض
يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من
نشاء ولا نضيع أجر المحسنين — ٥٦ —
ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا
يتقون — ٥٧ ﴾ .

الباب الرابع

يوسف عليه السلام عزيز مصر

﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض
إني حفيظ عليم — ٥٥ ﴾

الفصل الأول

« في مواجهة المجاعة الرهيبة »

لقى عليه السلام مالقيه من خيانة من خانوه وظلم من ظلموه ، وما دبروه له من زور وما لفقوه من بهتان ، ومع ذلك فقد قابل الإساءة إليه بالإحسان، والظلم بالعفو : يتجلى ذلك في تعبيره عليه السلام لرؤيا الملك الذى استولى عليه الجزع مذرآها ، واستبدت به اللهفة إلى من يعطيه حقيقة خبرها .

ولو اتخذ عليه السلام من الموقف سبيلا للمساومة على نيل حقوقه لكان محقا ، ولكنه على العكس من ذلك نجده عليه السلام لا يبادر فقط بالتعبير ، بل ويقرنه بالخطة التى يجب على البلاد اتباعها ، لتنجو من عاصفة الهلاك التى اقترب هبوبها حاملة الخراب والدمار بين طياتها - وقد انشرح صدر الملك لهذا التأويل العجيب الذى كشف له عن رجل لم يسمع بمثله : إذ أظهر الحق حين تقاعس عنه الجهابذة من مستشاريه وكبار رجال دولته ، فلم يدركه منهم أحد ، وقصرت دلاؤهم عن الوصول إلى مياه الحقيقة التى ينبغى الوصول إليها . وها هو عليه السلام على طول مكثه فى السجن ظلما وجورا وعدوانا : تواتيه الفرصة - ممثلة فى دعوة الملك له - فلا يبادر بتلبيتها للافلات من السجن ، ولا يرحب بدعوة جاءته من سيد البلاد المتصرف فيها عسى أن تكون فاتحة خير ، بل يقف موقف الذى لا يبالى بالسجن ، والذى لا يعلق نجاته منه على دعوة الملك له ، إذ أخر الخروج من سجنه وقدم النظر فى قضيته ، فجعل حريته وبراءته فى الميزان : فإما أن يخرج بعد تحقيق يميط اللثام عما ارتكبه المتآمرون

من إثم وما دبروه من كيد قادهم إلى الزج به عليه السلام ظلما فى السجن ... وإما أن يبقى سجينا كما هو ، فذلك خير من حياة يبقى فيها تحت رحمة هؤلاء ..

وكان طلب إعادة التحقيق مواجهة سافرة منه عليه السلام لمن تآمروا عليه ، وتحد لسلطانهم ، وعدم احتفال برد الفعل الذى يحدثه طلبه هذا من دوى يثيرهم عليه .

فازداد الملك إعجابا به عليه السلام ، وتقديرا لمكانته ، وعلم أنه قد وقع على الخبير الذى يمكنه أن يواجه مرحلة الهول القادمة التى لا قبل لأحد غيره بمواجهتها .

ولذا نجد أن الملك يطلب يوسف عليه السلام للمثول بين يديه مرتين : شتان ما بينهما : (الأولى) منهما قبل رفضه الخروج من السجن و (الثانية) بعد هذا الرفض .

ففى المرة الأولى يرسل الملك فى طلبه عليه السلام بقوله (وقال الملك ائتونى به) من الآيه ٥٠ ، ثم نلمس ماطرأ على الملك من التغيير بعد أن رفض عليه السلام الخروج إلا بعد إجراء تحقيق عادل فى قضيته ، ولما نفذ له الملك ماطلب : راعه ماتكشفت عنه القضية ، مما جعله يتعلق تعلقا كليا به عليه السلام ، وحينئذ يرسل فى طلبه بطريقة مغايرة الأولى تماما : إذ يتضمن الطلب فى المرة الثانية إعلانا من الملك بمكانة يوسف عليه السلام عنده ﴿ وقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين - ٥٤ ﴾ .

والملك يتصرف فى هذه الواقعة تصرفا لم تجر به عادة الملوك فى استخلاصهم من يصطفونهم ويلقون إليهم بزمام الأمور : إذ جرت العادة على أنهم ينتقونهم من بين هؤلاء الذين يتزلفون إليهم من أفراد حاشيتهم ، فلا يخلو الاختيار من التأثر بالعوامل الشخصية التى تشوبه مهما كان دقيقا فى ظاهر الأمر . ولذا نرى أن الأغلب فى مثل هذا الاختيار أن يكون فاشلا ، لأنه جاء نتيجة عوامل

خفية حجبت القائمين بالأمر عن رؤية الحق ، وأشد هذه العوامل فتكا رداء النفاق والرياء الظاهر والخفى الذى يرتديه ذئاب المناصب القيادية والطامعون فيها وهو من الخفاء بحيث لا تقع أنظار السلطات المختصة إلا عليهم لتصور المسئولين أن هؤلاء مهما حملوا من عيوب فإنهم أفضل من غيرهم وأنسب وأليق ، فيجعلونهم موضع ثقتهم الذى يعلو على كل شك ، وهنا بيت القصيد ومكمن الداء إذ ينطلق هؤلاء من تلك القاعدة ليتحكموا فى مصالح البلاد والعباد ويعيثون فى الأرض فسادا لا يخشون رقابة ولا حساباً ولهم طرقهم العجيبة التى تغطى جرائمهم أمام سادتهم .

ونفبه إلى عدم مبالاة الملك فى تصريحه هذا بما يثيره من غيرة رجال الحاشية ، وحقد الطامعين وحسدهم ، إذ تخطاهم فى اختيار من يتبوأ المنصب الذى يصبح من يشغله الممثل الفعلى لسيد البلاد .

وكان الملك فى غاية الذكاء بإصداره هذا التصريح ، فهو يعلم مالقيه - يوسف عليه السلام - من بعض رجال الحاشية ومن كبار رجال الدولة فأراد أن يقطع خط الرجعة عليهم ، ليبأسوا من الكيد والدس له عليه السلام ، فلا يحاولون إعادة الكرة معه مرة أخرى ، ولاشك فى أن الملك كان يقصد من هذا أن يصفو الجو أمامه عليه السلام وأن يهيء له الظروف المناسبة ليتفرغ للعمل الكبير الذى هو معقد الآمال كلها ألا وهو إنقاذ البلاد مما ستواجهه .

ولعل الملك كان يرى أن هذه أقل مكافأة[1] له عليه السلام نظير مالاقاه من ظلم واضطهاد .

---

(١) يتفرع من هذه المسألة قضية تمس حقوق الإنسان فى كل عصر ألا وهى تعويض المتهم الذى صدر ضده حكم بالإدانة ثم ثبتت براءته بعد ذلك وصدر حكم بهذه البراءة . وما فعله هذا الملك سبق الكثير من التشريعات الحديثة التى لم تبلغ بعد مستوى هذا التصرف .

و (يجيز قانون الإجراءات الفرنسى (م ٦٢٦) للمحكمة التى تحكم بالبراءة للمتهم =

. . . .

وإلغاء الحكم السابق بالإدانة : أن تحكم له «قبل الدولة بتعويضات مدنية عن الأضرار المادية والأدبية التى لحقته بناء على طلبه، وفى حالة وفاته أن تحكم بها للزوج أو للأصول أو الفروع أو لمن يثبت من الأقارب أنه لحقه ضرر مادى من الحكم الخاطىء، وللدولة أن ترجع بها على من كان سببا فى خطأ القضاء كالمبلغ وشهود الزور والمدعى المدنى) .

(وطبقا لمبادىء قانوننا الإدارى ليس للمتهم أو لغيره أن يتوجه بطلب التعويض إلى الدولة مباشرة فى مثل هذه الحالة ، ولا إلى القاضى الذى أصدر الحكم الخاطىء طالما كان الخطأ عاديا فى التقدير أو نتيجة تضليل من المبلغ أو الشهود ، بل كل ماله هو أن يتوجه بطلب التعويض إلى كل من ساهم منهم بسوء نية فى إيقاع القضاء فى الخطأ أو بسبب التعسف فى الاتهام أو فى التضليل بدون ترو ولا تبصر)

(لذا نحبذ لو أن تشريعنا قرر ـ استثناء من القواعد العامة فى المسئولية الإدارية ـ مبدأ مسئولية الدولة مباشرة وفى جميع الأحوال عن أخطاء الأحكام الجنائية إذا كانت سببا فى إعادة النظر وذلك صيانة لحق المحكوم عليه ظلما ، إذ أن الدعوى الجنائية عامة ترفع باسم المجموع ولحسابه ، وينبغى أن يتحمل هذا المجموع ممثلا فى الدولة تبعة تعويض ما يمكن تعويضه من أضرار حكم تبين بالدليل مدى جوره وبطلانه، وبصرف النظر عن مصدر الخطأ وسبب الوقوع فيه ، وهى مسئولية نسلم أنها لا تستند إلى القواعد العامة فى المسئولية الإدارية ـ كما نعرفها فى بلادنا ـ بل إلى مبادىء العدالة ، وإلى نوع من البر الاجتماعى بالمحكوم عليه خطأ فلا تكون إلا بنص صريح .)

(بل إن بعض الشرائع الأجنبية يتوسع فى فكرة تعويض المتهم البرىء الذى كان ضحية إجراءات قضائية عادية ، إلى حد أنه يبيح تعويضه عن الأضرار الماديه والأدبية التى تلحقه من جراء مجرد اتهام فى غير محله بمعرفة السلطة العامة بما قد يستتبعه من قبض أو حبس احتياطى أو محاكمة إذا قضى فى النهاية ببراءته أو إذا حفظت الدعوى . ومنه القانون السويدى منذ ١٨٨٦ والدانمركى منذ سنة ١٨٨٨ وقانون نيوشاتل السويسرى منذ سنة ١٨٩٣) اهـ ـ راجع د . رؤوف عبيد : مبادىء الإجراءات الجنائية ص ٨٩٦ / ٨٩٧

وننبه إلى أن التشريع الاسلامى صريح فى تعويض كل من لحقه ضرر من جراء حكم قضائى ثبت بطلانه .

ولا شك فى أن هذا الملك كان من خيرة الملوك حكمة فقد جاء اختياره ليوسف عليه السلام دالا على رجاحة عقل وحسن تدبير ، وشدة حرص على وقاية البلاد من الأهوال التى تنتظرها والتى عجز عن إدراكها كبار رجال الدولة مما أكد انفراده عليه السلام بالقدرة على مواجهتها .

(قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) .

(قال) عليه السلام ناظراً إلى وجوب السعى فى وقاية العباد من الهلاك وحملهم على الصراط السوى المفضى إلى صلاح أمورهم واستقامة أحوالهم ، وتحققا بمرتبة الخلافة التى وهبها الله تعالى لمن شاء من عباده المصطفين الأخيار :

(اجعلنى على خزائن الأرض) التى تحكمها ، وأطلاق الجعل على الخزائن، جعله شاملا لكل مايتعلق بالأرض من شىء له قيمة وهو من جوامع الكلم التى تمتد لكل الولايات التى يمكن أن تسند فى الدولة إلى مسئول ـ وهذا مايلزم منه الاختصاص بالمسئولية عن كل مايخرج وما يستخرج من الأرض ، وما يوجد فيها من معـــادن ومحاجر ومياه جارية أو جوفية وما يتعلق بصلاح ذلك .

وبعد بيان المطلب شرع عليه السلام فى توضيح الصفات والمواصفات الرئيسية التى يجب أن تتوافر لشغل أهم منصب فى الدولة ، فاقترن الطلب بذكر وصفين كافيين لهذا الغرض ، وقد شهدت الوقائع بعدم توافرهما فى أحد رجال الدولة ، كما خبره الملك فى مجلسه الذى شهد قص رؤياه على حاضريه .

وهذان الشرطـان :

أولهما : (إنى حفيظ) .

وهو وصف له خصائصه التى تمتد مظلتها لتشمل كل مايتسع له لفظ أداء الأمانة العظمى من الأمور التى يتعين القيام بها على من تولى النظر فى حفظ حقوق العباد ورعاية شئونهم ، ويقتضى حملها : رعاية حقوق الإنسان التى أنعم الله تعالى عليه وكرمه بها .

ولا يذل إنسان ولا يهان ، ولا يحرم من حقوقه الأصيلة ، ولا يحمل مالا طاقة له به ، ولا يسام خطة الخسف والعبودية ، ولا يساق كما تساق الأنعام فيحيا حياة أهل الجحيم إلا حين يبدأ التفريط فى هذه الأمانة بين الحاكم والمحكوم .

ومما تحيط به هذه الخاصية -عدا ما ذكرناه- وفيما نحن بصدده من الظروف التى تواجهها البلاد :

— الإحاطة بطرق صيانة السلع وحفظها من التلف والضياع والتبديد .

— الإحاطة بطرق صيانة الأرواح والأجسام وما تصلح به .

— الترشيد الاقتصادى وهو التصرف الأمثل لتوجيه موارد الثروة لتحقيق الهدف السابق دون تبذير ولا تقتير ولا تسيب .

— العلم بتدبير الشئون بما يتفق ومصالح البلاد وبما يدفع عنها كل سوء ويجلب لها كل خير .

— استعمال الأصلح الذى يعين على حفظ الأموال والأنفس والأعراض .

— العدالة فى التوزيع وعدم محاباة أحد على حساب أحد، مع الرحمة التى تقتضى عدم التفريط فى مخلوق .

— التخطيط الدقيق ليتسنى للمخزون من الأقوات والمؤن أن يغطى الفترة الباقية من المجاعة .

ومن أسباب الحفظ الداخلة فى قطاع الوقاية :

— الضرب على أيدى العابثين والمستغلين والجشعين والانتهازيين الذين يتخذون الاتجار فى حقوق الناس وأرواحهم وأقواتهم حرفة وتجارة ليصلوا إلى الغنى والثروة على حساب معاناة الناس وحرمانهم .

وهذا الفريق فى كل شعب هم أشبه بأكلة الجيف والرمم .

— قطع دابر المحاباة والمحسوبية والوساطة[1] فى الظلم لا فى الخير .

— الحيلولة دون التسيب أو الإنفاق الذى لا يعود على الشعب إلا بالضرر والأذى .

ثانيها : إنه عليه السلام (عليم) :

بالغ العلم بوجوه صلاح ما يسند إليه ووجوه استثماره ـ فالمناصب فى الشرع لا تسند إلى الجهلة الذين يضيعون البلاد والعباد أدبيا وماديا ومعنويا ومحليا وإقليميا ودوليا وعالميا ـ فالتنافس على المناصب يكون أساسه العلم لا الوضع فى الحزب ولا الوضع فى الكوادر، وهذه البديهية من بديهيات أصول الحكم فى الإسلام ، لم تكتشف أهميتها إلا فى القرن المعاصر . ومع ذلك من النادر أن تطبقها أشد الحكومات ديموقراطية واستنارة .

والعلم المقصود هنا : هو العلم بتدبير أمور الأفراد والمجتمعات تدبيرا يوجه الجميع نحو الكمال الأعلى ، ومن ذلك تصريف الأمور تصريفاً يحقق للبلاد ما هو خير لها وأفضل لها فى جميع شئونها ، ومن العلوم التى يحتاجها من يتصدر لمثل هذا المنصب .

— علم الإدارة والحكم والخبرة التامة فى الشئون الإدارية .

— علوم السكان Demography والبيئة Ecology .

— علوم التنمية والتخطيط والترشيد فى جميع النواحى الاقتصادية والاجتماعية .

— الإحاطة باقتصاديات الإنتاج والتوزيع .

---

(١) يفهم بعض الجهلة من متقلدى المناصب أن أى تصرف يقصد منه وصول خير إلى شخص ما ، إنما هو من الأعمال الشائنة والمحرمة ، ويتبجح باعلانه رفض الوسائط ، على أن توسط القادر لدى أية سلطة مختصة لإيصال الحق إلى أهله هو من الأعمال التى تدخل فى حيز التكليف على من يطيقها — ولا يصح السكوت على الظلم لأن هذا السكوت يدخل صاحبه فى زمرة الاشتراك مع الظالم فى جريمته .

ويترتب على ذلك تقدير الاحتياطى اللازم لمواجهة أى عجز سنوى أو أى عجز فى الخطة .

من أسرار ترشيحه عليه السلام نفسه لتولى هذا المنصب :

يقول الإمام محمد بن أبى بكر الرازى :

(فإن قيل الأنبياء عليهم السلام أعظم الناس زهدا فى الدنيا ورغبة فى الآخرة فكيف قال يوسف عليه السلام ﴿ اجعلنى على خزائن الأرض ﴾ فطلب أن يكون معتمدا على الخزائن متوليا لها وهو من أكبر مناصب الدنيا؟

(قلنا : إنما طلب ذلك ليتوصل به إلى إمضاء أحكام الله تعالى ، وإقامة الحق وبسط العدل ونحوه بما يبعث له الأنبياء ، ولعلمه أن أحدا غيره لا يقوم مقامه فى ذلك . فطلب التوليـــة ابتغاء لوجه الله تعالى وسعيا لمنافع العباد ومصالحهم ، لا لحب الملك والدنيا .

(ونظيره قوله تعالى ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ﴾[1] يعنى لو كنت أعلم أى وقت يكون القحط لادخرت لزمن القحط طعاما كثيرا لا للحرص لكن لأتمكن من إغاثة الضعفاء والفقراء وقت الضرورة والضائقة ويحتمل أن يكون علم تعيينه لذلك العمل فكان طلبا واجبا عليه)[2] .

فما طلب عليه السلام لنفسه شيئا وإنما كان المطلب كله يدور حول القيام بمصالح العباد ابتغاء مرضاة الله تعالى .

ومن فقه الإدارة فى الآية الكريمة ألا يتعرض للمناصب من ليس بأهل لها ولا يطلبها من هو غير جدير بها، لعدم توافر مواصفاتها اللازمة لشغلها عنده بعكس الفكرة الدنيوية التى ربطت المناصب بالأيديولوجية الحاكمة السائدة

(١) من الآية ١٨٨ سورة الأعراف .

(٢) الإمام محمد بن أبى بكر الرازى = اسئلة وأجوبه من غرائب آى التنزيل ج ١ ص ١٤٧ / ١٤٨

فأصبحت سبيلا للتصرف فى العباد والتحكم فيهم، وتحول الحكم إلى غاية لإشباع الأمراض النفسية من شهوة للسيطرة، ونهم لتعظيم الغير له، وأمثال هؤلاء الحكام هم حثالة البشرية لأنهم يدفعون الناس إلى إشراكهم مع الله تعالى فى الكبرياء والعظمة والسلطان، بدون وجه حق، ولا يجر حكمهم على البلاد سوى الدمار ومسخ الإنسان وضياع الرعية جزاءا وفاقا بما فرطت فى جنب الله تعالى، فيلبسهم الله تعالى ثوب الصغار والذلة فى الدنيا والآخرة.

وما عرض عليه السلام هذا الطلب إلا بعد أمرين:

(الأول): إرسال الملك إليه وهو فى السجن يطلبه لتأويل رؤياه. ولم يكتف عليه السلام بتأويلها، بل لما وجد أن الملك وكبار رجاله قد عجزوا عن إدراك حقيقة الأمر، لم يتركهم وشأنهم، إذ بين لهم طريق النجاة. فكان هذا البيان منه عليه السلام تأسيسا لما سيترتب عليه من تفويض الملك له ليدير شئون البلاد خلال فترة من أحلك الفترات التى تمر بها.

ولما كان مثل هذا التفويض هو مطمح إنظار كبار رجال الحاشية والدولة فان هذا البيان الصادر منه عليه السلام قد أزاح كل مناقشة عابثة من طريقه، كما حسم أى تردد فى إسناد هذا المنصب الخطير إليه عليه السلام حرصا على سلامة البلاد.

(الثانى) أن الملك نفسه قد صرح بأمرين كلاهما يرخص له عليه السلام فى طلب مثل هذا المنصب الهام:

أولهما: أن الملك قد استخلصه عليه السلام لنفسه.

ثانيهما: إعلان الملك أنه عليه السلام له المكانة العليا الراسخة التى لا يتجاسر أحد على المساس بها، إذ بلغ عليه السلام فى نظر الملك مرتبة من الحكمة ورجاحة العقل تجعل أقواله وأفعاله كلها متجهة إلى الخير، ومن كان مثله فلا ند له ولا قرين ينافسه، وهو الضالة التى ينشدها كل حاكم مخلص،

فمن المصلحة تفويضه فى التصرف الذى لا ينازعه فيه منازع ﴿ وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين — ٥٤ ﴾ ولولا هذا التصريح الحاسم لهب لمنازعته عليه السلام كل طامع ، والمنازعة فى هذه الظروف الدقيقة تفضى إلى فشل محقق ودمار مؤكد .

ولو نال أى شخص آخر هذا الاهتمام من الملك، لانحصر همه فى التنكيل بأعدائه ، والذين تسببوا فى سجنه .

ولو تبوأ أى شخص غيره عليه السلام هذه المكانة الرفيعة التى تنتهى إليها همم أهل الدنيا وأطماعهم لما فكر إلا فى التمتع بالعيش الرغد والتقلب بين ملذات الحياة الدنيا — ولو فعل من مكث مثل مكثه فى السجن ، لما وجد من يلومه لو مال إلى الراحة بعد ما لقى من الأهوال منذ فارق أباه الحبيب .

ولكن هذه النفوس الطاهرة التى اصطفاها الحق تعالى لهداية عباده ليس لديها من الميل إلى الدنيا شىء ، ولا تجذبها الأمور التى تستغرق تفكير أهل الدنيا فتجعلهم يتقاتلون بكل سلاح غير مشروع فى سبيلها .

بل إن مجرد طلبه عليه السلام أن يتولى أمور البلاد وهو يعلم ما هى مقدمة عليه من البلايا ، كاف للدلالة على ما تحمله نفوس الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم من الرحمة بالخلق ، والشفقة عليهم ، مما يعجز غيرهم عن حمل شىء منه ، ولو قسنا قابلية الناس بالنسبة إليهم فى هذا الشأن لما كانت شيئا مذكورا إلى جانب ما خص به الأنبياء من هذا الخلق الكريم الذى هو من أخص دلائل النبوة .

لقد كان عليه السلام على علم بما ستواجهه البلاد من أهوال المجاعة التى تنتظرها ، وهى مجاعة تمتد فترة زمنية طولها سبع سنوات ، وإن الحياة خلال المجاعات إنما هى ضرب من العذاب الذى يفتت الأكباد : فمثل هذه المجاعة حين تقبل تأتى أولا على الأخضر واليابس، ثم تعصر الأجسام عصرا يستل

منها الحياة قطرة فقطرة ، حتى يصبح الموت هو النعيم الذى يتمناه كل حى . ومن شاء فليطلع على أخبار المجاعات وما تخللها من المآسى التى تقشعر لهولها الأبدان .

فمن ذا الذى يقبل أن يصدر نفسه لمواجهة مثل هذا البلاء ، ليتحمل مسئولية شعب بأسره طوال سبع سنوات عجاف ليذود شبح المجاعة الرهيب عن كل حى ؟

حقا إنه لعبء يتهرب من حمله أحكم الرجال وأشدهم صبرا وأقواهم احتمالا ولقد تقدم عليه السلام فى مجال ينعدم فيه من يتقدم ، وصدر نفسه لمواجهة مرحلة لا يوجد سواه من يستطيع تسيير دفة البلاد بسلام خلالها ـ وما رأينا ولا سمعنا بحاكم فعل مثل ما فعله يوسف عليه السلام فى مصر قبل البعثة المحمدية .

إن الأنبياء والمرسلين نعمة عظمى على البشرية فى جميع أحوالهم ، وهم إن طلبوا شيئا فما طلبوه إلا ابتغاء نجاة الناس من أهوال الدنيا والآخرة، ولا يتم ذلك إلا باتباع النبيين والمرسلين الملزم بالتعلق بالله جل جلاله .

فكان قوله عليه السلام ﴿ إنى حفيظ عليم ﴾ آية من الآيات الدالة على نبوته كما كان تصديه لمواجهة المجاعة بشرى لأهل مصر بنجاتهم منها ـ ويكفى أن الوقائع صدقت كل كلمة قالها عليه السلام .

﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء . نصيب برحمتنا من نشاء — ولا نضيع أجر المحسنين — ٥٦ ﴾

قال الإمام البقاعى :

(وكذلك) أى ومثل ما مكنا ليوسف فى قلب الملك من المودة والاعتقاد الصالح وفى جميع قلوب الناس ومثل ما سأل من التمكين :

---

(١) الامام البقاعى : نظم الدر ج ٣ ظهر ق ١٧٦ ووجه ١٧٧ / دار الكتب والوثائق .

﴿مكنا﴾ أى بما لنا من العظمة :

(ليوسف فى الأرض) أى مطلقا لا سيما أرض مصر بتولية ملكها إياه عليها :

(يتبوأ) أى يتخذ منزلا يرجع إليه ـ من باء إذا رجع .

(منها حيث يشاء) بانجاح جميع مقاصده لدخولها تحت سلطانه ليقى أنفس أهل المملكة وما والاها على يده ، فيحوز الأجر وجميل الذكر مع مايزيد به من علو الشأن ، وفخامة القدر .

فكأنه قيل لم كان هذا ؟ فقال لأمرين :

أحدهما : أن لنا الأمر كله (نصيب) على وجه الاختصاص (برحمتنا) بما لنا من العظمة (من نشاء) من مستحق فيما ترون ، وغيره، لانسأل عما نفعل، وقد شئنا إصابة يوسف بهذا .

(والثانى : أنه محسن يعبد الله فانيا عن جميع الأغيار (و) نحن (لا نضيع) بوجه (أجر المحسنين) أى العريقين فى تلك الصفة . وإن كان لنا أن نفعل غير ذلك) .

روى ابن عبد الحكم[1] فى أول فتوح مصر : من طريق الكلبى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال (فأتاه الرسول ـ يعنى رسول الملك ـ فقال ـ يعنى ليوسف عليه السلام ـ إلق عنك ثياب السجن والبس ثيابا جددا وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة . فلما أتاه ـ أى الملك ـ رأى الملك غلاما حدثا ـ يعنى شابا صغير السن ـ فقال : أيعلم هذا رؤياى ولا يعلمها السحرة والكهنة ..... وضرب بالطبل بمصر أن يوسف خليفة الملك) .

فلما استنطقه الملك وسأله ، عظم فى عينه، وجل أمره فى قلبه ، فدفع إليه خاتمه ، وولاه ماخلف بابه .

---

١ ـ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ـ

وعن عكرمة : أن فرعون قال ليوسف قد سلطتك على مصر .

ولما كان تفويض الملك إليه بكافة السلطات المخولة له مما يستعظمه الناس فى الدنيا . فقد نبه تعالى إلى أن العز الحقيقى فى الدنيا لا اعتبار ، ولا قيمة له ما لم يكن موصولا بنعيم الآخرة ، وإلى أن هذا المنصب مع عزته فى نظر أهل الدنيا إلا أنه لا يعد شيئا فى جنب ماله عليه السلام فى الآخرة فقال تعالى :

﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون — ٥٧ ﴾ .

وكأنه قيل إن هذا خاص به عليه السلام وبإخوانه الأنبياء ؟ فجاء بالأوصاف التى يعمها الحكم ليكون ذلك أبلغ فى الترغيب فيها وأحكم فى معرض ذكرها فقال (للذين آمنوا) أى وجدوا بهذا الوصف (وكانوا) بجبلتهم (يتقون) . وهو عليه السلام من أجلهم حظا وأعلاهم كعبا وقد تقدم فى السورة الكريمة مايشهد بكمال إيمانه وتقواه .

ولما كان المعلوم أن من كانت هذه صفاته فإنه يقوم بما يتولاه أتم قيام وينظر فيه أحسن نظر : كأنه قيل : فجعله الملك على خزائن الأرض فدبرها بما أمره الله تعالى به وعلمه ، حتى صلح الأمر وانقشعت الغمة ، وإنما طوى هذا الدلالة عليه بلوازمه التى تغنى عن ذكره بل هى أبلغ من هذا التكرار .

السنوات العجاف :

انقضت أيام الرخاء وأقبلت المجاعة بأهوالها وضرب القحط بجرانه على مصر والشام أرهاصا بحلولها . وكل ذى عقل يمكنه أن يدرك تمام الإدراك عظمة النبوة ممثلة فى يوسف عليه السلام وما بذله من مجهودات تدك الجبال لوقاية الرعية من أسوأ مصير .

وكانت عمليات المواجهة تقتضى القيام بتصرفات لا حصر لها مثل :

تحديد النصاب المقرر من المؤن لكل فرد ، وإنشاء السجلات لضبط المخزون والمنصرف ، وتوزيع الاحتياجات فى طول البلاد وعرضها ، وإجراء

ميزانيات دقيقة للاطمئنان على صحة التخطيط وكفاية الاحتياطى لباقى سنى المجاعة .

ومن الناحية الادارية يقتضى الأمر الحيلولة دون تمكين الجشعين من السيطرة على التوزيع أو اصطناع سوق سوداء طلبا للربح الخبيث بالاتجار فى المؤن ، واستثمار معاناة الناس وآلامهما بتغاء الكسب والغنى،ودقة الاشراف للحيلولة دون الغش فى البيانات إلخ ... ومعالجة الأمور بالحزم ليطمئن الناس على مصائرهم فلا ينفرط عقدهم فى فوضى لاحدود لها .

وتقتضى هذه العمليات مباشرة السلطات المختصة لواجباتها فى مواقع العمل وعدم التواكل على ممثليها — وقد سن عليه السلام فى ذلك سياسة الباب[1] المفتوح وهى سياسة لايعرف الدنيويون لها طعما إذ جرت عادتهم على اتباع سياسة الأبواب المغلقة دون العباد ليبسر لهم ذلك التخفى خلف الجدران وهذا التخفى يمكنهم من سترجهلهم بشئون الرعية، كما يظهر الواحد منهم بمظهر المنهمك فى مصالح الناس المشغول المهموم بها .

---

(١) عكس هذه السياسة سياسة الباب المغلق التى تسير عليها الدول المتخلفة فى كل عصر : إذ يحتمى المسئولون وراء الأبواب بحجة كثرة المشاغل والأعمال،والواقع أنهم يتخذون من احتجابهم ستارا لتغطية ضعف شخصياتهم وجهلهم بشئون الدولة خشية أن ينكشفوا ويفتضحوا أمام أرباب المصالح .

وتكون نتيجة هذه السياسة هى ترك الحبل على الغارب للمنتفعين والمنافقين،فتظهر طبقة جديدة تحكم فى الظل قد تحررت من كل مسئولية ، ويتفشى التسيب وتتعذر مواجهة أبسط الأمور ، ويهان الاشراف ، ويعز أهل الخسة ــ فلا ينصلح للناس حال. ويسود الجهلة ويرخص العلماء .

ويحذرنا أمام الانبياء صلوات الله وسلامه عليه من عاقبة الاحتجاب عن مصالح الناس ، فقد جاء فى الحديث الشريف (من ولى من أمور المسلمين شيئا فاحتجب دون خلتهم وحاجتهم وفقرهم وفاقتهم احتجب الله عنه يوم القيامة دون خلته وحاجته وفاقته وفقره) رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم عن أبى مريم الازدى .

وكان عليه السلام فى مباشرته لعمليات المواجهة مثالا يحتذى به فى تواضعه واهتمامه بشئون الصغير والكبير مما يبعث الطمأنينة فى النفوس، فتشيع الأخوة والمودة والعطف فى العلاقات ، وتغلق الأبواب أمام ذئاب البشر وتضيق الفرص أمام قراصنة الأرواح والأموال والأعراض الذين يرتكبون فى المجتمعات من الجرائم ماينّدى له جبين كل حر ، ويتوارى ، أمامه وجه كل فضيلة .

وكانت الدقة التامة التى سادت جميع هذه العمليات آية من الآيات الدالة على نبوته عليه السلام .

لقد ضرب لنا يوسف عليه السلام مثلا عاليا من الأمثلة التى يعجز أذكى الدنيويين عن محاكاتها . وإن مافعله عليه السلام لمواجهة تلك المجاعة الطاحنة ، يعلمنا كيف يمكن للقيادات المتمسكة بهدى الوحى أن تواجه أشد مشاكل الحياة وأعتاها ، وكيف تتغلب عليها ، وإن أعظم القربات إلى الله تعالى تكون بوضع الخطط الواقية للناس من الهلاك والدمار ، ومن الفقر والجوع والحرمان . والتى تنقذهم من الوقوع فريسة لقراصنة البشرية الذين يعيشون على امتصاص الدماء والتغذى عليها — ومن تأمل فيما فعله الأنبياء والمرسلون فى سبيل انقاذ الشعوب من الويلات هاله انفصال الناس عن هذا الهدف الكامل الذى لم ينسج على منواله مجتمع إلا واتصل بالكمال الإنسانى من جميع جهاته .

وكان من دلائل النبوة الباهرة أنه عليه السلام قد تربى بين قوم تقدموا جميع الأمم فى شئون الزراعة ومايتصل بها ، فإذا به يعجزهم بقوة أدراكه وسعة علومه وسداد تصرفاته وحسن تقديره ، إعجازاً صدق مقالته أنما كان منه لم يكن سوى إجتباء منه عز وجل له فهو سبحانه الذى أفاض عليه من العلوم مالايدركه أهل الدنيا مدى الدهر ولو أجتمعوا له ، يسلم بهذا من ألقى السمع وهو شهيد .

﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه
فعرفهم وهم له منكرون — ٥٧ ﴾

الفصل الثانى

الإخوة فى مواجهة أخيهم

خيم القحط المروع على مصر وقراها وإمتد إلى البلدان الآسيوية المتاخمة لمصر من ناحية الشمال الشرقى فشمل أرض كنعان(١) وغيرها ، وواجه سكان

---

(١) يختلف المفهوم السكانى والمكانى لهذا اللفظ باختلاف الشعوب فى ذلك العصر : ففى الكتابات المسمارية أطلق لفظ (أمورو) وفى العبرية (امورى) على فلسطين وكنعان والبقاع .

وأطلق قدماء المصريين لفظ (كنعان) على الشرق الأدنى بمعناه القديم بمافىذلك أرض كنعان الواردة فى العهد القديم — واطلقوا — كما فى رسائل تل العمارنة — على فلسطين الحالية ووسط سوريا لفظ « كينخى » أو « كينخى » .

أما فى العهد القديم فيقصد من أرض كنعان هذا الجزء من فلسطين الواقع غرب الأردن بما فى ذلك الجزء الساحلى .

[وراجع د . فؤاد حسنين على : إسرائيل عبر التاريخ ج : ١ : ص ٦١]

وتشمل أراضى كنعان فى هذا الإطلاق الأخير : الأراضى الممتده من جبل حرمون شمالا (يقع فى لبنان شمال شرق فلسطين الحالية) ووادى غزة جنوبا ، وهذا الوادى يفصل جنوبا ما بين جبال سيناء وبين فلسطين .

وقد نزل الأسباط فى ثلاثة أقاليم :

— اقليم يهوذا فى أقصى الجنوب ويفصل بينه وبين بقية الأسباط قبائل أجنبية . =

تلك البلاد ومن بينهم آل يعقوب عليه السلام هذه المجاعة الكالحة التى تنذر بالدمار .

وكانت الأخبار قد وصلت الكنعانيين بأن العزيز قد دبر أمور مصر خير تدبير يقى الرعية شر هذا البلاء المستطير ، وأن بره لم يقتصر على المصريين فقط بل شملت مظلة إغاثته كل من قصد مصر من البلدان المجاورة للامتيار ، فكان لايرد يد محتاج امتدت لطلب المؤونة .

وتقاطرت القوافل من الشمال الشرقى قاصدة عزيز وادى النيل ، فكانت تغدو خماصا وتروح بطانا حاملة أسباب الحياة .

وقصد إخوة يوسف عليه السلام مصر فيمن قصدها ، وكان ماسمعوه عن عزيزها قد جعلهم يحضرون جميعا ماعدا أخاهم الأصغر ليحصلوا على وسق عشرة جمال من الطعام .

وكانت الطلبات تمر فى خطوات معينة ، فتسجل البيانات الخاصة بالممتارين ضمانا لحسن سير التوزيع وعدالته ، وللتأكد من عدم تكرار الصرف قبل مضى الفترة المقررة .

وبالنسبة لغير المصريين كانت الإجراءات تنتهى بهم إلى المسئول بين يدى العزيز مع الوثائق الخاصة بهم لينظر فى شئونهم بنفسه ، وهى من إجراءات الأمن اللازمة للمحافظة على سلامة البلاد .

الاخوة فى حضرة العزيز :

﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون — ٥٨ ﴾ .

= — والثانى أرض جاماد شرق نهر الاردن وتمتد مابين نهرى يبوك فى العهد القديم: الزرقاء حاليا ، واليرموك .

— والثالث وسط كنعان وقد نزله باقى الاسباط .

أما القسم الساحلى فكان يقطنه الفينيقيون .

والكنعانيون هم أقدم شعب استقر فى هذه المنطقة ويذكرون أحيانا باسم الفينيقيين.

(فدخلوا عليه) لأنه كان يباشر الأمور بنفسه شأن الكفاة الحزمة الذين لا يكلون أمورهم إلى غيرهم ، وهم (لا يعرفون أنه يوسف لبعد عهدهم به وتغير هيئته بالدخول فى سن الكهولة ولا عتقادهم أنه هلك أو طوحت به طوائح الزمن بالانتقال من سيد إلى آخر ولذهابه من أوهامهم وقلة فكرهم فيه واهتمامهم بأمره ، ولبعد حاله التى بلغها من الجاه والسلطان عن حاله التى فارقوه عليها طريحا فى البئر حتى لو قيل إنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم)(١).

لذا لم يطرأ لهم على بال أن يكلفوا أنفسهم مؤونة التوسم فى وجه العزيز والتفرس فى ملامحه إذا أنه عمل لا تستدعيه ضرورة لخلو الذهن من دواعيه ، بل لو كانت هناك دواع تدعو إلى ذلك لكان التوسم فى أى وجه غريب عنهم أقرب إلى العقل عندهم من توسمهم يوسف عليه السلام فى شخص العزيز .

وكان الحال بالنسبة إليه عليه السلام بخلاف ذلك فقد كان آخر عهده بهم رجالا ناضجين لم يتغير منهم إلا ماخطته السنون على الوجوه منذ انفصالهم عنه عام إلقائه فى الجب .

وقد أخر عليه السلام تعريفهم بنفسه ليتمكن من تنفيذ خطته التى تهدف إلى جمع شمل الأسرة بعد علاجهم مما تنطوى عليه أنفسهم تجاهه وتجاه أخيه ، ليعودوا قوما صالحين إلى حظيرة أبيهم دون أن يعترضوا عليه .

فرق مابين معاملتين :

كان عليه السلام فى موقف المتمكن المالك لزمام الأمر الذى يستطيع أن يرد الصاع صاعين لمن آذاه ونال منه .

وهاهو يجد أمامه إخوته الذين فعلوا معه ومع أبيه مافعلوا ، ولئن كان فى الإمكان التجاوز عن محاولتهم الاغتيال أو الإلقاء فى الجب ، لأن هذا خاص به عليه السلام وله مطلق الحرية فى العفو عنه ... ، فليس من الهين

(١) د . محمد عبد الوهاب بحيرى : الحيل فى الشريعة الإسلامية ص ٣٤٠/٣٤١ .

التجاوز عما سببوه لوالديه من آلام لا يطيق الصمود لها إلا من ثبته الله تعالى بالصبر عليها .

ولقد كان فى الإمكان أن ينهى الأمر بالقبض عليهم ، وأن يقدمهم إلى المحاكمة على ما ارتكبوه معه عليه السلام ، وهو صادق فى كل ما يتهمهم به، ولكانوا عرضة لتوقيع أشد العقوبات عليهم .

ولكنه عليه السلام لم يفعل من ذلك شيئا بل على العكس من كل تقدير منتظر ، أخذ يدبر الأمر لاكتساب ودهم وكسب ثقتهم ، والسعى فى إزالة ما عندهم نحوه لتحل الألفة والمودة والمحبة محل الحقد والحسد والكراهية .

وهنا نقف مرة أخرى أمام آية من آيات النبوة تتمثل فى مكارم الأخلاق التى لا يعرف من أوتيها طريقا إلى الانتقام الشخصى ولا سبيلا إلى التشفى .. إنها المكارم المتفجرة من النبوة التى لا تعرف إلا الحب فى الله تعالى ، النبوة التى تسعد كل من والاها وتصل من قطعها ، وتحسن إلى من أساء إليها وتجذبه إلى ساحة الحق لعله يتوب ويهتدى .

ومن تأمل فيما تبقى من حوادث القصة يشهده عليه السلام وهو يتصرف تصرف الطبيب المتمكن من معالجة مرضاه ليستل من القلوب أسباب العداوة والبغضاء ويغرس فى أرض النفوس بذور الحب والسلام . وكانت معالجته لهم عليه السلام معالجة الخبير بموطن الداء .

وكانت تصرفاته فى هذا الشأن قدوة لمن يواجه الانحرافات فى الخلية الأولى للمجتمع — الأسرة — كيلا يتخذ أحد من أفراد الأسرة الواحدة الانتقام وسيلة للتنفيس عما ناله من أذى على يد بعض أفرادها وقد ظهرت على يده عليه السلام فى هذا الصدد آيات باهرات خلدها القرآن العظيم للعالمين فكانت نبراسا لحسن سياسة الأسرة والإبقاء على المودة بين أفرادها ، ولم يدرك إخوته ذلك إلا بعد أن فاجأهم بالحقيقة التى سطعت فبهرت أعينهم ، فإذا بهم يستسلمون مذعنين لله تعالى مقرين بخطئهم معترفين بفضله عليه السلام مؤثرينه فى هذه المرة على أنفسهم : مستغفرين لله تعالى من ظلمهم فى أبيهم .

فكان ذلك آية من الآيات التى أيد الله تعالى بها نبيه يوسف عليه السلام .

تدبيره عليه السلام لاجبارهم على العودة بأخيهم الأصغر :

أكرم عليه السلام إخوته ، وأنزلهم خير منزل ، كما هى عادته عليه السلام مع قاصديه وكما يتبين من قوله ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ .

وقد استدرجهم عليه السلام إلى ذكر أخيهم بنيامين إما عن طريق السجلات التى تدون فيها أسماء الممتارين أو عن طريق الحديث معهم . فكان هـــذا الاستدراج أول الخيط فى تدبير الخطة التى وضعها عليه السلام والتى انتهت بجمع شمل الأسرة كلها .

﴿ ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين - ٥٩ ﴾ .

فماطلب أخاهم إلا بعد أن آنسهم ونبههم إلى دليل لمسوه بأنفسهم يشهد بتكريمه لقصاده وشدة حفاوته بهم وقد نكر عليه السلام فى إشارته إلى أخيهم بقوله (بأخ لكم) حرصا على سلامة خطته ، المبنية على جهلهم به عليه السلام وعدم التعرف عليه ، فلو أنه قال لهم (بأخيكم) لأثار ذلك الشك فى نفوسهم ولبعثهم على التفكير فى هذا التخصيص ، والتدبر فى الرابطة التى تربط العزيز بأخيهم ، مما يؤدى إلى تركيز أذهانهم للتعرف عليه ... ولا يبعد حينئذ أن يدركوا أنه يوسف أخوهم : فيرجع حالهم معه إلى أشد مما كان حينما ألقوه فى البئر ، فلا يجتمع للأسرة فى شمل أبداً .

وفى التنكير أيضا إشارة أخرى ، إذ يحمل أن لهم أكثر من أخ من أبيهم وكأنه عليه السلام يهز ذكرياتهم هزاً عنيفاً ليتذكروا قولهم (ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا) ويعيد إلى أذهانهم ما ارتكبوه فى حقه عليه السلام .

وفى قوله (ائتونى) تنبيه عليهم بالعودة ومعهم[1] أخوهم من أبيهم ولو لم

---

(١) فى ذلك إشارة إلى أن أباهم لن يسمح بارسال أخيهم إلا بمرافقتهم جميعاً له =

يقصد ذلك لقال « ارسلوا إلى أخا كم من أبيكم » والإتيان هنا مثل الإتيان الذى ذكره فيما بعد عند قوله (وائتونى بأهلكم اجمعين) من الآية ٩٣ .

وبين لهم ان المقصود هو حضورهم جميعا مع اخيهم حين استأنس بما شهدوه من حسن استقباله لذوى الحاجات الذين ينزلون عنده خير منزل ويوفى لهم الكيل المقرر لهم .

وكان عليه السلام يعلم انهم يستثقلون طلبه اشد الاستثقال للسابقة التى ارتكبوها معه فى هذا الشأن ، كما كان يعلم مسبقا ماذا سيكون موقف ابيهم منهم لو طلبوا منه بنيامين بعد ان صدر منهم ماصدر فى حق يوسف .

وفعلا وقف الإخوة أمام العزيز - حين طلب منهم ذلك - وهم لا يحرون جوابا وكأنهم يعترضون فى أنفسهم على طلبه فيقولون :

بأى عذر نتقدم لأبينا ليوافق على تسليمه لنا ؟ وقد سبق لنا أن سلبناه أعز أبنائه عنده بحجة الخروج معنا ليرتع ويلعب ؟ ماذا نحن قائلون لأبينا ليأذن لنا فى صحبة بنيامين ؟ أنقول له إن العزيز قد طلبه ؟ سيكذبنا قطعا إذ لا علاقة لبنيامين بالعزيز ولا علاقة لنا بالعزيز حتى يطلبه منا !! وهل سيأمنا عليه بعد ما أمنا على أخيه فنكثنا ؟

لذا ساعفهم عليه السلام بسبب كاف يبرر طلبهم ، ويجبرهم فى نفس الوقت على الا يأخذوا المسألة مأخذ الاستخفاف والاكتفاء بمجرد عرضها كرغبة طارئة أبداها العزيز لا تحمل على محمل الجد ، فاحتاج الأمر إلى الانتقال من ترغيبهم فى إحضار اخيهم إلى تلقينهم سببا يجبرهم على عرض الموضوع على أبيهم مع بذل كل مافى وسعهم عنده لقضاء حاجتهم فقال .

= حرصا عليه . ونفس هذا الحرص نجده فى إرسال يوسف من قبل مع إخوته جميعا حينما خرج للترييض معهم . والحكمة فى ذلك أن يعقوب عليه السلام يجعل الإخوة مسئولين جميعا عن أخيهم ، ووجودهم مجتمعين يحول دون تنفيذ الفريق المتطرف منهم ماهو أسوأ بالنسبة لشقيقهم إذ لا يخلو الأمر من معارضة تردهم على التطرف فيسلم أخوهم من أذى المتطرفين منهم .

(فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون — ٦٠) .

فجعل حضور اخيهم شرطا للكيل لهم ، وعرفهم انه لايظلمهم فإنه لا يمنعهم من طلب الكيل عند غيره فقال (عندى) وكأنه يقول لهم : إن هذا الذى تستصغرون شأنه فتجعلون انفسكم عصبة لها اهميتها لآل يعقوب من دونه ، وكأنه كم مهمل ، لا كيل لكم عندى إلا إذا حضر ، حتى تعلموا ان تعاليكم عليه لا وزن له ولا اساس ، وها أنتم لم تغن عنكم عصبتكم شيئا ، إذ لن تنالوا الكيل إلا لأجله ، فهو فى هذه النازلة قد رجحكم جميعا عند عزيز مصر ، وفى نفس الوقت عرفهم انه لايظلمهم : فإنه لا يمنعهم من طلب الكيل عند غيره وليعلموا ذلك قال لهم (عندى) .

وحتى لا يحتالوا فى إرسال من يمتار نيابة عنهم آيسهم من ذلك بقوله (ولاتقربون) اى لن امكنكم من الاقتراب من البلاد بأى وجه مالم يحضر معكم .

وفى هذا من اللطف فى السياسة والتدبير مافيه :

* إذ يدفعهم ذلك إلى اتخاذ موقف موحد تجاه ابيهم ليبذلوا مافى وسعهم لإقناعه بالموافقه على اصطحاب بنيامين معهم ، وهم لا يدرون انهم بمجهودهم هذا إنما يسعون فى نجاح خطته عليه السلام .

* يجبرهم كذلك على اخذ المسألة مأخذ الجد وعدم التراخى .

* اثناء حوارهم مع العزيز بشأن مراودة ابيهم عن اخيهم عادت إليهم ذكريات مراودتهم لأبيهم عن يوسف عليه السلام : وقد نجحوا فى المرة الأولى فى إقناعه بما ترتب عليه التخلص من يوسف ولكنهم فى هذه المرة لا يجدون عذرا وجيها يقدمونه لأبيهم ويكون مقنعا له فيوافق على طلبهم .

لذا ساعفهم عليه السلام بأقوى عذر ممكن وهو منع الكيل عنهم فلاسبيل إلى الحصول على المؤونة إلا إذا حضر معهم اخوهم ولو تركهم عند مجرد طلب الإتيان بأخيهم دون ربطه بقضاء حاجتهم ، لما كانت هناك ضرورة تبعثهم على الإلحاح على ابيهم فى الطلب ، ولعادوا وقالوا إن اباه قد رفض تسليمه لنا ، ولا يمكن اتهامهم بالتقصير لأن الأمر ليس بيدهم .

وحيث ان العزيز قد هيأ لهم خير عذر يمكنهم الاستناد إليه لإقناع أبيهم، وهو عذر حقيقي صادق لاخداع فيه مثل خداعهم اول مرة ، لما يترتب عليه من قضاء أمر حيوى بالنسبة لهم جميعا وهو حصولهم على القوت الضرورى ، حينئذ :

﴿ قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون - ٦١ ﴾ .

بعد اقتناعهم بوجاهة المبرر الذى قدمه لهم العزيز سرى عنهم وأكدوا أنهم سيطلبون أخاهم من أبيهم ، وسيبذلون مافى وسعهم فى مراودته عنه ، فإن رفض أبوهم سعيهم عنده فقد أدوا ماعليهم وما باليد حيلة حينئذ ، ولاتثريب عليهم ولاحرج ولالوم . يريدون أن يحفظوا لأنفسهم خط الرجعة مع العزيز فلا تنقطع العلاقات بينهم وبينه كما فهموه من قوله (ولا تقربون) فى حالة عدم حضور أخيهم معهم .

ولم يدر فى خلدهم أن هـذا هو بالضبط مايريده منهم عزيز مصر : فما أراد إلا أن يبسطوا القضية بصورة جدية أمام أبيهم عليه السلام . وقد تم له ماأراد .

ويدل توزيع الضمائر على أنهم مازالوا على ماهم عليه تجاه اخيهم الأصغر فلم يقولوا « سنراود عنه أبانا » : ذلك أنهم كعادتهم كلما أرادوا أن يظهروا ارتباط يوسف بأخيه او بأبيه جاؤا بضمير المفرد الغائب وعند بيان ارتباطهم بأبيهم يأتون بضمير الجمع (نا) للمتكلمين ليظهر الفرق الشاسع بين المكانتين .

وهناك وجه آخر لهذا التدبير متعلق بقضيته عليه السلام منهم :

فإن طلبهم لبنيامين يجعلهم يستعيدون مافعلوه معه عليه السلام حينما اخذوه بحجة مشاركتهم فى رياضتهم ، وفى الواقع أنهم قد تستروا بهذه الحجة ليتخلصوا منه : وكأنه عليه السلام يذكرهم بجرمهم ليستقبحوا فعلتهم ، هذا مع البون الشاسع بين وضعهم السابق ووضعهم الحالى . ولولا أنهم اخصائيون فى مثل هذه المأموريات ما كلفهم بإحضار أخيه بنيامين ، فإنه يعلم أن أباه لن ينسى لهم فعلتهم الأولى ابدا ، ولكى يوافق أبوه ، ويسمح لهم باصطحاب بنيامين ، وضع لأبيه رمزا لايفهمه إلا هو ليجيبهم إلى ماسألوه :

تدبيره عليه السلام للعلامات التى ترمز إلى حقيقة الأمر :

حصل كل واحد من الإخوة على الحصة المقررة للفرد - وهى حمل بعير - لم يزد عليها شيئاً ، وأمر العزيز رجاله أن يجعلوا بضاعتهم فى رحالهم :
﴿ وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون - ٦٢ ﴾ ومن الحكم التى تضمنها هذا التدبير :

١ — بيان حسن معاملة العزيز لهم ليكون ذلك أدعى لعودتهم .

٢ — عدم الاعتذار بعدم وجود بضاعة يرجعون بها مما يؤخر عودتهم إلى مصر أو يحول دونها ، فجعل رد بضاعتهم إليهم كهدية منه عليه السلام ، كيلا تكون لهم حجة فى التأخير .

٣ — فى عدم إنبائهم برد بضاعتهم إليهم مايستدعى إسراعهم إلى العودة خشية أن يكون فتيان العزيز قد وضعوها فى رحالهم سهوا — ولو أخبرهم عليه السلام برد بضاعتهم ما كانوا ملزمين بالعودة بها .

٤ — كان عليه السلام يعلم مسبقا ماهو موقف أبيه عليه السلام من إخوته إذا ماطلبوا منه بنيامين ،فوضع علامة يعرف منها يعقوب عليه السلام وجود ابنه يوسف فى مصر .

ويجب أن نقف وقفة عند قوله (اجعلو بضاعتهم) أى نفس البضاعة التى قدموها ثمنا للمؤنة . ولو جعلوا بضاعة سواها ، لما ظهر المقصود من هذه العلامة . ولا يعقل أن يكون رد بضاعتهم — دون أن يمسها تغيير — من غير فائدة أو بدون معنى ؛ بل كانت إشارة خاصة جعلها يوسف عليه السلام بينه وبين أبيه أدركها الوالد ولم يحفظها الإخوة :

ففى بداية القصه أرسل رجال القافلة واردهم فى طلب الماء ، فلما عثروا على يوسف أسروه بضاعة ، وهنا حين فتح الإخوة متاعهم وجدوا أن بضاعتهم قد ردت إليهم — ولا يخفى مافى ذلك من الإشارة إلى اجتماعهم به عليه السلام .

ورد البضاعة فى ذاته وفى مثل هذه المجاعة أمر نادر الوقوع ، فلا يمكن أن يجرى هكذا دون أن يكون له اتصال بآل يعقوب ووجود يوسف عليه السلام .

وإن فاتت هذه العلامة على الإخوة فما كانت لتفوت على يعقوب عليه السلام الذى شم رائحة ابنه فى هذا التصرف ، وقد أوتى عليه السلام من تأويل الأحاديث ، ولعل هذا الحديث الرمزى يؤكد أن صاحبه لا يكون إلا يوسف عليه السلام .

هذا هو المعنى الذى أراده يوسف وفهمه أبوه عليهما السلام ، أما لو كان المقصود هو عدم مقاضاتهم الثمن ، فما كان من الضرورى مطلقاً سلوك هذا الأسلوب .

مراودة إخوة يوسف لأبيهم عن أخيهم :

لم يصرح يعقوب عليه السلام فى المرة الأولى لبنيامين فى نزول مصر لطلب الميرة مع إخوته خشية عليه من أن يناله منهم ما نال يوسف من قبل ، ومن جهة أخرى كان عليه السلام يجد فى ابنه بنيامين بعض العزاء عن فقد أخيه .
وكان أثقل شىء على الإخوة أن يطالبوا أباهم باصطحاب بنيامين لما لمسوه من الآلام التى قاساها أبوهم منذ افتقد يوسف . ولولا أن العزيز قد وضعهم فى ظرف يحتم عليهم طلبه لما وجدوا فى أنفسهم الجرأة على طلب بنيامين .
ولشدة مكرهم بادروا أباهم بادىء ذى بدء باخباره بمنع الكيل عنهم، وفى هذا ما فيه من البلاء لخطورة المجاعة وعدم استطاعتهم مواجهتها :
﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا ياأبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل [1] وإنا له لحافظون - ٦٣ ﴾ يريدون فى مستهل حديثهم أن يلقوا فى

(١) قال أبو البقاء العكبرى (يقرأ بالنون لأن إرساله سبب فى الكيل للجماعة ، وبالياء على أن الفاعل هو الأخ ، ولما كان هو السبب نسب الفعل إليه فكأنه هو الذى يكتال للجماعة) : إملاء ما من به الرحمن ج٢ص٢٩ .

روع أبيهم وجوب موافقتهم على أمرهم وهو البر الرحيم بهم وبأبنائهم وبمن انتمى إليهم ففي الكلام استعطاف خفي لوالدهم ليرق لهم لأن المسألة تتعلق بقوت آل يعقوب ومن والاهم وليست خاصة بهم وحدهم .

وبينوا لأبيهم أن العزيز قد اشترط حضور أخيهم من أبيهم ليكيل لهم حصتهم . وقال بعض المفسرين (منع منا الكيل) أى (فوق الكيل الذى كيل لنا ولم يكل لكل رجل منا إلا كيل بعير فأرسل معنا أخانا بنيامين يكتل لنفسه كيل بعير آخر وزيادة على كيل أباعرنا)

ولما كان محور الموضوع هو خوف أبيهم من أن يحدث لبنيامين ماحدث لأخيه يوسف من قبل،فقد اكدوا لأبيهم أنهم سيحافظون على أخيهم وجاؤا فى تأكيدهم بنفس العبارة التى قالوها حينما طلبوا من أبيهم اصطحاب يوسف عليه السلام . فقالوا إذ ذاك ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ من الآية ١٢ .

والظاهر أن عقدة الذنب هى التى جعلتهم يكررون اليوم نفس الوعد بالحفظ الذى صدر بالأمس.مما أثار عند والدهم لواعج الحزن والأسى لتذكره يوسف عليه السلام .

﴿ قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين - ٦٤ ﴾

فيه تقريع شديد لهم بسابق فعلتهم حين وعدوه بحفظ يوسف وهم يعلمون عزيز مكانته عنده فلم يفوا بشيء من وعدهم بل جاؤوه بعكس ماوعدوا، وهاهم يكررون نفس الوعد ليأمنهم على أخيه !

ولما رأو أنهم لو تمادوا فى الطلب فلن يجدوا سوى الرفض القاطع، أجلوا الحديث معه عليه السلام إلى مناسبه قد تكون أكثر ملاءمة .

وسرعان ماوافاهم تدبير يوسف عليه السلام بهذه الفرصه : ذلك أنهم لما وضعوا رحالهم وفتحوا متاعهم وجدوا أن بضاعتهم التى دفعوها ثمنا للطعام قد ردت إليهم :

﴿ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير - ٦٥ ﴾

فعاودوا الكلام مع أبيهم بشأن اصطحاب أخيهم . وجرت المحاورة على أساس جديد يسره لهم تدبير العزيز :

وكأنهم قالوا ها هو العزيز يعاملنا أكرم معاملة ، وهى معاملة لا يضاهيها فى الكرم والنبل معاملة أحد غيره وخاصة فى مثل هذه الظروف التى يندر وجود من يجود فيها بالمؤن ، وهذا مما لا يدع اى مجال للتردد فى الإذن لنا باصطحاب أخينا فيحصل كل واحد منا على حصته المقررة ونزداد كيل بعير بوجوده معنا .

وفى الآية تنبيه لطيف على عدالة التوزيع التى عامل بها يوسف عليه السلام اصحاب الحاجات :

فقد كان فى إمكانه وهو عزيز مصر أن يخص إخوته بمزيد من المؤن على ما هو مقرر ، ولو أعطاهم ما أعطاهم ما كان لأحد أن يعترض عليه :

(اولا) لأنه عليه السلام مؤتمن على البلاد كلها أفلا يؤتمن على توزيع الطعام ؟

ومن ناحية أخرى كان له عليه السلام فى عنق كل مصرى منة لإنقاذه الشعب من هلاك محقق فلو أعطى إخوته ما أعطاهم ما كان لأحد عليه من سبيل .

وعلى جميع هذه الإعتبارات وغيرها لم يخصص لإخوته سوى الحصة المقررة لعامة الناس .

---

(١) ما نبغى : قال ابن الأنبارى ما : استفهامية فى موضع نصب لأنها مفعول «نبغى» . وتقديره أى شىء نبغى ؟ ـ البيان فى غريب إعراب القرآن جـ٢ ص٤٣ .

قال أبو البقاء العكبرى «يجوز أن تكون « ما » نافية ويكون فى نبغى وجهان أحدهما بمعنى نطلب . فيكون المفعول محذوفا أى ما نطلب الظلم .

والثانى أن يكون لازما بمعنى ما نتعدى ، إملاء ما من به الرحمن جـ٢ ص ٢٩ .

﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به إلا ان يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل - ٦٦ ﴾

موثقا : اى عهدا مؤكدا بذكر الله[1] .

---

(١) الإمام البيضاوى : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص٣١٩ .

ونلخص فيما يلى ماجاء فى مادة « وثق » فى «تاج اللغة وصحاح العربية» للامام إسماعيل ابن حماد الجوهرى :

الموثق = الميثاق . والميثاق = العهد والجمع المواثيق على الأصل، والمياثق والمياثيق أيضاً .

أنشد ابن الأعرابى :

حمى لا يحل الدهر إلا بإذننا   ولا نسأل الأقوام عهد المياثق

والمواثقة المعاهدة ومنه قوله تعالى «وميثاقه الذى واثقكم به» من الآية السابعة/ سورة المائدة .

راجع تاج اللغة ج ٤ ص١٥٦٣

ولم يخرج ابن منظور فى لسان العرب عما قاله الجوهرى وجاء فى حديث كعب بن مالك : « تواثقنا على الإسلام » أى تحالفنا وتعاهدنا .

قال ابن حجر المكى فى الفتاوى الحديثية :

(وسئلت ما الفرق بين العهد والميثاق واليمين ؟)

وأجاب رحمه الله تعالى إجابة مفصلة طويلة نلخصها فيما يلى :

العهد فى لسان العرب له معان منها الوصية والضمان والأمر والرؤية والمنزل - وأما الميثاق فهو العهد المؤكد باليمين .

وقد اختلف المفسرون فى المراد بالعهد فى قوله تعالى « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » من الآية ٢٧ / السورة التى ذكرت فيها البقرة - فذكر ابن حجر أحد عشر قولا منها :

الإيمان والتزام الشرائع ، ومنها ماعهده تعالى إلى الذين أوتوا الكتاب من قبل : أن يبينوا نبوة خاتم النبيين سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وألا يكتموا أمره صلى الله عليه وسلم - ومنها عهده تعالى وميثاقه الذى أخذه عليهم من الإيمان والتصديق برسله . واختلف المفسرون أيضا فى الميثاق فى قوله تعالى «وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور» من الآيتين ٦٣ و٩٣ من السورة التى ذكرت فيها البقرة =

﴿ لتأتننى به ﴾ جواب القسم : إذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتننى به .

﴿ إلا أن يحاط بكم[1] ﴾ إلا أن يحيط بجمعكم مالا تقدرون معه على أن تأتونى به . وروى عن قتادة « إلا ان تغلبوا حتى لاتطيقوا ذلك » .

وروى ابن اسحق « إلا أن يصيبكم أمر يذهب بكم جميعا فيكون ذلك عذرا لكم عندى[2]

وهذا يبين شدة حب يعقوب عليه السلام لابنيه يوسف وبنيامين .

وإن مافعلوه مع يوسف عليه السلام يؤكد لهم عذر أبيهم فى تشديده معهم حتى لايفرطوا فى بنيامين .

= قال بعضهم هو ألا يعبدوا إلا الله تعالى ، وقال آخرون هو العهد منهم ليعملن بمافى التوراة أو هو الالتزام بمتابعة الأنبياء والإيمان بخاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه - إلى أن قال ابن حجر :

فعلم بما تقرر أن كلا من الميثاق والعهد قد يطلق على الاخر ، وأن كلا منهما له معان يستعمل فيها بحسب مايليق به من ذلك السياق ، وأنه لا يتقيد بمعنى مخصوص مطرد بل كل ما لاق من معانيه بما سبق له جاز حمله عليه « وراجع الفتاوى الحديثية ص ٢١ : ٢٣ » .

وقال الزمخشرى فى الكشاف «جـ١ ص٥٩» : وقيل عهد الله إلى خلقه ثلاثة عهود: «العهد الأول» الذى أخذه على جميع ذرية آدم : الإقرار بربوبيته وهو قوله تعالى «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا » من الاية ١٧٢ سورة الأعراف .

«وعهد» خص به النبيين أن يبلغوا الرسالة ويقيموا الدين ولايفرطوا فيه وهو قوله تعالى « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم » من الآية السابعة من سورة الأحزاب .

«وعهد» خص به العلماء وهو قوله تعالى «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه من الاية ١٨٧ سورة آل عمران .

(١) قال أبو البقاء العكبرى « إلا أن يحاط» هو استثناء من غير الجنس ، ويجوز أن يكون من الجنس ويكون التقدير: لتأتننى به على كل حال إلا فى حالة الإحاطة بكم .

(٢) تفسير الطبرى جـ ١٣ ص١٨ « الطبعة الميمنية » .

﴿ فلما آتوه موثقهم قال الله على مانقول وكيل ﴾ شهيد علينا بالوفاء بما نقول جميعا .

وقال الإمام البيضاوى [(قال الله على ما نقول) من طلب الموثق وإتيانه (وكيل) رقيب ومطلع] .

عسى أن ينبههم هـذا الميثاق إلى شدة ارتباطهم بأخيهم وأبيهم بدلا من عدم المبالاة أو التفريط فى حقه ، وهو إيقاظ لضمائرهم حتى تطفو عقدة الأخ التى ابتلوا بها وتظهر على السطح الواعى ليتسنى لهم التخلص منها بعـد ذلك . وهذا هو ما كان يخطط له يوسف عليه السلام ويـكمله يعقوب عليه السلام .

وصية يعقوب لبنيه قبل رحيلهم :

﴿ وقال يابنى لاتدخلوا من باب واحـــد وادخلوا من أبواب متفرقة وما اغنى عنـكم من الله من شىء إن الحـكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون — ٦٧ ﴾ .

هـذه الوصية من نبى مرسل لبنيه وهم على أهبـة الرحيل إلى مصر وهو يتوقع أن يسمع شيئا عن نبى مرسل هو ابنه يوسف عليه السلام .

فهم الأبناء من هذه الوصية أن أباهم يقصد منها دفع شر يتوقعه . أو تجنب ضرر يخشى عليهم منه . ومفهوم الوصية على إطـــلاقه يربط مابين دخولهم إلى أى مكان ومابين الأبواب المتفرقة سواء كان ذلك دخول البلد أو الدخول على العزيز : يعنى عدم الدخول من مدخل واحد أيا كان ، وينطبق ذلك على جميع الأمـكنة فى مصر إلى أن يخرجوا منها .

أما هو عليه السلام فقد وصاهم بذلك لحاجة فى نفسه لم يتبينوا المقصود منها ولم يبين لهم الحـكمة من ورائها بل أخفاها فى نفسه إذ أن إفشاءها لهم فيه ضرر كـبير عليهم .

ودفعاً لما عساهم أن يتوهموه من أن الامتثال لهـــذه الوصية سيرد عنهم

ما يراد بهم قال لهم (وما أغنى عنكم من الله من شيء) أى لم أوصكم بهذه الوصية لأدفع عنكم شيئا يريده الله تعالى بكم ولا شرا هو مقدر عليكم ، إذ لا أغنى عنكم من الله شيئا إن أراد بكم سوء سواء كنتم متفرقين أو مجتمعين وهذا هو حكم التقدير النافذ للعلى الكبير .

ينبههم عليه السلام إلى اتخاذ الأسباب التى أمر بها الله سبحانه وتعالى مع عدم الغفلة عن التوكل على مسببها فلا حافظ فى الحقيقة سواه عز وجـــل .
وإن صريح الإيمان يقتضى الأخذ بأسباب الحفظ التى أمر الله تعالى بها مع التفويض فى كل شيء إلى الله جل ثناؤه ، فمن فعل ذلك فقد جاء بالتوكل الحقيق وكلما قوى التوكل عليه تعالى كلما استفرغ العبد جهـــده فى استقصاء أسباب النجاح (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه)[1] ومن تأدب بهذا الأدب النبوى رأى من المعونة الإلهية العجب العجاب .
ويعلمنا معلم الثقلين صلوات الله وسلامه عليه كيفية التوكل إذ يقول (اعقلها وتوكل)[2] .

---

(١) رواه الإمام البيهقى فى شعب الإيمان عن الصديقة الكبرى أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها وقال المناوى ورواه أبو يعلى وابن عساكر وغيرهما ورواه فى الجامع الصغير ورمز لضعفه — وفى رواية « إن الله يحب إذا عمـــل العبد عملا أن يحكمه » وقال المناوى إنها رواية العسكرى .

(٢) سببه كما أخرج ابن حبان فى صحيحه من حديث عمرو بن أمية الضمرى قال جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ، أرسل ناقتى وأتوكل ؟ قال صلى الله عليه وسلم « إعقلها وتوكل » .

وفى رواية الترمذى « أعقل ناقتى وأتوكل أو أطلقها وأتوكل » ؟ فذكره .
وأخرجه الطبرانى من حديث عمرو بن أمية الضمرى ومن حديث أبى هريرة بلفظ « قيدها وتوكل » .
وأخرجه الترمذى والبيهقى فى الشعب وأبونعيم فى الحلية عن أنس رضى الله عنه .
وقال الترمذى قال يحيى بن سعيد القطان إنه منكر ؛ وقال الترمذى غريب .
قال العراقى وإسناده صحيح .

ولكن الجهلة عكسوا الأمور فظنوا أن حقيقة التوكل غير هـــذا كله إذ فسروا التوكل بالتسيب والإهمال وجعلوا الأخذ بالأسباب متنافيا مع التوكل واعتبروا إن ذلك من أسباب النجاح بل ومن شعب الإيمان مع أنه من أسباب الفشل ووسوسة الشياطين بل إن فعلهم هذا من التواكل المنهى عنه وقد يدخل فى باب الاستهزاء بالدين، حتى اتخذ الملاحدة من ذلك سببا للسخرية إذ يقولون لك كلما أرادوا عدم قضاء أمر (توكل على الله) !! ويفعلون عكس ماتطلبه منهم إمعانا فى كفرهم وغيهم .

ومع امتثالهم لوصية أبيهم فقد حدثت لهم حوادث جسام : لكنها كانت الحجر الأساس لالتئام شملهم جميعا . إذ كانت خطة الوالد مكملة لخطة ابنه عليهما السلام .

لما بين لهم أنه عليه السلام لا يغنى عنهم من الله من شىء علل ذلك بقوله : (إن) ما (الحكم) وهو فصل الأمر بما تدعو إليه الحكمة .

(إلا لله) الذى له الأمر كله لا يقدر أحد سواه عن التفصى عن شىء من مراده أو الفرار من شىء من قدرته — فلا ينفع سبب أصلا إلا بالله ، وأنزل الحق تعالى البسملة مقرونة بباء السبب أول كتابه وأمر بها أول كل شىء .

ولما أن الأمر كله يرجع إليه سبحانه ، وجب رد كل أمر إليه وقصر النظر عليه فقال تنبيها على ذلك .

(عليه) أى على الله وحده الذى ليس الحكم إلا له (توكلت) أى جعلته وكيلى فرضيت بكل ما يفعل (وعليه) وحده (فليتوكل المتوكلون) الثابتون فى باب التوكل فإن ذلك من أعظم الواجبات التى يستلزمها الإيمان : من فعله فاز ومن أغفله خاب .

ثم إنه سبحانه صدق يعقوب عليه السلام فيما قال مؤكدا ما أشار إليه فى اعتقاده فقال عز من قائل :

﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء

إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها . وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لايعلمون — ٦٨ ﴾ .

(إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها) أى اعتقاده أن الأخذ بالأسباب الشرعية واجب وتبليغ ذلك واجب عليه أيضا ، فهو بأمره لهم بها (قضاها) (لأن ذلك مقتضى علمه بوجوبها وعلمه بفعل الله تعالى عندها سيما فى حق من توكل عليه عز وجل فهو يأخذ بأسباب الفلاح ويحترز من أسباب الهلاك مع علمه بعدم تأثيرها لما علمه من فعل الله عندها) .

دلت تصرفات يعقوب عليه السلام على أنه قد علم من رد البضاعة والإصرار على عودة الإخوة إلى مصر ومعهم بنيامين والتهديد بمنعهم من دخول مصر إذا لم يحضر معهم ، هذه التصرفات لم تكن عشوائية ، بل هى تصرفات محكمة مدبرة ، ناطقة باسم صاحبها ومشيرة إليه ، وكلها رموز لا يمكن أن يضعها سوى يوسف عليه السلام ، فإن قيل إن كان الأمر كذلك فلم أخذ يعقوب على بنيه موثقا بالمحافظة على بنيامين وهو يعلم أنه سيلتقى بأخيه !

والجواب أنه عليه السلام لم يخش على بنيامين من العزيز بل كان يخشى عليه من إخوته وهذا دليل آخر على أنهم كانوا يضمرون له السوء والبغضاء ، ولا يحبون له الخير .

امتثل الأبناء وصية أبيهم فى مدخلهم فتحقق ما كان ينتظره أبوهم الذى كان يعلم أن يوسف عليه السلام على قيد الحياة وأنه سيمتد به العمر حتى يرى أبويه وإخوته له ساجدين .

وهنا تظهر حكمة وصيته عليه السلام لأبنائه بعد أن اخذ عليهم الميثاق بعدم التفريط فى أخيهم: ذلك لأن الإخوة تنفيذا لهذا الميثاق سيضعون أخاهم تحت رقابة دقيقة بحيث لا يغيب عن أعينهم ، وعلى هذا يتعذر على يوسف عليه السلام الانفراد به .

ولذا وصاهم أبوهم بالدخول متفرقين ليعطى لبنيامين فرصة للاجتماع به منفردا ، ولولا هذه الوصية لأصبح هذا الاجتماع متعذرا .

وما كان يعقوب عليه السلام ليسر لابنه بنيامين بحقيقة الأمر من دون إخوته فيثير الشك فى نفوسهم ويشعل الضغائن التى مازال يعالجهم من آثارها، وكيف يسر إليه مايثير فى نفوسهم الحسد وهو عليه السلام فى إمكانه ان يتبادل التفاهم مع يوسف دون أن يشعرهم بذلك ؟

وفعلا كان ما أحصاه يعقوب عليه السلام فقد تم اتصال الشقيقين دون أن يشعر الإخوة بذلك قال الإمام البقاعى :

(وإنه) يعقوب عليه السلام مع أمره لبنيه بذلك .

(لذو علم) أى معرفة بالحكمين حكم التكليف وحكم القدرة واطلاع على الكونين عظيم . فهو علم كامل لادخل للكسب فيه فإنما حصل بتعليمنا إياه .

(لما) أى للذى (علمناه) إياه من أصول الدين وفروعه ، ويجوز أن يكون المعنى لذو علم : لأجل تعليمنا إياه فاقتدوا به فى الاحتياط فى تعاطى الأسباب مع اعتقاد أنه لا أثر لها إلا إذا أمضاها الواحد القهار فبهذا التقدير يتبين أن الاستثناء متصل . وفائدة إبرازه فى صورة الاستثناء عند من جعله منقطعا : الإشارة إلى تعظيم يعقوب عليه السلام وأنه جدير بأن يكون مايأمر به مغنيا لأنه من أمر الله فلو كان شىء يغنى من قدر الله لأغنى ما أشار به .

(ولكن أكثر الناس) أى لأجل مالهم من الاضطراب .

(لا يعلمون) أى ليسو بذوى علم لما علمناهم لإعراضهم عنه واستفراغ قواهم فى الاهتمام بما وقع التكفل لهم به من أحوال الدنيا أو مغالبة فطرهم القويمة السليمة بردها بما تدعو إليه الحظوظ والشهوات حتى لا يكون فيها

---

(١) الامام البقاعى . نظم الدرر : ج : ٣ : ظهر الورقة ١٨٦ ووجه ١٨٧ .

طب لمخلوق ؛ ولأجل حالهم هذا يتوهمون أن يعقوب عليه السلام اعتقد فى أثر الأسباب فنقص توكله من أجل ذلك .

هذا هو المعنى المناسب للسياق وذهب جمهور المفسرين إلى أنه أمرهم بذلك خوفا عليهم من الحسد ، وهذا مخالف للسياق ، يدلك على ذلك أنه لم يوصهم بهذه الوصية حينما قصدوا مصر فى المرة الأولى ولم يذكر هذه الوصية إلا حين صحبهم بنيامين ، فلو كان القصد هو رفع الحسد لكان طلب منهم ذلك أول مرة لأن السبب موجود ولم يرتفع إذ كانت عدتهم عشرة رجال ; فدل ذكره للوصيه فى المرة الثانية على أنه يقصد أمرا لم يدركه الإخوة وإنه لذو علم بأن يوسف لايزال حيا وأنه سيجتمع به لامحالة ولكن أكثر الناس لايعلمون أنه عليه السلام يعلم ذلك عن طريق الوحى الإلهى .

اجتماع يوسف عليه السلام بأخيه بنيامين :

﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه وقال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون - ٦٩ ﴾

﴿ آوى إليه أخاه ﴾ ضم إليه بنيامين . روى أنه أضافهم فأجلسهم مثنى مثنى ، وبقى بنيامين فبات عنده .

وهنا ظهرت الحكمة التى قصدها يعقوب عليه السلام من دخولهم متفرقين إذ تمكن يوسف عليه السلام من تنفيذ خطته وتدبيرها بالاتفاق مع أخيه الذى بدا منه مادل على سوء معاملة إخوته له، فسرى عنه يوسف عليه السلام وطلب منه ألا يبتئس بما صنعوا معه فإن الله جاعل له ولهم مخرجا يكون فيه التئام شملهم جميعا عنده .

نزل الإخوة عند يوسف عليه السلام خير منزل ولم يشعر أحد منهم بأن العزيز قـــد دبر لهم أمرا ، كما لم يشعروا بشىء يدل على تقريبه لبنيامين من

دونهم ، ولو أحسوا ، لاستوجسوا شرا خشية أن يدلى للعزيز بما فعلوه معه ومع يوسف ولو شعروا بشيء من هذا التقارب لقصدوا رحالهم وارتحلوا ، ولم يكترثوا بما يترتب على ذلك ولنال بنيامين على أيديهم ماناله . فالمسألة لم تكن بالأمر الهين كما أنهم لا يستهان بذكائهم وجرأتهم .

تدبيره عليه السلام للاحتفاظ بأخيه :

﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون - ٧٠ ﴾

لما قام يوسف عليه السلام بتجهيزهم تولى بنفسه جعل السقاية[1] فى رحل أخيه ، ولم يزج بغيره فى الأمر لخطورته ، ومعنى ذلك أنه عليه السلام تصدى لتحمل أية مسئولية تترتب على ذلك الموضوع الخاص به وبإخوته ولا شأن لأحد به .

فهل كان يعلم بنيامين بتصرف أخيه أم لا ؟

(الأول) . أن يوسف عليه السلام قد عرف أخاه بحقيقة شخصيته . فيكون قد أحاطه بخطته التى تقتضى وضع السقاية فى رحله للاحتفاظ به .

(الثانى) أن يوسف عليه السلام لم يعرف نفسه لبنيامين ، ومن ذهب إلى ذلك قال إن المراد من قوله (إنى أنا أخوك) أى إنى فى مكان أخيك المفقود فلا تبتئس بما يعاملك به إخوتك من الجفاء . ورتبوا على ذلك أن وضع السقاية فى رحل بنيامين كان بغير علمه (ولكن[2] هذا خلاف المفهوم من القرآن وخلاف ماعليه الاكثرون ، وفيه ترويع لمن لم يستوجب الترويع

---

(١) السقاية والصداع بمعنى واحد .

(٢) الإمام ابن القيم : أعلام الموقعين حـ ٣ ص ٢٢٥/٢٢٦ .

ونتبه إلى أن المحاورة التى تضمنها النص الذى اقتبسناه من أعلام الموقعين إنما هى محاورة تصويرية لبيان ماجرى وليست بحديث مسند إليه عليه السلام

(وأما على القول الأول فقد قال كعب وغيره : لما قال (إنى أنا أخوك) قال : فأنا لا أفارقك .

قال : يوسف فقد علمت اهتمام والدى بى ، فاذا حبستك ازداد غمه ولا يمكننى هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع وأنسبك إلى مالا يحتمل ؟

قال : لا أبالى فافعل مابدا لك فإنى لا أفارقك .

قال : فإنى أدس صواعى هذا فى رحلك ثم أنادى عليك بالسرقة ليتهيأ لى ردك .

قال : فافعل .

وعلى هذا فهذا التصرف إنما كان بإذن الأخ ورضاه) اهـ .

وقد وقع الاختيار على السقاية بالذات لأمور منها :

— أنها مطلوبة دائما فطلبها يكون قريبا بخلاف مالو وضع أى شىء غيرها فإن اكتشافه قد يتأخر مدة تضيع معها الحكمة فى سرعة طلب المفقود وهذه الحكمة تقتضى المبادرة بالطلب للتمكن من اللحاق بالقافلة قبل مغادرة البلاد .

— إن استخدامها فى الكيل يجعل اتهام آخر من كال مستندا إلى وجه قوى من وجوه الاتهام ولا يتوفر هذا الشرط فى أى شىء آخر .

— إن الاتهام بسرقة الصواع أخف من غيره لأمور منها :

أ — أن الصواع من الأشياء المخصصة للانتفاع العام وهذا مما يدرأ الحد عن السرقة فى شريعتنا .

ب — فيه شبهة المال غير المحرز ، والحد يكون واجبا إذا وقعت السرقة على مال محرز [١] .

— سهولة تدبير حيازة الصواع بحيث تدخل دخولا حكميا فى حيازة الغير .

(١) الحرز نوعان : حرز بالمكان (أو حرز بنفسه) وحرز بالحافظ (أى حرز —

وفعلا طلب العاملون على كيل الطعام الصواع وبحثوا عنه ليكيلوا للناس به فاكتشفوا فقده ، فاتجهت شبهتهم إلى آخر من امتار الطعام فكانوا هم إخوة يوسف عليه السلام وكانوا قد انضموا إلى قافلتهم التى تقصد الشام .

فاستأذن الموظف المختص المسئول عن الكيل فى اللحاق بهذه القافلة مع رجاله ، وسرعان ما أدركوها [١] وحينئذ ﴿ أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ أى إن فيكم سارقا يسرى خزيه على جميع من فى صحبته وكأنهم سارقون .

فوجه رئيس المطاردين تهمة السرقة [٢] إلى جميع أفراد القافلة .

قال ابن القيم :

= بغيره)، وحرز المكان يطلق على كل بقعة معدة للاحراز ممنوع الدخول فيها إلا بإذن كالدور والحوانيت والحظائر الخ ، وتزول صفة الحرز عن المال إذا اختلت صفة الحرز بالمكان .

(١) يتبين من المحاورة التى دارت بين الإخوة فيما بعد ليتفقوا فيما بينهم على ما سيقولونه لأبيهم أن رجال العزيز أدركوا القافلة بعد أن قطعت مسافة، ودخلت قرية فى طريقها ﴿ واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون — ٨٢ ﴾ وبعض المفسرين يذهب إلى أن القرية هنا هى مصر، وآخرون يحملون الكلام على ظاهره أى أنها القرية التى أدركهم فيها رجال العزيز .

(٢) (كل من اختلس منقولا مملوكا لغيره فهو سارق) والاختلاس هو نقل الجانى للشىء من حيازة المجنى عليه وهو المالك أو صاحب اليد السابقة إلى حيازته الشخصية بغير علم المجنى عليه أو على غير رضاه ــ ويجب للقول بقيام جريمة السرقة وتوافر ركن الاختلاس فيها أن يحصل نقل مادى للشىء ــ وينتفى ركن الاختلاس فى السرقة إذا كان التسلم برضاء حقيقى من واضع اليد

(وراجع د . سيد حسن البغال : موسوعة التعليقات على قانون العقوبات والقوانين المكملة له ص ٧٥٣ وما بعدها)

والسرقة من الجرائم العمدية ولا بد فيها من توافر القصد الجنائى الذى يجب أن ينصب على كافة الأركان المادية للجريمة ــ و (يشترط لعقاب المخفى أن يتوافر لجريمته أركان ثلاثة :

=

. . . .

= أولها : فعل الإخفاء وهو الركن المادى للجريمة.

وثانيها : أن يكون الشىء المخفى مسروقا أو متحصلا من جناية أو جنحة .

وثالثها : أن يتوافر لدى المخفى قصد جنائى .

والركن المادى فى جريمة الإخفاء لا يتحقق إلا بإتيان الجانى فعلا ماديا إيجابيا يدخل به الشىء المخفى فى حيازته) د.سيد حسن البغال نفس المرجع السابق ص١٦٢ .

ومجرد علم المتهم بأن شيئاً مسروقا موجود فى منزله لا يكفى لاعتباره مخفيا له. متى كان هو لا شأن له بوجوده فيه، وكان غيره من سكان المنزل هم الذين قاموا بهذا الفعل.

(لكن الحيازة على أية صورة كافية لاعتبار الحائز مخفيا ، وليس بشرط أن يكون الحائز قد أخفى الشىء فعلا ، ويعد مخفيا من توصل إلى حيازة الشىء المسروق بأية طريقة كانت ، سواء أكان قد أخذه بطريق الشراء أم المعاوضة أم الوديعة أم الهبة أم الإجارة أم غير ذلك)د على راشد : القانون الجنائى الخاص : جرائم الدم والمال ص ٣٥٤ .

والحائز على الشىء المسروق يفترض أنه هو السارق له إلا إذا أثبت أن السارق له شخص آخر فتصح معاقبة الحائز متى أمكن إثبات علمه بالسرقة. وركن العمد يكون متوفرا متى أخفى الجانى الشىء مع علمه بأنه متحصل عن طريق السرقة .

ورضا صاحب الشىء هنا ينفى صفة الجريمة ويجعله عملا مباحا ما دام الاستلام غير مشوب بسوء قصد .

ويرى الأستاذ جارو الفرنسى :

أن الاختلاس لا يتم إلا بخروج اللص من المكان الذى سرق منه لأن الشىء لا يخرج من حيازة صاحبه خروجاً تاماً إذا كان السارق لا يزال باقياً ومعه الشىء المسروق داخل المنزل وينبنى على ذلك أن كل فعل سابق على هذه اللحظة يعد شروعا فقط ولا عقاب عليه إذا عدل عنه المتهم باختياره) .

Traité Theoriqne et Pratique du Droit Penal Francais : 1897 — 1902 — Vol 5.

وقد تعقب الدكتور على راشد كلام الأستاذ جارو بقوله إن (هذا الرأى لا شك معيب إذ لا علاقة مطلقاً بين بقاء السارق داخل المنزل أو خروجه منه وبين تمام السرقة أو عدم تمامها ، فقد تتم السرقة بغير أن يخرج الجانى من المكان الذى وقعت فيه) .

[ذكروا فى نسبتهم سارقين وجهين :

(أحدهما) أنه من باب المعاريض وأن يوسف يعنى بذلك أنهم سرقوه من أبيه حيث غيبوه عنه بالحيلة التى احتالوا عليه ، وخانوه فيه والخائن سارق وهو من الكلام المرموز ، ولهذا يسمى خونة الدواوين لصوصاً .

(الثانى) أن المنادى هو الذى قال ذلك من غير أمر يوسف، قال القاضى أبو يعلى وغيره : أمر يوسف بعض أصحابه أن يجعل الصواع فى رحل أخيه.

ثم قال بعض الموكلين وقد فقدوه ، ولم يدر من أخذه :
﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ على ظن منهم أنهم كذلك من غير أمر يوسف لهم بذلك] (١) .

قال الإمام محمد بن أبى بكر الرازى :

(فإن قيل كيف جاز ليوسف أن يأمر المؤذن أن يقول ﴿ أيتها العير إنكم لسارقون وذلك بهتان وتسريق بالصواع لمن لم يسرقه . وتكذيب للبرىء واتهام من لم يسرق بأنه سرق ؟

قلنا : قوله ﴿ إنكم لسارقون ﴾ تورية بما جرى منهم مجرى السرقة وتصور بصورتها من فعلهم بيوسف مافعلوه أولا .

(الثانى) أن ذلك القول كان من المؤذن بغير أمر يوسف ، كذا قاله بعض المفسرين .

(الثالث) أن حكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التى يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية كقوله تعالى لأيوب عليه السلام ﴿ وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولاتحنث ﴾ (٢) . وقول ابراهيم عليه السلام فى حق زوجه ﴿ هى اختى ﴾ لتسلم من يد الكافر وما أشبه ذلك] (٣) .

---

(١) الإمام ابن القيم : أعلام الموقعين جـ ٣ ص ٢٢٧ .

(٢) من الآية ٤٤ سورة ص .

(٣) الإمام محمد بن أبى بكر الرازى : أنموذج جليل جـ : ١ : ص ١٤٨.

قال مكى بن أبى طالب :

[﴿اذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون﴾ تقديره أئنكم ؟ لأنه فى الظاهر يؤدى إلى الكذب . وقيل أراد سرقتم يوسف من أبيه، لا أنهم سرقوا الصاع. وهذا سهو لأن إخوة يوسف لم يسرقوا يوسف وإنما خانوا أباهم فيه وظلموه

وقيل قالوه على غلبة الظن ولم يتعمدوا الكذب ويوسف لا علم له فيكون التقدير إنكم لسارقون فى غلبة ظنوننا] [١] .

قلت :

إن من دقق النظر فى معانى الآية الكريمة تبين له وجه الحقيقة دون إشكال ، ولبيان ذلك نقول : —

أوجد العزيز الدلائل الكافية لاستيقاف المتهمين وتفتيشهم (والدلائل وصف يشير إلى الشبهات أو العلامات الخارجية التى ينبغى أن توجه بذاتها أصبع الاتهام إلى المتهمين . وتوافرها يجعل الإجراء [٢] صحيحا ، حتى ولو تبين فيما بعد أنها كانت شبهات ظالمة لا أساس لها فى واقع الأمور ، متى كان لها ما يبررها فى ذهن الجهة التى أمرت بالإجراء وهى التى قدرت توافرها)[٣].

ويجب التفرقة هنا ما بين أمرين هامين أدى الخلط بينهما إلى اللبس فى فهم الوقائع وهما : —

* الدلائل التى قد تبيح اتخاذ اجراءات القبض على المتهم وسؤاله واستجوابه .

* والأدلة التى يبنى عليها الحكم بالإدانة .

فالأولى تجرى على حكم الظاهر ولا تبطل لو تبين بعد التحقيق الدقيق أن هذه الدلائل كانت فى غير محلها ، وأنها كانت مجرد شبهات باطلة أو ظالمة .

---

(١) إعراب القرآن : القسم الأول ص ٣٥٣

(٢) يعنى إجراءات الاتهام من استيقاف المتهمين والقبض أو طلب القبض عليهم وتفتيشهم الخ .

(٣) د . رؤوف عبيد: مبادىء الإجراءات الجنائية ص ٣٢٣ ط عاشرة — ١٩٧٤م

وفى القضية التى نحن بصددها لم تحمل هذه الدلائل ترويعا لأحد ولم تكن باطلة ولا ظالمة ، بل كانت طريقا لامفر منه للتوصل إلى مصلحة شرعية :

فمن المعلوم أن المتهم إن لم يكن حاضرا جاز للسلطة المختصة أن تصدر أمرا بالقبض عليه أو استدعائه للحضور وسؤاله[1] لسماع أقواله فورا دون أن يستجوب بشأن مانسب إليه، بادىء ذى بدء ويتم استجوابه بمعرفة سلطات التحقيق بعد ذلك .

وفى الأحوال التى يجوز فيها القبض على المتهم يجوز لممثل الضبط القضائى أن يفتشه : والتفتيش فى هذه الحالة نوعان :

* تفتيش معتبر من إجراءات التحقيق وهو الذى يتضمن بالضرورة معنى تعمد البحث عن شىء له صلة بالجريمة يكون فى حيازة المتهم .

* تفتيش بوليسى بقصد تجريد المتهم من سلاح المقاومة او الاعتداء ويسمى أيضا « التفتيش الوقائى » .

وينبغى أن يتولى ممثل الضبط القضائى التفتيش بنفسه وليس له ان يعهد به إلى أحد أعوانه إلا إذا جرى التفتيش فى حضوره وتحت إشرافه المباشر فإنه يكون صحيحا، كما لو كان قد جرى بمعرفته وتحت مسئوليته .

وفى واقعة إخوته عليه السلام كانت إجراءات الاتهام والتفتيش تامة .

الرد على من اعترض بالترويع واتهام البرىء :

لم يكن هناك أى ترويع ولا اتهام لمن لم يسرق ولبيان ذلك نقول :

---

(١) سؤال المتهم عن التهمة مقتضاه مجرد توجيهها اليه وإثبات أقواله بشأنها دون مناقشة فيها ولا مواجهة بالأدلة القائمة قبله، أما الاستجواب فيتطلب مواجهة المتهم بالأدلة القائمة قبله ، ومناقشته فيها تفصيلا توصلا إلى الحصول على اعترافه ، والاستجواب لا يكون إلا بمعرفة سلطات التحقيق الأصيلة .

أولا : أن الدلائل التى أباحت اتخاذ اجراءات الاتهام[1] لم يكن فيها ترويع لأحد : لأن المتهم برىء حتى تثبت إدانته أمام محاكمة عادلة ، وقد تضمن رد إخوة يوسف ذلك .

ثانيا : لم يأت هذا الاعتراض إلا نتيجة الخلط بين الدلائل التى تبيح اتخاذ إجراءات الاتهام ؛ وبين الأدلة التى ينبنى عليها الحكم . ويشترط فى أدلة الحكم أن تكون يقينية صحيحة ، قد طرحت للمناقشة ، بحيث يكون الحكم المبنى عليها مؤسسا على الجزم واليقين لا على مجرد الظن أو الترجيح ، هذا مع مراعاة أن الشك يفسر دائما لصالح المتهم أخذا بقاعدة ، الأصل فى المتهم البراءة حتى تثبت إدانته طبقا لمحاكمة قضائية تكفل له فيها جميع ضمانات الدفاع عن نفسه .

فمجرد الاتهام لا يثبت شيئا مالم تقم الأدلة اليقينية على صحة الادعاء :

ثالثا : أن المتهم وهو (بنيامين) كان على علم ببراءته والدليل على ذلك : أنه لم يحرك ساكنا حينما استخرج أخوه الصواع من رحله : فلو كان خالى الذهن مما حدث ، ولو كان لايدرى أن العزيز إنما هو أخوه : لبادر بالإنكار ودفع التهمة عن نفسه لأن اتهام مثله بالسرقة ليس بالشىء الهين ، فدل سكوته على أن كل ماحدث كان باتفاق بين العزيز وبينه .

فليس فى الاتهام ترويع لأحد لأنهم جميعا يعلمون أنهم بريئون من سرقة الصواع .

رابعا : لم يجر أى تصريح من يوسف عليه السلام — وهو الحاكم المختص والمسئول عن كل تصرف — باتهام أحد بالسرقة : ذلك لأن جعل الصواع فى رحل أخيه مما ينفى السرقة سواء كان ذلك بعلم من بنيامين أم كان بغير علم منه .

---

(١) الدفع بانتفاء الدلائل أو بعدم كفايتها موضوعى وهو أول ما ينبغى أن يثار أمام محكمة الموضوع .

فإن كان بعلم منه كان التصرف برضى صاحب الشىء لا يعد سرقة ، وإن كان بغير علم منه فليس بسرقة أيضا لأن صاحب الشىء إن وضع متاعه فى الرحل بدون علم من صاحبه فإن ذلك لا يجعل من وجد المتاع فى رحله سارقا .

خامسا : إن توجيه المسئول عن الصواع التهمة إلى جميع القافلة دون تخصيص منه لأحد من أفرادها لايدين أحـــدا بشىء ، ولا يترتب عليه أى حكم .

بقى احتمالان : بشأن علم رجال العزيز بهذا التدبير :

— فإما أن المسئولين عن الصواع لا يعلمون شيئا من هذا التدبير فكان صورة ماحدث عندهم صورة السرقة وإن لم تكن سرقة بالفعل .

— وإما أن يوسف عليه السلام قد أخبرهم بتدبيره ويؤيد ذلك :

(ا) جزمهم بأن الصواع فى العير واستبعاد أى مكان آخر .

(ب) أن يوسف عليه السلام لايقبل أن يلصق بأخيه تهمة السرقة بالفعل أمام الملأ مع أنه حاكم البلاد ، وهو يعلم أن هذا الاتهام سيلصق بأخيه فى المستقبل وخاصة عندما يستقر فى مصر .

ولذا نجد أن تصرفات رجال العزيز تصرفات من هم على علم بتدبيره عليه السلام . وهذا هو مانرجحه .

﴿ قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون — ٧١ ﴾ :

[﴿ قالوا و ﴾ قالوا ولم يكن قولهم حال إدبارهم بقصد الفرار بل قد (أقبلوا عليهم) على المؤذن وأصحابه (ماذا تفقدون) من الشىء العظيم الذى تنسب سرقته إلى أمثالنا؟ويدل لفظ «تفقدون» على إبطالهم للاتهام من أساسه .

﴿ قالوا تفقد صواع الملك ﴾ فإنه وإن كان هينا بكونه صواعا[1] فقد

---

(١) قال ابن فارس :

الصاع والصواع (وهو إناء يشرب به، وقد يكون مكيال من المكاييل = صاعا =

عظم بنسبته إلى الملك][1] .

﴿ ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ﴾ — ٧٢ .

ونلاحظ أن رجال العزيز عندما شرعوا فى الحديث مع نفر قد تحددت هويتهم لم يجر على لسانهم لفظ السرقة وإنما جرى منهم مايفهم منه فقدان شيء منهم ، فلم يقولوا لهؤلاء النفر إنكم قد سرقتم ، ففى هذه الحالة تكون التهمة محددة وموجهة إلى أشخاص بعينهم لا إلى جمهور القافلة — وفائدة عدولهم عن لفظ السرقة إلى الفقد دل عليه ماجعلوه لمن يأتى بالصواع من مكافأة .

ولما لم يتقدم أحد دل ذلك على براءة أهل القافلة إذ لا يوجد أى مبرر يمنع السارق لو وجد من تسليم الصواع على اعتبار أنه وجده ليكتسب حمل بعير يكون أنفع له من الصواع بكثير فى مثل هذه الجماعة .

﴿ قالوا تالله[2] لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض وماكنا سارقين ﴾ — ٧٣ .

— وهو من ذوات الواو . وسمى صاعا لأنه يدور بالمكيل (بفتح الميم) ويقال إن الكمى يصوع بأقرانه صوعا إذا أتاهم من نواحيهم ، والرجل يصوع الإبل) معجم مقاييس اللغة ج ٣ ص ٣١٢ .

وقال الفراء :

(والمتبادر أن الصواع مكيال معتمد للكيل فيكون الصواع لغة فى الصاع ، والصواع مذكر أما الصاع فيؤنث ويذكر فمن أنثه قال ثلاثة أصوع ، ومن ذكره قال ثلاثة أصواع مثل أبواب) معانى القرآن : ج ٢ ص ٥١ .

وكان هـــذا الصواع إما إناء الملك وإما أنه أضيف اليه إظهـارا لمداقة الكيل به وتخويفا للناس من سرقته .

(١) المهايمى : تبصير الرحمن ج ١ ص ٣٧٠

(٢) قال الفراء . العرب لا تقول تالرحمن ولا يجعلون مكان الواو تاء إلا فى لفظ الجلالة وذلك لأنها أكثر الأيمان مجرى فى الكلام ، فتوهموا أن الواو منها لكثرتها في الكلام — معانى القرآن ج ٢ ص ٥١ .

استبقاء بنيامين بفتوى إخوته :

﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين — ٧٤ ﴾ .

حكم رجال العزيز أخوة يوسف فى تحديد الجزاء . وهنا تجرى آية من آيات الله تعالى تمكن يوسف عليه السلام من استبقاء أخيه . ذلك أن السارق طبقا للعرف الدولى تطبق عليه قوانين البلاد ، وكانت عقوبة السرقة فى مصر فى ذلك الوقت التعذير ومصادرة المسروق ، وتغريم السارق ضعف ماسرق . ولو فعل عليه السلام ذلك لما تمكن من الاحتفاظ بأخيه بل لكان ذلك سببا فى تمكين إخوته منه وتعريضه للذل والهوان ، ولبقى معهم تحت رحمتهم بعد أن وجدوا سببا قويا للنيل منه ، فلا نتيجة لهذا سوى الإساءة البالغة لبنيامين، فلو أنهم اختاروا شريعة الملك لما استطاع أخذه منهم ، ولما أن البرىء إذا خير بين حكمين أحدهما أشد من الآخر فإنه يختار الأشد تأكيدا منه لبراءته ، ولما أنهم كذلك لا يرضون بديلا فى الحكم عن شريعتهم : لذا اختاروا الجزاء طبقا لها : وكانت عقوبة السارق تبعا لحكمها : هى استرقاقه سنة عند صاحب المتاع .

﴿ قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين — ٧٥ ﴾ [١] .

---

(١) ذكر ابن القيم فى إعراب قوله تعالى ﴿ جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ﴾ وجهين :

[أحدهما] : أن قوله (جزاؤه من وجد فى رحله) جملة مستقلة قائمة من مبتدأ وخبر وقوله (فهو جزاؤه) جملة ثانية كذلك مؤكدة للأولى مقررة لها ، والفرق بين الجملتين أن « الأولى » إخبار عن استحقاق المسروق لرقبة السارق « والثانية» إخبار بأن هذا جزاؤه فى شرعنا وحكمنا .

فالأولى إخبار عن المحكوم عليه والثانية إخبار عن الحكم، وإن كانا متلازمين، وإن أفادت الثانية معنى الحصر فإنه لا جزاء له غيره .

—

فيسروا بأفواههم السبيل له عليه السلام ليحتفظ عنده بأخيه دون أى تعسف منه عليه السلام بقهرهم عليه.

عاد رجال العزيز بالقافلة حتى مثل الجميع أمام العزيز ، ومن التحقيق تبين أن إخوة يوسف عليه السلام هم آخر من كال ، فانحصرت الشبهة فيهم .

وتولى عليه السلام عملية تفتيش رحالهم بنفسه حفظاً لكرامتهم وبدأ بأوعيتهم كى يطمئنوا على براءتهم .

﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه . كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الله إلا أن يشاء الله . نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم - ٧٦ ﴾ .

صيغة (استفعل) من أخرج تفيد أنه طلب إخراجها من رحل أخيه بالبحث عنها فيه ـ وأفادت « ثم » أنه استغرق وقتا فى البحث فى رحال إخوته حتى انتهى إلى وعاء أخيه ، وكان آخر من كال العمال له .

﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ :

الكيد المألوف لدى العباد بمعنى التوصل إلى الأمور بضروب الحيل مستحيل على الله تعالى [وذلك إنما يصح على من يمتنع عليه مراده فى بعض الأحوال ، ويتعالى الله عن ذلك ، ولهذا قد يوصف أحدنا بالكيد إذا هو توصل إلى الأمر ، ولو فعله السلطان وهو مقتدر عليه وعلى غيره لم يوصف بذلك . . .

[والمراد بذلك أنه تعالى فعل من الألطاف ليوسف ما أوجب وصوله إلى

- [والقول الثانى] إن (جزاؤه) الأول مبتدأ وخبره الجملة الشرطية والمعنى جزاء السارق أن من وجد المسروق فى رحله كان هو الجزاء . كما تقول جزاء السرقة من سرق قطعت يده ، وجزاء الأعمال من عمل حسنة فبعشر أو سيئة فبواحدة ونظائره] اه أعلام الموقعين ج ٣ ص ٢٣١

وراجع إملاء ما من به الرحمن لأبى البقاء العكبرى ج ٢ ص ٣٠ .

المراد فسماه كيدا تشبيهاً بما يقوله العباد إذاهم توصلوا بضروب من الأفعال إلى مرادهم وإلى التحرز من المكروه المراد بهم][1] .

فما أسند إليه تعالى ليس معناه من الله كمعناه من العباد. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا : والمعنى :

كذلك دبرنا هذا التدبير الذى يدق لشدة لطفه عن الإدراك ، فلايستطيع أحد له دفعاً ليتم ليوسف مراده .

﴿ ما كان ليأخذ أخاه فى دين الله إلا أن يشاء الله ﴾ ما كان يمكنه أخذه فى دين ملك مصر إذ لم يكن فى دينه طريق إلى أخذه وعلى هذا فقوله (إلا أن يشاء الله) استثناء منقطع أى « لكن إن شاء الله أخذه بطريق آخر » أو يكون متصلا على بابه أى « إلا أن يشاء الله ذلك فيهيء له سببا (يؤخذ به فى دين الملك) من الأسباب التى كان الرجل يعتقل بها » وفى هذه الحالة يخرج هذا الأمر عن الحيل الفقهية فلا يصح أن يحتج به لإجازتها .

وهكذا نجحت خطة حجز بنيامين نجاحا باهرا وتجلت الآية التى أيد الله سبحانه بها نبيه عليه السلام فى كون الإخوة أنفسهم هم الذين قاموا بالدور الرئيسى فى نجاحها ولم يعلموا أن إلهامهم اختيار معاملة السارق طبقا لشريعتهم من الكيد الإلهى الخارج عن قدرة المخلوق .

دفع إشكالات عن مسألة حجز بنيامين :

استشكل بعض المفسرين حجز بنيامين فى مصر لما فى ذلك من إدخال الحزن على أبيه عليه السلام وهذا من أكبر المعاصى فكيف يجوز ذلك من يوسف عليه السلام ، وما هو الوجه الشرعى فى تعليل ذلك ؟

وأجابوا : بأن هذا الفعل كان بوحى فلا يكون معصية :

قلت :

إن كل تصرفاته عليه السلام كانت بوحى فإنه نبى مرسل فلا وجه لهذا

(١) القاضى عبد الجبار . متشابه القرآن : القسم الأول ص ٣٩٦ .

الاعتراض مطلقا . والوضع الصحيح للسؤال هو : ماهى وجوه الحكمة فى استبقائه عليه السلام لأخيه فى مصر ؟

والجواب : إن الحكمة فى ذلك تتبين من عدة وجوه منها :

* إن الوضع كان يقتضى الاحتفاظ ببنيامين لأن بنيامين نفسه كان مصراً على عدم العودة مع إخوته إذ لم يكن فى طاقته احتمال معاملتهم له . وخاصة بعد اجتماعه بأخيه الذى أصبح فى مكانة تمكنه من حمايته منهم .

* كان احتجاز بنيامين هو الركن الأساسى فى خطة إحضار آل يعقوب جميعا إلى مصر إذ لو تركه عند أبيه لجاز أن يرفض الإخوة الحضور إلى مصر مما يترتب عليه تخلف يعقوب عليه السلام معهم مراعاة لشعورهم ، فتضيع الحكمة من التئام شملهم مع نزع مافى صدورهم من غل .

* إن مقتضى رؤياه عليه السلام فى بداية السورة أن الشمل سيجتمع عنده عليه السلام وهو فى مكانة تقتضى سجودهم له بالإجماع ، وهذا يكون فى مصر لا فى كنعان .

* إن مصلحة والديه وإخوته تقتضى احتفاظه به تمهيدا لما سيترتب على ذلك من أمور تنتهى بتوبة الإخوة ومجيئهم ومجىء آل يعقوب إلى مصر .

* كان بنيامين يعلم تمام العلم أن مكثه مع أخيه موافق لرغبة والده عليه السلام لأن القصد إنمـــا هو اجتماع آل يعقوب مع يوسف عليه السلام فى أى بلد كان لا العكس ، فهو بتخلفه عند أخيه إنما يحقق رغبة أبيه . فلا إشكال إذن ، بل هو دليل على قرب التئام الشمل .

* وهنا حكمة تستفاد من استبقاء بنيامين فى مصر خفيت لدقتها : فقد كان محور القصة كلها هو : اتهام الإخوة لأبيهم بتفضيل يوسف وأخيه عليهم، وظنوا أنهم لو تخلصوا منهما لخلا لهم وجه أبيهم وكانوا صالحين .

فيسر لهم احتجاز بنيامين تحقيق أمنية طالما تمنوها ليروا بأعينهم وليلمسوا بأنفسهم إن كان أبوهم سيقبل عليهم وينسى يوسف وأخاه ، وهل سيخلو لهم وجه أبيهم حقا كما زعموا ؟ وهل سيتحقق لهم اى صلاح بذلك ؟

وهل حياتهم بعد افتقاد الشقيقين ستكون حقاً أسعد وأفضل من حياتهم حين كان الشقيقان بينهم ؟

أم أن أحزان أبيهم المتصلة ستحول الحياة إلى جحيم لا يطاق وهذا هو ماحدث فعلا .

ألا يدعوهم الفارق العظيم الذى يلمسونه إلى الاعتراف بالخطأ الفاحش فى تشبثهم الآثم بالخلاص من الأخوين ؟

إن الإخوة لن يتبينوا حقيقة الأمر مالم يمروا بالتجربة على الطبيعة ، ولن يمروا بهذه التجربة مالم ينتزع منهم بنيامين ليتدبروا شيئا فشيئا عاقبة أخطائهم وليلمسوا مدى تجنيهم على أبيهم وأخويهم ، وليثوبوا إلى رشدهم ، وهذا هو الشرط الأساسى لالتئام شملهم ، وإلا لبقيت الحالة على ماهى عليه ، بل ولا زداد الأمر سوءً .

فكان احتجاز بنيامين هو أول حجر فى تأويل الرؤيا وأول بشائر اقتراب اجتماع الشمل ، بل كان علامة فهم منها يعقوب عليه السلام وجود يوسف فى مصر ، فليس العجب فى احتجازه فى مصر بل العجب لو رجع معهم .

الاخوة يؤيدون الاتهام :

فى هذه اللحظة الحاسمة ، صدر من الإخوة مادل على حقيقة شعورهم تجاه يوسف وأخيه : فقد كان الواجب يحتم عليهم الطعن فى توجيه أى اتهام لأخيهم ، وأن يتمسكوا بعدم توقيع الجزاء حتى يثبت فعلا بالأدلة القاطعة أن أخاهم قد سرق حقاً : فإن مجرد وجود الشىء فى رحله لا يثبت عليه شيئا ، ولو طعنوا فى الاتهام لما أمكن التوصل إلى أدلة يقينية تثبت التهمة ، بل لأدى الأمر إلى انكشاف شخصية العزيز .

إلا أنهم لم يفعلوا من ذلك شيئا ، بل صدر منهم مادل على شماتتهم بأخويهم ، إذ ساهموا بتصرفهم على أن ينال العزيز مراده منهم .

وكأنها كانت فرصة اهتبلوها لينفسوا عن أنفسهم بعض ماتحمله :

﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم . قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون — ٧٧ ﴾ .

وتأمل تحقيرهم لأخيهم وتنكيرهم له فى قولهم (فقد سرق أخ له) .

و [١] أخذ بعض المفسرين والرواة يتلمسون لإخوة يوسف واقعة يستندون عليها فى اتهام يوسف فأوردوا عدة روايات منها: أنه سرق صنما لجده أبى أمه وكسره بأمر أمه ليترك جده عبادته ، ومنها أنه سرق صنما من كنيسة[٢] وكسره ، ومنها أنه سرق حاجة وأعطاها لفقير ، أو أنه كان يسرق الطعام من مائدة أبيه[٣] ويعطيه للفقراء .

ورواية أخرى بأن عمته بنت[٤] اسحق ربطت منطقة اسحق على وسطه واتهمته بسرقتها لتبقيه معها نظير سرقته لها .

---

(١) عبد الحميد كحيل : يوسف عليه السلام هامش رقم (١) ص ١٣١ .

(٢) يعنى معبدا .

(٣) هذه الروايات تتناول سيرة صفوة الخلق الذين اصطفاهم الله تعالى كما لو كانت تتناول سيرة قطاع الطرق .

(٤) هذه القصة رواها ابن جرير فى تفسيره : وخلاصتها أن راحيل لما ولدت يوسف دفعه يعقوب عليه السلام إلى أخته لتحضنه (فكان من شأنه وشأن عمته التى كانت تحضنه ماحدثنا عن مجاهد . . . (كان أول مادخل على يوسف من البلاء فيما بلغنى أن عمته ابنة إسحق وكانت أكبر ولد إسحق — وكانت اليها صارت منطقة إسحق وكانوا يتوارثونها بالكبر ، فكان معها واليها فلم يحب أحد شيئا من الأشياء حبها إياه . ثم طلبه يعقوب ، فعمدت إلى يوسف فحزمته بالمنطقة ثم قالت إنها فقدتها ، لينظروا من أخذها فالتمسوها وكشفوا أهل البيت فوجدوها مع يوسف ، فقالت لوالده إنه لى لسلم (أسير) أصنع فيه ما شئت — فقال لها يعقوب : أنت وذاك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ، فأمسكته حتى ماتت .

(قال مجاهد فهو الذى يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه ﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ تفسير الطبرى ج ١٣ : ٢١/ط بولاق، وتاريخ

(وكل هذه الروايات إسرائيليات باطلة لاأساس لها من الصحة واختلافها على كثرتها وتضاربها دليل على بطلانها . وليس إخوة يوسف وهم الذين امتلأت صدورهم بالحقد عليه والذين كذبوا على أبيهم فى قولهم ﴿ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب ﴾ ، وكذبوا عليه بعد إلقائهم ليوسف فى الجب وقالوا أكله الذئب .

(أقول ليس هؤلاء بمن يحسن الظن بهم فى ادعائهم على يوسف بأنه سرق، وليس بغريب عليهم أن يحملهم الحقد : والحقد وحده على ألا يدعوا عليه ادعاءا باطلا لينتصلوا أمام العزيز من السرقة وليظهروا بمظهر الشرفاء وليلصقوا التهمة بمن وجد بوعائه الصواع) .

واتهامهم هذا لأخيهم فيه من ناحية أخرى تقريظ لأنفسهم : إذ يبين علو مرتبتهم على الآخرين وأنهما لو اقتديا بهما وهم الشرفاء ماسرقا،ولكن عرق السرقة فى أخيه قد جذبه إليه لاشتراكهما فى الأم معا — فلم يكتفوا بذم بنيامين بل جعلوا ذم يوسف عليه السلام هو الأساس !!

إن موقفهم هذا يدل من ناحية أخرى على تفريطهم فى الميثاق الذى أبرموه وأخذه عليهم أبوهم ، ودل حوار الإخوة مع العزيز على أن معظمهم مازال يضمر الحقد والضغينة للشقيقين ويثبت ذلك بما يلى :

١ — إن التحقيق حتى الآن لم يكن قد أخذ مجراه حتى يتبين منه ثبوت ارتكاب جريمة السرقة ، وكل ماهنالك أن المسألة لم تتعد مجرد الاتهام الموجه بقرينة لابدليل قطعى يؤكد ارتكاب السرقة .

فوجود السقاية فى الرحل أمر يجوز الطعن فيه من وجوه منها :

(ا) أن أحد الأشخاص قد وضع السقاية فى الرجل لسبب من الأسباب ،

= الطبرى جـ١ ص٣٣٠ — ط دار المعارف — ووجه بطلان هذه القصة أنها لايصح لها أن تمسكه بهذه الحجة حتى وفاتها . كما أن النبى المرسل لا يقر أحدا على كذبه وخداعه.

وقد يكون هذا الشخص من رجال العزيز أو أحد إخوة بنيامين أو أحد رجال القافلة كل ذلك جائز .

(ب) قد يكون العامل المختص قد نسيها فى متاعه .

(ج) قد يكون الذى حدث بتدبير من العزيز نفسه ليأسر أخاه عنده لسبب يجهلونه .

وفى كل حالة من هذه الحالات لاتثبت السرقة .

٢ — قد يكون عليه السلام قد وضع السقاية فى رحل أخيه متعمداً أن يراه بعض إخوته الذين يشك فى نواياهم تجاه أخيه ، وهو يفعل ذلك بقصد اختبار موقفهم عندما يطلب الصواع فيما بعد ، فإذا كانت نواياهم خالصة صرحوا بما عاينوه وحينئذ يكشف لهم عليه السلام عن نفسه .

أما إذا وافقوا على الاتهام بدون دليل يثبت التهمة ، ولا محاكمة تحققها ولم يتقدم من رأى منهم الواقعة بشهادة تنفى السرقة فإن ذلك يكون دليلا على سوء نياتهم تجاه أخيهم . وحينئذ يكون استعدادهم للتوبة وقبول الاعتراف بالخطأ لم يتضح بعد ، ويكونون فى حاجة إلى مزيد من تربية يوسف عليه السلام لهم .

٣ — إنهم لم يكتفوا بالتسليم بصحة التهمة بل استشهدوا بقرينة تدعمها وتفيد العلم بأن أخاهم الأصغر اعتاد السرقة تشبها بأخ له من قبل كان سارقا وهذا الاستشهاد كان مكرا منهم بأخويهم إذ لم يحاولوا إثبات الجريمة فقط . بل انتهزوها فرصة للاستدلال على وجود وصف كريه مشترك بين الأخوين ، وقد سرى من الأول إلى الثانى عن طريق الامتصاص الخلقى ، فلا عجب إن سرق الثانى تشبها بالأول واقتداءً به ؛ فان السرقة متأصلة فيه .

وهم فى هذا قد جاؤوا بزور وبهتان وإثم مبين باسنادهم إلى يوسف عليه السلام خصلة لايجوز إسنادها إلى أحد من الأنبياء لتنافيها مع العصمة المفطورين

عليها ، فهى تهمة يجب ألا توجه إلى نبى مرسل مطلقا وهى ليست بالشىء الهين الذى يطرح بسهولة .

٤ — جاؤوا بما يتنافى مع علمهم بأن أخاهم بنيامين رجل شريف المنبت والمحتد وهو فوق شبهة السرقة .

٥ — وقفوا عكس ما كان يقتضيه ميثاقهم الذى واثقهم عليه أبوهم من عدم التفريط فى أخيهم أو يهلكوا جميعا . ولم يظهر من موقفهم حفظ هذا العهد المكين . ولو أطاعوا أباهم وظهر عليهم ما أراده منهم ، لانجلى الموقف عن معرفتهم بحقيقة العزيز ، وهذا ما كان يريده يعقوب عليه السلام ولم يتنبهوا إليه .

وكأنهم نسوا ما واثقوا عليه أباهم فبادروا إلى إلصاق التهمة بأخيهم ليتخلصوا منه كما تخلصوا من يوسف من قبل .

٦ — هذه المبادرة السريعة من جانب الإخوة فيها دليل على أنهم اسوء ظنهم فى أخيهم ظنوا أنه ربما بادر باتهامهم بدس السقاية له . فعاجلوه قبل أن يعاجلهم بما زعموا .

٧ — دل تسرعهم فى الموافقة على اتهام أخيهم على أنهم يخشون من التحقيق معه ، إذ قد يجر هذا التحقيق إلى فتح الكلام فى قضيتهم القديمة مع يوسف . فتتسع المسألة لما يعلمونه من عدالة العزيز . وليقطعوا الطريق على أخيهم كيلا يحاول شيئا من هذا ، صرحوا لأول مرة فى حوارهم مع العزيز بما يفهم منه ذم يوسف عليه السلام .

فالتعريض بيوسف لم يصدر هكذا مصادفة بل قد جاء لرد ما يجوز أن يذكره بنيامين ضدهم فيما لو اتسع التحقيق .

فأسرها يوسف فى نفسه :

ذكر المفسرون عدة أوجه فى تفسير قوله تعالى ﴿فأسرها﴾[١] منها :

١ — أن الضمير يعود إلى الكلمة أو الجملة كأنه قيل فأسر يوسف الجملة فى نفسه ولم يبدها لهم ، قال الإمام البقاعى[٢] :

(فأسرها) أى إجابتهم عن هذه القولة القبيحة :

(يوسف فى نفسه) على تمكنه مما يريد بهم من الانتقام .

ولما كان ربما ظن ظان أنه بكتهم بها بعد ذلك ، نفى هذا الظن بقوله تعالى: (ولم يبدها) أى أصلا (لهم) .

فكأنه قيل : فما قولته التى أسرها فى نفسه ؟ فقيل : (أنتم شر مكانا) .

قال الزمخشرى[٣] : [والمعنى : قال فى نفسه أنتم شر مكانا لأن قوله تعالى (قال أنتم شر مكانا) بدل من (فأسرها] .

قال العكبرى[٤] : (وقيل فى الكلام تقديم وتأخير وتقديره قال فى نفسه (أنتم شر مكانا) وأسرها أى هذه الكلمة . و«مكانا» تمييز أى شر منه أو منهما)

وعند أبى على الفارسى أن هذا النوع من الإضمار على شريطة التفسير غير مستعمل ، وعلى هذا يكون فى الكلام رجوع الضمير على متأخر لفظا ورتبة ، وفيه أيضا إطلاق الكلمة على الكلام والأول سائغ فى مقام التفسير كما هنا والثانى سائغ فى اللغة .

---

(١) فى قراءة ابن مسعود (فأسره) أى القول أو الكلام .

قال الفراء : (فأسرها يوسف فى نفسه) أسر الكلمة ولو قال (فاسره) ذهب إلى تذكير الكلام كان صوابا لقوله « تلك من أنباء الغيب » و (ذلك من أبنا الغيب) — معانى القرآن جـ ٢ ص ٥٢ .

(٢) الإمام البقاعى : نظم الدرر جـ ٣ وجه ق١١٧ وط : الهند جـ:١٠ص١٧٩ .

(٣) الزمخشرى : الكشاف جـ ١ ص ٣٩٧ .

(٤) العكبرى : إملاء ما من به الرحمن جـ٢ ص ٣٠ .

ومن الوجوه التى ذكرها القنوجى البخارى[1] فى تأويلها (وقيل أسر فى نفسه قولهم إن يسرق إلخ ... وهذا هو الأولى) .

وقال آخرون إن الضمير عائد على الإجابة أى أسر يوسف إجابتهم فى ذلك الوقت إلى وقت آخر .

وقيل إنه أسر فى نفسه كراهيته لمقالتهم كما أسر إجابتهم عليها ومحاسبتهم لئلا يظهر أمره أمامهم قبل أن يتم حسابهم معه فلم يلحظوا عليه أى تغيير عند سماعها .

(ولم يبدها لهم) أى كان الذى أسره هو كراهيته قولهم (إن يسرق) : فالمعنى أنه لم يبد لهم هذه المقالة التى أسرها فى نفسه ولم يذكرها لهم .

وقال الفراء : أضمرها فى نفسه ولم يظهرها .

قلت :

إنهم قد أثبتوا على الشقيقين السرقة ظلما وزورا ، ولو عمد يوسف عليه السلام إلى تفنيد باطلهم لانكشف لهم أمره وبانت لهم حقيقته ولازدادت الهوة بين الإخوة إتساعا .

فهو عليه السلام يعلم يقينا عن نفسه أنه لم يسرق فى حياته كما يعلم أن بنيامين لم يسرق الصواع ، إلا أنه رأى المصلحة تقتضى أن يسر فى نفسه إجابتهم ، والشهادة ببراءته وبراءة أخيه ولم يبدها لهم ، ولما أنه لو سكت لكانت موافقة منه على اتهامهم له ولأخيه .

﴿ قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون ﴾ من الآية ٧٧ .

أى أنتم شر موضعا ونزلا ممن نسبتموهما إلى السرقة ورميتموهما بها وهما بريئان منها فانكم قدفعلتم مع يوسف وأخيه . ومن الكذب على أبيكم مالا يصح أن يفعله أحد ، فى حين أنه لاوجود للوصف الذى ادعيتموه على وعلى أخى.

---

(١) صديق حسن خان القنوجى : مقاصد البيان جـ٥ ص ٦٢ .

وجملة (قال أنتم شر مكانا) إلى آخر الآية تفسيرية على قول من ذهب إلى إسرارها فى نفسه واستئنافية على قول من ذهب إلى أنها جهرية .

وذهب أغلب المفسرين إلى أن قوله تعالى (فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم) يعنى أنه أسر مقالته (أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون) فكان هذا القول سرا ولم يسمعه أحد .

قال الإمام البقاعى :

فكأنه قيل فما قولته التى أسرها فى نفسه فقيل (أنتم شر مكانا) أى من يوسف وأخيه لأن ما نسب إليهما من الشر إنما هو فى ظاهر آ . . لأمر خير أمضاه الله تعالى وأما أنتم ففعلكم بيوسف شر مقصود منكم ظاهرا وباطنا ، ونسبة الشر إلى إلى مكانهم أعظم من نسبته إليهم ، وإنما قدم الإخبار بالإسرار مع اقترانه بالإضمار قبل الذكر لئلا يظن بادىء ذى بدء أنهم سمعوا ما وصفهم به من الشر)[1] .

قلت :

تصدير الجملة بفعل القول يدل على خلاف هذا . إذ لا داعى للعدول عن الظاهر دون مبرر يحول دون ذلك . فكان هذا القول موجها منه عليه السلام إلى إخوته جهارا ، ويكون من الكلام المرموز فهو بالنسبة إليه عليه السلام يعنى كل ما صدر من إخوته بالنسبة إليه وبالنسبة إلى أخيه وبالنسبة إلى والديه ، أما بالنسبة للاخوة فانه يعنى عندهم أنهم فعلا شر مكانا من أخيهم بفيامين لو قيس الأمر بموقفهم من أبيهم الذى أخذ عليهم العهد الموثق بعدم التفريط فيه إلا أن يحاط بهم وها هم قد تورطوا فى مأزق لا يعرفون كيف الخلاص منه وهاهم لا يدرون بم يواجهون أباهم . فقوله (أنتم شر مكانا) قد ذكرهم بعهدهم وموثقهم وسوء موقفهم أمام أبيهم ، بدليل التماسهم منه أن يطلق سراح أخيهم فى مقابل استبداله بواحد منهم .

(١) الإمام البقاعى : نظم الدرر مرجع سابق .

استعطاف العزيز لاطلاق سراح بنيامين :

﴿ قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين - ٨٧ ﴾ .

(فخذ أحدنا مكانه) قال ابن قتيبة (الأخذ يكون بمعنى الحبس والأسر) ليقضى مدة الحكم بالاسترقاق بدلا من أخيهم . وفيما عزموا عليه مايشعر بعطفهم على أبيهم ويعرب عن تقديرهم لسوء موقفهم منه .

قال بعضهم فى فقه هذه الآية إن الكبر له حق يتوسل به وقد ورد فى الاستسقاء إخراج الشيوخ .

﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ الراسخين فى الإحسان إلينا وإلى كل قاصد ؛ عللوا طمعهم فى استجابة طلبهم بما جبل عليه العزيز واشتهر به من الإحسان فى كل شىء حتى فاض عنه ذلك بين الخاص والعام ، ثم جاؤوا بحالة تتطلب هذا الإحسان وتستدعيه بصفة خاصة قبل غيرها : وهى الأبوة المقترنة بكبر السن الموجب للرحمة والرعاية .

رفضه عليه السلام طلبهم :

﴿ قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذن لظالمين - ٨٩ ﴾

إستعاذ عليه السلام بالله تعالى مما طلبوه ، ليعلموا أن طلبهم هذا فى أقصى مراتب الرفض ، وقوله (معاذ الله) هو نفس ما قاله لامرأة العزيز حينما راودته والاستعاذة الأولى كانت مما تدعوه إليه امرأة العزيز ، وفى المرة الثانية من الظلم ، والاستعاذة فى المرتين من فعل يتنافى مع عصمة الأنبياء .

(أن نأخذ إلا ما وجدنا متاعنا عنده) .

---

(١) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن : الأول ص٣٨٤ .

لما كانت الشريعة لا تسمح بأخذ واحد بجريرة آخر ، فقد رفض طلبهم (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى - ٣٦ - وإبراهيم الذى وفى - ٣٧ - ألا تزر وازرة وزر أخرى - ٣٨ - وأن ليس للانسان إلا ما سعى - ٣٩ - وأن سعيه سوف يرى - ٤٠ - ثم يجزاه الجزاء الأوفى - ٤١) ٥٣ سورة النجم .

والحمالة فى مثل هذه الحالة على أن يلزم الحميل ما كان يلزم المضمون من عقوبة لا تجوز إجماعاً وقالوا إن الحمالة فى جميع الحدود جائزة إلا فى النفس ؛ وجمهور الفقهاء على جواز الكفالة فى النفس . (إنا إذن لظالمون) ومن الظلم التلفيق فى الحكم فى الواقعة فيعاقب الشخص بشريعة ويعامل ليفلت من الحكم بشريعة أخرى . ومن الظلم تسليمهم بنيامين بعد الذى حدث . والعدالة تقتضى تحريم هذا التلاعب . فأكد لهم عدم استجابة طلبهم إذ احترز عن أى رجاء بقوله (إنا إذن لظالمون) .

ويلاحظ أن كلام يوسف عليه السلام ليست فيه شبهة اتهام بسرقة ، وهذا ما يؤخذ من قوله (إلا من وجدنا متاعنا عنده) ولو كان يقصد الاتهام بالسرقة لقال « إلا من سرق متاعنا » . فكان كلامه عليه السلام معبراً تعبيراً صادقاً عما وقع فعلا ولكن الإخوة كانوا يفهمون من كلام العزيز شيئاً بينما كان عليه السلام لإحاطته بالموقف يريد المعنى الحقيقى - وكلامه عليه السلام إن خفى على الإخوة كان لا يخفى على والده حين يروى له .

توجيه المعنى على أساس أن بعضهم قد رأى جعل السقاية فى رحل أخيهم :

قلنا إنه لا يستبعد أنه عليه السلام قد تعمد أن يراه بعض إخوته وهو يجعل السقاية فى رحل أخيه ، اختباراً منه لإخوته ، ليعلم حقيقة إحساساتهم نحو أخيهم ، فاذا ما أعلن عن فقد السقاية إما أن يتقدم من رأى الواقعة منهم لنفى التهمة عن أخيهم فيكون ذلك دليلا على صفاء نفوسهم تجاهه وذهاب ما عندهم من الحقد نحوه ، وإما أن يكتموا الشهادة فيكون ذلك دليلا على

أنهم ما زالوا ينطوون على هذه الكراهية التى تبعثهم على التخلص من أخيهم باسترقاق العزيز له ، وفى هذا ما فيه من نكث العهد الذى أبرموه مع أبيهم .

وقد برهنت الوقائع على صحة الأمر الثانى ، إذ لم يتقدموا إلا بما يورط أخاهم فى السرقة ويثبتها عليه كأنها فرصة اغتنموها للتخلص منه بصورة طبيعية لا يمكن أن يوجه إليهم اللوم فى تدبيرها كما فعلوا بيوسف من قبل .

وحينئذ يكون طلبهم تطبيق الشريعة الإبراهيمية دون شريعة البلاد كان مكرا[1] من بعضهم بأخيهم وهم يعلمون أن السقاية فى رحله فعلا .

ولما طبق العزيز العقوبة على أخيهم ، أرادوا أن يظهروا بمظهر من فعل ما فى وسعه فالتمسوا منه أن يمن عليهم باطلاق سراحه رحمة بأبيه وهو شيخ كبير .

فان أفرج العزيز عنه ناله منهم ما ناله ، وعاش ذليلا كسيرا لا يرفع رأسا لاتهامه بالسرقة - وإن احتفظ العزيز به فبها ونعمت فانهم لم يدخروا وسعا لإطلاقه - هذا مع العلم بأن اخاهم الأكبر لم يكن موافقا على هذه المؤامرة كما كان موقفه اول مرة .

ويكون من المعانى التى يشير إليها قوله ﴿ انتم شر مكانا ﴾ أن بعضكم رآنى اجعل السقاية فى رحل أخيكم وكتم الشهادة ولم يتقدم لإنقاذه كما يحتم عليه العهد الذى اخذه عليكم أبوكم .

تناجيهم فى تدبير الأمر الذى يلقون به أباهم :

﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله وهو خير الحاكمين - ٨٠ ﴾ .

(١) فكان هذا من الكيد الآلهى الخفى : ذلك أن ماظنوه مكرا منهم لم يكن إلا مساهمة فى نجاح خطة يوسف عليه السلام ولكن لايشعرون . ولو كان عندهم أدنى علم لطلبوا تطبيق شريعة الملك فى هذه الواقعة بالذات ولكنه تعالى غالب على أمره .

﴿فلما استيأسوا منه﴾ يئسوا من إجابة يوسف عليه السلام لهم اشد اليأس.

(خلصوا) : اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لايخالطهم سواهم.

(نجيا) متناجين فى تدبير أمرهم على أى صفة يذهبون؟ وماذا يقولون لأبيهم فى شأن أخيهم؟ فكانوا كقوم تعايوا بما دهمهم من الخطب فاحتاجوا إلى تقليب الرأى والتشاور فيما دهمهم.

قال الإمام الثعالبي :

[من أراد أن يعرف جوامع الكلم ويتنبه على فضل الإعجاز والاختصار، ويحيط ببلاغة الإيماء ويفطن لكفاية الإيجاز فليتدبر القرآن وليتأمل علوه على سائر الكلام][1].

إلى أن قال [ومن ذلك قوله عز ذكره فى إخوة يوسف ﴿فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا﴾ وهذه صفة اعتزالهم بجميع الناس وتقليبهم الآراء ظهرا لبطن وأخذهم فى تزوير مايلقون به أباهم عند عودهم إليه ومايوردون عليه من ذكر الحادث فتضمنت تلك الكلمات القصيره معانى القصة الطويلة][2].

وسمع أعرابى رجلا يقرأ ﴿فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا﴾[3] فقال

(١،٢) الإمام أبو منصور الثعالبي : الإيجاز ص ١٠ ، ١٣ على التوالى.

(٣) (نجيا) حال من فاعل خلصوا أى اعتزلوا فى هذه الحالة متناجين ، وإنما أفردت الحال وصاحبها جمع : (إما) لأن النجى « فعيل » بمعنى « مفاعل » كالعشير والخليط بمعنى المعاشر والمخالط وكقوله « وقربناه نجيا » [١٩/سورة مريم : ٥٢] أى مناجيا وهذا فى الاستعمال يفرد مطلقا. يقال هم خليطك وعشيرك أى مخالطوك ومعاشروك.

قال ابن الأنبارى و« نجيا » لفظه لفظ المفرد والمراد به الجمع كعدو وصديق فإنهما يوصف بهما الجمع على لفظ المفرد (البيان فى غريب إعراب القرآن جا ص ٤٣).

(وإما) لأنه صفة على فعيل بمنزلة صديق ومابه توحد لأنه بزنة المصادر كالصهيل والزميل، (وإما) لأنه مصدر بمعنى التناجى أطلق على المتناجين مبالغة أو لتأويله بالمشتق —

أشهد أن مخلوقا لايقدر على مثل هذا الكلام [لإيجاز بلاغته وخروجها عن طوق البشر ، فإنك إذا وزنت قولك - لما لم يطعمهم يوسف عليه الصلاة والسلام ولم يجبهم ، ذهبوا وتشاوروا فيما يقولون بعد هذا وكيف يرجعون لأبيهم - بهذا النظم : عرفت بالذوق أنه لامناسبة بينهما](١) .

﴿ قال كبيرهم ﴾ : إن كان فى السن فهو راؤوبين أو (روبيل) قاله قتادة - وقال مجاهد هو شمعون كان أكبرهم فى الرأى ، وقال الكلبي (يهوذا) وكان أعقلهم وقال محمد بن كعب هو لاوى(٢) أبو الأنبياء .

= والمصدر ولو بحسب الاصل يشمل القليل والكثير . وتنزيل المصدر منزلة الاوصاف أبلغ فى المعنى .

ولذا قال الزمخشرى وأحسن منه أى من تأويل (نجيا) بذوى نجوى أو فوجا نجيا أى مناجيا : أنهم تمخضوا تناجيا لاستجماعهم لذلك وإفاضتهم فيه بجد واهتمام كأنهم فى أنفسهم صورة التناجى وحقيقته .

(١) العلامة الخفاجى : نسيم الرياض ج ٢ ص ٤٨٩

(٢) بيان عن أبناء يعقوب عليه السلام :

عاش اسحاق بن ابراهيم عليهما الصلاة والسلام فترة طويلة فى سيناء ثم انتقل إلى كنعان وبعد وفاته ساءت العلاقات بين يعقوب عليه السلام وملك الفلسطينيين فهاجر عليه السلام إلى بابل ليقيم عند خاله لابان حيث تزوج من ابنتى خاله ليه أوليئه ، وراحيل أوراشيل وهى صغراهما) وكان الزواج يتم نظير عمله عند خاله مدة سبع حجج لكل منهما : وحيث أن التى دخلت مع يعقوب عليه السلام مصر إحداهما . فإنها إن كانت لية تكون راحيل قد توفيت ويكون هناك جمع بين الاختين ويكون ذلك جائزاً فى الشريعة فى ذلك الوقت .

وإن كانت راحيل أم يوسف عليه السلام هى التى دخلت مصر فيكون يعقوب عليه السلام قد تزوجها بعد وفاة اختها : فلم يكن هناك جمع بين الاختين .

والزواج نظير أداء عمل معين يشترطه من بيده أمر الزوجة : أطلق عليه علماء الاجتماع (زواج المؤاجرة) وأورد فريزر عددا كبيرا من الأمثلة الدالة على وجود مثل هذا النوع من الزواج فى كثير من الجهات وعلق على ذلك بقوله (إن الأمثلة المتقدمة تكفى =

. . . .

= للدلالة على أن هذه الطريقة فى الزواج التى تشبه زواج يعقوب لاتزال تجرى فى شتى بقاع الارض ، وأن يعقوب بزواجه من بنتى خاله وزواج الكبرى قبل الصغرى وخدمة صهره عددا من من السنين نظير كل منهما إنما كان يسير على عادات مألوفة وعرف متبع عند كثير من الشعوب)

Frazer : Folklore in the Old Testamemt, vol II, P. 371 .

ونعجب كيف يتردد بعض الكتاب فى اعتبار هذه الخدمة عند والد الزوجة نظير المهر ويستندون فى ذلك إلى سفر التكوين الاصحاح ٢٩ — ١٥ : ٢١ ، ٣٠ وهو استناد لا أساس له إذ جاء فيه بعد أن أتم يعقوب المدة المقررة (أعطنى امرأتى لأن أيامى قد كملت (ولو كان اشتراها لقال (أعطنى جاريتى) .

ويرى : Neu feld — أن زواج يعقوب وموسى عليهما السلام من نوع زواج الاغتراب Errebu Marriage — لا من زواج الؤاجرة — وفى هذا النوع من الزواج يضم الرجل الذى له بنات وليس له بنون إلى الأسرة : الفتى الذى يرغب فى تزويجه من بناته . فيعامله معاملة ابنه الحقيقى ويزوجه ابنته ويصبح الزوج أحد أفراد أسرة الزوجة وهذا مظهر من مظاهر الانتساب إلى عشيره الأم ، فضم لابان يعقوب إليه وزوجه ابنتيه وذلك قبل أن يرزق لابان ذرية ذكورا . ولم يدفع يعقوب عليه السلام المهر نقدا بل « عملا » .

وكثيرا ما يشترط والد الزوجة فى هذه الحالات ألا يقترن الزوج بغير بناته ، كما فعل لابان مع ابن اخته يعقوب (سفر التكوين الاصحاح ٣١ : ٥)

وعاش يعقوب فى عشيرة صهره لابان ثم فارقه عائدا إلى كنعان فلحقه خاله يطالب عودته قائلا (البنات بناتى والبنون بنى) سفر التكوين الاصحاح ٣١ : ٤١

Neu feld : Ancient Hebrew marriage Laws. 1944 .

وقد حمل ذلك روبرتس سميث على إطلاق إسم (زواج البينة) أو الصديقة على هذا النوع من الزواج وقال إنه كان موجودا عند العرب والآشوريين كان الأولاد حينئذ ينتسبون عن طريق الأم لا عن طريق الأب ، وهذا قياس لا وجود له هنا قطعا . =

Smith, W, R, The Religion of the Semites, 1927 ,

ذكرهم أن أباهم قد أخذ عليهم ﴿ موثقا من الله ﴾ بعدم التفريط فى أخيهم، ولكنهم لم يراعوا العهد وفرطوا فيه (ومن قبل) أى وقبل هذا (مافرطتم[1]

ثم عاد يعقوب عليه السلام إلى كنعان حيث اشترى أرضا فى أورشليم وابتنى معبدا (بيت إيل) وهو بيت المقدس الذى جدده سليمان فيما بعد .

ونبين فيما يلى أمهات أبناء يعقوب عليه السلام : لية أو ليئه بنت خاله لابان : رزق منها رويل (أو رؤ وبين) وشمعون ولاوى ويهوذا باتفاق جميع المصادر وهناك خلاف على زبولون ويساكر فيقال إنهما منها وهناك روايات تقول إنهمـــا من جاريتى ليئة وراحيل .

بلهه جارية ليئة : (وهبتها سيدتها ليئه إلى يعقوب عليه السلام) : جاد / أشير .

راحيل أو راشيل بنت خاله لابـان : يوسف ثم بنيامين ويقال إنها توفيت بعد وضع بنيامين

زلفـــه جارية راحيل : (وهبتها سيدتها راحيل إلى يعقوب عليـه السلام) : دان / نفتالى .

وكان عمر يعقوب عليه السلام حين ولد يوسف فوق التسعين كما ذكره أبو الفدا فى تاريخه فيكون تقدير سن يعقوب عليه السلام حين ذكر ابناؤه أنه شيخ كبير ما بين ١٢٢ : ١٢٧ عاما .

(١) فى إعراب (ما) فى قوله (مافرطتم) : وجهان ذكرهما أبو البقاء العكبرى :
(أحدهما) أنها زائدة (ومن) متعلقة بالفعل أى وفرطتم من قبل .
[قلت : لايوجد أى حرف زائد فى القرآن الكريم وأى تأويل يعتمد على زيادة حرف فى القرآن فهو باطل قطعا، وقد تتبعنا هذه التأويلات فى التفاسير فلم نجد لها معنى] .
(الثانى) : أنها مصدرية وفى موضعها ثلاثة أوجه :
— أحدها : رفع بالابتداء، ومن قبل خبره أى وتفريطكم فى يوسف من قبل. وهذا ضعيف لأن قبل إذا وقعت خبرا أو صلة لاتقطع عن الإضافة لئلا تبقى ناقصة .
— والثانى : موضعها نصب ، عطفا على معمول .
— والثالث: أنها معطوفة على اسم إن والتقدير: وإن تفريطكم من قبل فى يوسف .
وقيل هو ضعيف على هذين الوجهين لأن فيهما فصلا بين حرف العطف والمعطوف.
(أبو البقاء العكبرى : إملاء مامن به الرحمن ج ٢ ص ٣١/٣٠) .

فى يوسف) قد قصرتم فى شأنه وأسلمتموه للهلاك ولم تحفظوا وعدكم لأبيكم إذ قلتم (وإناله لنا صحون) (وإنا له لحافظون) . ومادام هذا شأنكم ﴿ فلن أبرح الأرض) ولن أفارق مصر حتى يأذن أبى ويحلنى من الميثاق أو يحكم الله تعالى لى بالخلاص مما أنا فيه وهو خير الحاكمين .

﴿ إرجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق[1] وماشهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين - ٨١ ﴾ .

ماشهدنا عليه بالسرقة إلا بما تيقناه من إخراج الصواع من رحله ، وماعلمنا أنه سيسرق حين اعطيناك الموثق ، وإذا أردت أن تتأكد من صدقنا فلدينا مايثبت ذلك : ﴿ واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون - ٨٢ ﴾ يريد بالقرية مصر والمسئول أهلها ، والمراد قرية من قراها نزلوا بها وامتاروا منها ، وكذا رفقتنا فى القافلة فقد كانوا شهودا على ماحدث .

كيف تلقى يعقوب عليه السلام نبأ احتجاز بنيامين :

عاد الإخوة يجرون أذيال الخيبة والفشل ، يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى ، فقد طفح الكيل هذه المرة ويكفيهم عذابا شعورهم بأن وقع الخبر على أبيهم سيكون أليما مهما قدموا له من أعذار ، وأخيرا دخلوا عليه وقصوا عليه القصص حسبما اتفقوا عليه :

﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم - ٨٣ ﴾ لقد زينت لكم أنفسكم أمرا ففعلتموه .

قال المهايمى [﴿ سولت لكم أنفسكم أمرا ﴾ بأن لكم دينا أكمل من دين الملك فأظهرتموه لمن لم يلزمه][2] .

قال الزمخشرى : لقد زينت لكم أنفسكم أمرا أردتموه وإلا فما أدرى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته لولا فتواكم وتعليمكم !

قال الامام ناصر الدين أحمد بن المنير[3] :

---

(١) وفى قراءة (سرق) بضم السين وتشديد الراء المكسورة أى نسب إلى السرق .

(٢) المهايمى : تبصير الرحمن ج ١ ص : ٣٧٢ .

(٣) الإمام ابن المنير : الانتصاف من صاحب الكشاف : ج٢ ص ٢٧٠/٢٧١ ط . التجارية .

هذا من الزمخشرى إسلاف جواب عن سؤال كأن قائلا يقول : هم فى الوقعة الأولى سولت لهم أنفسهم أمرا بلا مراء وأما فى هذه الوقعة الثانية فلم يتعمدوا فى حق بنيامين سوءا ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جليته. وماتركوه بمصر إلا مغلوبين عن استصحابه .

فما وجه قوله ثانيا ﴿ سولت لكم أنفسكم أمرا ﴾ كما قال لهم أولا ؟ وإذا ورد السؤال على هذا التقرير فلابد من مزيد بسط فى الجواب :

فنقول :

[كانوا عند يعقوب عليه السلام حينئذ متهمين وهم قمن باتهامه، لما أسلفوه فى حق يوسف عليه السلام وقامت عنده قرينة تؤكد التهمة وتقويها ، وهى أخذ الملك له فى السرقة ، ولم يكن ذلك إلا من دين يعقوب وحده ، لا من دين غيره من الناس ، ولا من عادتهم ، وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى ﴿ ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك ﴾ من الآية ٧٦ . تنبيها من الله تعالى على وجه اتهام يعقوب لهم . فعلم أن الملك إنما فعل ذلك بفتواهم له به وظن أنهم أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة تعمدا ليتخلف أخوهم . وكان الواقع أنهم استفتوا من قبل أن يدعى عليهم السرقة ، فذكروا ماعندهم ولم يشعروا أن المقصود إلزامهم بما قالوا ، وإتهام من هو بحيث تتطرق التهمة إليه لاحرج فيه وخصوصا فيما يرجع إلى الوالد من الولد .

[ويحتمل — والله أعلم — أن يكون الوجه الذى سوغ له هذا القول فى حقهم أنهم جعلوا بمجرد وجود الصواع فى رحل من يوجد فى رحله سرقة من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقا بوجه معلوم، وهذا فى شرعنا لا يثبت السرقة على من أدعيت عليه] .

قلت : بل الوجه واضح لا يحتاج إلى بيان وقد سبق أن حللنا موقفهم فراجعه[1] فى مكانه إذ لا داعى لتكراره .

(١) راجع ما سبق ص ٤٠١ وما بعدها .

فكأنه عليه السلام يقول لبنيه لقد سولت لكم أنفسكم أمرا :

أولا : لأنكم سلمتم فى أخيكم فى مقابل قرينة لا تقف أمام التحقيق .

ثانيا : أنكم أكدتم التهمة بشهادة باطلة من عندكم ، وكأنكم لم تكتفوا بتسليم بنيامين بل ربطتم ذلك باتهام يوسف .

ثالثا : لم تحفظوا الميثاق ولو حفظتموه ما بدر منكم هذا التفريط المخجل.

رابعا . إن هذا كله يعنى أنكم مازلتم تكنون الكراهية لأخويكم ولم تنسل الضغينة من نفوسكم بعد ، ولا زالت هى الموجهة لكم فى تصرفاتكم ولئن أصررتم على هذا كان فيه تفرقكم وعدم اجتماعكم وهلاككم . وأنا أسعى إلى جمع شملكم ولكنكم تقفون فى وجهى بجهلكم هذا وموقفكم هذا.

﴿ فصبر جميل ﴾ ذكر الله تعالى فى القرآن الكريم : الهجر الجميل، والصفح الجميل وقد قيل إن الهجر الجميل هو الهجر بلا أذى ، والصفح الجميل صفح بلا معاتبة ، والصبر الجميل هو الصبر الذى لا شكوى فيه إلا إلى الله عز وجل .

قال الإمام البيضاوى وفى الحديث (الصبر الجميل الذى لا شكوى فيه إلى الخلق) .

ومرض الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى فكان يئن فى مرضه فذكر له أن طاوسا[1] كان يكره أنين المريض ويقول إنه شكوى . فما أن الإمام أحمد حتى مات . وأصحاب هذه المرتبة هم الذين جاء فيهم ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ ـ من الآية ١٠ من سورة الزمر : ٣٩ ـ والشكوى إلى الله تعالى لا تنافى الصبر فقد أثنى الله تعالى على الذين يلجأون إليه ويستغيثون به جل وعز وذم من لم يتضرع إليه سبحانه ولم يستكن له وقت البلاء .

---

(١) هو طاوس بن كيسان اليمانى ت : ١٠٥ هـ .

وأحذر أن تخلط ما بين الصبر[١] المحمود والصبر المذموم والأخير هو الصبر على الهلاك ويدخل تحته باب الصبر عن الله تعالى مما يترتب عليه تعطيل كال العبد بالكلية بانقطاعه عن الله تعالى . أما الصبر المحمود فهو الصبر على الجهاد فى سبيل الله تعالى ويشمل الصبر على الأوامر والطاعات والصبر عن المنهيات والمخالفات حتى لا يقع فيها والصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها .

(فالصبر على الواجب واجب ، وعن الواجب حرام ،والصبر عن الحرام واجب وعليه حرام . والصبر على المستحب مستحب وعنه مكروه ، والصبر عن المكروه مستحب وعليه مكروه . والصبر عن المباح مباح والله أعلم)

﴿ عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً ﴾ بيوسف وأخيه والمتوقف بمصر . يدل ذلك على أن يعقوب عليه السلام قد علم من احتجاز بنيامين أن هـذه أولى بشارات التآم الشمل ، إذ لم يسبق : أن صرح بفعل الرجاء (عسى الله) إلا بعد هذه الواقعة .

لقد أرسل يعقوب عليه السلام بنيامين مع إخوته لعله يأتيه من أخبار يوسف ماعجزوا هم عن بلوغه أو تأبى نفوسهم معرفته ، فإذا بأخبار يوسف تنقطع عنه باحتجاز بنيامين ووجد عليه السلام أن أبناءه يتجهون فى معالجتهم للأمور اتجاها عكسيا لا يؤدى إلى حلها بل إلى تعقيدها . وها هم قد مكنوا العزيز من استرقاق أخيهم وبهذا لم يعد هناك من يعينه فى البحث عن ابنيه الحبيبين . وكيف يساعدونه ، وقد رسخ فى أذهانهم أن يوسف قد انتهى ولا يصح البحث عنه مطلقا ، بل إن مجرد الشك فى وجوده على قيد الحياة يعتبرونه سفها وضلالا ، ولم يعلموا أن هذا الوثوق من جانبهم قد جاء دليلا لا يمكن دحضه على مافعلوه بأخيهم مما جعلهم متأكدين من إختفائه إلى الأبد كما لو كانوا قد سفكوا دمه فعلا .

---

(١) أفرد العلماء الصبر بمؤلفات من أجلها كتاب الإمام ابن القيم عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين .

هذه الأفكار المسبقة التى وقعوا تحت تأثيرها - من جراء حادث الجب - قد شلت تفكيرهم وشدتهم إليها وقيدت تصرفاتهم بها، كما أن شعورهم تجاه أخيهم كان لايزال منحرفا مما حال بينهم وبين الاستدلال عليه، ولو كان واقفا أمامهم بلحمه ودمه .

ذلك أن شدة التعلق — المادى أو المعنوى بأى شىء — تعمى عن رؤية أى أمر لايقع فى بؤرة هذا التعلق مهما كان ذلك واضحا . وما انصرف أحد عن الحق أو زال عنه إلا لأن تعلقه بالباطل لم يترك فى نفسه قدرة على التعلق بالحق فعميت القلوب وانطمست البصائر واتجهت النفوس إلى ما تعلقت به من الباطل الذى لاترى شيئا سواه .

ولو انمحى مافى نفوسهم من آثار الكراهية لانقشعت الغشاوة التى حجبت البصائر ولهبت عليهم نسائم الأمل من أبيهم مبشرة بقرب اللقاء ، ولتمكنوا طبقا لتوجيهات أبيهم من الاجتماع به عليه السلام ، ولساعفوا أباهم فى تفكيره وساعدوه فى الوصول إلى مقصده .

وها هى القرائن واضحة أمام يعقوب عليه السلام ولكنها لاتجد من يمحصها ويتثبت منها ، فاشتد حزنه وتولى عن باقى أبنائه رحمة بهم وخشية عليهم وحزنا على فراق يوسف . يجرع آلامه ولايملك سوى كظم كل مايدور فى نفسه لأنه لايجد من يعقل عنه .

﴿ وتولى عنهم وقال ياأسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم — ٨٤ ﴾

(وتولى) وأعرض عن بنيه كراهة لما جاءوا به .

(وقال يا أسفى [1] على يوسف) ياحزنى الشديد على يوسف .

---

(١) قال ابن الانبارى (يا أسفى) أسفى فى موضع نصب لأنه منادى مضاف وأصله يا أسفى (بكسر الفاء) إلا أنه أبدل من الكسرة فتحة فانقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها (البيان فى غريب إعراب القرآن ح ٢ ص ٤٣) .

قال الكرماني[1] [فان قيل كيف يمكن الجمع بين قوله (فصبر جميل) وبين قوله (يا أسفى على يوسف) ؟

الجواب : الشكوى إلى الله لاتزيل اسم الصبر عن الصابر كما لم يزل عن أيوب عند قوله (إذ نادى ربه أنى مسنى الضر)] .

[فان قيل كيف تأسف يعقوب عليه السلام على يوسف دون أخيه بقوله (يا أسفى على يوسف) والرزء الأحدث أشد على النفس وأعظم أثراً ؟

[قلنا إنما يكون أشد إذا تساوت المصيبتان فى العظم ، ولم يتساويا هنا بل فقد يوسف كان أعظم عليه وأشد من فقد أخيه ، فانما خصه بالذكر ليدل على أن الرزء فيه مع تقادم عهده مازال غضا طريا][2] .

قلت : إن يعقوب عليه السلام ينبه أبناءه باستمرار إلى الصراط المفضى إلى اجتماع شمل آل يعقوب دائما ولكنهم لا يشعرون لما عندهم فى نفوسهم من يوسف عليه السلام ، ولو تأملوا فى عدم التفات أبيهم فى حزنه إلى ذكر بنيامين لعلموا أن أباهم إنما يحثهم على البحث عن يوسف عليه السلام فى شخص العزيز نفسه وكأنه يقول لهم :

إنكم تعرفون مكان بنيامين أما يوسف فلا تدرون له مقرا ، بل رسخ فى أذهانكم أنه مفقود فى حكم المتوفى فلا يجوز البحث عنه مع أن اجتماع شملكم متوقف على طرح هذه الفكرة جانبا ، والبحث عنه باخلاص والتوبة من التقصير فى حقه .

كذلك كان تخصيص يوسف عليه السلام بالأسف لأنه فضلا عن كونه

= وقال العكبرى (يا أسفى) الألف مبدلة من ياء المتكلم والأصل أسفى ففتحت الفاء وصيرت الياء ألفا ليكون الصوت بها أتم . (إملاء ما من به الرحمن ج٢ص ٣١) .

(١) الإمام الكرمانى غرائب التفسير : وجه : ق ٨٣ .

(٢) الإمام محمد بن أبى بكر الرازى : أنموذج جليل فى بيان أسئلة وأجوبة من غرائب آى التنزيل ج : ١ ص ١٤٨ .

نبيا مرسلا ، فان انتهاء جميع الأرزاء التى ابتلى بها آل يعقوب كان متوقفا على الاجتماع به عليه السلام .

فالمصيبة فى بنيامين فرع من المصيبة فى يوسف عليه السلام وانفصال يعقوب عليه السلام عن ابنه وهو نبي مرسل ليس بالشيء الهين ، وسلوك أبنائه مع هذا الأخ عليه السلام ليس بالشيء الهين خاصة وأن الامد قد طال والعظم قد وهن من الكبر .

﴿ وابيضت عيناه من الحزن ﴾ : قال ابن عباس أى من البكاء . لأن الحزن (١) سبب فى البكاء ، فأطلق اسم السبب وأراد المسبب . وكثرة البكاء تحدث فى أحوال معينة بياضا فى العين يغشى السواد وهو ماجرى ليعقوب عليه السلام .

(قال مقاتل : لم يبصر شيئا ست سنين ، والتزمه بعضهم بناء على جواز مثل هذا على الانبياء بعد التبليغ . وقيل كان يدرك إدراكا ضعيفا (٢))

قلت :

أما القول بأنه عليه السلام لم يبصر شيئا ست سنوات فانه لا يصح لأن هذا قد حدث بعد احتجاز بنيامين بمدة ، وقبل نزولهم الأخير إلى مصر والذى تعرفوا فيه على أخيهم وكل ذلك لم يستغرق عاما ، وننبه إلى أن نزولهم مصر فى المرة الأخيرة كان قبل انتهاء مدة إحتجاز بنيامين بشأن الصواع .

أما ما التزمه البعض من عدم جواز فقد البصر على الأنبياء بعد التبليغ فهو مردود من وجوه منها :

---

(١) عند كثير من اللغويين أن الحزن والبكاء بمعنى واحد ، والحزن بفتحتين ضد الفرح ، والبكاء بالمد رفع الصوت وبالقصر نزول الدمع من غير صوت وهو المناسب هنا — وفى المصباح والقاموس أنه لا فرق بينهما فى أن كلا يستعمل فى كليهما .

(٢) صديق خان القنوجي البخارى : مقاصد البيان جـ ٥ ص ٦٦ .

١ — أن شده حزنه عليه السلام كان آية من الآيات التى أيده الله تعالى بها ، فكانت سببا فى جمع شمل بنيه والتأليف بينهم .

وهذا يبين عظيم شأن تآلف القلوب وأن ذلك بيد الله تعالى لا بيد أحد (وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله . هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين — ٦٢ — وألف بين قلوبهم لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم — ٦٣) ٨ / سورة الأنفال .

فلا يدخل ماحدث لبصره عليه السلام فى باب مايجوز ومالا يجوز ، لأن الآية التى يجريها الله تعالى على نبى لا يصح أن تدخل فى هذا الباب ، ومن فعل ذلك أدخل المعجزة نفسها فيه وهذا باطل .

٢ — إن فقد بصره عليه السلام بسبب آية الحزن على ابنه ترتب عليه حدوث آية أخرى أجراها الله تعالى على يد يوسف عليه السلام : إذ كان سبب رد بصر يعقوب عليه السلام هو إلقاء قميص ابنه على وجهه .

وفى ذلك إشارة إلى أنه عليه السلام من شدة حزنه رفض أخيرا أن يقع بصره على أحد قبل أن يسمع بوجود ابنه عليه السلام وذلك فيه مافيه من الرد على أبنائه الذين كانوا يظنون أنهم سيصبحون أهل الأثرة والاختصاص عند أبيهم بمجرد تخلصهم من أخيهم فجاءت القضية على عكس ماظنوا تكذيبا لهم .

٣ — إن جريان الآيات على الأنبياء لايخالف القواعد المقررة ، وفقد بصره عليه السلام خلال هذه المدة يشبه التقام الحوت ليونس عليه السلام ، فترة محدودة ولا يطعن ذلك فى نبوة يونس عليه السلام .

٤ — أن عمر يعقوب عليه السلام حين نزل مصر كان ١٣٠ سنة ، فكان عمره حين أبيضت عيناه ما بين ١٢٩ : ١٣٠ عاماً ، ولايخفى أن الحواس فى هذه السن لا تطيق ما يطيقه الإنسان فى شبابه .

قال أبو السعود فيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند النوائب فإن الكف عن ذلك مما لا يدخل تحت التكليف، وقل من يملك نفسه عند الشدائد.

﴿ فهو كظيم ﴾ (١) مملوء من الحزن ممسك له لا يبثه لمخلوق ومنه كظم الغيظ وهو إخفاؤه فالمكظوم المسدود عليه طريق تسرب حزنه من كظم السقاء إذا سده على مافيه .

قال الزمخشرى (فإن قلت كيف جاز لنبى أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ؟) (قلت : الإنسان مجبول على ألا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ، ولذلك حسن صبره ، وأنه يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى مالا يحسن — وإنما الجزع المذموم مايقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب .)

قلت خلط الزمخشرى مابين الجزع والحزن وشتان مابينهما والذى عند يعقوب عليه السلام هو الحزن وإذا كان ذلك فى الله ولله فهو مطلوب . أما الجزع فلا يكون إلا لأمر دنيوى وهو مذموم . هذا ومن الجائز أنه عليه السلام كان يعتبر نفسه مسئولا بوجه ما - يجل عن إدراكنا - عما أصاب بنيه من البلاء لأنه لم يستطع إخفاء حبه لابنيه عن إخوتهم مما ترتب عليه كل ماحدث .

---

(١) (كظيم فعيل بمعنى مفعول كقوله (إذ نادى وهو مكظوم) من الآية ٤٨ / سورة القلم : ٦٨ — أى وهو مملوء غما وكربا . فالمكظوم شديد التجرع للغم أو الكرب أو الحزن أو للغيظ لأنه لا يبث ما عنده لأحد قط فيجوز أن يكون المكظوم بمعنى الكاظم وهو المشتمل على حزنه . وعن ابن عباس : كظيم : مغموم مكروب ، كمد : فهو يعلم أن يوسف عليه السلام حى ولا يجد من يصدقه ويمينه على الاجتماع به ، بل لا يجد إلا من يلومه .

كيف كان حزن يعقوب آية لأبنائه :

قد يخالج النفس التساؤل عن أسباب حزنه عليه السلام مع أنه كان يعلم من تأويل رؤيا ابنه عليه السلام مايبشر باجتماع الشمل قطعا ، فكانت هذه الرؤيا رحمة وبشرى لمن حفظها من آل يعقوب مهما مر بهم من الخطوب والأحداث .

ويزول كل استفهام يثيره هذا التساؤل لو علمنا أن هذا الحزن كان آية من الآيات التى هدت أبناءه إلى الحق ، ونذكر من أسرار آية هذا الحزن :

١ — أنه عليه السلام مكلف بالتوفيق بين أبنائه ، فكان هذا الانقسام فيما بينهم مولدا للفرقة والتباعد بينهم وبين يوسف وأخيه .

٢ — أن اعتراض الإخوة على يوسف عليه السلام له وصفان (الأول) بصفته أخوهم ، (والثانى) بصفة الرسول النبى ، والاعتراض فى الحالة الأخيرة أشد من الأولى ، لأنها معارضة منذرة ببوارهم وهلاكهم - فانقيادهم لأخيهم من هذه الحيثية ليس بالنصيحة التى تلقى إليهم فإن شاؤا عملوا بها وإن شاؤا تركوها ، بل هو فرض واجب عليهم .

٣ — أن اجتماع الشمل متوقف على تطهيرهم من الحقد على أخويهم وكلما طالت مرحلة التطهير كلما طالت مدة الفراق ، وقد يتم الاجتماع ولم يبق فى العمر بقية بعده .

٤ — إن سجود الإخوة لو تم قهرا فسجدوا مرغمين لا راضين لكان فى هذا هلاكهم .

٥ — إن عدم تنفيذ الإخوة لتوجيهاته عليه السلام بالدقة التى كان يريدها إنما يرجع إلى أن النفوس مازالت منطوية على أسباب الكراهية والفراق التى يجب اجتثاثها تمهيدا لاجتماع الشمل ، ولما كان الإخوة لايدرون عاقبة ذلك

فقد كان من شأن تصرفاتهم أن تطيل أمد الفراق بينهم مما يزيد فى هم أبيهم عليه السلام ويضاعف أحزانه .

٦ - لو ارتفع الحزن عن أبيهم عليه السلام لظن الإخوة أنهم قد نالوا بغيتهم وخلالهم وجه أبيهم باستبعاد يوسف وأخيه ولرسخ فى نفوسهم الاعتقاد فى صحة ما ذهبوا إليه ، مع أنه هو عين الباطل ورأس الهلاك .

ولكن ازدياد حزن أبيهم بعد فراق بنيامين كان السبب الرئيسى الذى جعلهم يفكرون فى الأمر تفكيرا سليما . فقد تأكد لهم خطأ ظنهم أن أباهم سيقبل بوجهه عليهم الإقبال كله بعد الخلاص من أخويهم . بل حدث العكس إذ ما رأوا إلا تنغيص العيش من جراء هذا الوضع الجديد الذى كانوا سببا فيه .

فكان هذا الحزن هو الدافع الرئيسى الذى دفعهم إلى التوبة من كل سوء أسروه تجاه يوسف وأخيه ، كما كان المحرك الأساسى الذى أيقظ ما كان نائما من إحساساتهم .

فهذا الحزن الذى كانوا يلومون أباهم عليه لم يعلموا أنه هو فى الواقع القوة المحركة التى جعلتهم يسعون إلى تصحيح الأمور ووضعها فى نصابها طبقا لما يرضاه الله ورسوله . وهو الذى حرك أسباب الندم فى أعماقهم مما كشف لهم شيئا فشيئا عن تصرفاتهم الخاطئة التى تسببت فى ذلك كله ، ولو شعروا ببارقة من الرضا من أبيهم بعد غيبة أخويهم لما كان من ذلك شيء أبدا ولهلكوا جميعا.

وبعد فإن حزن الأنبياء والمرسلين لا يقاس بالحزن الذى اعتاده الناس بل كله فى سبيل الله تعالى : وتأمل قوله تعالى مخاطبا إمام الهداة صلوات الله وسلامه عليه (فعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا - ٦) ١٨ : سورة الكهف .

فحزنه عليه السلام كان عظيما : إذ هو حزن على فراق نبي مرسل وحزن على فراق ابنين حبيبين وحزن على تمرد الإخوة على نبي مرسل إلا أن حزنه على يوسف كان أعظم لأن انتهاء الاحزان كان يتوقف على التئام شملهم معه عليه السلام غير ذلك لا يكون .

﴿ قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين — ٨٥ ﴾ تفتأ : لا تفتأ[1] .

يقولون ماتزال حريصا على ذكر يوسف قويا عليه حرص الشاب الجلد الصبور على مراده (حتى) إلى أن (تكون حرضا)[2] شنا باليا مشرفا على الهلاك متهيأ له (أو تكون) كونا لازما هو كالجبلة (من الهالكين) بالفعل . ويؤخذ من الآية الكريمة أنهم لازالوا يحصون على أبيهم حبه ليوسف عليه السلام ، ويعجبون من شدة تعلقه عليه السلام به تعلقا جعله يبدو وكأن حادث الفراق قد تم بالأمس فقط ولذا قالوا (تذكر) ولم يقولوا (تحزن) وما علموا

---

(١) قال ابن القيم في الفوائد (حذف «لا» في قوله تعالى (تالله تفتأ تذكر يوسف) أى لا تبرح) ـ الفوائد ص : ٨٠ .

قال الفراء إن (لا) مضمره وقال الخليل وسيبويه مثل ذلك ـ قال الكسائى فتأت وفتئت أفعل كذا أى: مازلت . وقال ابن قتيبة تحذف لا من الكلام والمعنى إثباتها كقوله سبحانه (تالله تفتؤ تذكر يوسف) . وهى تحذف مع اليمين كثيرا ـ قال الشاعر .

فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو ضربوا رأسى لديك وأوصالى

وقال امرؤ القيس .

لقد آليت أغدر فى خداع فإن الغدر بالاقوام عار

أى لا أغدر ومثله فى الشعر كثير .

وراجع (شرح شواهد المغنى للسيوطى ص ٢٧٨) و (تأويل مشكل القرآن الجزء الأول ص ١٨٤)

(٢) أصل الحرض الفساد: فى الجسم أو العقل : من الحزن أو العشق أو الهرم ، وحرض مصدر ترك جمعه ـ والعرب تقول قوم دنف وعدل ، ولو ثنى وجمع لكان صوابا ـ الفراء = معانى القرآن : حـ٢ ص ٥٤

أنهم هم كانوا السبب الرئيسى فى جلب أسباب هذا الحزن ، وما علموا كذلك أن حزنه عليه السلام هو الذى بدأ يهزهم ويحركهم ويوجههم إلى الصراط المستقيم. وهذا الحزن هو الرد على قولهم أول السورة (يخل لكم وجه أبيكم) .

﴿ قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون - ٨٦ ﴾.

قال أبو منصور الثعالبي[1] : البث : شدة الحزن .

قلت لا يستقيم المعنى لو جعلنا البث كذلك، إنما يكون البث هنا بمعنى الهم ، فكأنه عليه السلام يقول « إنما أشكو همى وحزنى إلى الله تعالى لا إليكم ، فإنى أعلم من الله العلى الأعلى ومن واسع رحمته عامة وبأهل هذا البيت خاصة ومن خفى لطفه سبحانه ، والتفريج عن المكروبين ، وإزالة أسباب غمهم مالا تعلمون .

ويؤخذ من الآية الكريمة أن الشكوى إلى الخالق سبحانه مطلوبة وهى لا تتنافى مع الصبر الجميل ، وما اشتكى الأنبياء والمرسلون والصالحون إلا إليه سبحانه ، فيظنهم الجاهل أنهم متبرمون بما نزل بهم - حاشاهم - ومن عرف علو مرتبة النبوة ، نزهها عن مثل هذه الظنون . وكان من دعاء موسى عليه السلام (اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا قوة إلا بك) ، ولما فعل أهل الطائف من الأذى مافعلوه برسول الله صلوات الله وسلامه عليه كان من دعائه الكريم (اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس أنت رب المستضعفين) الحديث وليكن هذا الدعاء هجيرنا فى كل وقت إذ (أزفت الآزفة -٥٧- ليس لها من دون الله كاشفة - ٥٨) سورة النجم . . واقترب الوعد الحق .

(وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون)من الآية ٢٢٧ سورة الشعراء.

---

(١) الإمام أبو منصور الثعالبى : كتاب فقه اللغة ص ٣٤ .

الفصل الثالث

بطلان الاحتجاج بمعاملة يوسف عليه السلام لإخوته

فى إطلاق جواز الحيل

احتج بعض الفقهاء بقصة يوسف عليـــه السلام على أنه يجوز للانسان التوصل إلى أخذ حقه من الغير بما يمكنه الوصول إليه بغير رضا من عليه الحق .

ومما نقله ابن القيم عن الإمام ابن تيمية فى هذا الشأن قوله (ومما قد يظن أنه من جنس الحيل التى بينا تحريمها وليس من جنسها قصة يوسف حين كاد الله له فى أخذ أخيه كما قص ذلك تعالى فى كتابه فإن فيه ضروباً من الحيل الحسنة).

(فإن يوسف[1] لم يكن يملك حبس أخيه عنده بغير رضاه ولم يكن هذا الأخ ممن ظلم يوسف حتى يقال إنه قد اقتص منه وإنما سائر الإخوة هم الذين كانوا قد فعلوا ذلك . نعم تخلفه عنده كان يؤذيهم من أجل تأذى أبيهم والميثاق الذى أخذه عليهم وقد استثنى فى الميثاق بقوله (إلا أن يحاط بكم) وقد أحيط بهم . ولم يكن قصد يوسف باحتباس أخيه الانتقام من إخوته . فإنه كان أكرم من هذا، وكان فى ذلك من الإيذاء لأبيه أعظم مما فيه من إيذاء إخوته . وإنما هو أمر أمره الله به ليبلغ الكتاب أجله ويتم البلاء الذى استحق به يعقوب ويوسف كال الجزاء ، وتبلغ حكمة الله التى قضاها لهم نهايتها .

(ولو كان يوسف قصد القصاص منهم بذلك فليس هذا موضع الخلاف بين العلماء ، فإن الرجل له أن يعاقب بمثل ما عوقب به : وإنما موضع الخلاف : هل يجوز له أن يسرق أو يخون من سرقه أو خانه مثل ما سرق منه أو خانه إياه؟

(١) الإمام ابن القيم : اعلام الموقعين ج : ٣ : ص : ٢٢٨/٢٢٩

(وقصة يوسف لم تكن من هذا الضرب) .

بل إن فى قصة يوسف عليه السلام مايفيد بطلان الحيل التى تتصادم مع الشرع وأن من كاد كيداً محرما فإن الله يكيده ويعامله بنقيض قصده وهذه سنة الله تعالى فى أرباب الحيل المحرمة فإنه جل جلاله لا يبارك لهم فيمانالوه بهذه الحيل ويهىء لهم من خلقه من يكيدهم من جنس كيدهم وحيلهم . وفى القصة تنبيه على أن المؤمن المتوكل على الله تعالى إذا كاده الخلق فإن الله تعالى ينتصر له ويكيد له بغير حول من العبد ولا قوة .

الحيل لاتذم مطلقا ولا تحمد مطلقا :

قال الإمام الشاطبي : فى الموافقات :

(لا يمكن إقامة دليل فى الشريعة على إبطال كل حيلة كما أنه لا يقوم دليل على تصحيح كل حيلة وإنما يبطل منها ما كان مضادا لمقصد الشارع خاصة : وهو الذى يتفق عليه جميع أهل الإسلام . ويقع الاختلاف فى المسائل التى تتعارض فيها الأدلة) .

وقال ابن القيم :

(الحيل[1] نوعان : نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله تعالى به وترك مانهى عنه والتخلص من الحرام وتخليص الحق من الظالم المانع له ، وتخليص المظلوم من يد الباغى ، فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومعلمه) .

(ونوع يتضمن إسقاط الواجبات وتحليل المحرمات وقلب المظلوم ظالما والظالم مظلوما والحق باطلا ، والباطل حقا ، فهذا النوع الذى اتفق السلف على ذمه وصاحوا بأهله من أقطار الأرض) .

---

(١) الإمام ابن القيم : إغاثة اللهفان ج : ١ : ص ٣٥٤

والحيل فى عرف الفقهاء إذا أطلقت ، قصد منها الحيل المحرمة ، أما الحيل المشروعة فهى مطلوب وحكمها حكم ما أفضت إليه ، ويستعان بها على إقامة حكم شرعى لايخلو من جلب مصلحة أو درء مفسدة دون عبث بمقاصد الشرعية ولا تضييع لحق من الحقوق ، وحكمة إباحتها : الاستعانة بها على استخراج الحقوق وصيانة الدماء والأعراض والأموال وقهر الأعداء والضرب على أيدى المفسدين والإصلاح بين الناس وتقوية أواصر المحبة والمودة بينهم . فالعاجز من عجز عنها ، والكيس من كان بها أفطن وعليها أقدر ولا سيما فى الحروب .

وضرب ابن القيم الأمثلة للحيل المباحة فى كتابيه أعلام الموقعين (الجزء الثالث) و (إغاثة اللهفان) وبلغ عددها فى الأول مايقرب من مائة وعشرين مثالا وفى الثانى نيف وثمانين .

وعقب على ماجاء به من الأمثلة فى إغاثة اللهفان بقوله :

(والمقصود بهذه الأمثلة وأضعافها مما لم نذكره أن الله سبحانه أغنانا بما شرعه لنا من الحنيفيه السمحة وما يسره من الدين على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم : وسهله للأمة عن الدخول فى الآصار والأغلال وعن ارتكاب طرق المكر والخداع والاحتيال كما أغنانا عن كل باطل ومحرم ، وضار بما هو أنفع لنا منه من الحق والمباح النافع)[1] .

استخراج الحقوق بالفراسة والامارات :

والحاكم إذا لم يكن فقيها فى الأمارات ودلائل الحال ومعرفة شواهده وفى القرائن الحالية والغالبة كفقهه فى جزئيات وكليات الأحكام : أضاع كثيرا من الحقوق على أصحابها وحكم بما يعلم الناس جميعا بطلانه ، ولا يشكون فيه اعتماداً منه على انوضع الظاهر دون التفات إلى باطنه وقرائن أحواله .

---

(١) الإمام ابن القيم : إغاثة اللهفان جـ٢ ص٦٩ .

فهنا نوعان من الفقه لابد للحاكم منهما : فقه فى أحكام الحوادث الكلية وفقه فى نفس الواقع ، وأحوال الناس ، يميز بين الصادق والكاذب والحق والباطل ثم يطابق بين هذا وهذا فيعطى الواقع حكمه من الواجب ولا يجعل الواجب مخالفا للواقع .

(ومن له ذوق فى الشريعة وإطلاع على كمالاتها وتضمنها لغاية مصالح العباد فى المعاش والمعاد ومجيئها بغاية العدل الذى يفصل بين الخلائق ؛ وأنه لا عدل فوق عدلها ، ولا مصلحة فوق ماتضمنته من المصالح : تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها وفرع من فروعها ، وأن من له معرفة بمقاصدها ووصفها وحسن فهمه فيها لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة : فإن السياسة نوعان ، سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها ، وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر فهى من الشريعة علمها من علمها وجهلها من وجهلها)(١) .

ولم يزل حذاق الحكام والولاة يستخرجون الحقوق بالفراسة والامارات فإذا ظهرت لم يقدموا عليها شهادة تخالفها .

(وقل حاكم أو وال اعتنى بذلك وصار له فيه ملكة إلا وعرف المحق من المبطل وأوصل الحقوق إلى أهلها)(٢) .

الحيل المحرمة هى التى يترتب عليها العبث بمقاصد الشريعة :

كل حيلة ظاهرها مشروع ولكنها يتوصل بها إلى ماهو محظور تأخذ حكم غايتها فى التحريم :

ومن الحيل المحرمة التى يترتب عليها العبث بمقاصد الشريعة .

(٢،١) الإمام ابن القيم : الطرق الحكمية ص ٥ و ٢٨/٢٩ على التوالى .

الحيل التى تسقط الواجبات (١) أو تحلل المحرمات (٢) أو تحرم ما أحل الله تعالى، أو تقلب الحق باطلا وبالعكس، وكل حيلة يبتغى منها غير ما شرعت له التكاليف الشرعية فإنها تأخذ حكم ما أفضت إليه من المحرمات مثل كتم عيوب السلع عند البيع أو الاحتيال على شرب الخمر بتغيير اسمها . أو الاحتيال على الميراث بالتخلص من المورث .

وجاء فى أحاديث كثيرة استحقاق قوم المسخ لأجل الاستحلال بالاحتيال

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل) (٣) .

قال ابن الهمام (على المبتدىء بالدعوى الباطلة وإثباتها بالطريق الباطل إثم باله من إثم) (٤) ولا فارق بين التوصل إلى الحرام بطريق الاحتيال أو التوصل إليه بطريق المجاهرة وخطر الأخير أهون من الأول الذى سلك سبيل الخداع والمكر .

وكل هذا من قبيل الاستهزاء بآيات الله تعالى والتلاعب بأحكامه عز وجل — (وأنت إذا تأملت الحيل المتضمنة لتحليل ما حرم الله سبحانه وتعالى، وإسقاط ما أوجب، وحل ما عقد، وجدت الأمر فيها كذلك ووجدت

---

(١) مثل التحايل على إسقاط الإنفاق الواجب على الإنسان شرعاً أو أداء الدين الواجب أو ترك فرض كتعمد سفر فى رمضان ولا غرض له سوى الفطر، والاحتيال على إسقاط سبب وجوب ما هو صائر إلى الوجوب وكالهرب من وجوب الزكاة بهبة المال قبل حولان الحول على نية استرداده بعد دخول حول جديد .

(٢) كالحيل الربوية .

(٣) قال ابن كثير فى تفسيره إسناده جيد وقد استشهد به فى قصة أصحاب السبت فى سورة البقرة

(٤) ابن الهمام : فتح القدير ج ٢ ص ٣٩٠ .

المفسدة الناشئة منها أعظم من المفسدة الناشئة من المحرمات الباقية على صورها وأسمائها : والوجدان شاهد بذلك) (١) .

كمن يتوصل إلى تحليل الشيوعية وإباحتها وإعتناقها متستترا فى الوصول إلى غرضه بأسماء أخرى مثل الاشتراكية العلمية والتقدمية .

وتجويز الحيل المحرمة (يناقض سد الذرائع مناقضة ظاهرة فإن الشارع يسد الطريق إلى ذلك المحرم بكل ممكن والمحتال يتوسل إليه بكل ممكن ، ولهذا اعتبر الشارع فى البيع والعرض والنكاح وغيرها شروطا سد ببعضها التذرع إلى الربا والزنا ... ولم يمكن المحتال الخروج منها فى الظاهر .

(ومن يريد الاحتيال على ما منع الشارع منه فيأتى به مع حيلة أخرى توصله بزعمه إلى نفس ذلك الشيء الذى سد الشارع الذريعة إليه لم يبق لتلك الشروط التى أتى بها فائدة ولا حقيقة بل تبقى بمنزله العبث واللعب) (٢) .

والحيل التى جاء بها إخوة يوسف عليه السلام من الحيل المحرمة شرعا : ومنها أخذهم أخاهم ليرتع ويلعب معهم فهو فى الظاهر تكريم لأخيهم وبر بأبيهم ، وفى الباطن يقصدون من ذلك الانتقام من أخيهم ، مع ما فى ذلك من الإساءة إلى أبيهم مع عظيم منزلته ، وعلو رتبته فضلا عما للوالد من كبير الحق ، ومما للأخ من واجب صلة الرحم .

ومنها تلطيخ قميص أخيهم بدم كذب والمجيء عشاء يبكون وإخبارهم أن الذئب قد افترس أخاهم للتوصل من ذلك إلى التخلص من أخيهم ، بقصد احتلال مكانته عند أبيهم .

ومن الحيل المحرمة مقالة امرأة العزيز إذ واجهت زوجها لدى الباب ﴿ ماجزاء من أراد بأهلك سوء إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ .

---

(١) ابن القيم : إغاثة اللهفان جـ ١ ص ٣٦٨ .

(٢) الامام ابن تيمية : إقامة الدليل على إبطال التحليل .

قال الزمخشرى [جاءت بحيلة جمعت فيها غرضيها وهى تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة، والغضب على يوسف وتخويفه طمعا فى أن يواتيها خيفة منها ومن مكرها : كرها — لما أيست من مواتاته طوعا — ألا ترى إلى قولها (لئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين)] .

وهى حيلة يقصد منها تبرئة المذنب وإكراه البرىء على ارتكاب الفاحشة .

الوضاعون وتزييفهم لكتاب فى الحيل يسقط الواجباب ويحل المحرمات :

ظهر فى القرن الثانى الهجرى كتاب فى الحيل المحرمة لم يعرف مؤلفه : وقد اكتظ بما يندى له الجبين من المخارج التى يؤدى بعضها إلى الكفر الصريح وإلى مناهضة حكمة التشريع، وقد تداوله أهل المجون فى ذلك العهد ممن جعلوا التلاعب بالدين حرفة يتكسبون منها .

وقد قال عنه عبد الله بن المبارك (من وضع هذا الكتاب فهو كافر، ومن سمع به فرضى به فهو كافر ومن حمله من كورة إلى كورة[1] فهو كافر) .

والغريب أن الخطيب البغدادى قد جاء بروايات ليثبت بها أن كتاب الحيل هذا من وضع الإمام أبى حنيفة النعمان ! ؟

براءة الامام أبى حنيفة وأصحابه من نسبة كتب الحيل المحرمة إليهم :

(وقد حاول بعض الكذابين رواية كتاب فى الحيل عن أبى حنيفة فى زمن متأخر ، بسند مركب فافتضح وهو أبو الطيب محمد بن الحسين بن حميد ابن الربيع الكذاب بن الكذاب حيث زعم بعد سنة ثلاثمائة أنه كان سمع كتاب الحيل سنة ٢٥٨ هـ بسر من رأى من أبى عبد الله محمد بن بشير الرقى عن خلف بن بيان)[2]

(١) من بلدة إلى بلدة .

(٢) العلامة الكوثرى : تأنيب الخطيب ص ١٢٢ .

وهو إسناد ساقط عند الحفاظ لأن محمد بن الحسين كذاب بن كذاب وشيخه مجهول الصفة والعين وشيخ شيخه مجهول بل لا وجود له .

قال العلامة الكوثرى (رأى افتضاح أكثر من عزو كتاب إلى أبى حنيفة الذى ملأ أصحابه مابين الخافقين بالرواية عن شخص مجهول يرويه عن مجهول لا وجود له بين الرواة — عن أبى حنيفة - فى سند غير هذا السند بل ولا بين الرواة مطلقا)[1]

وثالثة الأثافى أن الخطيب البغدادى قد تلقف أمثال هذه الروايات فساقها فى تاريخه لينال من الإمام أبى حنيفة وأصحابه .

إذ يروى فى تاريخه بإسناده عن عبدالله بن[2] المبارك أنه قال (من كان عنده كتاب حيــل أبى حنيفة يستعمله أو يفتى به فقد بطـــل حجه وبانت منه امرأته !)

(فقال له مولاه يا أبا عبد الرحمن — يعنى ابن المبارك — ماأرى واضع كتاب الحيل إلا شيطان ؟) فقال ابن المبارك (الذى وضع كتاب الحيل أشر من الشيطان) .

ويروى فى مكان آخر بإسناده عن عبد الله بن المبارك أيضا (من نظر فى كتاب الحيل لأبى حنيفة أحل ماحرم الله وحرم ما أحل الله)[3]

وساق فى مكان آخر من تاريخه[4] أقصوصة احتيال أبى يوسف[5] للرشيد

---

(١) المرجع السابق : ص : ١٢٣ .

(٢) عبد الله بن المبارك : الإمام المجاهد فقيه خراسان مولده ١١٨ هـ ووفاته سنة ١٨١هـ كان سفيان الثورى يقول (جهدت جهدى أن أدوم ثلاثة أيام فى السنة على ماعليه ابن المبارك فلم أقدر) رضى الله تعالى عنهما .

(٣) الخطيب البغدادى . تاريخ بغداد : ج ١٣ ص ٤٠٣ ، ٤٢٦ .

(٤) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد : ج ١٤ ص : ٢٤٩ .

(٥) هو الامام المجتهد المطلق أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم الأنصارى (١١٣ =

ليجمع بينه وبين جارية أبي صاحبها بيعها لكونه حلف بأغلظ حلف بالطلاق والعتاق وصدقة مايملك، أنه لا يبيعها ولا يهبها . والرشيد قد حلف أن يقتله إذا لم يفعل ؟ .

فأفتى أبو يوسف ببيع نصفها وهبة النصف الآخر ونال أبو يوسف من ذلك دنيا طائلة، والأقصوصة تظهر الإمام الجليل أبي يوسف بمظهر المفتن الماجن وقد سود بهذه الأقصوصة صفحتين من تاريخه .

وفي رجال الإسناد الذين روى عنهم القصة محمد بن أبي الأزهر الذي يقول الخطيب نفسه عنه في مكان آخر [1] (كان كذابا قبيح الكذب ظاهره) ؟!!

وشيخ ابن أبي الأزهر هذا هو حماد بن اسحق الموصلي راوي الأسطورة عن أبيه . وهو وأبوه من مشاهير رجال الأغاني الذين يحتج بهم في مجالس السمر لا في الحكم على الأئمة الكبار مثل أبي يوسف .

وذكر الحافظ الذهبي في ترجمته للامام محمد بن الحسن الشيباني أنه تبرأ من كتاب الحيل ونفى أن يكون هذا الكتاب من كتب أصحاب الإمام أبي حنيفة .

ولو كان للامام أبي حنيفة أو لصاحبه الامام محمد بن الحسن كتب في الحيل لما خفيت عن أصحاب الإمام والأئمة الثقات ولرووها عنهما .

ولم يرد عن الإمام أبي حنيفة سوى مخارج في كتب الثقات ليس فيها ما يناهض حكمة التشريع، بل كلها لإحقاق الحق وإبطال الباطل، وهذا ما ندب إليه الكتاب والسنة . وكل ما يروى عن أصحابه أيضا في هذا الصدد بالأسانيد الصحيحة فهو من هذا القبيل .

أما مثل هذا الكتاب والكتب التي على منواله فيبرأ منها كل مسلم .

= ١٨٢هـ) نعته ابن حبان بالحافظ والصالح . كان استاذاً لكثير من الأئمة المجتهدين وروى عنه الإمام محمد بن الحسن الشيباني ، وبشر بن الوليد الكندي والإمام احمد ابن حنبل ، ويحيى بن معين .

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد : ج ٣ ص : ٢٨٨ .

﴿ ورفع أبويه على العرش وخروا
له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى
من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى
إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو
من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى.
إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم
الحكيم — ١٠٠ ﴾

الفصل الرابع

هـــــذا تأويل رؤياى

أحزان يعقوب الحث على أبنائه بالعودة إلى مصر :

أصبح الإخوة وهم فى موقف لا يغبطهم عليه أحد ، وبدأوا هم أنفسهم يشعرون بتفاهة موقفهم :

لقد كان محور آمالهم فى جميع تصرفاتهم أن يخلو لهم وجه أبيهم فلا ينظر إلى أحد سواهم ولا يبارك إلا هم، ولا يملأ وجوده غيرهم، واعتقدوا أن العقبة التى تحول دون بلوغهم مقصدهم قد تجسمت فى يوسف وأخيه ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين — ٨ ﴾.

وها هى الحوادث قد انتهت فعلا بالتخلص منهما . فهل وجدوا مازعموه حقاً ؟ ؟ هل نالوا ما كانوا يبتغونه حين قالوا ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين — ٩ ﴾

هل صفا لهم الجو، وراقت لهم الحياة ، وخلا لهم وجه أبيهم كما توهموا ؟ وهل استطاعوا أن يزحزحوا من قلب أبيهم مكانة الأخوين ليحتلوها وهم عصبة ؟

كل ذلك لم يكن ، بل لقد تحول عيش آل يعقوب إلى أحزان مستمرة، بل هاهم يضيقون ذرعاً بما يبدو من أبيهم من حزن سيسلمه قطعا للهلاك ﴿ قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين — ٨٥ ﴾ .

لقد كان عليه السلام قبل فراق بنيه يطالع الجميع بطلعته البهية التى تملأ من يواجهها بهجة ونورا ولكن الحال قد تبدل بعد الذى حدث فأصبحوا لا يقرأون فى وجهه عليه السلام سوى الحزن الدائم الذى يذكرهم بسوء أفعالهم وتقصيرهم فى حق يوسف وأخيه ، وما من مجلس جمعهم بأبيهم إلا وقد شعروا أنهم يعيشون فى الدوامة التى صنعوها وخلفها هذا الفراق ، وإن آلامه وأحزانه عليه السلام كانت بالنسبة إليهم أصابع اتهام تشير إليهم : إنكم أنتم المسئولون عن كل ماحدث، وأنتم السبب فيما تقاسيه الأسرة من جراء تصرفاتكم الخرقاء، التى وصلت إلى وضع لا يمكن تصحيحه إلا إذا تدارك الله تعالى آل يعقوب برحمته ولطفه كما عودهم ؛ ونزع ما فى قلوب الإخوة من حقد كاد يودى بهم جميعا .

إن أحزان أبيهم كانت تصرخ فى وجوههم : إن هذه العائلة الكريمة لن يقر لها قرار مالم يصف الود بين الإخوة وتغسل الضغائن من أغوار النفوس ، ولو حدث هذا لاجتمع الشمل ، وعادت الأحوال إلى أحسن مما كانت عليه ولن يتم ذلك إلا إذا اجتمعوا بيوسف وأسلموا قيادهم له عليه السلام .

وأحس الإخوة بأن الواجب يناديهم فوراً بتنفيذ رغبة أبيهم المتعلقة بالبحث الجاد عن يوسف ، وأن يتولوا إماطة اللثام عن قضية بنيامين حتى

يعود إليهم . ومع إحساسهم هذا شعروا أنهم لا يملكون سوى إزجاء النصح لأبيهم بترك الحزن ، وهم يعلمون أنها نصيحة مرفوضة غير مقبولة سلفاً ، وكيف ينصحونه وهم السبب الرئيسى فى كل ذلك الحزن ! ! وما دفعهم إلى إزجاء النصح والإحجام عن البحث إلا أن قضية بنيامين كانت لها معنى فى نظرهم يهددهم جميعاً .

ذلك أن مجرد وجود أخيهم الأصغر فى مصر أصبح خطراً لا يستهان به، ومن يدريهم أنه لم يفض للعزيز بما فعلوه معه ومع يوسف ، خاصة وأنهم قد صرحوا هم أنفسهم أمام العزيز بوجود هذا الأخ وهم فى معرض ذمه والنيل منه ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق له أخ من قبل ﴾ من الآية — ٧٧ .

ومصدر الخطر أنهم يعرفون شهرة العزيز بإقامة العدالة ونصرة المظلومين وإغاثة الملهوفين : فياويلهم لو وقف على فعالهم مع يوسف وأخيه وتبنى القضية لإنصافهما منهم ـ هذا ومن السهولة بمكان أن يحرك الدعوى التى وإن طواها طول الأمد لكنها لا تزال حية تسعى فى ضمائرهم ، تتحرك كلما طالعهم وجه أبيهم ، وكأن مافعلوه قد حدث بالأمس — ولن تعوز العزيز أدلة الإثبات التى لو طلبها عند بنيامين أو عند أبيهم لوجدها ساطعة دامغة : وهذا الوجه من المسألة كاف ليجعلهم مشفقين من العودة إلى مصر، أضف إلى ذلك أن علاقتهم مع العزيز بعد حادث الصواع قد اتخذت شكلا آخر غير مشجع لهم .

ولكن أحزان أبيهم بدأت تلح عليهم وتؤثر فيهم التأثير الكافى للتغلب على هذا الإحجام ، وأحس أبوهم عليه السلام بتفتح نفوسهم لقبول توجيهاته فقال لهم ﴿ يا بنى أذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون — ٨٧ ﴾ .

والتحسس طلب الأخبار فى الخير ، وهو جامع هنا لمعرفة كل خبر أو وسيلة توصل إلى يوسف عليه السلام وأخيه .

(من) خبر (يوسف وأخيه) : ومن الإعجاز إفراد يوسف فى قوله (يا أسفى على يوسف) فى الآية ٨٤ . والجمع بين الأخوين فى قوله هنا (من يوسف وأخيه) . وقد بينا وجه الاعجاز فى الأول فى موضعه ، أما هنا فإن امتثالهم لأمره عليه السلام يقتضى اقتران ذكرهما معا: فإن كانوا غير مقتنعين بوجود يوسف كما سبق وأن صرحوا بذلك ، فلا يمكنهم الشك فى وجود بنيامين فيلزمهم الامتثال إذن ، ولو أفرد يوسف بالذكر لأجابوه بما قالوا من قبل .

ومما يدل على أن قصده عليه السلام هو البحث عن يوسف تعقيبه بعد ما أمرهم بقوله (ولا تيأسوا من روح الله): اتركوا اليأس المستولى عليكم منذ فعلتم فعلتكم مع أخيكم حتى ظننتم أنه قد انتهى أمره ، وأفسحوا المجال فى نفوسكم لتقبل رحمة الله تعالى عسى أن تجمعكم بيوسف و (روح الله) فرجه ورحمته التى تريح من كل كرب وتزيل كل عناء — يوجههم عليه السلام إلى أن يكون طلبهم لأخيهم برفق خال من العنف فإن مواجهتهم للعزيز تحتاج منهم إلى هضم نفوسهم التى لم يصدر منها سوى الاساءة لأخيهم وطرح ما فى قلوبهم من يأس لا سبب له سوى نزغ الشيطان ، ويحذرهم من ذلك كى يجتنبوا اليأس نهائياً (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) .

لقد طرح عليهم أبوهم القضية كاملة منذ ألقوا أخاهم فى الجب إلى احتجاز بنيامين فى مصر عند العزيز . ويتطلب تنفيذ أمر أبيهم منهم التدبر فى كل ما مر بهم ليتخذوا منه قاعدة انطلاق للبحث ، وهناك مسائل قد مرت بهم كانت تلح فى طلب الإجابة الكافية عليها ولكنهم لم يعيروها إلتفاتا . ولا يوجد لديهم أى جواب عنها :

فهل مات يوسف فعلا ؟ لا دليل لديهم على ذلك .

وما هو موقف العزيز بالنسبة إليهم ؟ لماذا رد البضاعة مثلا ؟ ولماذا أصر

على إحضار بنيامين ؟ وإذا كان قد أبدى تعاطفا معهم فلماذا رد البضاعة ولم يرد أخاهم والأمر الأخير أهم : إن أفعاله تدل على أنه لا يبتغى الإساءة إليهم ولكن إصراره على الاحتفاظ بأخيهم ينفى ذلك .

ثم إن عبارات العزيز إن لم تكن تدل على أن قائلها من آل يعقوب فهو على الأقل على صلة وثيقة بهم . ودار فى أذهانهم مثل قوله (والله أعلم بما تصفون) من الآية ٧٧ (قال معاذ الله أن نأخذ إلا من من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون — ٧٩) .

فن أين جاءت هذه الصلة التى جعلته يرضى بتطبيق الشريعة الإبراهيمية ويقدمها على شريعة البلاد ؟

أخذت هذه العلامات تتسرب إلى عقلهم الواعى مما جعلهم يعيدون تقييم الموقف على ضوء ما يريده أبوهم لا على ضوء المفاهيم المسبقة التى حالت بينهم وبين الحقيقة ، فلما ابتعدوا عن وجهة نظرهم — أو استبعدوها فعلا — بدأ الشك يساورهم . وفى الجمع بين الأخوين فى قوله (من يوسف وأخيه) إشارة إلى أن يوسف هو نفس العزيز وما يعقلها إلا العالمون .

وعلى كل حال فإن أحزان والدهم عليه السلام، واستمرار المجاعة واشتداد وطأتها ، لم يدع ذلك لهم فرصة للاختيار ، فلم يكن هناك بد من نزول مصر للامتيار ، ولم يكن هناك مفر من مواجهة العزيز رغم كل ما حدث .

الاخوة يطلبون من يوسف أن يتصدق عليهم :

عاد الإخوة إلى مصر للمرة الثالثة ، ولكنهم فى هذه المرة غيرهم فى المرتين السابقتين . فقد امتازت هذه المرة بأن الشك بدأ يساورهم فى وجود يوسف على قيد الحياة ، كما أنهم قد تخلوا عن اعتزازهم بأنفسهم ، وذلوا لله تعالى ،

ووطأوا أكنافهم أرضاء لوالدهم ، وظهرت عليهم الحاجة من البضاعة التى كانوا يحملونها .

وصلوا إلى مصر وطلبوا مقابلة عزيزها ﴿ فلما دخلوا عليه قالوا ياأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين ـ ٨٨ ﴾ .

قال الكرمانى : قوله (وتصدق علينا) أى أعطنا بالردىء ماتعطى بالجيد . وقيل تصدق علينا بأخذ متاعنا وإن لم يكن من حاجتك .

ولأول مرة يظهر فى كلامهم الخضوع والاستكانة ، كما ظهرت عليهم علامات الحاجة إلى درجة جعلتهم يصرحون بأنهم قد جاؤوا ببضاعة قليلة لضيق ذات اليد وطلبوا من العزيز أن يوف الكيل لهم وأن يتصدق عليهم ويتفضل بالفرق بين سعر الدراهم الجيدة وسعر الدراهم الرديئة . وكانت هذه المقالة كافية لإدراك سوء حالهم إذ لم تكن تلك عادتهم .

ومن الفقه المأخوذ من الآية :

• تقديم الوسائل أمام المآرب فإنها أنجح لها ، إذ قدموا ماذكروه من رقة الحال وتصغير العوض ليكون ذلك ذريعة إلى إسعافهم بمرادهم بباعث

---

(١) قال ثعلب : مزجاة ناقصة غير تامة .
واختلف فى تعيينها : فقيل إنها كانت من متاع الأعراب (قديدا وحيسا) ذكر ذلك الواقدى عن على بن أبي طالب كرم الله وجهه .
وقيل : (الغرائر والحبال) وقيل كانت (صوفا وسمنا) ، وقيل (دراهم رديئة) قال الزمخشرى (مزجاة) مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارا لها من أزجيته إذا دفعته وطردته ، والريح تزجى السحاب .
(الكشاف : ج ٢ : ص : ٢٧٢ . ط المكتبة التجارية) .

(٢) الامام الكرمانى : غرائب التفسير وعجائب التأويل ق ٨٢/ب .

الشفقة وتحرك العطف، والرأفة والرحمة . ومن ثم رق عليه السلام لهم وملكته الرحمة عليهم .

• لا يبعد أنهم طرحوا الكبر وآثروا الخضوع ، وكشفوا عن سوء حالهم أمام العزيز اتباعاً لنصح أبيهم ليحملوه على الكشف لهم عن حقيقته إذا كان هو يوسف فعلا ، فلو كان هو لدفعته الرحمة إلى إظهار شخصيته ولم يتمالك من تعريفهم بنفسه وهذا هو المقصود .

• جواز شكوى الحاجة لمن يرجى منه إزالتها .

• استدل بعض المفسرين من قوله تعالى (وتصدق علينا) أن إخوة يوسف عليه السلام لم يكونوا أنبياء إذ لا تجوز الصدقة على الأنبياء .

قلت الواجب استثناء بنيامين الذى لم يكن معهم .

ومن قال إنهم أنبياء[1] قال إنهم يقصدون من قولهم (وتصدق علينا) رد أخيهم بنيامين إليهم ، أو أنهم أرادوا الذين وراءهم ممن تحل الصدقة لهم .

قلت وهذا بعيد جدا ، فلا يجوز ترك الصريح من القول إلى غيره .

يوسف عليه السلام يعرفهم بنفسه :

علم يوسف عليه السلام بفراسة النبوة أن إخوته فى هذه المرة قد قاسوا الشدائد وأنهم قد جاؤوا وهم قابلين للانقياد النهائى إليه وإلى أبيه وأنه سيمكنه الله تعالى منهم .

---

(١) نبوة إخوة يوسف على اسلام قد بحثها الأئمة والعلماء ومنهم من أطال الكلام فيها، وهذا البحث إنما هو فرع من الكلام على عصمة الأنبياء فمن جوز صدور مثل ذلك من الأنبياء قال بنبوتهم ومن منعه وقال بمنافاته لعصمة الأنبياء ، قال إنهم ليسوا بأنبياء . وكان الواجب استثناء بنيامين والأمر واضح لاخفاء فيه وكدنا أن نلحق فصلا لتحقيق ذلك لولا خشية الإطالة .

وهاهم لأول مرة يجرى ذكر الله تعالى على لسانهم فى قضيتهم مع يوسف عليه السلام حينما قالوا ﴿ إن الله يجزى المتصدقين ﴾ .

حينئذ انتهى البلاء وانكشف الكرب ، وأذن الله تعالى باجتماع الشمل :

﴿ قال هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون - ٨٩ ﴾ .

يعنى أن من عامل يوسف وأخاه بمثل معاملتكم لهما لاينبغى له أن يتجاسر فى الخطاب كتجاسركم ، ثم كفاهم مشقة معاتبتهم ، إذ جاءهم بأجمل عذر يمكنهم التقدم به فقال ﴿ إذ أنتم جاهلون ﴾ وهذا من شدة بره بهم وعطفه عليهم ، حتى لا يكون التماس العذر حائلا دون توبتهم[1] .

وكان عندهم فى هذه المرة الاستعداد التام لمعرفة أخيهم بعد الدروس التى مروا بها ، وها هو عليه السلام يعطيهم علامة بينه وبينهم لا يعلمها إلا هو إذ أشار إلى فعلتهم معه .

﴿ قالوا أإنك لأنت يوسف . قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين - ٩٠ ﴾ .

﴿ لقد من الله علينا ﴾ : إذ تفضل علينا فجعل كل بلاء طلبتموه لنا ، نعمة علينا ، وشملنا عز وجل برعايته فى كل مادبرتموه لنا من سوء ، وعافانا مما ابتليتم به ، وخلص لنا الخير كما خلص اللبن السائغ من بين فرث ودم ، ووهبنا ماترون من ملك[2] وسلطان وقوة وحكمة وصرفنا فى خزائن الأرض .

---

(١) هذا من حسن سياسته وتربيته لإخوته عليه السلام فقد يحمل الخطأ الإنسان المخطىء وخاصة مع من أحسن إليه على التوارى عنه لعدم العثور على عذر يعتذر به عن هذا الخطأ — فلم يحملهم عليه السلام مشقة البحث عن عذر لن يجدوه قطعا : خشية أن يؤدى هذا البحث إلى انقطاعهم عنه وعن والده .

(٢) كان وصوله عليه السلام إلى منصب عزيز مصر آية كبرى دالة على نبوته فقد وصل إلى منصبه دون تمهيد له من أى منصب سابق عليه . بل لقد دخل مصر رقيقا ولم يكن له فيها حزب أو عصبة أو صاحب، بل دخلها مطاردا من إخوته الذين يبتغون =

ألا ترون أنكم كنتم دائماً تسعون إلى طردنا من بيت أبينا ... والآن تتمنون الإقامة عندنا ؟ وهاهم الناس يجلونكم لانتمائكم إلينا ، فسبحانك تعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير .

والآن تعلمون أن اتهامكم لأبيكم كان باطلا وكيف تتهمونه عليه السلام بما من الله تعالى به علينا ؟ فما فضل والدنا فى الحقيقة ولا قدم إلا من قدمه الله عز وجل .

ألا ترون أنكم قد جندتم كل ماعندكم من قوة وحيلة للخلاص منا فما زادنا الله تعالى إلا تثبيتا ؟

ألم تكونوا تتفاخرون دائما علينا بأنكم عصبة وتزدرون بشأننا وتحطون من قدرنا ، وها أنتم ترون الآن من الذى آتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ومما لم تؤت عصبتكم عشر معشاره، هذا مع الاقتدار عليكم والتمكن منكم وها أنتم قد قصدتمونا فيمن يقصدنا التماسا لنجدتنا وكرمنا .

ولكننا لانسخر نعمة الله تعالى فى الإيذاء وقطيعة الرحم بل نصل ما أمر الله تعالى به أن يوصل إبتغاء مرضاة الله لانرجو جزاء ولاشكورا .

ولو كان يوسف عندهم فى كنعان وفرضنا أنهم لم يلقوه فى الجب وبلغ ما بلغه الآن إذن لقالوا إن ذلك ماحصل إلا بموالاة أبيه له ولازدادوا طغيانا وقطيعة،أما وقد بلغ مابلغه وكأنهم ماألقوه فى الجب إلا ليصل إلى ماوصل إليه الآن وقد شاركه أخوه معه فى ذلك دون معونة من أحد منهم بل بفضل الله تعالى عليه ، لاجرم إن كان ما اعتقدوه فى أبيه كان ظلما مبينا منهم، وجورا فى الحكم

= هلاكه ، وخرج كذلك من بيت العزيز إلى السجن. وهو فى سجنه نادى ببطلان عبادة القوم وبراءته من ملتهم . وخرج من السجن إلى منصبه مباشرة وهذا مالم يحدث لافى التاريخ القديم ولا الحديث إنها آية من آيات الله تعالى وكفى إذ من المحال أن يتم ذلك بتدبير مخلوق .

لاحق لهم فيه ، وما كان لهم أن يجوروا على أبيهم فى أمر لا يملكه [1] ، وما كان لهم أن يحقدوا على أخويهما وقد آتاهما الله تعالى من فضله ومن عليهم من عطائه بغير حساب .

هذا فضل الله تعالى يمن به على من يشاء من عباده المتقين الصابرين على أوامره ونواهيه تعالى والجهاد فى سبيله عز وجل ... والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ولا يحسن العمل إلا من كان فى أعماله مشاهدا لله تعالى كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه عز وجل يراه . وليس الأمر كما يتوهمه الدنيويون الذين يذهبون إلى أن أهل التقوى والاحسان هم أهل الضعف والضياع .

قال القشيرى (وسمعت أبا على رحمه الله يقول لما قال يوسف (إنه من يتق ويصبر) أحال فى استحقاق الأجر على ما عمل من الصبر) [2]

وجد الإخوة أنفسهم يقفون أمام أخيهم وقفة الرعية أمام راعيها : يتضرعون إليه ويستعطفونه بصفته عزيز مصر دون علم منهم أنه يوسف أخوهم الذى فرطوا فيه من قبل وتحايلوا على أبيه كى يسلمه لهم ليهلكوه ، فأين موقفهم بالأمس بالنسبة لمكانتهم منه اليوم ؟ أين هذه العصبة التى كانوا يعتزون بها لو قارنوها بما شهدوه من فضل الله تعالى على يوسف عليه السلام .

فما بال هذه العصبة لم تغن عنهم اليوم شيئا ، وقد جاءوا ليسجدوا أمام من ظنوه أضعف أفراد الأسرة .

إنهم ينظرون إليه عليه السلام نظرتين : نظرة باعتباره أخوهم يوسف الذى سعوا فى هلاكه ، ونظرة باعتباره العزيز صاحب الحول والطول .

---

(١) وكل ابتلاء يعقوب عليه السلام إنما كان بسبب إظهار هذا الإيثار أمام باقى أبنائه فكان الجزاء هو تغيبها عنه عليه السلام هذه الفترة الطويلة . كما أن جزاء الإخوة لحقدهم على أخويهم أن ابتلوا بالحاجة إلى الأخوين .

(٢) الإمام القشيرى لطائف الإشارات جـ ٣ ص ٢٠٤ .

موقفهم بعد معرفتهم لأخيهم :

« قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين — ٩١ » .

الآن ، والآن فقط علموا — بعد أن صهرتهم الأحداث والمحن — أن أباهم كان محقا فى إيثار يوسف عليهم ، وما كان فى ذلك إلا مؤثرا من آثره الله تعالى :

لكن للنفس من أهوائها حجبا تغشى القلوب فتغدو للحجا كبلا[1]

فهى التى احتجبت عن نور طلعته وهى التى حسبت صعب القلا سهلا

وما كان عليه السلام ليعرفهم بنفسه قبل هذه اللحظة الحاسمة، إذ لم تتوافر بعد لديهم القابلية للانقياد والتسليم. ولو عرفوه قبلها لواصلوا السير فى ضلالهم القديم ولكان فى ذلك هلاكهم ، فما لأحد طاقة ليقف بها فى وجه اثنين من الأنبياء المرسلين ، الله تعالى ناصرهما . فكان فى تأخير كشفه عليه السلام لهم عن نفسه رحمة بهم ، وما أقدم على ذلك إلا بعد أن كمل استعدادهم وتمت قابليتهم للاعتراف بالذنب والتوبة منه ، فتأمل محاسن هذه التربية النبوية التى أوتيها ذلكم النبي الكريم ، إذ علم أنه بحسن سياسته لهم ، سيؤول أمرهم إلى إسلاس قيادهم ومجيئهم طائعين مختارين ليكونوا آية من آيات العلوم التى أوتيها عليه السلام .

القلب الكبير :

شيء واحد يعتبر مظهرا للقلب الكبير ألا وهو الإحسان إلى من أساء ، وهى صفة لا يطيقها إلا الكمل من الرجال ، وهى حلية النبيين والمرسلين قد كمل حظهم منها : وهاهو عليه السلام يوالى تربية إخوته بالإحسان دون شعور

---

(١) للعقل قيداً .

منهم ، وكأنهم لم تصدر منهم نحوه أية إساءة، وكأنهم لم يتسببوا فى تشتيت الشمل وغرس الحزن والأسى ، وهاهو حينما عرفهم بنفسه يحرص كل الحرص ليجنبهم مشقة الاعتذار ، حين قدم لهم العذر حتى لا يكلفهم مشقة البحث عنه ، ثم أتبع ذلك بالعفو فى هذه الآية والدعاء لهم بالمغفرة :

﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين - ٩٢ ﴾ فلا أحاسبكم ولا أذكر لكم ذنبا وأسأله تعالى أن يمحو ذنوبكم ويكفر عنكم سيئاتكم ، قال الكرمانى[1] (وقوله « عليكم » لا يتعلق بالتثريب لأن ذلك يستدعى تنوين التثريب وكذلك « اليوم » ويجوز أن يكون « عليكم » الخبر، و« اليوم » متعلق بما فى « عليكم » من معنى القول . ويجوز أن يجعل « اليوم » خبرا و« عليكم » صفة التثريب . ويجوز أن يضمر الخبر أى « لا تثريب عليكم موجود » . ويجوز أن يكون « اليوم » متصلا بقوله (يغفر الله لكم) فيكون الكلام كافيا على قوله « لا تثريب عليكم ») .

قال الجاحظ[2] فى معرض الحديث عن شمائل خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه (أنه حين دخل مكة عنوة وقد قتلوا أعمامه وبنى أعمامه وأولياءه وأنصاره بعد أن حصروه فى الشعب وعذبوا أصحابه بأنواع العذاب وجرحوه فى بدنه وآذوه فى نفسه وسفهوا عليه وأجمعوا على كيده ، فلما دخلها بغير حمدهم، وظهر عليها على صغر منهم . قام خطيبا فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أقول كما قال أخى يوسف ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ .

وسرعان ماوجه يوسف عليه السلام إخوته إلى ماينبغى فعله : فقال تنبيها لهم إلى عزيز مكانة أبيه عنده ، وليعلموا أن الأب حاضر فى فكر الإبن دائما

(١) الكرمانى : غرائب التفسير وعجائب التاويل ق ٨٣ / ب و ٨٤ أ .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٢ : ص ٣٠ ط ١٣٦٧ هـ .

﴿ إذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجـــه أبى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم أجمعين ﴾ .

وفى آية قميصه(١) عليه السلام مافيها من بلاغة الإشارة لمن أراد أن يتذكر: فقد اتخذوا قميصه من قبل زورا وبهتانا علامة على الفراق والأحزان ، وهاهو يجعله برهانا على السرور واجتماع الشمل ، وقرن البشرى بآية لم يشهدوها من قبل ليعلموا أن مابينه وبين أبيه ليس بالأمر المعتاد كما ظنوا ، بل إنها رابطة النبوة والرسالة وكفى ، ولاشك فى أن إخوته عند رؤيتهم لهذه الآية سترسخ التوبة فى قلوبهم فلا تحدثهم أنفسهم بسوء بعدها فى هذا الشأن .

﴿ ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ـ ٩٤ ﴾ :
فصل القوم عن المكان : فارقوه . (تفندون) : قال ابن إسحق ومثله عن ابن الأعرابى : الفند ضعف الرأى من الكبر . وقال الأخفش (تلومون) وقال آخرون : تكذبون أو تسفهون .

وقال جمهور المفسرين فى قوله (إنى لأجد) : إن ذلك كناية عن تحقق

---

(١) للمفسرين والمؤرخين أقوال فى وصف قميصه عليه السلام . قال المطهر المقدسى (كان قميص الحياة أخرجه آدم من الجنة وكساه الله إبراهيم فورثه يعقوب وعلقه على يوسف) البدء والتاريخ ج ٣ ص ٧١

وقال الكرمانى (قيل كان قميصه الذى يلبسه . وقيل كان من الجنة لايمسه ذوعاهة إلا صح . وذكر المفسرون أنه القميص الذى ألبسه الله إبراهيم عليه السلام يوم طرح فى النار فكساه اسحق ثم كساه يعقوب) الذى جعله فى جيد يوسف ولم يعلم إخوته بذلك ـ غرائب التفسير ق ٨٤ أ .

ونسى من قال أنه القميص الذى كان عليه فى الجب أن إخوته قد أخذوه وجاؤوا عليه بدم كذب .

أما الكسائى فقد ذكر أنه القميص الذى أكرمه به الله عز وجل حين كان عليه السلام فى الجب ومن خصائصه أنه لايبلى ولايتسخ وأنه لايطول على طوله ولايزداد إلا حسنا ونورا ـ قصص الانبياء وجه ١٥٨ / أ .

وجود يوسف بما ألقى الله فى روعه عليه السلام من حياته . أو أنه شم رائحة قميص يوسف لما فصلت العير من مصر ، إلا أن هذا التأويل ترد عليه عدة إشكالات منها :

١ — أن يعقوب عليه السلام كان ـ بما علمه الله تعالى ـ يعلم أن يوسف على قيد الحياة ، وهو طوال القصة يستحث أبناءه على البحث عنه ، فكيف يقال إنه علم بحياته عليه السلام فقط عندما فصلت العير بقميصه عن مصر ؟

٢ — لايخلو أن يكون لدى آل يعقوب بعض آثار تتعلق بيوسف عليه السلام وأولها قميص الدم المشهور ، إذ الإنسان مجبول على الاحتفاظ بآثار كل عزيز لديه ، فكانت هذه الآثار بالشم أولى من قميص البشرى .

٣ — إن الجميع قد فهموا من مقالة يعقوب إصراره القديم على أن يوسف على قيد الحياة ولذا لاموه وفندوا قوله .

٤ — كيف يشم يعقوب عليه السلام وهو فى أرض كنعان ، رائحة قميص يوسف على حدود مصر . ولا يشم ريح يوسف حين كان فى الجب وهو قريب من مكان آل يعقوب ؟

٥ — كذلك يقال لئن شم رائحة القميص على حدود مصر ، ألم يكن الأولى أن يشم من قبل رائحة صاحبه وهو فى مصر ؟

والجواب عندنا الذى تسقط به جميع هذه الإشكالات : أن رائحة يوسف عليه السلام لم تحجبها سوى الأسباب الحائلة دون اجتماع الشمل ، معنى ذلك أنها لاتزال منعدمة طالما قامت هذه الأسباب ، فلما زالت باعتراف الإخوة بخطئهم ، وبحملهم للبشرى وتوجههم قاصدين أرض كنعان ، زالت الأسباب التى تحجب رائحته عليه السلام ، فظهرت ظهورا حسيا يدرك بحاسة الشم ، ولم يولد هذه الإشكالات سوى العدول عن النص إلى لفظ لايقتضيه السياق ، فلا يجوز العدول عن قوله (إنى لأجد ريح يوسف) إلى قولهم (إنى لأشم ريح قميص

يوسف) : وشتان مابين المعنيين ، فإن الأول لايرتبط بملبس ولا بمسافة، بل هو مرتبط وجودا وعدما بالأسباب الحاجبة لوجود يوسف واجتماع شمل آل يعقوب ، فلما زالت هذه الأسباب ظهرت رائحته عليه السلام مبشرة بالتآم الشمل ، وكان حملهم القميص معهم برهانا على زوالها ، فتوافق وجود الاثنين معا : زوال الأسباب مع وجود القميص ، إلا أن زوال الأسباب هو الأصل فى شم الرائحه .

وفى قوله (إنى لأجد ريح يوسف) من البينات : أن موعد اللقاء قد اقترب ، وأن الإخوه فى هذه المرة سيرجعون من مصر حاملين بشرى اجتماع الشمل ، وكانوا من قبل يتوجسون شرا من رحلتهم بعد ماجرى لهم مع عزيز مصر . كما يدل ضمناً على أن الإخوة قد ثابوا إلى رشدهم ، وصفت أنفسهم تجاه أخويهم .

﴿ قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم - ٩٥ ﴾ .

يعنى إنك لاتزال موغلا فى محبة يوسف كعهدك ، متعلقا بلقائه ، وهو تعلق بالمحال ، وهذا كلام من حضر من آل يعقوب يرددون كلام إخوة يوسف من قبل ﴿ إن أبانا لفى ضلال مبين ﴾ .

﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ﴾ :

روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أن البشير هو البريد — وعن الضحاك مثله . قال سفيان هو يهوذا : أراد أن يفرح أباه ، كما أحزنه حين جاءه بالقميص ملطخا بالدم .

﴿ فارتد ﴾ إنقلب إلى حال قد كان عليها وهى الإبصار . أراد عليه السلام أن يكون السبب فى رد بصر أبيه إليـــه لأنه السبب فى حزن أبيه عليه حتى أبيضت عيناه من الحزن، رحمة من الله تعالى كيلا يتحمل من مشقة الحياة والسفر

مايتحمله من ذهب بصره أوكاد ، ولتكون فرحة اللقاء تامة مصحوبة بنعمة الرؤية والمشاهدة .

قال القشيرى (لو ألقى قميص يوسف على وجه من فى الأرض من العميان لم يرتد بصرهم ، وإنما رجع بصر يعقوب بقميص يوسف على الخصوص)[1]. وقال القاسمى (فى الكنوز من كتب الطب إن الفرح إن كان بلطف فإنه ينفع الجسم ويبسط النفس ويريح العقل ويقوى الأعضاء)[2] .

ثم ذكرهم يعقوب عليه السلام بما كان يردده عليهم من طلب يوسف عليه السلام بينما كانوا يعتقدون أنه مفقود أو هالك (ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون ـ ٩٦) عن حياة يوسف عليه السلام .

إرجاء يعقوب عليه السلام الاستغفار لأبنائه :

﴿ قالوا ياأبانا أستغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين — ٩٧ — قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم ـ ٩٨ ﴾ .

ذهب كثيرون إلى أنه عليه السلام قد أخر الاستغفار لبنيه إلى يوم الجمعة أو إلى السحر لأنه ساعة الاستجابة ، ويعترض على ذلك بأن دعاء الرسل لا يؤجل بسبب الوقت ، وإنما يؤجل لأمور لم يأذن الله تعالى لهم فيها بالدعاء وهذه لاتكون مرهونة بوقت . وجوابه عليه السلام لأبنائه ينبههم على أمور خفيت عليهم ، منها :

— أن طلب الاستغفار يجب أن يوجه إلى أخيهم عليه السلام ، وهو الذى وجهوا إليه ماوجهوا من إساءة ، وهو صاحب الحق المطلق فى الصفح عنهم .

— لا يحق لهم أن يتخطوا أخاهم فى طلبهم الاستغفار وهو نبى مرسل لما فى هذا التخطى من معان يصح أن يحمل عليها ، منها :

---

(١) القشيرى : لطائف الاشارات ج ٣ ص ١٠٧ ، والمعنى أنها آية خاصة به عليه السلام.

(٢) القاسمى : محاسن التأويل ج ٩ : ص ٣٥٩٠ .

• أنهم لا يضعون الأمور فى مواضعها، وليس هذا من شيم طالب المغفرة .

• أنهم يتجاهلون مرتبة يوسف عليه السلام .

• حمل موقفهم على عدم المبالاة بما ارتكبوه فى حقه ، مما قد يتبادر معه أن نفوسهم لم تصف نهائيا .

• قد يحمل تخطيهم لأخيهم على أنهم تعمدوا ذلك علوا واستكبارا، وليس هذا من صالحهم بعد ماظهر لهم من البينات ماظهر .

فإن قيل إن يوسف عليه السلام قد بادرهم بالاستغفار لهم فيبقى الاعتراض قائما ؟ قلنا إن المقصود هو مبادرتهم هم إلى طلب ذلك من أخيهم ، وهذا مالم يفعلوه خاصة وأن أخاهم قد كفاهم ذلك وأغناهم عن طلبه ، وسواء أخبروا أباهم باستغفار أخيهم لهم أم لم يخبروه . فإنه توقف عليه السلام حتى يجتمع الشمل ويشهد من أخيهم تمام الصفح عنهم: (فوعدهم بالاستغفار لهم فى المستأنف إذا رضى عنهم يوسف حيث كان الحق أكثره له ، ولو كان ليعقوب لوهبهم على الفور)[1] . فتأمل رحمة يعقوب عليه السلام بأبنائه حين تضمن جوابه لهم معنى الموافقة على مايطلبونه ، ولكن بعد أن يتثبت من صفحه عليه السلام عنهم وزوال مافى نفوسهم تماما تجاه أخويهم ، ولعل ذلك كان حين خروا سجدا طبقا لرؤيته عليه السلام .

آل يعقوب فى مصر :

بعد مضى عامين منذ ابتدأت المجاعة ، أرسل عزيز مصر المركبات التى تحمل آل يعقوب إلى مصر ، وخرج هو بنفسه فى موكبه ليتلقى أباه شوقا إليه وتكريما له عليه السلام : روى أنه لما التقى بأبيه تعانقا ، وقال له يعقوب عليه السلام (السلام عليك يامذهب الأحزان) وجعل يضمه وينظر إليه وهما يحمدان الله تعالى ، حتى بكى كل من شهدهما .

(١) القشيرى : لطائف الاشارات ج ٣ ص : ٢٠٧ / ٢٠٨ .

﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين — ٩٩ ﴾ .

ضم أبويه إلى موكبه تكريما لهما وإعلانا عن علو منزلتهما ، وليصحباه فى دخول مصر دون أن يتحملا مشقة السفر مع ركب آل يعقوب، وقال لإخوته ملتفتا إلى مايدور فى خلد المهاجر إلى بلد غير موطنه ، من القلق على أمنه واستقراره وماسيؤول إليه حاله ﴿ ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ . قال القاضى عبد الجبار (إن إدخال المشيئة فى الخبر عن المستقبل مما أدبنا الله به تخليصا للكلام من الكذب ، وانقاذا له عن أن يكون خبرا جزماً . لأن العبد لايعلم ماسيكون فى المستقبل فالواجب عليه أن يوردالخبر على هذا الوجه[1].

قال المهايمى (ولما مكر معهم فى المرة الأولى - مع تعظيمهم - قال لهم الآن ﴿ إن شاء الله آمنين ﴾ من مكرى ومؤاخذتى إياكم على مافعلتم)[2] .

﴿ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هـذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقـد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم — ١٠٠ ﴾

أجلس عليه السلام أبويه[3] على العرش عن يمينه وشماله إجلالا لهما وتعريفا بعزة مكانتهما ، وإخوته قياما بين يديه ﴿ وخروا له سجدا ﴾ (قيل

---

(١) القاضى عبد الجبار : متشابه القرآن القسم الأول ص ٣٩٦/٣٩٧ .

(٢) المهايمى : تبصير الرحمن ج ١ ص ٣٧٤ .

(٣) الأبوان : الأب والأم غلب أحد الإسمين على الآخر . ويقال أيضا للعم أب: (وإله آبائك إبراهيم واسماعيل واسحق) ٢ : ١٣٣ - ويقال للخالة أم وللخال أب .

معناه : خروا لأجله سجدا[١] لله شكرا ، ووافق السجود وجود يوسف فى قبلتهم ، وقيل الضمير فى قوله « له » لله عز وجل ، والأظهر الأشهر أنه كان ليوسف لأن الرؤيا كانت على ذلك)[٢] .

وقال ابن أبى بكر الرازى لعل السجود عندهم كان (تحية وتكرمة كالقيام والمصافحةعندنا ، وقيل كان انحناء كالركوع ، ولم يكن بوضع الجبهةعلى الأرض إلا أن قوله تعالى (وخروا) يأبى ذلك ، لأن الخرور عبارة عن السقوط ، ولا يرد عليه قوله تعالى (وخر راكعا)[٣] لأنهم قالوا أراد به ساجدا ، فعبر عن السجود بالركوع ، كما عبر عن الصلاة فى قوله تعالى (واركعوا مع الراكعين)[٤] أى صلوا مع المصلين — وقيل (له) أى لأجله ، فاللام للسبق لا لتعدية السجود إلى يوسف عليه السلام : فالمعنى وخروا لأجل يوسف سجدا لله تعالى شكرا على جمع شملهم . وقيل الضمير فى (له) يعود إلى الله تعالى ، وهذا الوجه يدفعه قوله تعالى (يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا)[٥] .

ويقول القاضى عبد الجبار (فأما السجود فإنهم إنما سجدوا لله وعبدوه كما سجدت الملائكة إلى جهة آدم عليه السلام)[٦] .

---

(١) قال ابن فارس : فى مادة سجد : السين والجيم والدال أصل واحد مطرد : يدل على تطامن وذل يقال : سجد : إذا تطامن . وكل ماذل فقد سجد : قال ابو عمرو أسجد (بسكون السين بعدها جيم مفتوحة) الرجل إذا طأطأ رأسه وانحنى . . . إلى أن قال : ودراهم الإسجاد : دراهم كانت عليها صور ملوكهم وكانوا إذا رأوها سجدوا لها ، وهذا فى الفرس .

(٢) مابين (القوسين) ملخص من تفسير سورة يوسف لسرورى الرومى . خط/ دار الكتب .

(٣) سورة ص من الآية : ٢٤ .

(٤) طولى الزهراوين من الآية ٤٣ .

(٥) محمد بن أبى بكر الرازى : أنموذج جليل : ج : ١ : ص : ١٥٠ .

(٦) القاضى عبد الجبار : متشابه القرآن : القسم الأول : ص : ٢٩٧ .

قلت إن شريعتهم كانت تجيز اتخاذ المخصوصين بنعمة الله تعالى قبلة لهم عند سجودهم فى أحوال معينة ، وفى هذه الحالة يكون من اتخذوه قبلتهم ، قد اختاروه إمامهم وقدوتهم .

واحترازا من سوء الظن بتأويل هذا المجلس الشريف : بأنه مجلس عز وسؤدد ليوسف ، ومذلة ومهانة لآل يعقوب : بادر عليه السلام إلى بيان حقيقة الأمر (قال يا أبت) مخصصا أباه بالخطاب لعلو مكانته ، غير ملتفت إلى غيره ، مناديا له عليه السلام نداء الفطرة والمحبة والإعزاز (يا أبت)[1] أنت تعلم أن هذا ليس مقام الذل لإخوتى بل هذا هو موطن الشكر والثناء على الله عز وجل .

ولما كان هذا هو أول اجتماع لآل يعقوب بعد زمان طويل حافل بالأهوال ولما احتاج المقام إلى إيجاز ماجرى لآل يعقوب خلال سنى الفرقة الطويلة ، فقد أجملت الآية الكريمة ذلك فى كمال وجمال يأخذ بالألباب وتسجد له العقول ... فما حدث لى ولكم : هو تأويل رؤياى وأنا غلام ، وقد أحسن الله تعالى إلى وإليكم : إلى : إذ برأنى مما قالوا وأخرجنى من السجن وولانى عزيزا على مصر ، وإليكم إذ أبطل نزغ[2] الشيطان وإغرائه بينى وبين إخوتى ، وجاء بكم من البدو فاجتمع الشمل وكمل الأمر ، وكفاكم مشقة الحياة فى البدو خلال هذه المجاعة الرهيبة . (إن ربى لطيف لما يشاء) يوصل المرافق فى يسر

(١) من فقه الآية الكريمة أن أبناء الرسل يخاطبونهم بلفظ (ياأبت) ، ولما نزل قوله تعالى (لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) ـ سورة النور من الآية ٦٢ ـ عدلوا عن تسميته وتكنيته صلى الله عليه وسلم إلى قول (يارسول الله) . وصنعت السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام كصنيعهم ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم (قولى ياأبت فإنه أرضى للقلب وأرضى للرب) .

(٢) نزغ الشيطان إفساده بين الناس بوسوستة ، ولايكون إلا مستورا . يقال نزغ فلان فلانا بكلمة قبيحة إذا أسمعه إياها خفية . والآية تلمس فى حكمة بالغة ماصنعه الإخوة ولم تخصص فريقا دون فريق بنزغ الشيطان ، لأن هذا مفهوم غير محتاج إلى بيان .

وهناء وستر من حيث لا يحتسب أحد . وهو وحده القادر على جعل مايبدو سببا للهلاك ظاهراً ، سببا لوصول النعمة حقيقة ، فكان كل بلاء تعرضت له سببا فيما وصل إلى آل يعقوب من نعم ، كما جعل النار بردا وسلاما على الخليل إبراهيم عليه السلام (إنه هو العليم الحكيم) تفسير لقوله (لطيف لما يشاء) لأن من كان هذا لطفه العظيم كان علمه محيطا بكل شيء ، ولا تخفى على حكمته خافية فى الأرض ولا فى السماء .

قال الإمام محمد بن أبى بكر الرازى :

فإن قيل كيف ذكر يوسف عليه السلام نعمة الله تعالى عليه فى إخراجه من السجن فقال (وأحسن بى إذ أخرجنى من السجن) ولم يذكر نعمته عليه فى إخراجه من الجب وهو أعظم لأن وقوعه فى الجب كان أعظم خطرا ؟

(قلنا إنما ذكر هذه النعمة دون تلك النعمة لوجوه : (أحدها) : أن محنة السجن ومصيبته كانت أعظم لطول مدتها فإنه لبث فيه بضع سنين وما لبث فى الجب إلا مدة يسيرة (الثانى) : أنه إنما لم يذكر الجب كيلا يكون فى ذكره توبيخ وتقريع لإخوته بعد قوله (لاتثريب عليكم اليوم) . (الثالث) : أن خروجه من السجن كان مقدمة لملكه وعزه ولذلك ذكره ، وخروجه من الجب كان مقدمة الذل والرق والأسر فلذلك لم يذكره . (الرابع) : إن مصيبة السجن كانت أعظم عنده لمصاحبة الأوباش والأراذل وأعداء الدين ، بخلاف مصيبة الجب فإنه كان مؤنسه فيه جبريل وغيره من الملائكة عليهم السلام)[1] .

قلت إن الوجه الثانى هو أحسنها . وباقى الأوجه لاتفى بالمعنى بالمطلوب ،

---

(١) محمد بن أبى بكر الرازى : أنموذج جليل ج: ١: ص ١٥٠ . وذكر ابن ظفر فى ينبوع الحياة ج ٣ ق ٤١ / ب تعليلات واهية لا داعى لذكرها .

ونضيف عليه ماهو أهم من ذلك كله : وهو أنه عليه السلام بوصفه نبيا مرسلا قدم الخروج من السجن على غيره لأن الخروج صاحبه إعلان براءته الكاملة أمام الملأ ، وحادث الجب لايحمل أى اتهام له ، ويؤخذ منه تقديم التخلية على التحلية .

استغراقه عليه السلام فى مناجاة الخالق سبحانه :

بعد أن بين عليه السلام النعم المنطوية فى كل مامر بآل يعقوب من المشقات تثبيتا للمؤمنين وتمحيصا لما فى قلوبهم من التوكل وتفويض الأمور إلى الله جل ثناؤه ، بعد هذا كله خرج عليه السلام من مخاطبة السامعين إلى الاستغراق فى مناجاة الحق جل جلاله منقطعا بكليته إليه تبارك اسمه ، وإلى ماغمره به تعالى من النعم ، وما أفاض عليه من العطاء الكامل ، لتكون هذه نعمت الخاتمة لأعجب قصة سبقت لنبي مرسل مع آله :

﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين - ١٠١ ﴾.

ومن جواهر كنوز علوم هذه الآية الكريمة :

• إن الملك والعلم إن كانا من الله تعالى كان الله سبحانه هو الولى فى الدنيا والآخرة .

• إن غاية الغايات التى يطلبها الإنسان فى الدنيا هى الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين ولايتم ذلك إلا إذا أستعان العبد بالخالق سبحانه لبلوغ هذا المطلب .

• إن هذا المطلب العظيم لاينال إلا من كان الله تعالى وليه دنيا وأخرى فتكون أفعاله كلها خالصة لله تعالى .

وقد أختصت الأمة المحمدية — آخر الأمم — باسم المسلمين دون سواها

من الأمم لأن نبيها الكريم هو خاتم الأنبياء والمرسلين لانبي بعده ، ولأن معجزته العظمى هى القرآن العظيم كلام الله عز وجل، مما حفظ الإسلام عقيدة وشريعة من كل تحريف ، أما غير هذه الأمة من الأمم فإنهم حين حرفوا وبدلوا فما استحقوا اسم المسلمين ، بل نسبوا إلى الأسماء المناسبة لتحريفهم وتبديلهم من يهودية ، أو نصرانية أو مسيحية أو صابئة إلخ ...

ومن الإعجاز القرآنى تخصيص هذه الأمة دون غيرها بهذا الإسم (هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير — ٧٨) ٢٢ : سورة الحج .

فإن قيل كيف قال يوسف عليه السلام (توفنى مسلما) وهو يعلم أن كل نبي لايموت إلا مسلما ! . أجاب عن ذلك الإمام محمد بن أبي بكر الرازى : (قلنا يجوز أن يكون دعا بذلك حالة غلبة الخوف عليه، غلبة أذهلته عن ذلك العلم فى تلك الساعة (الثانى) : أنه دعا بذلك مع علمه إظهارا للعبودية والافتقار وشدة الرغبة فى طلب سعادة الخاتمة وتعليما لأمته وطلبا للثواب) .

قلت : إن الدعاء مخ العبادة ، والنبوة لاتسقط العبادة بل تؤكدها ، ومامن نبي إلا وقد دعا الله تعالى أن يموت مسلما وأن يغفر له وأن يرحمه ، ولو سقط الدعاء لسقطت النبوة ، وفى ذلك إيذان للعالمين بطلب الإسلام والتمسك بكل مايعين على الوفاة على الاسلام ليفوز العبد بالنجاة وسعادة الدارين .

وفاة يعقوب عليه السلام :

كان اجتماع آل يعقوب بيوسف عليه السلام بركة عليهم جميعا ، وعظم يوسف عليه السلام فى عين أهل مصر بحضور آله، وعلموا أن عزيز مصر من ذرية الخليل إبراهيم عليه السلام ، وأذن فرعون لآل يعقوب بسكنى أرض

جاسان (بالشرقية حاليا) وأشرف خمسة من إخوة يوسف على ماشية فرعون .

واختلف المؤرخون فى مدة غيبته عليه السلام عن أبيه ، ففى رواية للطبرى عن الحسن أنها ثمانون سنة ، وفى رواية أخرى عن ابن إسحق أنها ثمانى عشرة سنة[١] ، قال الزمخشرى[٢] : (وكان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة) . وقدرها الشهيد سيد قطب بعشرين عاما[٣] .

قلت إن تحديدهم عمر يعقوب عليه السلام حين دخل مصر بنحو مائة وثلاثين سنة يحدد الغيبة بمدة سبعة وعشرين عاما .

وعاش يعقوب فى مصر سبع[٤] عشرة سنة ولما بلغ من العمر مائة وسبعا وأربعين جمع بنيه وأوصاهم بما وصاه به إبراهيم الخليل عليهما السلام :

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ١٣ ص ٤٠ : ٤١ .

(٢) الزمخشرى : الكشاف جـ ٢ ص ١٢١

(٣) فى ظلال القرآن : جـ ١٣ ص ١١ .

(٤) العهد القديم سفر التكوين الاصحاح « التاسع والأربعون » : قال يعقوب لبنيه (اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم فى آخر الأيام واسمعوا يابنى واصغوا إلى اسرائيل أبيكم :
روبين : أنت بكرى ، قوتى ، وأول قدرتى ، فضل فى الرفعة ، وفضل فى الشرف ، فائر كالماء ، لاتفضل لأنك علوت مضجع أبيك حينئذ ودنسته .
شمعون ولاوى : أخوان آلات ظلم سيوفهما مجلسهما لاتدخله نفسى . . .
يهوذا : إياك يحمد إخوتك . . . يهوذا شبل أسد الخ . . .
زبولون : عند ساحل البحر يسكن .
يساكر : (حمار جسيم رابض بين الحظائر . . . الخ) .
ومازال حتى فرغ منهم جميعا وقد بحث هذه النبوءة المتخصص التوراتى Eric Burrows فى مؤلفه (نبوءات يعقوب وبلعام)، وحاول أن يربط بين ماجاء فيها وبين الأبراج الفلكية، وانتهى إلى تقرير وحدة بين كل اسم من أسماء الاسباط وبين برج من ابراج السماء . فجعل روبين مقابلا لبرج الدلو لوصفه بانه فائر كالماء، وشمعون =

﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين — ١٣١ — ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون — ١٣٢) السورة التى ذكرت فيها البقرة .

﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون — ١٣٣) نفس السورة .

وفى العهد القديم أنه عليه السلام قبل وفاته دعا بنيه وأخبرهم بما يسميه اليهود والمسيحيون « نبوءات يعقوب »[١] Jacob's Oracles ، ويتفقون على أنها أقدم النصوص المنسوبة عندهم إلى الأنبياء بعد إبراهيم عليه السلام .

وأوصى يعقوب عليه السلام بنيه أن يحملوا جسده بعد وفاته إلى كنعان يدفن عند أبيه وجده ، فخرج به يوسف عليه السلام مع عسكره محمولا فى تابوت حيث دفن فى مغارة حبرون المعروفة بمدينة الخليل .

وفاة يوسف عليه السلام :

أقام آل يعقوب فى مصر ولم يزل يوسف عليه السلام يرعى إخوته وينظر فى شئونهم حتى دنا أجله ، فأوصاهم بما وصى به يعقوب بنيه ، كما أوصى بنقل جثمانه الطاهر معهم إذا عادوا إلى كنعان ليدفن مع آبائه هناك صلوات الله وسلامه عليهم .

واختلفت الروايات فى تقدير عمره عليه السلام مابين ١١٠ : ١٢٠ عاما فتكون مدة حياته بعد وفاة والده عليهما الصلاة والسلام مابين ٦٠ : ٧٠ عاما.

ولما توفى (جعل فى تابوت من الرخام وسد بالرصاص وطلى بالأطلية

= ولاوى « اخوان » اشارة إلى برج التوأمين وهكذا ... والذى نؤمن به أن كل ماخالف القرآن لاتصح نسبته إلى الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم .

الدافعة للهواء والماء وطرح فى نيل مصر عند مدينة منف وهناك مسجده)[١] فكان فى ذلك أبلغ الرد على المراسم الجنائزية الوثنية المعتادة فى ذلك العهد . ومكث هناك حتى (استخرجه موسى عليه السلام لما خرج من مصر)[٢] .

قال الدينورى (ولما توفى يوسف بن يعقوب وإخوته بأرض مصر ، بقى أعقابهم وكثروا فيها وكانوا فى زمان موسى عليه السلام ستمائة ألف رجـــل)[٣] .

خاتمة السورة

(ذلك من أنباء الغيب) التى لا يعلمها بشر ، وإنما كان علمك بها بوحى (نوحيه إليك) ليكون آية مبينة للعالمين أننا (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك) فالتفت آخر السورة إلى أولها . وإن انتفاء تلقيك لذلك عن بشر مثل انتفاء كونك لديهم ﴿ وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون - ١٠٢ ﴾ ، مما يقطع بأن لا معلم لك سوى الله سبحانه الذى علم أخوانك من النبيين والمرسلين من قبل (وما أكثر الناس) لإقبالهم على الدنيا بكليتهم (ولو حرصت) يا أحرص الخلق على هدايتهم (بمؤمنين - ١٠٣) مهما جاءهم من البينات التى تقتضى الإيمان والإسلام ، هذا مع انتفاء وجود أقل القليل من وجوه الإفادة منهم ﴿ وما تسألهم عليه من أجر ﴾ فيكون إعراضهم بسبب شىء تطلبه لنفسك - ولما أغرق فى نفى أدنى شبهة يستند إليها أعراضهم ، نفى عن الذكر الحكيم كل غرض دنيوى فقال ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين - ١٠٤ ﴾ جاءهم بالهدى الكامل ، والحكمة العليا ، والرحمة التامة ، وربما قيل إن هذا الذكر لايعلمه إلا الراسخون ، ويقصر فهم من عداهم عن الوصول إليه : عطف عليه بما يفيد انطباعهم على الإعراض عما لا يحيط به الحصر من

(١) المسعودى : مروج الذهب : جـ ١ : ص ٣٧ .

(٢) المطهر المقدسى : البدء والتاريخ جـ ٣ : ص : ٧٠ .

(٣) الدينورى : الأخبار الطوال جـ ١ : ص : ١١ .

الآيات الحسية التى تدعوهم إلى الإيمان : وهى من الوضوح بحيث لايحتاج تدبرها إلى أكثر من العقل الفطرى ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون - ١٠٥ ﴾ ولا ينفى عنهم هذا الإعراض اعتقادهم فى أنه سبحانه خالق هذه الآيات ، فإن إشراكهم به تعالى ألغى هذا الإيمان ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون — ١٠٦ ﴾ ومن شدة جهلهم إغراقهم فى الأمن من عذاب أقل أحواله أنه ممكن ، أو الأمن مما هو آتيهم بغتة لا محالة ﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون — ١٠٧ ﴾ ، (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة) بالوحى المنزل (أنا ومن اتبعنى) لا من هو على عمى أوشك ﴿ وما أنا من المشركين - ١٠٨ ﴾ - ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون - ١٠٩ - حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من تشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين - ١١٠ - لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ ذوى العقول الخالصة من شوائب الكدر والتى تعبر بهم إلى مواطن العبرة والحقيقة ، فيعلمون إن من قدر على ماقص من أمر يوسف وغيره من النبيين قادر على إعزاز من أنزل إليه هذا القرآن الكريم الذى (ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه) من الكتب المنزلة قبله وزاد عليها بأنه تبيان (وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة) ولما كان الذى لاينتفع بالشىء لايتعلق بشىء منه قال (لقوم يؤمنون — ١١١) .

﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون – ١٠٢ ﴾ سورة يوسف .

﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين – ١٢٠ ﴾ سورة هود.

الباب الخامس

تحديد الزمن التاريخى للقصة

البحث فى تاريخ الأنبياء والمرسلين قبل البعثة المحمدية تعترضه صعوبات منها ماهو عام ، ومنها ماهو خاص بالقوم أو البلد الذى عاش فيه النبى المرسل.

ويمكن التركيز على الصعوبات التالية التى تعترض الباحثين ، ملتفتين أثناء سردها إلى قصة يوسف عليه السلام :

* إن الكشوف الأثرية لم تغط سوى مساحات ضحلة من التاريخ القديم وتزداد المسطحات المجهولة كلما توغلنا فى القدم بعيدا عن الألف الأولى قبل الميلاد .

* يقول « هيستنجز [(١)] » إن من أهم أسباب الفشل فى تحديد العصر الحقيقى لكل نبى : هو عدم تصريح المصادر الأصلية باسم الملك ، مع خلو القصة من مفتاح يحدد تاريخها . [(٢)]

* إن الأسرات المصرية القديمة لم تكن دائما متتابعة زمنيا ، بل وجدت فترات تداخل فيها قيام الأسرات ، وغالبا مايحدث ذلك فى الفترة الممتدة بين قيام دولتين أو أسرتين وفى عصور الفوضى ، وحينئذ توجد الأسر المتوازية الحاكمة ، مما يؤدى إلى الوقوع فى الخطأ عند احتساب طول الفترة التى استغرقها حكم هذه الأسرات . ومن هنا نشأت فى التاريخ القديم : الحوليات المطولة ، والحوليات المختصرة . والأولى تسير على قاعدة التسلسل الزمنى لتعاقب الدولة والأسرات والثانية تراعى ظاهرة التوازى فتقصر مدة الحوليات.

* كان المصريون يطلقون على الحكام أسماء رسمية بخلاف أسمائهم الحقيقية مما يصعب معه التعرف على هؤلاء ، مالم تكن هناك الوثائق الدالة على حقيقتهم .

---

(1) J. Hastings ; A Dictionerg ofthe_Bible, voL., II, P. 770.

(٢) إن معرفة أسماء ملوك الدنيا وحكامها موضوع متروك للأبحاث الدنيوية ، وإن عدم التصريح بأسمائهم فى الكتب الالهية يشير إلى أن المناصب الدنيوية بالغة ما بلغت فليست بذات شأن ، فما بالك لو اتخذت منطلقا للشر .

يقول « جوزيفوس »[١] إن ملك مصر لما فوض إلى يوسف (عليه السلام) التصرف فى شئون الدولة سماه Psonthom Phaneah ويرادفه فى العبرية Zaphenath Paaneah الله يتكلم ؛ كما أطلق عليه لقب Zaf-n-to أى مخصب الأرض .

* انفردت المصادر العربية بتسمية ملوك مصر بأسماء عربية لم ترد فى قوائم فراعنة الاسرات المصرية ، فتعذرت الاستفادة منها . وهناك إتفاق بين المصادر العربية على إطلاق اسم « الريان بن الوليد »[٢] على الملك المعاصر ليوسف عليه السلام فى مصر .

* جرت عادة المصريين على نسبة أى عمل عظيم فى الدولة إلى فرعون بصفته الشخصية المحورية للبلاد .

* إن الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من المباهاة بالاعمال الدنيوية، فلا ينتظر منهم تخصيص شىء من أوقاتهم لتسجيل الاعمال والمباهاة بها ، أو إجراء الطقوس والمراسم التى يهتم بها الدنيويون فى حياتهم وبعد مماتهم . بل إن دفن يوسف عليه السلام كان ردا مباشرا على العادات الوثنية المتبعة فى دفن الموتى ، وتقديس الفراعنة وتخليد ذكراهم ، ولأن الأنبياء لا يزيدون فى قبورهم عما أمر به الشرع ، أصبح من المتعذر بعد مضى الزمن التعرف على مواضعهم الحقيقية .

* يلاحظ أن الملاحدة واللادينيين من المؤرخين والأثريين يعمدون إلى طمس الحقائق والتشكيك فيها ليتخذوا من ذلك مدخلا إلى الإلحاد فى الاديان والقول بأسطورية قصص الانبياء ، مسجلين على أنفسهم الخروج على أبسط

---

(1) Josephus : Jewish Antiquities, vol. IV, P. 207.

وراجع كذلك فى الاسم المصرى المطلق على يوسف عليه السلام :

S. sharpe ; The History of Egypt, vol. I, P., 30 | M. Fargeon . Les Juifsen Egypte, p. 65 and F. Petrie : The Egypt ofthe Hebrews and Herodotus, p., 118.

(٢) تاريخ الطبرى ج : ١ : ص ٣٤٧ ، ٣٦٣ ط دار المعارف .

قواعد البحث العلمي لدى المبتدئين : إذ الإختلاف لا على وقوع القصه ، بل هو بشأن تحديد وقتها وشتان ما بين الأمرين . ولو كان الإختلاف على التوقيت يجعل الأحداث أسطورة لاصبحت جميع الوقائع أساطير . ولكان أولاها وجود الجنس البشرى نفسه للاختلاف على تحديد تاريخ خلق آدم عليه السلام .

والمنهج الذى نسير عليه لتحديد العصر الذى دارت فيه حوادث القصة هو :

- بيان حوليات الانبياء على عمود النسب .
- بحث الوثائق والنصوص التى اعتمد عليها الباحثون فى هذا الشأن .
- مقارنة حوليات النسب بالأزمنة التاريخية التى حددها الباحثون لبيان مدى صحتها .
- محاولة الوصول إلى تاريخ القصة عن طريق تحديد تاريخ الخروج .
- مناقشة تاريخ الحوادث التى يمكن عن طريقها تحديد عصر القصة .

الحوليات المستندة إلى عمود نسب الأنبياء :

يمكن حصر المدد الواقعة بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إبتداء من الخليل عليه السلام إلى الهجرة المحمدية طبقا لما يعطيه عمود النسب وقد قسمناها إلى الفترات التالية :

- سنة الأساس هى مولد إبراهيم الخليل عليه السلام [1] :

— المدة إلى مولد يوسف عليه السلام = ٢٥٠ سنة، وإلى وفاته = ٣٦٠ سنة (عمر يوسف عليه السلام = ١١٠ سنة) .

— المدة إلى مولد موسى عليه السلام = ٤٢٥ سنة ، وإلى وفاته = ٥٤٥ سنة (عمر موسى عليه السلام = ١٢٠ سنة) .

---

(١) فى المصادر العربية عمره عليه السلام ١٧٥ سنة وفى العهد القديم = ١٢٠ سنة.

— المدة إلى مولد داود عليه السلام = ١٠١٠ سنة وإلى وفاته = ١٠٨٠ سنة (عمر داود عليه السلام = ٧٠ سنة)

* سنة الأساس هي ميلاد يوسف عليه السلام :

المدة إلى مولد موسى عليه السلام = ١٧٥ سنة وإلى وفاته = ٢٩٥ سنة

المدة إلى مولد داود عليه السلام = ٧٦٠ سنة وإلى وفاته = ٨٣٠ سنة

* سنة الأساس هي مولد موسى [1] الكليم عليه السلام :

المدة إلى مولد داود عليه السلام = ٥٨٥ سنة وإلى وفاته = ٦٥٥ سنة

— المدة إلى مولد سليمان عليه السلام = ٦٤٣ سنة وإلى وفاته = ٦٩٥ سنة (عمر سليمان عليه السلام = ٥٢ سنة)

المدة من داود عليه السلام إلى الهجرة المحمدية

— من مولد داود إلى مولد عيسى عليهما السلام = ١٠٤٠ سنة

— ومن ميلاد عيسى عليه السلام إلى الهجرة المحمدية [2] = ٦٢٢ سنة

علامات زمنية لايكاد يختلف عليها :

مدة حكم داود عليه السلام = ٤٠ سنة (من ١٠١٠ : ٩٧٠ ق م)

مدة حكم سليمان عليه السلام = ٣٩ سنة (من ٩٧٠ : ٩٣١ ق م)

---

(١) في المصادر العربية ولد لمضى ١٥٠٦ سنة على الطوفان، وتوفى لمضى ١٦٢٦ عليه. وبعضهم حدد مولده بعام ١٥٧١ ق . م (مدخل لدراسة مطامع اليهود ص ٦٣ . وولد هرون قبله بنحو ثلاث سنوات وتوفيا في عام واحد عليهما السلام .

(٢) فتكون جملة المدة مابين مولد الخليل عليه السلام إلى الهجرة المحمدية = ٢٦٧٢ سنة . أما ابن جرير فيذكر أن الكعبة المكرمة بنيت قبل الهجرة بنحو ٢٧٩٣ سنة فاذا كان عمر الخليل وقت بنائها تسعين عاما ، كانت المدة كلها = ٢٨٨٣ سنة . ومدة الخلاف في الحساب = ٢١٠ سنة .

فمن جعل حياة الخليل عليه السلام واقعة مابين ٢٠٠٠ : ١٨٢٥ ق م فان حياة يوسف عليه السلام تقع مابين ١٧٥٠ : ١٦٤٠ ق م وهذا يتناسب مع حوليات العهد القديم التى تجعل دخول آل يعقوب إلى مصر سنة ١٧٠٧ ق م. وهذا هو التاريخ الذى اختاره صاحب (مرشد الطالبين إلى الكتاب المقدس الثمين) .

وبناء على ذلك تقع حياة يوسف عليه السلام مابين ١٥٧٥ : ١٤٥٥ ق م وداود عليه السلام مابين ٩٩٠ : ٩٢٠ ق م .

ومن جعل حياة الخليل عليه السلام مابين ١٨٤٠ : ١٦٦٥ ق م كانت حياة يوسف عليه السلام واقعة مابين ١٥٩٠ : ١٤٨٠ ق م ، وموسى عليه السلام مابين ١٤١٥ : ١٢٩٥ ق م وداود مابين ٨٣٠:٧٦٠ ق م . وهذا يخالف جمهور المؤرخين باتفاق .

الوصول إلى عصر يوسف عايه السلام عن طريق تصعيد الحوليات ابتداء من داود عايه السلام :

	الاسم	المولد	الوفاة
١	داود عليه السلام	١٠٤٠	٩٧٠ ق ٠ م
٢	موسى عليه السلام	١٦٢٥	١٥٠٥ ق ٠ م
٣	يوسف عليه السلام	١٨٠٠	١٦٩٠ ق٠ م
٤	إبراهيم عليه السلام	٢٠٥٠	١٨٧٥ ق ٠ م

تحديد عصر القصة عن طريق معرفة تاريخ خروج الاسرائيلين من مصر :

ويتطلب ذلك معرفة مدة إقامتهم فى مصر وبطرح هذه المدة من تاريخ الخروج نصل إلى تاريخ القصة فى مصر :

أقدم الآثار المصرية الدالة على العلاقة بالعبريين :

ورد اسم عبريو أو عابريو فى ورقتين من أوراق البردى ترجمان إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، أى قبل تدوين سفر التكوين والخروج فى العهد القديم بمدة طويلة . وهاتان الوثيقتان محفوظتان بمتحف ليد بهولندا ، وهما ترجعان إلى عهد رمسيس الثانى .

الأولى يخبر فيها بكنفتاح سيده « انمحت » أنه نفذ أوامره التى تقول (أعط الجنود قوتهم واعط أيضا العبريو الذين ينقلون الحجارة لبناء الملك رعمسيس . . . فأنا أجريت عليهم رزقهم فى كل شهر بمقتضى الأوامر السامية) .

والثانية تدور حول نفس الموضوع إذ جاء فى نصها (أطعت ما أمرنى به سيدى قائلا أعط الجنود أرزاقهم والعبريو أيضا الذين ينقلون الحجارة لهيكل الشمس الذى انصرفت إليه عناية رعمسيس) إلخ .

ورجح بعض الباحثين ومنهم من جزم — مثل المطران الدبس[1] — أن العبريو هنا هم بنو إسرائيل .

أول إشارة إلى بنى إسرائيل فى الآثار المصرية :

عثر الأثرى فلندرز بترى عام ١٨٩٦م على لوحة[2] من الجرانيت الأسود يبلغ ارتفاعها ٣١٤ سم ، على أحد وجهيها نقش يتضمن ما قدمه الملك امنحتت

---

(١) المطران الدبس : مقال فى العبرانيين .
ويرجح الاستاذ سليم حسن أن العبريو والعابريو والخابيرو اسم واحد لجماعة من الساميين وأيد رأيه برسائل تل العمانة التى ذكرت غارات قبائل الخابيرو على فلسطين ، وذهب إلى هذا التفسير A. Lods فى الفصل الثانى من كتابه (Israel) .

(٢) عثر عليها فى كوم الحيتان بطيبة الانصر وقد أقيمت فى المعبد الجنائزى لمرنبتاح (منفتاح) وكان فى هذا المعبد قاعة تضم لوحة اسرائيل المشهورة (وراجع سليم حسن مصر القديمة ج ٦ ص ٥٨٦ و ج ٧ ص ١٠٧) .

الثالث لمعبد آمون . أما الوجه الثانى فهو قصيدة تحكى انتصارات منفتاح ابن رعمسيس الثانى على شعوب فلسطين فى السنة الخامسة من حكمه[١] .

ومما جاء فى اللوحة خاصا بالإسرائيليين[٢] عبارة ترجمها الأثريون بأوجه مختلفة متقاربة وهى :

(وقوم إسرائيل قد صاروا فقراء وبذرتهم انقطعت) : برستد

(وقوم إسرائيل قد تلفوا وليس لديهم بذر) : بترى

(والإسرائيليون قد محوا وبذرتهم لا وجود لها) : فافيل

واستنتج بعض المؤرخين والأثريين من هذه اللوحة (مثل بترى ومالرو) أن ذلك كان بعد الخروج لأن (التسلسل التاريخى يدعم وجهة النظر القائلة بأن الخروج قد تم فى منتصف القرن الخامس عشر لأن الإشارة إليهم كشعبة جنسية يسجلها أحد فراعنة مصر بعد أكثر من قرنين من الزمان ، تعنى استقرارهم فى بقعة ما ، والاعتراف بهم كقوم يعيشون عليها)[٣] .

وهناك قائمة الكرنك التى يرجع تاريخها إلى عام ١٤٧٩ ق م وقد اشتملت على أسماء ذات أصل متداول بين الإسرائيليين مثل (يعقوبال) و (يوسفال).

مدة إقامة الاسرائيليين فى مصر :

جاء فى سفر الخروج (وكان عند نهاية أربعمائة وثلاثين عاما فى ذلك اليوم عينه خرجت جميع أجناد الرب من أرض مصر) خروج ١٢ : ٤١

وهذا النص سبب إشكالا أمام الشراح والمعلقين على العهد القديم : فطبقا لحوليات عمود النسب فى العهد القديم نفسه تكون مدة الإقامة حتى الخروج

(١) حكم منفتاح عند أرمان / رانكه / برستد (١٢٢٥ : ١٢١٥ ق م) وعند دريوتون / فانديه (١٢٣٢ : ١٢٢٤ ق م) .

(٢) الترجمة الكاملة فى الادب المصرى القديم جـ ٢ ص ٢١٤/٢١٩ . وكذا فى :
Hall : The Ancent Historg of The Near East : p. p., 408, f.f.

(٣) د . نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم : جـ ٣ : ص ٢٤٣ .

= ٢١٥ سنة. وقد نبه الشيخ رحمة الله الهندى إلى هذا التناقض مستشهدا بالعهد القديم وأقوال شراحه بما لا يحتاج إلى مزيد من البيان[1]، وقد صرحت حوليات (مرشد الطالبين) أن إقامة إخوة يوسف وأبيهم فى مصر كانت سنة ١٧٠٦[2] ق . م ، وأن عبور الإسرائيليين بحر القلزم، وغرق فرعون كان عام ١٤٩١ ق م[3] . وهذا ما يتفق مع الفارق الزمنى بين يوسف وموسى عليهما السلام فى عمود النسب . وأراد الشراح الخروج من هذا اللبس فأضافوا إلى عبارة العهد القديم لفظ (وكنعان) ، فتكون مدة ٤٣٠ سنة يقصد منها مدة إقامة بنى إسرائيل فى هذين البلدين . ولكن هذا لا يغير شيئا إذ أن المدة من ولادة يعقوب عليه السلام إلى خروج بنى إسرائيل تساوى ٣٤٥ عاما .

من هو فرعون الخروج ؟

تعددت الأقوال فى اسم فرعون الخروج ونلخص أهمها فيما يلى :

(ا) من فراعنة الأسرة ١٨ :

١ — حتشبسوت : وهو رأى الأستاذ جيديك[4] أستاذ المصريات حاليا بجامعة هوبكنز ويؤيد رأيه بلوحة ملكية معاصرة للملكة حتشبسوت (١٥٠٤ — ١٤٨٣ ق. م)[5] جاء فيها (كان صولجانى يصوب النيران نحو أعدائى وعندما سمحت لمن أهانوا الآلهة بالرحيل فإن الأرض ابتلعت آثار أقدامهم وقد كان ذلك بتوجيه من الأب الأزلى الإله « من » مصدر الحياة الذى جاء لى يوما دون أن أتوقع) الخ ...

٢ — أمنحتب الثانى (١٤٥٠ — ١٤١٥[5] ق . م) ، أيد ذلك دانيل

---

(١) رحمة الله الهندى : إظهار الحق ج : ١ ص ٢٦٧ ومابعدها .

(٢ ، ٣) « مرشد الطالبين إلى الكتاب المقدس الثمين » : ص ٣٤٦ و ٤٣٧ على التوالى .

(٤) ربط الاستاذ جيديك تاريخ الخروج بانفجار بركان ثيرا سنة ١٤٧٠ ق . م كما سيأتى بيانه ، ووافق ذلك — فى نظره — حكم حتشبسوت .

(٥) هذه التواريخ طبقا لدريوتون / فانديه / وموسوعة تاريخ العالم .

روبس[١] ، ودريوتون (فى واحد من افتراضين افترضهما ، أما افتراضه الثانى فيحدد منفتاح) .

(ب) من فراعنة الأسرة ١٩ :

٣ — رمسيس الثانى (١٢٩٢ - ١٢٢٥ ق . م) أو (١٢٩٨ - ١٢٣٢ق.م):
أيد ذلك « جارنو »[٢] ورولنسون Rawlinson الذى حدد تاريخ الخروج بعام ١٢٨٠ ق . م .

وذكر ويلز[٣] أن الخروج قد تم ما بين ١٢٤٠ : ١٢٣٠ ق . م ويوافق هذا عهد رمسيس الثانى .

٤ — مرنبتاح الأول (منفتاح) وهو ابن الفرعون السابق وقد حكم ما بين (١٢٢٥ — ١٢١٥ ق . م) أو ١٢٣٢ : ١٢٢٢ ق . م) وقد اشترك مع أبيه فى الحكم فى أواخر أيامه حين طعن رمسيس الثانى فى السن (حكم٦٧سنة) وكان ابنه طاعنا فى السن أيضا ولذا قال لموسى عليه السلام (قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين — ١٨) سورة الشعراء .

---

(1) Daniel—Rops : A History ofthe Israelites, P. 301.
(2) Garnot ; Dic'ionnaire de la Bible.

وفرعون الاضطهاد فى نظره هو : سيتى الأول .

(١) ويلز : معالم الانسانية جـ ٢ ص ٢٤١ : ٢٤٢ .

ويجمع شراح العهد القديم على أن رمسيس الثانى هو فرعون الاضطهاد وثبت من الوثائق أنه سخر الاسرائيليين فى بناء مدينتى « بر رعميس » أى قصر رعميس وقد بناها لتكون مركزا لمراقبة تحركات الأسيويين على الحدود . والثانية « بيثوم » أو « برتوم » أى معبد أو بيت أتوم والأولى بناها موضع العاصمة الهكسوسية « حات اوارت » أو Avaris التى حرفت إلى أواريس . وقد كشف الأثرى المصرى محمود حمزة عن موضعها سنة ١٩٢٨ مكان بلدة قنتيرا . أما الثانية فموضعها اليوم التل الكبير طبقا لتحقيق الاستاذ محمد رمزى فى القاموس الجغرافى مخالفا من جعلها موضع تل المسخوطة مثل نافيل Naville (راجع القاموس الجغرافى : القسم الأول البلاد المندرسة ص١٨٤ ، والقسم الثانى جا :ويتضمن محافظات الشرقية والقليوبية والدقهلية: ص ٦٦) .

ومن جهابذة المتخصصين فى الإيجيبتيولوجى الذين صرحوا بأنه فرعون الخروج :

Brestead,(١) Brugsch, Ebers, Naville,(٢) Petrie, Sayce.(٣) etc...

ويؤيدهم جمهور شراح العهد القديم ، وبما نقله جوزيفوس عن مانيثون أن منفتاح لما سأل رئيس الكهنة أن تتجلى له الآلهة أجابه قائلا (لن يكون لك ذلك حتى تطهر البلاد من المدنسين)(٤) يعنى الإسرائيليين .

ومن القرائن الدالة على ذلك أنه لم تعد له مقبرة خاصة لدفنه كما يفعل الفراعنة وهذا الرأى يجعل قصة يوسف عليه السلام معاصرة لأمنحتب الثانى (١٤٤٨ : ١٤٢٠ ق م) من فراعنة الأسرة ١٨ .

(حـ) الرأى القائل بأن الخروج قد تم فى أوائل عهد الأسرة العشرين :

ومن يؤيد هذا القول : Kittel, Myers, wiedemann etc.

ويرجح ما يرز أنه تم عام ١١٨٠ ق . م أثناء حكم رمسيس الثالث (١١٩٨ — ١١٦٧ ق . م) .

ونحن نرد كل قول يجعل الخروج أثناء حكم أحد الفراعنة ، إذ نشترط أن يكون نهاية حكمه وإلا كان هذا القول باطلا حتما .

محاولة تحديد زمن الخروج عن طريق الحوادث الموازية أو المقاربة :

• من ذلك ما جاء فى العهد القديم محددا تاريخ الخروج فى سفر الملوك الأول ٦ : ١ (وكان فى سنة الاربعمائة والثمانية لخروج بنى إسرائيل من أرض مصر فى السنة الرابعة للملك سليمان على إسرائيل فى شهر زيو وهو الشهر الثانى أنه بنى البيت للرب) ولما كان العام الرابع من حكمه عليه السلام يوافق

---

(١) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور : ص ٣٠٠ : ٣١٤ .

(2) Naville : Archeology of the Old Testament, P., 93.

(3) Sayce : The Hig her Criticism and the Monuments.

(٤) شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ج:١: ص٨١ ومابعدها . ط بولاق ١٨٩٨ : ١٩٠٠ فى ٤ مجلدات .

عام ٩٦٧ ق . م ، فإن تاريخ الخروج يوافق عام ١٤٤٧ ق م ، وبناء عليه يوافق دخول آل يعقوب مصر عام ١٦٦٢ ق م .

- ومنه : تدمير أريحا : ويتفق المؤرخون على وقوعه عام ١٤٠٧ ق م ، ويتفقون على أنه حدث عقب فترة التيه مباشرة ، ومدتها أربعون عاما ، وبناء عليه يكون الخروج عام ١٤٤٧ ق م ويحدد ذلك دخول آل يعقوب مصر بعام ١٦٦٢ ق . م أيضا .

- ومن ذلك انفجار بركان جزيرة « thira » (هي حاليا جزيرة Santorin) وتقع شمال جزيرة كريت بنحو ١١٣ كم . وقد ربط E. Stechow ، بين هذا الانفجار البركاني وبين حادث الخروج . ثم جاء من تبنى هذه النظـــرية من المؤرخين والمتخصصين في المصريات وآخرهم « هانز جيديك » — الذي سبقت الإشارة إليه — والذي يمكن تلخيص بلورته للنظرية فيما يلي :

— حدث انفجار بركاني في جزيرة Thira عام ١٤٧٥ ق . م ، ووصلت أمواج المد البحري الذي أحدثه الانفجار إلى السواحل المصرية وتوغلت في المنخفض الواقع شـــرق بحيرة المنزلة حتى وصلت إلى ما يقرب من مدينة الاسماعيلية حاليا .

— سلك الاسرائيليون عند خروجهم من مصر الطريق الرئيسي المحاذي لسواحل البحر الأبيض وهو الطريق المطروق بين مصر وكنعان . ولما أحسوا باقتراب فرعون مع قواته ، تأهبوا للدفاع واختاروا هضبة تحميهم من الهجوم وتمكنهم من الدفاع . وتقع جنوب شرق بحيرة المنزلة .

— وصلت قوات فرعون من الجنوب ، في الوقت الذي وصلت فيه من الشمال أمواج المد الهائلة التي أحدثها الانفجار البركاني وكأنهما على ميعاد . وتجاوزت الأمواج الهضبة وأطبقت على فرعون ومن معه فأهلكتهم .

— يفسر هذا سبب عدول الإسرائيليين عن سلوك الطريق الشمالي ،

واتجاههم جنوبا نحو صحراء سيناء طلبا للنجاة بعد أن رأوا الهلاك قادما من الشمال ، معتبرين كذلك أن ما حدث علامة تنهاهم عن السير فى هذا الاتجاه . فضلوا فى التيه أربعين عاما .

ولا أدرى كيف غاب عن الأستاذ جيديك أن حتشبسوت التى حدث ذلك فى عصرها قد عاشت مدة بعد هذا الحادث، مع أن المفروض أن الأمواج قد أغرقتها طبقا لهذه النظرية .

هل جرت القصة فى عصر الهكسوس ؟ :

يختلف المؤرخون والمتخصصون فى المصريات على مدة حكم الهكسوس ويتبين فيما يلى مدى هذا الاختلاف مرتبين أحقابهم حسب ابتداء حكمهم[١]:

المؤلف	تحديد الحقبة ق . م	مدة حكمهم
ديورانت	١٨٠٠ — ١٦٠٠	٢٠٠
دانيل روبس	١٧٤٠ — ١٥٨٠	١٦٠
البرايت	١٧٢٠ — ١٥٥٠	١٧٠
شتوك	١٧١٠ — ١٥٧٠	١٤٠
هايز/ليون[٢]	١٦٧٥ — ١٥٦٧	١٠٨
تاريخ كامبردج القديم	١٦٥٠ — ١٥٨٠	٧٠

(١) هناك وثيقة هامة تؤرخ موجة آسيوية اجتاحت شرق الدلتا عام ١٧٣٠ ق م وأسس المغيرون مدينة « حت وعرت » أو «أواريس» لتكون عاصمة لهم . وهذه الوثيقة هى اللوحة رقم ٤٠٠ التى عثر عليها ماريبت عام ١٨٦٣ م فى تانيس (صالحجر) وقد اقيمت فى عهد رعمسيس الثانى تخليدا لذكرى زيارة ابيه وجده سنة ١٣٣٠ ق م لهذه المدينة بعد مضى ٤٠٠ سنة على أعلان عبادة ست فيها ولورجعنا إلى الوراء أربعمائة سنة لحلنا ذلك إلى عام ١٧٣٠ ق م ولوافق اعلان هذه العبادة سيطرة الهكسوس على مصر . ويقول د . أحمد فخرى (الرأى المتفق عليه نهائيا بين المؤرخين أن بدء حكم الهكسوس لابد وأن يقع بين عامين ١٧٣٠ ، ١٧٢٥ ق م) مصر الفرعونيه ص ٢٠٦ .

(2) Hayes & Lyon.

ويقسم مايتون عهدهم إلى ثلاث أسرات هى ١٥و١٦ و ١٧ ، وعدد ملوك هذه الأسرات على التوالى ٦ و ٣٢ و ٤٣ ، وعلى هذا فقد حكم منهم ٨١ ملكا . مع مراعاة أن الأسرة الأخيرة حكمت حكما موازيا لأسرة وطنية مقرها طيبة إلى أن تم طردهم على يد أحمس مؤسس الأسرة ١٨ .

ويذهب الكثير من شراح العهد القديم والمعلقين عليه إلى أن قصة يوسف عليه السلام حدثت فى عهد الهكسوس ، ومنهم مؤلفو كتاب « العهد القديم والدراسة الحديثة » وهم نخبة من الأساتذة المتخصصين فى دراسة العهد القديم : وعلى هذا الرأى جوزيف أنجوس Angus ، وهستنجز[1] فى قاموسه الإنجيلى ، ويجعل المعلق التوراتى لوثر كلارك Clark عصر الآباء العبريين فى كنعان ما بين ١٩٠٠ : ١٧٠٠ ق م ، وابتداء وجود آل يعقوب فى مصر عام ١٧٠٠ ق . م .

بل أن مؤلف كتاب « الفصول الأنسية فى التواريخ القدسية » يحدد عام إلقاء يوسف عليه السلام فى الجب بسنة ١٧٢٨ ق . م ، وأنه عليه السلام سجن عام ١٧١٨ ق . م .

ويقول Sayce إن الملك الهكسوسى الذى حكم يوسف عليه السلام فى عهده هو أبيبى Apepi أو ابوفيس Apophis وقد وضعه فى الترتيب الرابع من ملوك الهكسوس طبقا لورقة تورين ، وقد حكم ٤٠ عاما أو أكثر وحدد حكمه مابين (١٦٢٠ : ١٥٨٠ ق م) ويسمى أيضا عا . أو سر . رع Aa—User—Ra . ويوافق على هذا القول دانيل روبس Daniel Rops[2] ويقول إنه سمى يوسف Zaphenath Paaneah أى « الله يتكلم » . إلا أنه فى حولياته جعل حكمه فى بداية عصر الهكسوس[3] .

وذكر شيخ مؤرخى مصر القديمة بلا منازع — سليم حسن — إن

(1) Hasrings, J., : A Dicrionary of rhe Bible : vol. I, P., 398 & Vol. II P., 771.
(2, 3) Daniel Rops : Israel and the Ancient World, P., 46 & 301, Resp.

(شواهد الأحوال تدل على أن يوسف عليه السلام كان وزيرا لأحد فراعنه الهكسوس فى مصر)[١] ولم يحدد اسما معينا .

القرائن التى يستند إليها من وضع القصة فى عصر الهكسوس :

• سجل المصريون شعورهم العدائى تجاه الهكسوس على آثارهم ، بينما تدل الشواهد على العلاقات الودية مابين الهكسوس والعبرانيين ، ولعل ذلك كان من أهم أسباب اضطهاد الاسرائيليين بعد طرد الهكسوس ، لاتهامهم بالتواطؤ معهم ، ولأنهم أصبحوا موضع ريبة وشك ، إذ لايبعد أن يعيدوا الكرة فيتصلوا بأعداء مصر إذا ماسنحت الفرصة .

• استبعاد وصول غير مصرى إلى منصب وزير مصر الأول فى حكم فرعون مصرى ، ويسهل ذلك فى عهد حكم أجنبى[٢] .

• يلاحظ أن ثورة التوحيد حدثت فى عهد الأسرة ١٨ التى تولت الحكم بعد طرد الهكسوس مباشرة وهذا يرجع إلى آثار دعوة يوسف عليه السلام. ويؤيد ذلك أن اخناتون (١٣٧٠ — ١٣٥٢ ق . م) كان يمت بصلة نسب أو قرابة للآسيويين .

• حدوث مجاعة فى عصر الهكسوس فى عهد ملكهم «أبو فيس» بالذات ـ ورتبوا على ذلك أنه المعاصر ليوسف عليه السلام وممن أخذ بهـــذا الرأى G. Syncellus من مؤرخى القرن التاسع الميلادى .

آراء أخرى :

• إن يوسف عليه السلام كان معاصرا للأسرة الثانية عشرة فى عهد

---

(١) سليم حسن : مصر القديمة جـ ٤ هامش ص ١٩٧ .

(٢) وهو كلام لايسلم لصاحبه إذ تولى رجال يحملون أسماء آسيوية أعلى المناصب فى أزهى عصور الامبراطورية المصرية مثل Yan Chamu المندوب السامى المصرى لدى الإقليم السورى التابع لمصر والامير « دودو » وكانت سلطاته التالية لسلطات فرعون . وكان بعضهم يتسمى بأسماء مصريه والبعض الآخر يأبى أن يغير أسمه لقوة سلطانه .

سيزو ستريس[١] الأول (١٩٨٠ — ١٩٣٦ ق ٠ م) (وهو الفرعون الثانى فى هذه الأسرة) ، واستند أصحاب هذا الرأى إلى لوحة أثرية عثر عليها فى فى مقابر بنى حسن تثبت حدوث قحط شديد فى عهده . واختار ديورانت[٢] عهد سيزو ستريس الثانى (١٩٠٦ — ١٨٨٨ ق ٠ م) وهو رابع فراعنة هذه الأسرة ، أما تعليقات هالى[٣] فتضع عصره عليه السلام حوالى ١٨٠٠ ق م أى يوافق حكم امنمحمت الثالث ١٨٥٠ — ١٨٠٠ ق م ، أو الرابع ١٨٠٠ - ١٧٩٢ ق ٠ م ٠

• جعل توماس مان أكبر مؤرخ ألمانى لمصر يوسف عليه السلام ، القصه معاصرة لاخناتون ـ عاشر فراعنة الأسرة ١٨ (١٣٧٠ - ١٣٥٢ ق٠م) ٠

وبعـــد :

فإن الذين حاولوا بعيدا عن الهدى القرآنى تحقيق سيرة نبى مرسل قبل البعثة المحمدية ، قد عجزوا عجزا تاما عن إدراك مقصدهم ، بالرغم من تكاتفهم وتجنيدهم لجميع إمكانيات البحث العلمى الحديث لخدمة هذا الفرض ٠

ولقد فات هؤلاء أمران بدهيان :

الأول : أنه لم تدون من سير هداة البشرية سيرة كاملة قط سوى سيرة خاتمهم وإمامهم صلوات الله وسلامه عليه ، فقد سجلت سيرته الخالدة أدق تفاصيل شئونه صلى الله عليه وسلم ، منبئة عن أنه فخر البشرية وقمة الكمالات الإنسانية ، والمثل الإنسانى الأعلى الذى يبحث عنه كل محب لله تعالى .

والثانى : أن المصدر الحق الوحيد لقصص هداة البشرية من النبيين والمرسلين هو القرآن العظيم الذى خلد قصصهم ، وصانه من التحريف والتبديل ، ولولا الذكر القرآنى الحكيم : ماعرفت البشرية عن حقائق رسالاتهم شيئا ، بعد أن شوه المشوهون معالمها ، وحرفوها عن مواضعها .

---

(١) ويسمى أيضا اسرلسن الأول، ويضع ديورانت حكمه مابين ٢١٩٢ : ٢١٥٧ ق٠م٠

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة : الجزء الثانى من المجلد الأول ص ٣٨٦ .

وإن معلومات البشر جميعا فى هذا المجال لتتلاشى أمام ذلكم البيان الإلهى الكاشف عن حقائق الرسالات كشفا يجذب النفوس إلى التعلق بخالقها، ويحول بين المتمسك به وبين التردى فى مهاوى الفروض ومتاهات الظنون التى يخوضها أدعياء العلم والمعرفة الذين فشلوا حتى فى إدراك ماهو أسطع من الشمس من البديهيات فى كل زمان ومكان .

اللهم اغننا بالقرآن العظيم غنى لافقر بعده، وخلقنا بالخلق القرآنى لنتحقق باتباع من أنزلت عليه القرآن الكريم جزاه الله تعالى عنا خير ماجازى به نبيا عن أمته صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحابتهم ، ومن اهتدى بهديهم والحمد لله رب العالمين ؟

المؤلف

أحمد عز الدين عبد الله خلف الله

« مصادر الدراسة والبحث »

رموز :

خ : مخطوط . ط : مطبوع .

بدون : للإفادة بأن تاريخ الطبع غير مبين .

وإذا لم يصرح بمكان الطبع فهو القاهرة .

د : دار الكتب والوثائق القومية / ز : المكتبة الأزهرية .

م : ميكر فيلم بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية .

أولا : المصادر العربية

* الآلوسي : شهاب الدين محمود بن عبد الله ١٢١٧ : ١٢٧٠ هـ :

(١) : روح المعاني ط ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م .

* ابن الأثير : على بن محمد الشيباني الجزري ٥٥٥ — ٦٣٠ هـ :

(٢) : الكامل في التاريخ : الأول : ط ١٣٠١هـ .

* أحمد عز الدين : أحمد عز الدين عبد الله خلف الله :

(٣) : حتمية الحل القرآني .

(٤) : حتمية الهدى القرآني للتفسير الصحيح للوجود .

(٥) : صور من التأويل المبين لوجوه الإعجاز القرآني .

(٦) : القرآن يتحدى ط ١٣٩٧ هـ .

* أحمد كمال : ابن حسن بن أحمد ١٢٦٧ — ١٣٤١ هـ :

(٧) : العقد الثمين في تاريخ قدماء المصريين ط بولاق ١٢٠٠هـ .

* الأزهري : محمد بن أحمد الأزهري ٢٨٢ — ٣٧٠ هـ :

(٨) : تهذيب اللغة ١٥ ج ؛ ط ١٣٨٤ : ١٣٨٧ هـ .

* ابن الأعرابي : محمد بن زياد الأعرابي ت : ٢٣١ هـ :

(٩) : كتاب البئر . ط ١٩٧٠ م .

* الأوسي : عمر بن إبراهيم الأوسي الأندلسي ت ٧٥١ هـ :

(١٠) : زهر الكمام في قصة يوسف عليه السلام ط ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م .

* باجودة : حسن محمد باجوده :

(١١) : الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام ط ١٣٩٣هـ .

* البجيرمي : فتح الله البجيرمي :

(١٢) : قصة سيدنا يوسف / خ / د / أدب ٩٧٦٢ .

* بحيري : محمد عبد الوهاب بحيري :

(١٣) : الحيل في الشريعة الإسلامية ط ١٣٩٤ هـ .

* البخاری : الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ١٩٤ - ٢٥٦ هـ.
(١٤) : صحيح البخاری : عدة طبعات .
* البرماوی : أحمد بن إبراهيم بن محمد ت ١١٠٦ هـ :
(١٥) : الميثاق والعهد فی شرح من تكلم فی المهد/خ . د/ب ٢٢٧٢٩
* البغال : سيد حسن البغال :
(١٦) : موسوعة التعليقات على قانون العقوبات ط ١٩٦٥ م .
* البغوی : الحسن بن مسعود الفراء ٤٣٦ — ٥١٦ هـ :
(١٧) : معالم التنزيل (هامش تفسير ابن كثير) ط ١٣٤٧ هـ.
* البقاعی : برهان الدين إبراهيم بن عمر ت ٨٨٥ هـ :
(١٨) : مصاعد النظر / مخطوط / قمنا بتحقيقه .
(١٩) : نظم الدرر ط . حتى تفسير الجزء ٢٦ من القرآن الكريم بإعانة وزارة المعارف الهندية و إشراف الجامعة العثمانية ١٣٨٩ : ١٤٠٢ هـ (حققنا منه « جزء عم ») .
* بنانی : أبو بكر بن محمد ت ١٢٨٤ هـ :
(٢٠) : مدارج السلوك إلى مالك الملوك ط ١٣٢٠ هـ .
* البهاری : محب الله بن عبد الشكور الهندی ت ١١١٩ هـ :
(٢١) : مسلم الثبوت ط ١٣٢٦ هـ .
* البهی : محمد البهی :
(٢٢) : التفسير الموضوعی للقرآن (سورة يوسف) ط١٣٩٦هـ.
* البيضاوی : ناصر الدين عبد الله بن عمر ت ٦٨٥ هـ :
(٢٣) : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (عدة طبعات) .
* البيهقی : الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين ٣٨٤ — ٤٥٨ هـ :
(٢٤) : السنن الكبری / ١٠ جـ / ط الهند ١٣٤٤ هـ .
* التيجانی : أحمد بن محمد الحسنی ١١٥٠ — ١٢٣٠ هـ :
(٢٥) : جواهر المعانی ط ١٣٢٩ هـ .

* ابن تيمية : تقى الدين أحمد بن عبد الحليم ٦٦١ – ٧٢٨ ه :
(٢٦) : إقامة الدليل على إبطال التحليل .
(٢٧) : تفسير سورة الإخلاص ط بدون .
(٢٨) : دقائق التفسير: الجامع لتفسير ابن تيمية ٤ ج: ط ١٣٩٨ ه
(٢٩) : النبوات ط ١٣٤٦ ه .
* الثعالبى : أبو منصور عبد الملك بن محمد ٣٥٠ — ٤٢٩ ه :
(٣٠) : الإعجاز والإيجاز ط الآستانة ١٣٠١ ه .
* الثعلبى : أبو إسحق أحمد بن محمد النيسابورى ت ٤٢٧ ه :
(٣١) : قصص الأنبياء ط بولاق ١٢٨٦ ه وطبعات أخرى .
(٣٢) : الكشف والبيان فى تفسير القرآن / خ . د/ تفسير ٧٩٧ ه
* جاد المولى : محمد أحمد وآخرون :
(٣٣) : قصص القرآن .
* ابن جرير : الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ٢٢٤ — ٣١٠ ه :
(٣٤) : الآثار الباقية عن القرون الخالية .
(٣٥) : تاريخ الرسل والملوك ط ليدن ١٩٦٤ م والمعارف ١٩٦٠ م .
(٣٦) : جامع البيان عن تأويل القرآن . بولاق ١٣٢٨ ه .
* ابن جزى : محمد بن أحمد الكلبى ٦٩٣ — ٧٤١ ه :
(٣٧) : التسهيل لعلوم التنزيل ط ١٣٥٥ ه .
* الجصاص : أحمد بن على الرازى ت ٣٧٠ ه :
(٣٨) : أحكام القرآن ط الآستانة ١٣٢٥ ه .
* ابن جماعة : محمد بن إبراهيم بن سعد ٦٣٩ : ٧٣٣ ه :
(٣٩) : غرر البيان لمن لم يسم فى القرآن / م .
* الجمـــل : سليمان بن عمر العجيلى ت ١٢٠٤ ه :
(٤٠) : حاشية الجمل على الجـــلالين (الفتوحات الالهية) ط بولاق ١٢٩٣ ه .

* جواد علي : جواد علي :
(٤١) : تاريخ العرب قبل الإسلام ط بغداد ١٣٧٢ﻫ وما بعدها .
* ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ٥١٠ — ٥٩٧ ﻫ :
(٤٢) : ذم الهوى ط سعادة ١٣٨١ ﻫ .
(٤٣) : زاد المسير في علم التفسير ط . دمشق ١٣٨٤ ﻫ .
* الجوهري : أبو نصر إسماعيل بن حماد ت ٣٩٣ ﻫ :
(٤٤) : تاج اللغة وصحاح العربية تحقيق أحمد عبد الغفور عطار .
* الجوهري : أحمد بن الحسن الخالدي ت ١١٨٢ ﻫ :
(٤٥) : المباحث السنية في نزاهة الأنبياء / خ . د/ تفسير ٣٥٠
* الجويني : إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله ٤١٩ - ٤٧٨ ﻫ :
(٤٦) : الإرشاد/تحقيق محمد يوسف موسى وآخر ، ط١٣٦٩ﻫ .
(٤٧) : شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل / م .
(٤٨) : لمع الأدلة في قواعد أهل السنة والجماعة ط ١٩٦٥ م .
* الجلالان : الجلال المحلي ت ٨٦٤ ﻫ والجلال السيوطي ت ٩١١ﻫ :
(٤٩) : تفسير الجلالين ، عدة طبعات .
* ابن أبي حاتم : الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ت ٣٢٧ ﻫ :
(٥٠) : كتاب الجرح والتعديل ط الهند ١٣٧٣ ﻫ .
* الحافظ التيجاني : محمد الحافظ بن عبد اللطيف ت ١٤٠٠ ﻫ :
(٥١) : سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ط ١٣٨٩ ﻫ .
* الحاكم : الحافظ محمد بن عبد الله النيسابوري ت ٤٠٥ﻫ :
(٥٢) : المستدرك على الصحيحين ط الهند ١٣٣٤ ﻫ .
* ابن حجر : الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني ت ٨٥٢ﻫ :
(٥٣) : تهذيب التهذيب ط الهند ١٣٢٥ ﻫ .
(٥٤) : فتح الباري في شرح صحيح البخاري بولاق ١٣٠١ ﻫ .

* ابن حجر المكى : شهاب الدين أحمد بن محمد الهيتمى ٩٠٩ - ٩٧٣ هـ :
(٥٥) : الفتاوى الحديثية ط ١٣٢٩ هـ .
(٥٦) : قصة سيدنا يوسف عليه السلام/تيمورية تاريخ ٢٣٢٢
* الحريفيش : أبو مدين شعيب بن عبد الله ت ٨٠١ هـ :
(٥٧) : قصص الأنبياء والمرسلين / خ . ز / تاريخ ١٣٥٥
* ابن حزم : الإمام الظاهرى على بن حزم ٣٨٤ - ٤٥٦ هـ :
(٥٨) : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ط ١٣٨٤ هـ .
* الحكيم الترمذى : محمد بن على ت حوالى ٣٢٠ هـ :
(٥٩) : منازل العباد من العبادة / فوتوستات / د / ب ٢١٨١٦
(٦٠) : نوادر الأصول ط اسطنبول ١٢٩٣ هـ .
* ابن حماد : أبو بكر محمد بن حماد البغدادى ت ٢٦٧هـ :
(٦١) : قصة يوسف عليه السلام / خ تيمورية / تاريخ ٨٤٣
* حمزة الأصفهانى : حمزة بن الحسن ٢٧٠ - ٣٦٠ هـ :
(٦٢) : تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ط برلين ١٣٤٠هـ .
* ابن حنبل : الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى ت ٢٤١هـ :
(٦٣) : المسند : تحقيق العلامة أحمد شاكر ط١٣٦٧هـ ومابعدها.
* أبو حيان : أثير الدين محمد بن يوسف ٦٥٤ — ٧٤٥ هـ :
(٦٤) : البحر المحيط ط سعادة١٣٢٦هـ وطبع أوفست بالرياض.
* الخازن : على بن محمد الشيخى ت ٧٤١ هـ :
(٦٥) : لباب التأويل فى معانى التنزيل ط ١٣٢٨ هـ .
* الخطيب : محمد بن عبد الله الإسكافى ت ٤٢٠ هـ :
(٦٦) : درة التنزيل وغرة التأويل ط بيروت ١٣٩٣هـ .
* الخطيب : الحافظ أبو بكر أحمد بن على البغدادى ت ٤٦٣ هـ :
(٦٧) : تاريخ بغداد ط ١٣٤٩ هـ .
* الخفاجى : شهاب الدين أحمد بن محمد ٩٧٧ — ١٠٦٩ هـ .

(٦٨) : عناية القاضى [حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى] بولاق ١٢٨٣ هـ.

(٦٩) : نسيم الرياض (شرح الشفا للقاضى عياض المتوفى ٥٤٤ هـ) ط ١٣٢٥ هـ.

* الدانى : أبو عمرو عثمان بن سعيد ٣٧١ — ٤٤٤ هـ :

(٧٠) : البيان فى عد آى القرآن . خ . ز . علوم القرآن/م٣٥٦

* الداودى : محمد بن على بن أحمد ت ٩٤٥ هـ :

(٧١) : طبقات المفسرين (ثلاثة أجزاء) ط ١٣٩٢ هـ.

* دروزه : محمد عزه :

(٧٢) : تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم .

(٧٣) : تاريخ الجنس العربى ط بيروت ١٣٧٩ هـ.

(٧٤) : القرآن واليهود ط ١٢٦٨ هـ.

* ابن دريد : محمد بن الحسن الأزدى المصرى ت ٣٢١ هـ :

(٧٥) : جمهرة اللغة ط الهند ١٣٤٥ هـ.

* الدقفى : أبو الفتح بن أبى الحسن السامرى (النصف الثانى ق ٨) :

(٧٦) : تاريخ بنى إسرائيل وأنبيائهم وملوكهم ط جوتا ١٨٦٥م.

* دنانة : مستشار طه محمد :

(٧٧) : الموجز البسيط فى شرح قانون العقوبات.

* ابن الديبع : عبد الرحمن بن على الزبيدى الشيبانى ت ٩٥٠ هـ :

(٧٨) : تيسير الوصول إلى جامع الأصول (الأصل للحافظ ابن الأثير الجزرى ت ٦٠٦ هـ) .

* الدينورى : أحمد بن داود الدينورى ت ٢٨٢ هـ :

(٧٩) : الأخبار الطوال — الأول — ط ١٣٨٠ هـ.

* الرازى : زين الدين محمد بن أبى بكر : كان موجودا ٦٦١ هـ :

(٨٠) : أسئلة وأجوبة من غرائب آى التنزيل ط ١٣٠٦ هـ.

* الرازى : فخر الدين محمد بن عمر التيمى البكرى ت ٦٠٦ هـ :

(٨١) : تفسير الرازى (مفاتيح الغيب) ط ١٢٨٩ هـ .

(٨٢) : عصمة الأنبياء ط ١٣٥٥ هـ .

* الراغب الأصفهانى : الحسن بن محمد ت ٥٠٢ هـ :

(٨٣) : مفردات ألفاظ القرآن ط ١٣٢٤ هـ .

(٨٤) : مقدمة التفسير .

* رحمة الله الهندى : رحمة الله بن خليل الرحمن الدهلوى ت ١٣٠٦ هـ :

(٨٥) : إظهار الحق — جزءان — ط الهند ثم المغرب سنة ١٣٨٤هـ .

* رشيد رضا : السيد محمد رشيد ت ١٣٥٤ هـ :

(٨٦) : تفسير المنار ط ١٣٧٢ هـ .

* رمزى : محمد بن عثمان المنصورى ١٢٨٢ — ١٣٦٤ هـ :

(٨٧) : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ط : ١٣٧٣ هـ .

* الزبيدى : أبو الفيض محمد مرتضى ت ١٢٠٥ هـ :

(٨٨) : تاج العروس ط بيروت ١٢٨٦ هـ .

* الزبير : أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الغرناطى ت ٧٠٨هـ :

(٨٩) : ملاك التأويل خ / دار الكتب / مجاميع / ٥٧

* الزجاج : إبراهيم بن السرى بن سهل ٢٤١—٣١١ هـ :

(٩٠) : معانى القرآن وإعرابه ط ١٣٩٤ هـ .

* الزمخشرى : المفسر المعتزلى جار الله محمود بن عمر ت ٥٣٨ هـ :

(٩١) : أساس البلاغة ط بيروت ١٣٨٥ هـ .

(٩٢) : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ط ١٣٠٨ هـ .

* أبو زهرة : محمد أبو زهرة :

(٩٣) : تاريخ المذاهب الإسلامية جزءان .

* السجستانى : أبو بكر محمد بن عبد العزيز ت ٣٣٠ هـ :

(٩٤) : نزهة القلوب فى تفسير غريب القرآن ط سعادة/١٣٢٥هـ .

☆ سروری : مصلح الدين مصطفى بن شعبان الرومى ت ٩٦٩ ﻫ :

(٩٥) : تفسير سورة يوسف عليه السلام خ / د .

☆ أبو السعود : محمد بن محمد العمادى ٨٩٨—٩٨٢ ﻫ :

(٩٦) : أرشاد العقل السليم (هامش تفسير الرازى) .

☆ سليم حسن : مؤرخ مصر القديمة :

(٩٧) : مصر القديمة الأجزاء ٤ : ٧ ط د : ١٩٤٨ وما بعدها .

☆ السمعانى : منصور بن محمد المروزى ت ٤٨٩ ﻫ :

(٩٨) : تفسير القرآن الكريم / خ / د / تفسير / ١٣٦

☆ السمين : أحمد بن يوسف بن محمد الشافعى الحلبى :

(٩٩) : الدر المصون فى علم الكتاب المكنون / خ/د/ تفسير١٠٧

☆ السهروردى : عمر بن محمد البكرى الشافعى ٥٣٩—٦٣٢ ﻫ :

(١٠٠) : عوارف المعارف ط ١٢٩٤ ﻫ .

☆ ابن سلام : يحيى بن سلام التميمى البصرى ١٢٤—٢٠٠ ﻫ :

(١٠١) : تفسير ابن سلام تصوير / د / ب ٢٤٧٩٢

☆ سيد قطب : الشهيد : ١٣٨٥ ﻫ :

(١٠٢) : فى ظلال القرآن بيروت ١٣٨٦ ﻫ .

☆ ابن سيده : على بن إسماعيل الأندلسى ت ٤٥٨ ﻫ :

(١٠٣) : المخصص ، بيروت / أوفست .

☆ السيوطى : الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر ٨٤٩-٩١١ﻫ :

(١٠٤) : تحذير الخواص من أكاذيب القصاص .

(١٠٥) : تناسق الدرر فى تناسب السور .

(١٠٦) : تنزيه الأنبياء .

(١٠٧) : الجامع الصغير ط بولاق ١٢٨٦ ﻫ .

(١٠٨) : الجامع الكبير (تحقيق ونشر مجمع البحوث الإسلامية) .

(١٠٩) : حسن المحاضرة ط حجر ١٨٦٠ م .

(١١٠) : الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ط ١٣١٤ وغيرها .

(١١١) : دفع التعسف فى إخوة يوسف ط الهند ضمن مجموعة .
(١١٢) : طبقات المفسرين ط ١٣٩٦ هـ .
(١١٣) : القول الفصيح فى تعيين الذبيح / خط / مجامع / د .
(١١٤، ١١٥) : لباب النقول فى أسباب النزول ط : ١٣١٦ هـ / المزهر فى علوم اللغة ط ١٢٧٨ هـ .

* الشاطبي : إبراهيم بن موسى الغرناطى ت ٧٩٠ هـ :
(١١٦) : الموافقات فى أصول الأحكام ط ١٣٤١هـ .

* الشربينى : محمد الخطيب ت ٩٧٧ هـ :
(١١٧) : السراج المنير (فى التفسير) د .

* الشريف الرضى : محمد بن الحسين نقيب الطالبين ببغداد ت ٤٠٦ هـ :
(١١٨) : تلخيص البيان فى مجازات القرآن ط ١٣٧٥ هـ .

* الشريف المرتضى : النقيب على بن الحسين بن موسى ٣٥٥-٤٣٦ هـ :
(١١٩) : الأمالى فى التفسير والحديث والأدب ط ١٠٢٥ هـ .

* الشعرانى : عبد الوهاب بن أحمد بن على ت ٩٧٣ هـ :
(١٢٠، ١٢١) : الأنوار القدسية ط ١٣٥٥هـ/الجواهر والدرر ط ١٣١٧هـ .

* الشهرستانى : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨ هـ :
(١٢٢، ١٢٣) : الملل والنحل ط ١٣٦٦ د/ نهاية الأقدام تحقيق الفرد جيوم .

* الشوكانى : محمد بن على الصنعانى ١١٧٢ — ١٢٥٠ هـ :
(١٢٤) : فتح القدير ط ١٣٥١ هـ .

* الصابونى : محمد بن أحمد بن محمد :
(١٢٥) : عظمة الأنبياء خ . د . تاريخ ١٣٤

* الصاوى : أحمد بن محمد المالكى ت ١٢٤١ هـ :
(١٢٦) : حاشية الصاوى على الجلالين .

* الصغانى : محمد بن الحسن ت ٦٥٠ هـ :
(١٢٧) : التكملة والذيل والصلة (لكتاب تاج اللغة) ١٩٧٠/١٩٧٤

* ابن الصلاح : عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري ت ٦٤٣ هـ :
(١٢٨) : فتاوى ابن الصلاح ط ١١٢٨ هـ .

* ابن طاهر : مطهر بن طاهر المقدسي ت ٥٥٠ هـ :
(١٢٩) : البدء والتاريخ ط باريس ١٨٩٩ — ١٩١٩ م .

* طبارة : عفيف الدين عبد الفتاح طبارة :
(١٣٠، ١٣١) : مع الأنبياء في القرآن الكريم ط . سادسة / اليهود في القرآن ط . خامسة .

* طنطاوي : محمد سيد طنطاوي :
(١٣٢) : بنو إسرائيل في القرآن والسنة ٢ ج : بغداد ١٣٨٨ هـ .

* الطوفي : نجم الدين الطوفي الحنبلي ٦٥٧ : ٧١٦ هـ :
(١٣٣) : الاكسير في علم التفسير . ط .

* ابن طولون : شمس الدين محمد بن علي ٨٨٠ — ٩٥٣ هـ :
(١٠٥، ١٣٦) : عرف الند في بيان من تكلم في المهد / العون على ترجمة فرعون خ / د .

* ابن طولون : محمد بن يوسف بن علي ت ٩٤٢ هـ :
(١٣٦) : ميمون التصريح بمضمون الذبيح خ تيمورية مجاميع ٢٠٣

* ابن ظفر : محمد بن عبد الله المكي الصقلي ت ٥٦٥ هـ :
(١٣٧) : ينبوع الحياة (تفسير) خ . د . تفسير ٣١٠

* ابن عبد البر : أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري ت ٤٦٣ هـ :
(١٣٨) : جامع بيان العلم وفضله / ط منير الدمشقي .

* عبد الجليل : عبد الجليل عيسى :
(١٣٩) : تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم ط بدون .

* ابن عبد الحكم : مؤرخ مصر عبد الرحمن بن عبد الله ت ٢٥٧ هـ :
(١٤٠) : فتوح مصر ط المعهد الفرنسي ١٩١٤ وليدن ١٩٢٠

* عبد الرزاق : الحافظ عبد الرزاق بن همام الصنعانى ت ٢١١ هـ :
(١٤١،١٤٢) : التفسير خ. د. تفسير٧٠٦/الجامع . ط الهند/١١مجلدا.
* ابن عبدالسلام : أبو محمد بن عبد السلام المسراتى :
(١٤٣) : الزهر الأنيق فى قصة يوسف الصديق/معهد المخطوطات(١).
* عبد القاهر : عبد القاهر بن طاهر ت ٤٢٩ هـ :
(١٤٤) : أصول الدين : الآستانة ١٣٤٦ هـ .
* عبد الكريم : عبد الكريم الخطيب :
(١٤٥،١٤٦) : التفسير القرآنى للقرآن/قصتا آدم ويوسف عليهما السلام.
(١٤٧) : القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه ط ١٣٨٤ هـ .
* أبو عبيد : القاسم بن سلام ت ٢٢٤ هـ :
(١٤٨) : فضائل القرآن . خ . تيمورية ، حديث ١٨٨
* أبو عبيد : أحمد بن محمد الهروى ت ٤٠١ هـ :
(١٤٩) : كتاب الغريبين جزءان ط ١٢٩٠ هـ .
* عبيد : رؤوف عبيد :
(١٥٠) : مبادىء الإجراءات الجنائية فى القانون المصرى ١٩٧٦م .
* ابن العربى : القاضى أبو بكر محمد بن عبد الله ٥٤٣ هـ :
(١٥١) : أحكام القرآن : ط ١٣٧٧ هـ .
* ابن العربى : محي الدين بن العربى الحاتمى ت ٦٣٨ هـ :
(١٥٢،١٥٣) : الفتوحات المكية . ط بولاق ١٢٧٤هـ / فصوص الحكم: ط ١٣٢١
(١٥٤) : محاضرة الأبرار ط سعادة ١٣٢٤ هـ .
* ابن عطية : عبد الحق بن غالب الأندلسى ت ٥٤٦ هـ :
(١٥٥) : المحرر الوجيز (تفسير) خ . د . / ز .
* العقاد : عباس محمود العقاد ١٨٨٠ — ١٩٦٤ م :
(١٥٦) : أبو الأنبياء الخليل إبراهيم عليه السلام عدة طبعات .

(١) هناك نسخة فى التيمورية تاريخ ٢٦٣٤ منسوبة لابن الجوزى .

☆ العكبرى : أبو البقاء عبد الله بن الحسين ت ٦١٦ ﻫ :
(١٥٧) : املاء[1] مامن به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات في جميع القرآن ٢ ج : ط ١٣٠٥ ﻫ .
☆ راشد :
(١٥٨) : القانون الجنائي الخاص ط ٩٧٢
☆ على مبارك : على مبارك بن سليمان السروجى ١٢٣٩ - ١٣١١ ﻫ :
(١٥٩) : الخطط التوفيقية ط بولاق ١٣٠٦ﻫ .
☆ على العنانى :
(١٦٠) : الأساس فى الأمم السامية ولغاتها .
☆ العينى : بدر الدين محمود بن أحمد ت ٨٥٥ ﻫ :
(١٦١) : عمدة القارى «شرح صحيح البخارى» ط .
☆ الغزالى : أبو حامد محمد بن محمد ت ٥٠٥ :
(١٦٢، ١٦٣) : إحياء علوم الدين/الاقتصاد فى الاعتقاد: عدة طبعات.
☆ ابن فارس : أبو الحسن أحمد بن فارس القزوينى ت ٣٩٥ ﻫ :
(١٦٤) : معجم مقاييس اللغة . ستة مجلدات ط ١٣٦٦ ﻫ .
☆ الفارسى : أبو على الحسن بن أحمد ٢٨٨ - ٣٧٦ ﻫ .
(١٦٥) : الحجة فى علل القراءات السبعة (تصوير) وبدأ تحقيقه سنة ١٣٨٥ﻫ .
☆ أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل بن على ٦٧٢ — ٧٣٢ ﻫ :
(١٦٦) : المختصر فى أخبار البشر ط ١٣١٥ ﻫ .
☆ الفراء : أبو زكريا يحي بن زياد ت ٢٠٧ ﻫ .
(١٦٧) : معانى القرآن — نشر الدار المصرية للتأليف .
☆ فؤاد : فؤاد حسنين على :
(١٦٨، ١٦٩) : إسرائيل عبر التاريخ/ من الأدب العبرى ط ١٣٨٣ﻫ .

---

(١) صحة الاسم (التبيان فى إعراب القرآن) .

* الفيروزابادي : مجد الدين محمد بن يعقوب ٧٢٩–٨١٧ هـ :
(١٧٠) : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٥ مجلدات ٨٤ / ١٣٨٥ هـ .
(١٧١) : تنوير المقياس من تفسير ابن عباس ط . القاهرة والهند .
* القاسمي : محمد جمال الدين ١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ :
(١٧٢) : محاسن التأويل ط ١٣٧٧ هـ .
* القاضي عبد الجبار : عبد الجبار بن أحمد الهمداني ٣٢٥ : ٤١٥ هـ :
(١٧٣) : اعجاز القرآن (السادس عشر من كتابه المغني) ط ١٣٨٠ هـ .
(١٧٤) : تثبيت دلائل النبوة . بيروت : ١٠٨٦ هـ .
(١٧٥) : متشابه القرآن ط ١٣٨٩ هـ .
* القاضي عياض : عياض بن موسى اليحصبي ٤٧٩ : ٥٤٤ هـ :
(١٧٦، ١٧٧، ١٧٨) : الالماع في ضبط الرواية وتقييد السماع / الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم / مشارق الأنوار على صحاح الآثار .
* ابن قتيبة : عبد الله بن مسلم الدينوري ٢١٢ : ٢٧٦ هـ :
(١٧٩) : تأويل مشكل القرآن — ط الحلبي بدون .
* القرطبي : محمد بن أحمد الأنصاري ت ٦٧١ هـ :
(١٨٠) : الجامع لأحكام القرآن — ط دار الكتب .
* القسطلاني : أحمد بن محمد ٨٥١ — ٩٢٣ هـ :
(١٨١) : لطائف الإشارات لفنون القراءات ط ١٣٩٢ هـ .
* القشيري : عبد الكريم بن هوازن ٣٧٦ : ٤٦٥ هـ :
(١٨٢) : لطائف الإشارات (في التفسير) ط ١٣٩٠ هـ .
* القطان : عبد الكريم بن عبد الصمد ت ٤٧٨ هـ :
(١٨٣) : عيون المسائل في التفسير . خ / د / تفسير ١٦١ .
* القمي : نظام الدين الحسن بن محمد ت ٧٢٨ هـ .
(١٨٤) : غرائب القرآن (هامش تفسير ابن جرير) .

* القنوجى : صديق بن حسن البخارى ١٢٤٨ — ١٣٠٧ هـ :
(١٨٥) : فتح البيان فى مقاصد القرآن — بولاق ١٣٠١ هـ .
* ابن القيم : شمس الدين محمد بن أبى بكر ٦٩١ — ٧٥١ هـ :
(١٨٦) : أعلام الموقعين عن رب العالمين ط ١٢٧٥ هـ .
(١٨٧) : إغاثة اللهفان ط ١٢٩١ هـ .
(١٨٨، ١٨٩) : بدائع الفوائد ٤ أجزاء / التفسير القيم ط ١٩٦٨ هـ
(١٩، ١٩١) : الجواب الكافى ط ١٢٦٧ / روضة المحبين ط ١٣٤٩ هـ .
(١٩٢) : الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ط ١٣٨٠ هـ .
(١٩٣) : كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ط ١٣٢٧هـ .
(١٩٤) : مدارج السالكين ٣ أجزاء .
* ابن كثير : عماد الدين إسماعيل بن عمر ٧٠١ — ٧٧٤ هـ :
(١٩٥، ١٩٦) : البداية والنهاية ط ١٢٥١ هـ / تفسير ابن كثير ط : ١٣٤٣ — ١٤٠٧ هـ .
(١٩٧) : فضائل القرآن ط ١٣٤٧هـ .
* كحيل : عبد الحميد كحيل داود :
(١٩٨) : يوسف عليه السلام ط ١٢٧٧ هـ .
* الكرمانى : محمود بن حمزه بن نصر ت ق ٦ هـ / النصف الأول :
(١٩٩) : البرهان فى متشابه القرآن : وقد قمنا بتحقيقه .
(٢٠٠) : غرائب التفسير خط / طلعت / تفسير ٤٩٢
(٢٠١) : لباب التفاسير (يقوم بتحقيقه الآن أحد طلاب الدراسات العليا بجامعة الإمام محمد بن سعود للحصول على درجة الدكتوراه) .
* الكسائى : محمد بن عبد الله الكسائى :
(٢٠٢) : قصص الأنبياء خ . د . تاريخ ٨٥٤
* الكمال الأنبارى : كمال الدين عبد الرحمن بن محمد ت ٥٧٧ هـ :
(٢٠٣) : البيان فى غريب إعراب القرآن / الثانى / ط ١٢٩٠هـ .

* الكوثرى : محمد زاهد الكوثرى :
(٢٠٤) : تأنيب الخطيب ط ١٣٦١ هـ .
* الماتريدى : أبو منصور محمد بن محمد ت ٣٣٣ هـ :
(٢٠٥) : تأويلات أهل السنة خ / تفسير ٨٧٣[1] .
* محمد البهى : محمد البهى المالكى ت ١٢٦٠ هـ :
(٢٠٦) : تفسير الآيات الموهمة للنقص فى حق الأنبياء / خ تيمور .
* ابن مخلوف : عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبى ت ٨٧٥ هـ :
(٢٠٧) : الجواهر الحسان فى تفسير القرآن . الجزائر ١٣٢٥ هـ .
* مخلوف : سماحة الشيخ حسنين محمد حسنين العدوى :
(٢٠٨) : صفوة البيان لمعانى القرآن ط ١٣٧٥ هـ .
* المزى : الحافظ أبو الحجاج :
(٢٠٩) : تهذيب الكمال فى أسماء الرجال / ١٢ مجلدا .
* المسعودى : على بن الحسين بن على ت ٣٤٦ هـ :
(٢١٠) : مروج الذهب / بغداد : ١٣٥٧ هـ .
* مسلم : الإمام مسلم بن الحجاج القشيرى ت ٢٦١ هـ :
(٢١١) : صحيح مسلم .
* ابن مطرف : أبو عبد الله بن مطرف الكنانى :
(٢١٢) : قصص الأنبياء / ميكروفيلم .
* معين الدين : محمد بن عبد الرحمن الأيجى الصفوى ت ٩٠٥ هـ :
(٢١٣) : جامع البيان المبين لمعانى القرآن . دهلى ١٢٩٦ هـ .
* مقاتل : مقاتل بن سليمان البلخى ت ١٥٠ هـ :
(٢١٤) : تفسير القرآن . الأول .
* المقريزى : تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ :
(٢١٥) : الخبر عن البشر تصوير . تاريخ ٩٤٧ (الأول) .

---

(١) شرع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى تحقيقه ابتداء من ١٣٩١هـ .

(٢١٦) : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ط ١٢٧٠هـ.

* ابن مكتوم : أحمد بن عبد القادر القيسى ٦٨٢ — ٧٤٩ هـ :

(٢١٧) : الدر اللقيط من البحر المحيط ط ١٣٢٦ هـ .

* مكى : مكى بن أبى طالب حموش القيسى ٣٥٥ : ٤٣٧ هـ :

(٢١٨) : مشكل إعراب القرآن[1] ٣ ج ١٣٨٣ هـ: ١٣٨٥ هـ .

* ابن منبه : وهب بن منبه الصنعانى ٣٠ : ١١٤ هـ :

(٢١٩) : التيجان لمعرفة ملوك الزمان ط الهند ١٣٣٧ هـ .

* ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقى ت ٧١١ هـ :

(٢٢٠) : لسان العرب — بيروت ١٣٧٤ هـ .

* المهايمى : على بن أحمد بن على الكوكنى الهندى ت ٨٣٥ هـ :

(٢٢١) : تبصير الرحمن ببعض مايشير إلى إعجاز القرآن ط :١٢٩٥هـ .

* النابلسى : عبد الغنى بن إسماعيل ت ١١٤٣ هـ .

(٢٢٢) : تعطير الأنام فى تعبير المنام ط بدون .

(٢٢٣) : ذخائر المواريث فى الدلالة على مواضع الحديث ط ١٣٠٢هـ.

(٢٢٤) : شرح فصوص الحكم .

* النجار : عبد الوهاب النجار ١٢٧٨ : ١٣٦٠ هـ :

(٢٢٥) : قصص الأنبياء ط ١٢٥١ هـ .

* الندوى : أبو الحسن على الندوى الحسنى :

(٢٢٦) : النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن ط جده .

* النسفى : أبو البركات عبد الله بن أحمد ت ٧٠١ هـ :

(٢٢٧) : مدارك التنزيل وحقائق التأويل ط ١٣٠٦ وغيرها .

* أبو نعيم : الحافظ أحمد بن عبد الله ت ٤٣٠ هـ :

(٢٢٨) : حلية الأولياء ط سعادة ١٣٥١ هـ .

---

(١) تنسب خطأ إلى الزجاج .

* نفره : التهامى نفره الجزائرى :
(٢٢٩) : سيكولوجية القصة فى القرآن / تونس ١٣٧٠هـ .
* النووى : أبو زكريا محيى الدين بن شرف ت ٦٧٦ هـ :
(٢٣٠) : تهذيب الأسماء واللغات / ط المنيرية .
* ابن الهمام : الكمال بن الهمام الحنفى ت ٦٨١ هـ :
(٢٣١) : المسايرة فى العقائد المنجية فى الآخرة ط ١٣٤٧ هـ .
* الهيثمى : الحافظ نور الدين على بن أبى بكر ت ٨٠٧ هـ :
(٢٣٢) : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ط القدسى ١٢٥٣ هـ .
* الواحدى : على بن أحمد : ت ٤٦٨ هـ :
(٢٣٣) : أسباب نزول القرآن ط ١١٣٥هـ .
(٢٣٤) : الوجيز فى التفسير . خ . د .
* الوزير اليمانى : محمد بن إبراهيم ت ٨٤٠ هـ :
(٢٣٥) : قواعد التفسير .
* يعقوب : يعقوب بن مصطفى القسطنطينى ت ١١٤٩ هـ :
(٢٣٦) : نتيجة التفاسير (تفسير سورة يوسف) ط الآستانه ١٢٦٦ هـ .
* اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب ت ٢٨٢ هـ :
(٢٣٧) : تاريخ اليعقوبى الأول . ط ليدن ١٨٨٣ م .

3. Foreign References

A. Special Works

1. Albright, W.F., : The Archaeology of Palestine, Peng. Books, 1961
2. Bowman, Ar. A., : Studies in the Philosophy of Religion, 2 vols, Lond., 1938.
3. Breasted, J. H., : Ancient Records of Egypt, 5 vols., Chicago, 1906 : 1907.
4. ______ : Ancient Times : A History of the Early World, Boston, 1916.
5. ______ : A History of Ancient Egypt.
6. Budge, E. A. W., : The Book of the Kings of Egypt, vol. I, : Dynasties from I to XIX, Lond., K. Paul, 1908.
7. Burney, C. E., : Israel's Settlement in Canaan : The Biblical Tradition and Its Historical Background, Lon., 1921.
8. Bury, J. B., : Sources of the Early Patrician Documents, Lond., 1904.
9. Cook, St. A., : Critical Notes on Old Testament History.
10. ______ : The Religion of Ancient Palestine in the Light of Archae-ology, Lond., 1930.
11. Coser, L. A & Rosenberg, B., eds., : — : Sociology Theory, a Book of Readings, Macmillan, 1964.
12. Danell, G. A., : Studies in the Name "Israel" in the Old Testament, Upsala, 1946
13. Daniel-Rops : A History of Israelites from the Time of Abraham to the Birth of Christ, Lond., 1949.
14. Deane, W. J., : David (in Men of the Bible Series) 1889.
15. De Vaux, R P R. : Le Palestine et la Transjordanie au II ieme Millinaire et les Origines Israelites, 1938.
16. Erman, Ad., Die Religion der Aegypter, Berlin, 1934. Trad. Franc. par Charles Vidal.
17. Far[illegible] M., Les Juifs en Egypte depuis les Origines Jusqu'a ce Jour le Caire, 1938.
18. Finegan, J., : The Archaeology of World Religions, Princeton Univ. Pr., 1952.
19. ______ : Light from the Ancient Past : Archaeological Background of the Hebrew Christian Religions, Princeton Univ. Pr., 1949.
19. Frazer J., : Folklore in the Old Testament, vol. II, Lond, 1918
21. Gardine, Sir Alan : Egypt of the Pharaohs, Oxf. Claren. Pr., 1961.
22. Garraud, R., : Traité Theorique et Pratique de droit Pénal Francais, Paris : 1898 : 1902.
23. Ginzberg, L., : Legends of the Jews, 7 vols, Philadelphia, 1938
24. Goldschmidt, L., Der Babyloniche Talmud, 9 vols.
25. Golub, Jacob S., : Israel in Canaan, Cincinnati : Union of American Hebrew Congregations, 1930.
26. Good Speed, Ed. J., : The Study of the Old Testament, Univ. of Chicago Pr., 1937.

27 Gordon, C H : The Story of Jacob and Laban in the Light of the Nuzi Tablets, 1937.

28 Graetz, Heinrich : History of the Jews, 6 vols., Philadelphia, J.P.S., 1891-98.

29- Hall R. H., : The Ancient History of the Near East, 10th ed., Lond., 1947.

30- Hayes, W.C., : The Hyksos Period and the New Kingdom [1675-1080 B.C.] Part II in the Scepter of Egypt, Harv. Univ. Pr., 1959.

31- Jermias, Alfred : The Old Testament in the Light of the Ancient East, N.Y., 1911.

32- Jordan, W. G., : Ancient Hebrew Stories and Their Interpretation, Lond., 1922.

33- Josephus, Flavius : Oeuvres Completes Traduites en Francais, Paris, 1900. English Trans. under the Title [Opera Omnia]. Trans. by H. St Thackerry in 8 vols. vol 4: Jewish Antiquities, Lond & NY., 1926-1930.

34- Kenyon, Sir Fredric : The Bible and Archaeology, Lond., 1940.

35- Kenyon, K, : Archaeology in the Holy Land, Lond., 1960.

36- King, L.W., : Legends of Babylon and Egypt in Relation to Hebre Tradition, Lond, British Academy, 1918.

37- King & Hall, : Egypt and Vestern Asia in the Light of Recent Discoveries.

38- Kittel, Rudolf : Geschichte des Volkes Israels, Eng. Trans. by Taylorander The Title [History of the Hebrews], 1895-96.

39. ______________: The Scientific Study of the Old Testament, Trans. from German by J. Galeb Hughes, N.Y., 1910.

40- Lods, Adolphe : Histoire de la Litterature Hebraique et Juive depuis les Origines Jusqu'a la Ruine de l'Etat Juif 135 A.D., Paris, 1950.

41. ______________: Israel from Its Beginning to the Middle of 8th Century, Trans. by S.H. Hooke, Lond., K. Paul, 1932.

42- ______________ The Prophets and the Rise of Judaism, Trans by S.H. Hooke, Lond., K. Paul, 1937.

43. Lyon, Q. M., : The Great Religions, NY., 1937

44- Mann, Thoma : Joseph the Provider and His Brethern, Trans from German by H.T. Lowe-Porter in 5 vols. Lond., Seckner, 1938.

45- ______________: Joseph in Egypt, Translated from German by Lowe-Porter.

46- Maspero, G., Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient, Paris, 1904

47. Mendelsohn, Isaac . Religions of the Ancient Near East, N.Y., 1955.

48. Myer, Edward · Geschichte der Altertums, Stuttgart, 1925. Trad. Franc. Par Maxime David Sous le Titre [Histoire de l'Antiquite, P. 1912

49- Montet, Ed. : Histoire du peuple d'Israel depuis les Origines Jusqu'a l'an 70 A.D, Paris, Payot, 1926.

50. Moore, G. F., : History of Religions, 2 vols., N.Y., Scribner's Sons, 1937.

51- Morton, G. H., : Women of the Bible N.Y., 1945.

52 Mourant, J.A., ed, : Readings in the Philosophy of Religion, N.Y., 1954.

53. Munk, S., : Palestine, Description Geographique, Historique et Archeologique, Paris, 1846.

54. Naville, Ed., : Archeology of the Old Testament, 1913

55. ———— : The Storecity of Pithom and the Route of the Exodus, Lond., Kegan-Paul, 1903.

56. Neufeld, E., : Ancient Hebrew Marriage Laws, Lond., 1944.

57. Oesterley, W.O.E & Robinson, T. H., : Hebrew Religion: Its Origin and Development, Lond., 1937.

58. ———— : The History of Israel From Exodus to the Fall of Jerusalem 586 B.C., Oxf. Clar. Pr., 1934

59. Petrie, W.M.F., : A History of Ancient Egypt to the Ptolemies, 10th ed., 3 vols., Lond.

60. ———— : Hyksos and Israelite Cities, Lond., 1906.

61. ———— : Palestine and Israel: Historical Notes, Lond., 1934

62. Pirenne, Jacques : Histoire de la Civilization de l'Egypte Ancienne de la Fin de l'Ancien Empire à la fin du Nouvel Empire 2200 - 1?, Av. J.C., Suisse, 1962.

63. Radha Krishnan, S., : Religion and Society, Lond., 1947.

64. Rawlinson, G., : Ancient Egypt, Lond., 6th ed.

65. Renan, Ernest : Histoire du peuple d'Israel, 5 vols., Paris, 1926-28.

66. Ricciotti, G., : Histoire d'Israel, 2 Toms, Tom I. Des Origines à l'Exil, Paris, 1947, Trad. Franc Par Paul Auvary.

67. Robinson Wheeler : Inspiration and Revelation in the Old Testament, Oxf., 1946

68. Robinson, Ed, : Biblical Researches in Palestine, 3 vols., 1841.

69. Rowley, H. H., : From Joseph to Joshua, Oxf. Univ. Pr., 1951

70. ————, ed., : The Old Testament and Modern Study, Oxf. Univ. Pr., 1951.

71. Sayce, Archibald H., : Fresh Light From the Ancient Monuments. Egypt, Palestine, Assyria and Babylonia, Lond., 1890.

72. ———— : The Higher Criticism and the Monuments, 1915.

73. ———— : The Religion of Ancient Egypt and Babylonia.

74. Schultz, Hermann, : Alttestamentliche Theologie, Francfort, 1878 Engl. Trans by Paterson under the Title [Old Testament Theology].

75. Sharpe, Samuel, : History of Egypt from the Earliest Times till the Conquest of the Arabs, vol I, Lond., 1859

76. Smith, G. A., : The Historical Geography of the Holy Land, Lond., 1894.

77. Stanley, A. P., : Sinai and Palestine in Connection with Their History, Lond., 1912.

78. Tomkins : Studies on the Times of Abraham

79. Toynbee, Ar J., : A Study of History XII vols., 1961

80. Tristam, H. B., : The Natural History of The Bible, Lond., 1898

81. Weber, Max, : Ancient Judaism, Trans from German by Gerth and Martin —

-date, Glencoe, Free Pr, 1952

82. ——————— : Sociology of Religion; Engl Trans by Ephraim Fischoff, lond, 1963.

83. Wolf, Lucien, : Essays in Jewish History, 1934

84. Woolley, Sir Leonard, : Abraham, Lond., Fab & Fab, 1936

85. ——————— : Excavations at Ur, lond & N.Y., 1963

86. ——————— : Recent Discoveries and Hebrew Origines, Lond, 1935.

B: General Works.

1- History

87. Cambridge Ancient History [vol II : the Egyptian and Hittite Empires to 1000 B.C] Camb. Univ. Pr. 1923-1939

88. Histoire Generale des Civilisations, Publ Sous la Direction de Maurice Crouzet, tome I, Paris, 1963

89. histoire Generale des Religions, sous la Direction de Maxim Gorce et Raoul Mortier, vol III, Paris, 1968

90. Historians' History of the World.

2. Dictionaries

91. Concise Dictionary of Judaism, lond., 1952.

92. A Dictionary of the Bible, ed by James Hastings, lond & N.Y, vols 1 & 2, 1905.

93. Dictionnaire de la Bible, ed avec Vigouroux, F, 5 vols 1895-1912.

94. A Popular Dictionary of Judaism, ed by Schonfield, Hugh J.,

3 Encyclopaedias

95. The Concise Encyclopaedia of Living Faiths, ed by Zachner, lond, Hutchinson, 1959.

96. Encyclopaedia Biblica, ed by Rev T.K. Cheyne and J. Sutherland Black, lond., Adam & Black.

97. Encyclopaedia Britannica.

98. Encyclopedie Francaise

99. Encyclopaedia of Islam

100. Encyclopaedia of Religion and Ethics, ed by James Hastings, N.Y., Ch Scribner, 1918

101. Encyclopaedia of the Social Sciences, N.Y., 1955.

102. The Jewish Encyclopaedia, 12 vols, N.Y., 1901-1906.

103. Oxford Junior Encyclopaedia, vol. I, : Great Lives.

104. The Universal Jewish Encyclopaedia, 1904.

أبواب الكتاب وفصوله

رقم الإيداع ٣٢٠٦ / ١٩٨٣